منهج الكافرين في القرآن

إبراهيم أبو عواد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله رَب العالَمين، والصلاة والسلام على النبيِّ محمد وإخوته الأنبياء الكرام ، وآلِ كُلٍّ، وصحبِ كُلٍّ .

إن هذا الكتاب يُمثِّل محاولةً جادة لاكتشاف صفات الكافرين ، وسَبْر أغوار شخصياتهم ، وتحليل أفكارهم، ومعرفة طريقة تفكيرهم، وتوضيح عقائدهم وأهوائهم، وبيان الأسس التي قامت عليها . وهذا كُلُّه إنما يَرمي إلى أخذ الدروس والعِبَر والمواعظ ، وعدم تَكرار الأخطاء والخطايا . والعاقلُ مَن اتَّعظ بِغَيره ، والجاهل مَن اتَّعظ بنفْسه . والكُفر هو موتٌ روحي للإنسان ، وضياع بلا بوصلة ، وغرق في مستنقع الوهم بلا قرار . والكافر جسد بلا رُوح ، لأن الكفر يسلب الإنسانَ قيمةَ حياته ، وجَدوى وجوده ، وشرعيةَ إنسانيته . وبدون الإيمان ، فإن الإنسان سيتحول إلى وحشٍ قاسٍ هائم على وجهه ، بلا مشاعر ولا أحاسيس ، ولا مسار ، ولا مصير .

يتكوَّن هذا الكتاب من سبعة فصول ، تُشكِّل معًا وَحدةً معرفية متكاملة ، ومنظومةً فكرية مترابطة. يتحدَّث الفصل الأول عن خطورة الشِّرك وانحراف المشركين . فالغايةُ مِن وجود الإنسان على سطح الأرض هو عبادة الله وَحْدَه ، وكُل ما سِوى ذلك يُعتبَر انحرافًا عن المنهج الحق .

وعبادةُ غَير الله تعالى هي الكارثة التي ما بعدها كارثة ، لأنها تؤدي إلى ضياع الدنيا والآخرة . ففي الدنيا ، يفقد الإنسانُ الراحةَ والسعادة والطمأنينة . وفي الآخرة ، ينتظره عذاب شديد في النار ، لا نهاية له . وقد نهى اللهُ عن الشِّرك ، وتوعَّدَ عليه بأشد العذاب، ونَزَّهَ ذاته العَلِيَّةَ عن الشريك والنِّد والصاحبة والولد ، ووضَّح للناس منهجَ التوحيد الصافي بلا شائبة ولا شُبهة ، ولَم يتركهم ضائعين في أفكارهم وهواجسهم ووساوسهم وشُبهاتهم وشهواتهم وأهوائهم . لقد وضَّح اللهُ للناس طريقَ الحق ، وأزالَ الشبهات التي تتلاعب بالعقول ، وقطعَ أعذار الناس ، وأقام عليهم الْحُجَّة . والمشركون_ في كل زمان ومكان_ يتَّبعون أهواءهم ومصالحهم بلا دليل نقلي ، ولا بُرهان عقلي. والفصل الثاني يتحدَّث عن صفات الكافرين السَّيئة ، وتشبيههم بالموتى الذين فقدوا حواسَّهم، فصاروا عاجزين ، لا يَقْدِرون على السمع والكلام ، وصاروا عُميانًا ، لا يَرَوْنَ الطريقَ المستقيم، ولا يُبصِرون منهج الحق. لقد خسروا بصائرهم،وفقدوا القدرةَ على التأمل والتفكير والاستنتاج.

إن الكفر ظُلمات بعضها فوق بعض ، يغرق فيها الكافرون الذي يَفترون على الله الكذبَ ، ويُكذِّبون بآياته ، ويُجادلون فيها بالأهواء والمصالح الشخصية بلا حُجَّة مُعْتَبَرَة . إنهم يُعرِضون عن آيات الله ويَجحدونها ، ولا يتفكرون فيها ، لأن كُفرهم قائم على العناد والاستكبار والتَّعَنُّت والسُّخرية والاستهزاء واستعجال العذاب ، ولا يَقوم على قرار عقلاني منطقي وبُرهان متماسك ، لأن الكفر هو عمل غير منطقي ، ضِد العقل ، وضِد الفِطرة الإنسانية المتوجِّهة إلى الخالق .

والعداوة مُتجذرة في نفوس الكافرين ، وينبغي الحذر منهم ، والتعامل معهم بانتباه ، ومَن لا إيمان له ، لا أمان له . وفلسفةُ الكفر الباطلة تقوم على قاعدة ثابتة ، وهي تخلِّي المتبوعين عن الأتباع، لأن العلاقة بينهما قائمة على تحقيق المصالح الشخصية ، وتبادل المنافع المؤقَّتة ، وغير قائمة على عقيدة ثابتة ، ومشاعر حقيقية . لذلك ، عند أصغر أزمة ، ينهار كل شيء ، ويتفرَّق الجمع . واللهُ تعالى لا يَنفعه الإيمان ، ولا يضرُّه الكفر، لأن عمل العبد يعود عليه وَحْدَه إيجابًا أو سلبًا . ومهما يكن من أمر، فيجب الحذر من مُوالاة الكافرين، ولا يجوز نصرهم بأي شكل. إنهم يَحملون بذرة انهيارهم في داخلهم ، ويسيرون إلى الهاوية السحيقة ، وسوف يندمون يوم لا يَنفع الندم ، ويُلاقون نتيجة عملهم القبيح .

والفصل الثالث يتناول قضية " جزاء المرتدين " الذين ارتدوا عن الإسلام ، واختاروا الكفرَ على الإيمان ، وآثروا مَتَاعَ الدنيا الفاني على نعيم الآخرة الباقي .

والفصل الرابع يستعرض وعيد المفسدين والمجرمين والفاسقين ، والعذاب الذي ينتظرهم . وهُم يلعبون بمصيرهم ضاحكين . ولكن عليهم أن يعرفوا أن مَن يَضحك أخيرًا يضحك كثيرًا .

والفصل الخامس يتحدث عن الكافرين المنكرين ليوم البعث ، ويُناقش حُججهم الواهية ، وينسفها ، ويُوضِّح بالأدلة أن يوم البعث قادمٌ لا مَحالة ، وهو حق واقع ، لا جِدال فيه ولا مِراء .

والفصل السادس يُبيِّن صفات المكذِّبين الظالمين ، وقَسوة قلوبهم الرافضة للحق والحقيقة .

والفصل السابع يتحدَّث عن الجاهلين بالدِّين ، وخطورة الجهل على العقيدة ، ولا شَك أن الجاهلين أعداء أنفسهم ، والناس أعداء ما يَجهلون .

أسأل اللهَ تعالى أن يَجعل هذا الكتابَ خالصًا لوجهه الكريم ، وأن يَرزقني الإخلاصَ في القَول والعمل . إنه وَلِيُّ ذلك ، والقادر عليه . والحمدُ لله رب العالمين .

إبراهيم أبو عواد

الفصل الأول : الشِّرك والمشركون

١ــ عبادة غَير الله تعالى :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما يَنبغي للرَّحمنِ أن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم : ٩٢] .

ما يَلِيق بالله سُبحانَه وتعالى اتخاذ الولد ، ولا يَصْلُح له ذلك ، ولا يُوصَف به، لأن الولد لا يكون إلا عن علاقة جنسية بين الرَّجل والمرأة،وحاجة إلى الشهوة،ورغبة في وجود وريث واستمرار السُّلالة . والولدُ يكون مُجَانِسًا لوالده ، يحمل صفاته وجيناته الوراثية . واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن كل ذلك ، ولا يحتاج إلى شيء . فهو الغنيُّ عن الصاحبة والولد والشَّبيه والنظير والوريث والْمُساعِد والنصير والْمُعين. لا مُجانَسة بين الله وخَلْقه . ولا أحد يُكافئه مِن خَلْقه، ولا يُناظره، ولا يُساويه ، ولا يُشْبهه ، لأن الخلق عبيدٌ للهِ تعالى ، وهو خالقهم وسيِّدهم الغنيُّ عنهم . لا يحتاجهم ، وإنما هُم الذين يحتاجونه . ومَن أضافَ الولدَ إلى الله تعالى ، فقد جَعل اللهَ الخالقَ مِثْل مخلوقاته العاجزة الضعيفة . وهذا يعني بالضرورة إبطال أُلوهية الله ورُبوبيته .

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ١٤٤) : ((نفى عن نفْسه سُبحانَه وتعالى الولدَ ، لأن الولد يقتضي الجنسية والحدوث . أي : لا يليق به ذلك ، ولا يُوصَف به ، ولا يجوز في حقه ، لأنه لا يكون ولد إلا من والد يكون له والد وأصل ، والله سُبحانَه تعالى عن ذلك وتَقَدَّس)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٦) : ((ولعل ترتيب الْحُكم بصفة الرحمانية للإشعار بأن كل ما عَداه نِعمة ، ومُنعَم عليه ، فلا يُجانِس مَن هو مبدأ النِّعَم ، ومَوْلى أُصولها وفروعها ، فكيف يمكن أن يتخذه ولدًا ؟!)) اهـ .

إن الله لَم يقل : وما يَنبغي له أن يَتَّخِذَ وَلَدًا . بَل قال: ﴿ وما يَنبغي للرَّحمنِ أن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ . ووضع " الرحمن" موضع الضمير، لإرشاد الناس إلى عِلَّة الْحُكم، والتَّنبيه على أن كُل ما سِوى الله تعالى فهو مخلوق . وهذا المخلوق إمَّا أن يكون نِعمة أو مُنْعَمًا عليه. وبالتالي ، لا يُمكن أن يتساوى الخالق الْمُنْعِم معَ المخلوق الْمُنعَم عليه . وتخصيص اسم " الرحمن " بالذِّكر ، يدل على أن الله وَحْدَه يستحق هذا الاسم ، وللتَّنبيه على أن مصدر النِّعَم كُلِّها مِن الله وَحْدَه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٢٦٥) : ((أي : ما يَصْلُح له، ولا يَلِيق به اتخاذ الولد، لأن الولد يقتضي الْمُجانَسة ، وكُل مُتَّخِذ ولدًا يتَّخذه مِن جِنسه ، والله تعالى مُنَزَّه عن أن يُجَانِس شيئًا ، أو يُجانِسه ، فَمُحَال في حقِّه اتخاذ الولد)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن في السماواتِ والأرضِ إلا آتِي الرَّحمنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣].

كُل ما سِوى الله مخلوقٌ لله تعالى . وكُل مَخلوق هو عبدٌ لله ، خاضعٌ له ، وذليلٌ أمام أمره وحُكمه. وكُل المخلوقات في السماوات (الملائكة)، وكُل المخلوقات في الأرض (الإنس والجن)، تأتي جميعًا يوم القيامة خاضعةً ذليلة للهِ تعالى ، مُعترفةً له بالعبودية ، ومُقِرَّةً بأُلوهيته ورُبوبيته . ما مِن مخلوق إلا آتي اللهَ يوم القيامة عبدًا مَملوكًا ذليلاً خاضعًا لله ، لأن الخلق كُلهم عبيد الله، وخاضعون لأمره . فكيف يكون واحد منهم ولدًا لله تعالى؟!. هذا مرفوض، نقلاً وعقلاً .

والآيةُ تُبطِل أُلوهيةَ أيِّ مخلوق عُبِد مِن دُون الله تعالى كالمسيح وعُزَير. وهذا رَد واضح مُحكَم على النصارى الذين عبدوا المسيحَ ، وعلى اليهود الذين عبدوا عُزَيْرًا .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٣٨٤) : ((يقول: ما جميع مَن في السماوات من الملائكة ، وفي الأرض من البشر والإنس والجن ﴿ إلا آتِي الرَّحمنِ عَبْدًا ﴾ . يقول : إلا يأتي ربَّه يوم القيامة عبدًا له ذليلاً خاضعًا ، مُقِرًّا له بالعبودية ، لا نَسَب بَيْنه وبَيْنه . وقَوله : ﴿ آتِي الرَّحمنِ ﴾ إنما هو فاعل مِن أَتَيْتُهُ ، فأنا آتِيه)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٢٩): عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ عن النبيِّ ﷺ قال: ((قال اللهُ : كَذَّبني ابنُ آدم، ولَم يكن له ذلك، وشَتَمني، ولَم يكن له ذلك، فأمَّا تكذيبه إيَّايَ، فزعم أني لا أَقْدِر أن أُعيده كما كان ، وأمَّا شَتْمه إيَّايَ ، فَقَوله : لي ولد ، فَسُبْحاني أن أتَّخِذَ صاحبةً أو ولدًا)) .

والمقصود بالشَّتْم هو وصف الله تعالى بما لا يَلِيق بِه . ونِسبة الولد إلى الله هو انتقاص مِن عَظَمَة الله ومجده ، وإهانة له ، وإسناد صِفة نقص إلى ذاته العَلِيَّة . تعالى اللهُ عُلُوًّا كبيرًا .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ١٦٨): ((إنَّما سَمَّاه شتمًا لِمَا فيه من التنقيص ، لأن الولد إنما يكون عن والدة تَحمله ، ثم تضعه ، ويستلزم ذلك سَبْق النِّكاح ، والناكح يَستدعي باعثًا له على ذلك ، والله سُبحانَه مُنَزَّه عن جميع ذلك)) اهـ .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٤/ ٤٧٢): ((" أمَّا شَتْمه إيَّايَ فَقَوله : إن لي ولدًا " (رواية أخرى للحديث) ، لاستلزامه الإمكان المتداعي للحُدوث ، وذلك غاية النقص في حق البارئ ، لأن الشَّتم توصيف الشيء بما هو نقص وإزراء ، وإثبات الولد له كذلك ، لأنه قول بِمُماثَلة الولد له في تمام حقيقته ، وهي مُستلزمة للإمكان المتداعي للحُدوث ، ولأن الحكمة في التوالد استبقاء النَّوع ، فلو كان مُتَّخِذًا ولدًا ، كان مُسْتَخْلِفًا خَلَفًا يَقوم بأمره بعد عَصْره)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنهم كانوا إذا قِيلَ لهم لا إلهَ إلا اللهُ يَسْتَكْبِرُون ﴾[الصَّافَّات : ٣٥] .

هؤلاء المشركون غارقون في الكفر والضلال والعناد والاستكبار . وإذا قِيل لهم : قُولوا : ﴿ لا إلهَ إلا اللهُ ﴾ يتعظَّمون ويتكبَّرون، ويَرفضون الإقرار بِها ، ويستكبرون عن القَبول بلفظها ومعناها. وهذا رفضٌ واضحٌ لتوحيد الله تعالى، إذ إنهم يتكبَّرون عن كلمة التَّوحيد الخالدة ﴿ لا إلهَ إلا اللهُ ﴾ ويَرفضونها جُملةً وتفصيلاً ، ويَمتنعون مِنها ، ويتمسَّكون بالشِّرك بكل إصرار وعِناد واستكبار . وموقفهم هذا نابعٌ من عِنادهم وضلالهم وأهوائهم الذاتية ومصالحهم الشخصية . والكُفر عِناد .

ومعنى ﴿ لا إلهَ إلا اللهُ ﴾ : لا معبود بحق إلا الله ، وَحْدَه لا شريك له .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٨٣) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وإن هؤلاء المشركين بالله الذين وصف صفتهم في هذه الآيات ، كانوا في الدنيا إذا قيل لهم : قولوا : ﴿ لا إلهَ إلا اللهُ ﴾ ، ﴿ يَسْتَكْبِرُون ﴾ . يقول : يَتَعَظَّمون عن قِيل ذلك ، ويتكبَّرون . وترك من الكلام " قولوا " اكتفاءً بدلالة الكلام عليه مِن ذِكْره)) اهـ .

والأحاديثُ الواردة في فضل كلمة التَّوحيد" لا إله إلا الله" كثيرة جِدًّا ، وأكثر مِن أن تُحصَى.

وفي صحيح ابن حبان(١/ ٤٥١):[عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال: ((أُمِرْتُ أن أُقاتِل الناسَ حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قال : لا إله إلا الله ، فقد عَصَمَ مِنِّي نَفْسَه وماله إلا بحقِّه ، وحسابه على الله. وأنزل الله في كتابه، فذكر قومًا استكبروا، فقال : ﴿ إنهم كانوا إذا قِيلَ لهم لا إلهَ إلا اللهُ يَسْتَكْبِرُون ﴾ .وقال:﴿ إِذْ جَعَلَ الذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فأنزلَ اللهُ سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمةَ التقوى﴾[الفتح: ٢٦]. وهي لا إله إلا الله ومحمد رسول الله)) . استكبر عنها المشركون يوم الْحُدَيبية] .

إن القتال في الإسلام يكون بضوابط تُحدِّدها الشريعة،ولا يُجبَر أحدٌ على اعتناق الإسلام . أمَّا الكفار المحارِبون الذين يَحولون دون وصول الدعوة فهؤلاء يُقاتَلون . وسياق الحديث يُفيد بأن الحساب على الله تعالى ، وحمل الأمور على الظاهر دون السيطرة على الخلق والتَّجَبُّر عليهم ، وإكراههم على الإيمان . وحسابُ الناس بيد الله وَحْدَه ، ودَوْرُ النبيِّ ﷺ هو إقامة الأحكام وَفْق الظاهر ، لأنه ﷺ لا يملك السيطرة على قلوب الناس وبواطنهم .

والمقصود بالناس في الحديث هُم المشركون أهل الأوثان والأصنام مِن غَير أهل الكتاب (اليهود والنصارى). والحديثُ محمول على قَول الشهادتين. وتَمَّ ذِكر إحداهما " لا إله إلا الله " والاستغناء بها عن الأخرى " محمد رسول الله " ، لارتباطهما ، وشُهرتهما، والعلاقة الوثيقة بينهما .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ويَقُولونَ أئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجنون ﴾[الصَّافَّات : ٣٦] .

يقول المشركون إذا دعاهم النبيُّ ﷺ إلى التَّوحيد وترك عبادة الأصنام : أنتركُ عبادةَ آلهتنا وآلهة آبائنا (الأصنام والأوثان) لِقَول شاعرٍ مجنون . وهُم يقصدون النبيَّ ﷺ .

وهذه التهمة الباطلة تدل على جهلهم وعنادهم ، ورفضهم للحق . فقد وصفوا النبيَّ ﷺ بأنه شاعر مجنون . وهذ أمرٌ غير منطقي ولا معقول ، لأن كلام الله وكلام النبيِّ ﷺ يختلفان عن طريقة نَظْم الشِّعر وأسلوبه ، كما أن المجنون فاقد لقواه العقلية ، فكيفَ يُمكنه أن يقول الشِّعر المليء بالصور الفنية البديعة والتشبيهات اللغوية البليغة ؟! . لقد جمعوا بين نقيضَيْن ، وهذا يدل على ضلالهم وعجزهم عن مُقارَعة الْحُجَّة بالحجة .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٨٣) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ويقول هؤلاء المشركون مِن قريش : أنتركُ عبادة آلهتنا لشاعر مجنون . يقول: لاتِّباع شاعر مجنون. يَعْنُون بذلك نبيَّ الله ﷺ ، ونقول : لا إله إلا الله)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أجَعَلَ الآلِهَةَ إلَهًا وَاحِدًا إنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : ٥] .

عَجِبَ المشركون مِن دَعوة النبيِّ ﷺ إلى عبادة الله وَحْدَه ، واسْتَغْرَبوا أن يَكون الإلهُ واحدًا لا شَريك لهم، لأنهم تَعَوَّدوا على تعدُّد الآلهة ، وَوَرِثُوا هذه العقيدة الفاسدة عن آبائهم، حتى استقرَّت في قلوبهم ، وسيطرت على عقولهم ، وانعكسَ تأثيرُها على سُلوكهم . فصارَ التَّوحيدُ بالنسبة إلَيهم أمرًا غريبًا وعجيبًا وشَاذًّا ، وصار الشِّرْكُ هو الأمرَ المنطقيَّ والعقيدة الصحيحة . وهذا يدل على عِنادهم ، وجهلهم ، وانتكاس فِطرتهم ، وتقليدهم الأعمى لآبائهم ، والتَّعصب لعقائدهم الموروثة دُون فحصها أو عَرْضها على العقل .

والآيةُ تُشير إلى استغراب المشركين ودَهشتهم وتعجُّبهم وإنكارهم الشديد . والمعنى : كيفَ جَعل محمد الآلهةَ إلَهًا واحدًا لا شريك له ، إنَّ هذا لأمرٌ في غاية العَجَب. وهذه الْمُبالَغة في العَجَب والتَّعجُّب تُشير إلى إنكارهم التام للتَّوحيد ، واستبعاد وجود إله واحدٌ لا شريك له .

ووَفْقَ تفكير المشركين : كيف يستطيع إلهٌ واحدٌ أن يَسمع كُلَّ الناسِ، ويُسيطر على كُل المخلوقات ؟ . لا بُدَّ مِن آلهةٍ كثيرة ، فيختص كُلُّ إلهٍ بأمرٍ مُعيَّن مِن أمور الناس . وهذه عقيدة باطلة . فاللهُ هو الإلهُ الواحدُ، لا شَريك له ولا نِد. خَلق السماواتِ والأرض والشمس والقَمر مِن العَدَم ، وخَلق الإنسان مِن لا شَيء . وهذا الإلهُ العظيمُ صاحبُ القُدرة المطْلقة لَن يَعجز عن سَماع الناس أو رُؤيتهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٦): ((أي: أَزَعَمَ أن المعبود واحد لا إلهَ إلا هُوَ ؟. أنكرَ المشركون ذلك، قَبَّحهم اللهُ تعالى، وتَعَجَّبوا مِن ترك الشِّرك بالله ، فإنهم كانوا قَد تَلَقَّوْا عن آبائهم عبادة الأوثان، وأُشْرِبَتْهُ قلوبُهم، فلمَّا دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الإله بالوَحدانية أَعْظَمُوا ذلك وتَعَجَّبوا،وقالوا:﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾)).

وعن ابن عباس_رضي اللهُ عنهما_ قال: مَرِضَ أبو طالب، فجاءت قُرَيش ، فجاء النبيُّ ﷺ ، وعِندَ رأس أبي طالب مَجلسُ رَجل، فقام أبو جهل كي يَمنعه ذاك ، وَشَكَوْهُ إلى أبي طالب، فقال : يا ابْنَ أخي ، ما تُريد مِن قَومك ؟ ، قال : ((يا عَم ، إنما أُريدُ مِنهم كلمةً تَذِلُّ لهم بِها العربُ ، وتُؤَدَّى إِلَيهم بِها جِزيةُ العَجَم)). قال: كلمة واحدة ؟، قال: ((كلمة واحدة))، قال : ما هِيَ ؟. قال : ((لا إلهَ إلا الله)). قال: فقالوا : أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ [1].

أبو طالب هو شَيخ بني هاشم، وعلى دِين المشركين، الذين كانوا يأتون إِلَيه لِيَشكوا النبيَّ ﷺ باعتبار أن أبا طالب هو عَم النبيِّ ﷺ وكبير بني هاشم. والمشركون مَحكومون برابطة الدَّم والقرابة لا رَابطة الدِّين والإيمان . وقد كان عِند رأس أبي طالب مكان فارغ يتَّسع لِرَجل ، فقامَ أبو جهل كَي يَمنع النبيَّ ﷺ من الجلوس في ذلك المكان، خَوْفًا مِن التأثير على عَمِّه،وأيضًا لا يُريد المشركون إعطاء النبيِّ ﷺ مكان الصدارة، أو أن يكون قريبًا مِن عَمِّه.وقد شَكا المشركون النبيَّ ﷺ إلى عَمِّه، بأنه يَقع في آلهتهم، ويُنكِر عليهم عبادة الأصنام، ويُسفِّه أحلامَهم ، ويُضلِّل آباءَهم الغابرين. وكان الحوار صريحًا وواضحًا. سأل أبو طالب النبيَّ ﷺ: ما تُريد مِن قَومك ؟. وهو سؤال منطقيٌّ وواضح . وكان النبيُّ ﷺ واضحًا وصادقًا ، ولَم يُجامِل ، ولَم يُداهِن ، ولَم يتحايل على الإجابة . إنما قال بكل وضوح إنه يُريد مِن قَومه كلمةً واحدةً ، تَخضع لهم بها العربُ ، ويُصبحون سادةً على العرب وزُعماء لهم ، ويَخضع لهم العَجَم (غَير العرب) ويَدفعون لهم الجِزيةَ صاغرين .

ومن الواضح أن أبا طالب قد استصغرَ هذه الكلمة،وشعر أن الموضوع غاية في البساطة والسهولة، لذلك قال : " كلمة واحدة ؟ " . وكأن الأمر لا يستحق العناء ، فالموضوع مُجرَّد كلمة واحدة عابرة وبسيطة . وقد أجابه النبيُّ ﷺ إنها كلمة واحدة ، وهي كلمة التَّوحيد الخالدة : " لا إلهَ إلا الله ". فتعجَّب المشركون مِن تَوحيد اللهِ ، لأنهم غارقون في عقيدة تعدُّد الآلهة الباطلة، التي وَرِثوها عن آبائهم .

---

(١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٦٩) برقم (٣٦١٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

لقد رَفضوا تَوحيدَ اللهِ ، لأنهم يَعرفون أن التَّوحيد يَنسِف تاريخَ آبائهم الوثنيَّ ، ويُهدِّد مصالحهم الشخصية ، ويُعيد صياغة المجتمع مِن مَنظور الإيمان والحق والعدل والمساواة ، وهذا أكبر تهديد للطواغيت الحاكمين على رِقاب الناس ، المتحكِّمين في مسارهم ومصيرهم .

والقضيةُ لَيست كلمة أو كلمتين أو أكثر . إنَّ " لا إلهَ إلا الله " منهج كامل ومتكامل ، يَشمل الدنيا والآخرة معًا . وإفرادُ اللهِ بالعبادة يَعني القضاء على الآلهة الباطلة المعبودة مِن دُون اللهِ تعالى. والشِّرْكُ مَشروع تجاري قائم على سيطرة السادة على الناس ، وبسط نفوذ الأقوياء على الضعفاء ، واستعبادهم واستغلالهم من أجل تحقيق منافع ذاتية ، والحصول على مصالح شخصية .

والمشركون كانوا يُدرِكون أنَّ تَوحيد الله سَيُجرِّدهم مِن سُلطتهم الباطلة ، ونفوذهم الاستغلالي، ومكانتهم الاجتماعية المزعومة ، ويَقضي على تاريخ آبائهم الوثنيِّ المقدَّس ، لذلك، رفضوا التَّوحيدَ حِفاظًا على مصالحهم الشخصية، وسُلطتهم، ونفوذهم، ومُكتسباتهم المادية. وآثَروا الدنيا على الآخرة ، فَخسروا الدنيا والآخرة معًا .

وتَوحيدُ اللهِ أكبر تهديد لعروش الطواغيت، لأنه يَرفض تَحَوُّل الإنسان إلى إلهٍ فوق أخيه الإنسان ، ويَرفض استغلال الإنسان لأخيه الإنسان تحت أي شعار. فالبَشرُ كُلُّهم مُتساوون في العبودية، فَكُلُّهم عبيدٌ للهِ تعالى. ولا مَعبود بحق إلا الله . وهذا أمرٌ مرفوض جُملةً وتفصيلاً بالنسبة للطواغيت ، الذين ألَّهوا أنفسَهم ، وتَحَكَّموا بمصائر الناس ، وقاموا باستعبادهم واستغلالهم . وسَوْفَ يُقاتِلون للحفاظ على سُلطتهم وعروشهم ومصالحهم المادية حتى النهاية .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وانطلقَ الملأُ مِنْهُم أنِ امْشُوا واصْبِرُوا على آلِهَتِكُم إنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ [ص : ٦] .

وانطلقَ الأشرافُ مِن كُفار قُرَيش وقادتهم وسادتهم قائلين : استمروا على دِينكم ، واثْبُتوا على عبادة الأصنامِ آلهتكم وآلهةِ آبائكم ، وارفُضوا دَعوةَ محمد إلى توحيد اللهِ ، إنَّ هذا الذي يَدعوكم إلَيه محمد مِنَ التَّوحيد ، يُريد بِه زيادة أتباعه ، والسيطرة عَلَيكم ، والاستيلاء على مُمتلكاتكم، والحصول على الشرف والرِّفعة والسِّيادة والزَّعامة ، فيتحكم فِيكم ، ويَفرض نُفوذَه على العرب والعَجم ، فاحْذَروا أن يَصْرِفَكم عِن دِينكم ، ولا تُطيعوه في دَعوته إلى تَوحيد الله .

والآيةُ تُشير بوضوح إلى أن كُفار قُرَيش يَعتبرون الدَّعوةَ الإسلامية مشروعًا سياسيًّا للسيطرة ، والزعامة ، وبسط النفوذ ، والتحكم برقاب الناس ، والاستيلاء على مُمتلكاتهم . وهذا الأمر نابعٌ مِن انحصارهم في العقلية القَبَلِيَّة، حيث قيم الشَّرف والسيادة والزعامة والصراع بين القبائل .

إذن، الدعوةُ الإسلاميةُ _ بالنسبة للمشركين _ هي مشروع دُنيويٌّ بَحْت ، لتحقيق مكاسب شخصية ، ومصالح ضَيِّقة ، ولا يَمُتُّ للآخِرة بِصِلَة . وهذا أمرٌ مُتوقَّع ، لأنَّ المشركين يُؤمنون بالدنيا فقط ، ولا يُؤمنون بالبعث ولا اليوم الآخِر .

وقال النسفي في تفسيره (٤/ ٣٣) : ((وانطلقَ أشرافُ قُرَيش عن مجلس أبي طالب بعدما بَكَّتَهم رسولُ الله ﷺ بالجواب العتيد ، قائلين بعضهم لبعض : أَن امْشُوا ، وأن بمعنى أي ، لأنَّ المنطلِقين عن مجلس التَّقاوُل ، لا بُدَّ لهم مِن أن يَتكلموا ويَتفاوَضوا فيما جرى لهم ، فكان انطلاقُهم مُتَضَمِّنًا معنى القَول . واصبِروا على عبادة آلهتكم ، إنَّ هذا الأمر لَشَيْء يُراد ، أي : يُريده اللهُ تعالى ، ويَحكم بإمضائه ، فلا مَرَدَّ له ، ولا يَنفع فيه إلا الصبر ، أو إنَّ هذا الأمرَ لَشَيء مِن نوائب الدَّهر يُراد بِنا ، فلا انفكاك لنا مِنه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما سَمِعْنا بِهَذا في الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إنْ هَذا إلا اختلاقٌ ﴾ [ص : ٧] .

قال المشركون : ما سَمِعْنا بهذا الذي يَدعونا إِلَيه محمد مِنَ التَّوحيد في النصرانية ، التي هي آخِر المِلَل (قبل مِلَّة الإسلام) ، فإن النصارى تقول بالتثليث لا التَّوحيد ، فَمِن أينَ جاءَ محمد بعقيدة التَّوحيد ؟ . إنَّ ما جاء بِه محمد كَذِبٌ اخْتَلَقه وافتراه . ومعنى كلام المشركين : لَوْ كان التَّوحيد الذي جاء به محمد حَقًّا ، لأخْبَرَتْنا بِه النصارى ، أو رَأيناه في عقائدهم ، وعَرَفْنا بِه .

وقد يَكون المقصود بالمِلَّة الآخِرة هِيَ دِين قُرَيش (عبادة الأصنام الآلهة) . وعندئذٍ ، يكون المعنى : ما سَمِعْنا بهذا الذي يَدعونا إِلَيه محمد مِنَ التَّوحيد في المِلَّة التي أدْرَكْنا عليها آباءنا .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ١٠٣و١٠٤) : ((ما سَمِعْنا بهذا الذي جاء به محمد مِن التَّوحيد في المِلَّة الآخِرة ، وفيها ثلاثة أقوال : أحدها النصرانية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس وإبراهيم بن المهاجر عن مجاهد ، وبه قال محمد بن كَعْب القُرَظِيُّ ومقاتل . والثاني أنها مِلَّة قُرَيش، رواه ابن أبي نَجيح عن مجاهد ، وبه قال قَتادة . والثالث اليهودية والنصرانية ، قاله الفَرَّاء والزَّجاج والمعنى أن اليهود أشركت بِعُزَير، والنصارى قالت: ثالث ثلاثة ، فلهذا أنكَرَت التَّوحيد)).

٢_ النَّهْي عن الشِّرك والوعيد عليه :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ واعْبُدوا اللهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيئًا ﴾[النِّساء : ٣٦] .

وَحِّدوا اللهَ تعالى ، ومَجِّدوه ، وعَظِّموه ، وأطيعوه ، ولا تُوجِّهوا طاعتكم وعبادتكم إلا إليه ، وَحْدَه لا شريك له. ولا تُشرِكوا بِه شيئًا من الأشياء ، سواءٌ كان حيًّا أَم مَيْتًا ، إنسانًا أَم غَير إنسان ، صنمًا أَم غَيره ، وابتعدوا عن الشِّرك الأكبر والشِّرك الأصغر (الرِّياء) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٧) : ((﴿ واعْبُدوا اللهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيئًا ﴾ صنمًا أو غَيره ، أو شيئًا مِن الإشراك ، جَلِيًّا أو خَفِيًّا)) اهـ .

وعن معاذ ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : كُنتُ رِدْفَ النبيِّ ﷺ على حِمار ، يُقال له عُفَير ، فقال : ((يا مُعاذ ، هل تدري حَقَّ الله على عباده وما حق العباد على الله ؟)). قلتُ: الله ورسوله أعلم . قال : ((فإن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يُعَذِّبَ مَن لا يُشرِك به شيئًا)). فقلتُ:يا رسول الله،أفلا أُبشِّر به الناس؟.قال: ((لا تُبَشِّرْهُم فَيَتَّكِلُوا))[2].

كان مُعاذ بن جبل ــ رضي اللهُ عنه ــ راكبًا خَلْفَ النبيِّ ﷺ على حمار يُقال له عُفَير ، مِن العُفْرة ، وهي حُمْرة يُخالطها بياض . وقد سألَ النبيُّ ﷺ مُعاذًا عن حق الله على عباده ، وحق العباد على الله .

إنَّ توحيد اللهِ تعالى هو حَق الله على عِباده، أي إنهم مُلْزَمون بِه ، وهو واجبٌ عليهم، وأمرٌ حَتمي لا مفرَّ مِنه. وعبادةُ اللهِ هي تصديقٌ بالقلب، وإقرارٌ باللسان، وعَمَلٌ بالجوارح . وقد ألزمَ اللهُ ذاته العَلِيَّةَ بعدم تعذيب الموحِّدين فضلاً مِنه ورَحمة ، غير خاضع لأحد ، ولَيس واقعًا تحت أي ضغط. فاللهُ هو العَلِيُّ الأعلى الذي يَأمر ولا يُؤمَر، فَوْق كُل شيء، ولا شيء فَوْقَه .

ونهى النبيُّ ﷺ مُعاذًا عن تبشير الناس بهذا الحديث ، خَوْفًا مِن اعتمادهم عليه ، وترك الطاعة ، والتكاسل عن فِعل الخير. والواجبُ عليهم أن يُؤدُّوا حقَّ عبادة الله على أكمل وجه ، بكل حماس ونشاط وحيوية واجتهاد ، ويتحقق ذلك بالتزام أوامر الله واجتناب نَواهيه جُمْلةً وتفصيلاً .

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٣٩) : ((الحق كل موجود مُتحقِّق ، أو ما سَيُوجَد لا مَحالة. ويُقال للكلام الصِّدق حَق ، لأن وقوعه مُتحقِّق لا تردُّد فيه ... والمراد هنا ما يستحقه الله على عباده مِمَّا جعله مُحَتَّمًا عليهم ، قاله ابن التِّيمي في التحرير . وقال القرطبي : حق الله على العباد هو ما وعدهم به مِن الثواب وألزمهم إيَّاه بخطابه . قَوله: " أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا " . المراد بالعبادة عمل الطاعات واجتناب المعاصي ، وعَطَف عليها عدم الشِّرك ، لأنه تمام التوحيد. والحكمة في عَطْفه على العبادة ، أن بعض الكَفَرَة كانوا يَدَّعون أنهم يعبدون الله ، ولكنهم كانوا يعبدون آلهة أخرى ، فاشترط نَفْي ذلك ... . والتقدير يعبدونه في حال عدم الإشراك به . قال ابن حِبَّان : عبادة الله إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب ، وعمل بالجوارح ... . قَوله : " حق العباد

---

(٢) متفق عليه . البخاري (٣/ ١٠٤٩) برقم (٢٧٠١) ، ومسلم (١/ ٥٨) برقم (٣٠) .

على الله أن لا يُعذِّبهم " (رواية أخرى) ... . قال القرطبي : حَقُّ العباد على الله ما وعدهم بِه مِن الثواب والجزاء، فَحَقَّ ذلك وَوَجَبَ بِحُكم وعده الصِّدق ، وقَوله الحق الذي لا يجوز عليه الكذب في الخبر ، ولا الْخُلْف في الوعد ، فاللهُ سُبحانَه وتعالى لا يَجِب عليه شيء بِحُكم الأمر ، إذ لا آمِرَ فَوْقَه، ولا حُكْم للعقل لأنه كاشف لا مُوجِب. انتهى . وتَمَسَّكَ بعض المعتزلة بظاهره ولا مُتَمَسَّك لهم فيه مع قيام الاحتمال ... . إن المراد بالحق هنا الْمُتَحَقِّق الثابت أو الجدير، لأن إحسان الرَّب لِمَن لَم يَتَّخذ رَبًّا سِواه جدير في الحِكمة أن لا يُعذِّبه، أو المراد أنه كالواجب في تَحَقُّقه وتأكُّده)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَغفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ ﴾[النِّساء : ٤٨] .

هذه الآية ثابتة ومُحكَمة ، ولا خلاف في تفسيرها بين العلماء . فاللهُ تعالى لا يَغفِر الشِّرك إذا ماتَ الإنسانُ عليه ، ومَن ماتَ مُشْرِكًا فهو خالد في عذاب النار ، ولا توجد أيَّة فرصة لنجاته . أمَّا التائب مِن الشِّرك في حياته ، فالله يَقبل تَوبته ويَغفر له. ومَن ارتكبَ ذُنوبًا غَير الشِّرك ، وماتَ عَلى التَّوحيد، فهو واقع تحت مشيئة الله ، إن شاء غَفر له ، وإن شاء عَذَّبه .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٧٥) : ((أي : لا يَغفِر لعبد لَقِيَه وهو مُشرك به)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٠٣) : ((والمراد من الآية : لا يَغفِر لِمُشْرِك مات على شِرْكه)) اهـ . وقال الثعالبي في تفسيره (١/٣٧٩): ((الناس أربعة أصناف : كافر مات على كُفره ، فهذا مُخلَّد في النار بإجماع . ومؤمن مُحسِن لَم يُذنِب قَط ومات على ذلك ، فهذا في الجنة محتوم عليه حَسَب الخبر من الله تعالى بإجماع . وتائب مات على تَوبته فهو عند أهل السُّنة وجمهور فقهاء الأُمَّة لاحق بالمؤمن المحسِن ، إلا أن قانون المتكلمين أنه في المشيئة . ومُذنِب مات قبل توبته ، فهذا هو موضع الخِلاف. فقالت الْمُرْجِئة : هو في الجنة بإيمانه ، ولا تضرُّه سيئاته ، وجعلوا آيات الوعيد كُلَّها في الكفار، وآيات الوعد عامة في المؤمنين تَقِيِّهم وعاصيهم. وقالت المعتزلة : إذا كان صاحب كبيرة فهو في النار ، ولا بُد . وقالت الخوارج : إذا كان صاحب كبيرة أو صغيرة فهو في النار مُخلَّد ، ولا إيمان له ، لأنهم يَرَوْنَ كُل الذنوب كبائر ، وجعلوا آيات الوعد كُلَّها في المؤمن الذي لَم يَعْصِ قَط والمؤمن التائب . وقال أهل السُّنة : هو في المشيئة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَجَعلوا للهِ أندادًا لِيُضِلُّوا عَن سَبيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فإنَّ مَصِيرَكُم إلى النار ﴾ [إبراهيم : ٣٠] .

هؤلاء الكافرون جَعلوا لله شُركاء عبدوهم مَعَه ، لِيُضِلُّوا الناسَ ويُبعِدوهم عن الإسلام (دِين الله الذي لا يَقبل اللهُ غَيْرَه) .

قُل لهم يا محمد : استمتعوا بنعيم الدنيا ، فإن مَرَدَّكم ومرجعكم ومآلكم ونهاية أمركم إلى العذاب في نار جهنم . ولن تُفلِتوا مِنه . والحياةُ قصيرة سريعة الزوال ، ومهما استمتعتم بملذات الدنيا وشهواتها ، فإن مُتعتكم قليلة لأنها مُنقطعة ، وسُرعان ما تنقضي . ومصيركم إلى عذاب النار الشديد، وعندئذ ستعلمون عاقبةَ تمتُّعكم في الحياة الدنيا ، وتَدفعون ثمنَ كُفركم وضلالكم . وهذا توبيخٌ لهم ، ووعيدٌ شديد ، وتهديدٌ أكيد ، وليس أمرًا على وجه العبادة ، ولا سماحًا لهم بالتَّمتع بنعيم الدنيا. والآيةُ تُقلِّل من شأن الدنيا وملذاتها وشهواتها ، لأنها _ مهما طالت _ فهي زائلة فانية منقطعة. ولو كانت الآخرة من حديد، والدنيا من ذهب ، لَفَضَّلَ العاقلُ الحديدَ الباقي على الذهب الفاني . فما بالكَ والدنيا حقيرة فانية زائلة ، نعيمها محدود وبسيط وزائل ، والآخرة عظيمة باقية خالدة،نعيمها باقٍ لا يزول ولا يَفنى ، ولا يُمكن لإنسان أن يتخيَّله ؟!. أينَ الثرى مِن الثُّرَيَّا !.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٦٣) : ((قال ابن عباس : لو كان الكافر مريضًا لا ينام ، جائعًا لا يأكل ، ولا يشرب ، لكان هذا نعيمًا يَتمتَّع به بالقياس إلى ما يَصير إليه من العذاب. ولو كان المؤمن في أنعم عَيش لكان بُؤسًا عندما يصير إليه من نعيم الآخرة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القِيامةِ يُخْزِيهِم ويَقولُ أيْنَ شُركائِيَ الذينَ كُنتم تُشَاقُّونَ فِيهِم ﴾ [النَّحْل : ٢٧] . في يوم القيامة ، يَفضح اللهُ الكافرين على رُؤوس الأشهاد، ويكشف أسرارَهم القذرة علانيةً ، ويُذِلُّهم ويُهينهم بعذاب النار الشديد ، ويقول لهم مُوَبِّخًا ومُقَرِّعًا لهم : أينَ شُركائي بزعمكم ؟. أينَ آلهتكم التي عبدتموها مِن دُوني، وجعلتموها شريكةً لي في أُلوهيتي، وعاديتم الأنبياءَ مِن أجلها، وخالفتم المؤمنين في شأنها فعبدتموها وهُم يَعبدون اللهَ ؟ . أحضِروا آلهتكم المزعومة (شُركائي) كي تُدافع عنكم أو تشفع لكم . اطلبوا مِنها أن تَدفع عنكم العذاب،وتُجيركم من عِقابي . وهذا تهكُّم واستهزاء بِهم . والخِزْيُ هو ذُل يَخجل منه الإنسان .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٣) : ((﴿ ثُمَّ يَوْمَ القِيامةِ يُخْزِيهِم ﴾ يُذِلُّهم أو يُعذِّبهم بالنار . ﴿ ويَقولُ أيْنَ شُركائِيَ ﴾ . أضافَ إلى نفْسه استهزاءً ، أو حكايةً لإضافتهم ، زيادةً في توبيخهم . ﴿ الذينَ كُنتم تُشَاقُّونَ فِيهِم ﴾ تُعادون المؤمنين في شأنهم)) اهـ .

وقال الثعالبي في تفسيره (٢/ ٣٠٧) : ((وقَوله : ﴿ يُخْزِيهِم ﴾ لفظ يَعُمُّ جَميعَ المكاره التي تَنْزل بهم ، وذلك كُله راجع إلى إدخالهم النار ، ودخولهم فيها . و ﴿ تُشَاقُّونَ ﴾ معناه :

تُحاربون ، أي : تكونون في شِق ، والحق في شِق)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً ﴾[الإسراء : ٢٢] .

الخطابُ للنبيِّ ﷺ ، والمراد أُمَّته ، لأن النبيَّ ﷺ معصوم مِن الذنوب، وحاشاه أن يَقع في الشِّرك والكفر . وقِيل : الخطاب للإنسان .

لا تجعل مَعَ اللهِ شريكًا في أُلوهيته، فإن الله وَحْدَه هو الإله الحق، فاعبده وَحْدَه ، لا شريك له. ومَن اتَّخذَ معَ اللهِ إلَهًا آخَر أو عَبَدَ غَيْرَه، فإنه يَبقى مذمومًا على إشراكه بالله، ومَكروهًا ، لا يُحِبُّه أحد ولا يحمده ، مخذولاً مِن الله ، لا ينصره أحدٌ ولا يُساعده ولا يُعينه ، واللهُ يَكِله إلى نفْسه وإلى معبوده مِن دُون الله ، فيهلك الإنسان ويضيع ، لأن المخلوقات عاجزة لا تملك نفعًا ولا ضَرًّا . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٣٨):((﴿ مَذْمُومًا مَخْذُولاً ﴾ جامعًا على نفْسك الذم من الملائكة والمؤمنين، والخِذلان من الله تعالى.ومفهومه أن الْمُوحِّد يكون مَمدوحًا منصورًا)).

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ولا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى في جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾[الإسراء : ٣٩].

ولا تُشرِك مَعَ اللهِ صنمًا ولا غَيْرَه ، فيكون مصيرك عذاب النار ، وتُلقَى في جهنم مَلُومًا تلوم نَفْسَك ، وتتحسَّر عليها ، ويَلُومك الناس ، مُبْعَدًا مِن رحمة الله ، ومطرودًا مِن كل خَير . اعبد اللهَ وَحْدَه لا شريك له ، وأخلِص في عبادته وطاعته ، فهذا هو طريق النجاة والفَوز في الدنيا والآخرة.

والآيةُ تدل على أهمية التَّوحيد ، باعتباره هو الأساس للعبادات والطاعات . والتَّوحيد هو مبدأ الأمر ومُنتهاه . وبدونه لا فائدة مِن الأعمال ، ولا معنى لها . وإذا غابَ التَّوحيد بَطَلَت أعمال الإنسان ، وانهارت إنسانيته . والخطابُ للنبيِّ ﷺ باعتباره قائد المسلمين وسيِّدهم ، والمراد أُمَّته ، لأن النبيَّ ﷺ معصوم . وإذا كان النبيُّ ﷺ يُخاطَب بهذا الخطاب الشديد وهو المعصوم وأعظم عِباد اللهِ وسيِّد المخلوقات، فما بالكَ بمن هو دُونه ؟ . ولا شَك أن كُل الناس دُونه وتحته .

والجديرُ بالذِّكر أن التَّعبير بالإلقاء يدل على إهانة المشرِك وذُلِّه، فهو شيء مُهمَل لا قيمة له ولا وَزْن ، ويُلقَى في النار كأيِّ شيء تافه ، مُجَلَّلاً بالخِزي والعار ، بلا كرامة ولا شرف .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٣٢٧) : ((كَرَّرَ سُبحانَه النَّهْيَ عن الشِّرك تأكيدًا وتقريرًا وتنبيهًا على أنه رأس خِصال الدِّين وعُمدته . قِيل : وقد راعى سُبحانَه في هذا التأكيد دقيقةً ، فرتَّب على الأول كَوْنه ﴿ مَذْمُومًا مَخْذُولاً ﴾، وذلك إشارة إلى حال الشِّرك في الدنيا، ورتَّب على الثاني أنه يُلقَى ﴿ في جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾ وذلك إشارة إلى حاله في الآخرة. وفي القعود هناك والإلقاء هنا، إشارة إلى أن للإنسان في الدنيا صورة اختيار ، بِخِلاف الآخرة)) اهـ.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ويُنذِرَ الذينَ قالوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ﴾[الكَهْف : ٤] .

أنزلَ اللهُ القُرآنَ على محمد ﷺ لِيُنْذِر بِهِ الكافرين الذين نسبوا الولدَ إلى الله تعالى ، ويُخوِّفهم مِن عذاب النار الشديد . وقد خصَّهم اللهُ بالذِّكر لبيان شناعة كُفرهم ، وسُوء وَضْعهم ، وتوضيح جريمتهم الكُبرى ، وضلالهم الْمُبين ، وإثمهم العظيم ، حيث نسبوا الولدَ إلى الله تعالى ، واللهُ مُنَزَّهٌ عن الولد والصاحبة والشريك والنِّد . واللهُ سُبحانَه لَم يلد ولَم يُولَد .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٣٠٧): ((قَوله تعالى:﴿ ويُنذِرَ الذينَ قالوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ﴾ وهُم اليهود قالوا : عُزَير ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله ، وقُرَيش قالت : الملائكة بنات الله ، فالإنذار في أول السورة عام ، وهذا خاص فيمن قال : لله ولد)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَيَوْمَ يَقولُ نادُوا شُرَكَائِيَ الذينَ زَعَمْتُم فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَستجيبوا لهم وَجَعَلْنا بَيْنَهُم مَوْبِقًا ﴾ [الكَهْف : ٥٢] .

يقول اللهُ للمشركين في يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ، فاضحًا ومُوَبِّخًا ومُقَرِّعًا لهم : ادْعُوا الذينَ كُنتم تَزعمون أنهم شُركائي في الدنيا ، لينصروكم ، ويَحموكم مِن عذابي ، ويَدفعوا عنكم عُقوبتي، ويُنقذوكم مِن الكَرْب الذي أنتم فيه ، فاستغاثوا بهم وطلبوا مُساعدتهم ، فلم يُغيثوهم ولَم يُساعدوهم، وجَعل اللهُ بين العابدين والمعبودين حاجزًا ومَهْلَكًا لا يَجتازه هؤلاء، وهو وادٍ في النار، يهلكون فيه جميعًا. وقد أضافَ اللهُ الشُّرَكاء إلى نفْسه على زعمهم، لتقريعهم وفضحهم وتوبيخهم والاستهزاء بِهم. إنهم لَم يستجيبوا لهم،ولَم يَرُدُّوا على ندائهم، فضلاً عن أن يَنفعوهم أو يُنقذوهم.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٢٣) : ((والمعنى أن الله تعالى بَيَّنَ أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم ، التي كانوا يزعمون في الدنيا ، وأنه يُفرِّق بينهم وبينها في الآخرة ، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مَهْلَك، وهَوْل عظيم، وأمر كبير ، وأمَّا إن جُعل الضمير في قَوله : ﴿ بَيْنَهُم ﴾ عائدًا إلى المؤمنين والكافرين ، كما قال عبد الله ابن عمرو إنه يُفرِّق بين أهل الهدى والضلالة به)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ١٥٥ و١٥٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقولُ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ نادُوا شُرَكَائِيَ ﴾ . أضافَ الشُّرَكاء إليه على زَعْمهم ، والمراد: نادوهم لدفع العذاب عنكم أو الشفاعة لكم، ﴿ الذينَ زَعَمْتُم ﴾ أي: زعمتموهم شُركاء ﴿ فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَستجيبوا لهم ﴾ أي : لَم يُجيبوهم ، ﴿ وَجَعَلْنا بَيْنَهُم ﴾ في الْمُشار إليهم قَولان : أحدهما انهم المشركون والشُّركاء، والثاني : أهل الهدى وأهل الضلالة . وفي معنى : ﴿ مَوْبِقًا ﴾ ستة أقوال :

أحدها مَهْلَكًا ، قاله ابن عباس وقتادة والضَّحاك، وقال ابن قُتَيبة: مَهْلَكًا بينهم وبين آلهتهم في جهنم، ومِنه يُقال: أَوْبَقَتْهُ ذُنوبُه ، أي : أَهْلَكَتْهُ . قال الزَّجاج : المعنى جعلنا بينهم من العذاب ما يُوبقهم ، أي يُهلِكهم . وقال الفرَّاء: جعلنا تواصلهم في الدنيا مُوبِقًا ، أي مُهْلِكًا لهم في الآخرة ، فالبَيْن على هذا القول بمعنى التواصل،والثاني أن الْمَوْبِق واد عميق يُفرَّق به بين أهل الضلالة وأهل الهدى، قاله عبد الله ابن عمرو . والثالث أنه واد في جهنم ، قاله أنس بن مالك ومجاهد . والرابع أن معنى الْمَوْبِق العداوة ، قاله الحسن. والخامس أنه الْمَحْبِس ، قاله الربيع بن أنس. والسادس أنه الموعد، قاله أبو عُبَيدة.قال ابن الأنباري:إن قِيل: لِمَ قال:﴿ مَوْبِقًا ﴾ ولَم يَقُل:مُوبِقًا، بضم الميم، إذ كان معناه عذابًا مُوبِقًا . فالجواب أنه اسم موضوع لِمَحْبِس في النار ، والأسماء لا تُؤخَذ بالقياس، فَيُعْلَم أن مَوْبِقًا مَفْعِل، مِن أَوْبَقَهُ اللهُ ، إذا أَهْلَكَهُ ، فتُفتَح الميم ، كما تنفتح في مَوْعِد ومَوْلِد ومَحْتِد ، إذا سُمِّيت الشخوص بهنَّ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونوا لهم عِزًّا ﴾ [مريم : ٨١] .

واتَّخذَ هؤلاء المشركون مِن دُون الله آلهةً (أصنامًا) يَعبدونها ، ليعتزُّوا بها ، وينالوا المجدَ والشرف والكرامة ، وتُوفِّر لهم الحماية ، وتُنقِذهم مِن المصائب ، وتَحرسهم مِن الشدائد ، وتشفع لهم في الآخرة ، ويَمتنعون بها مِن عذاب الله تعالى .

وهذا يدل على جهلهم وضلالهم وكفرهم، فهذه الآلهة المزعومة (الأصنام) لا تضرُّ ولا تنفع، وهَي عاجزة عن حماية نفْسها، فكيف تَحمي المؤمنين بها ؟!. لا قُدرة لهذه الآلهة الباطلة على شَيء ، ولا فائدة مِنها . ووجودها كعدمه . ومَن اعتزَّ بِغَير اللهِ ذَلَّ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٥٤) : ((قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ واتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً ﴾ يعني : مُشركي قُرَيش . اتَّخذوا الأصنامَ آلهةً يعبدونها ، ﴿ لِيَكُونوا لهم عِزًّا ﴾ أي : مَنَعَة ، حتى يكونوا لهم شُفعاء يَمنعونهم من العذاب))اهـ.وقال البَيضاوي في تفسيره (١/٣٣):((لِيَتَعَزَّزوا بِهِم، حيث يكونون لهم وَصلة إلى الله ، وشُفعاء عنده)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِم ويَكُونونَ عَلَيهم ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨٢] .

إن ﴿ كلا ﴾ ردعٌ لهم عن ظَنِّهم واعتقادهم الباطل ، وإنكارٌ لِتَعَزُّزِهم بآلهتهم التي لا تضرُّ ولا تَنفع . ليس الأمر كما زعم المشركون وظنُّوا وتوهَّمُوا . لقد خابت ظُنونهم، وسقطت أوهامهم. سوفَ يُنكِرون عبادة آلهتهم الباطلة (الأصنام) ويَكفرون بها، ويتبرَّؤون مِنها ، حِينَ يَرَوْنَ العذابَ الشديد وسُوءَ العاقبة .

أو : ستتبرَّأ آلهتهم (الأصنام) من عبادة المشركين لها وتُنكِرها وتَجحدها ، وتقول للمشركين : واللهِ ما عبدتمونا ، وأنتم كاذبون . وذلك يوم يُنطِقها اللهُ ، لأن الأصنام جمادات لا تَعقِل،ولا تَعلم العبادةَ . وتَكون هذه الآلهة التي ظَنُّوها عِزًّا لهم ضِدًّا عليهم ، وأعداء لهم يوم القيامة .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٥٤): ((﴿ كلا ﴾ أي : ليس الأمر كما زعموا ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِم ﴾ ، أي : تَجحد الأصنامُ والآلهةُ التي كانوا يعبدونها عبادةَ المشركين ، ويَتبرَّؤون منهم ، ﴿ ويَكُونونَ عَلَيهم ضِدًّا ﴾ ، أي : أعداء لهم . وكانوا أولياءهم في الدنيا . وقِيل : أعوانًا عليهم ، يُكذِّبونهم ويَلعنونهم)) اهـ . وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٦٨٩): ((﴿ كلا ﴾ ، ليس الأمر على ما ظَنُّوا، ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِم ﴾ ، لأنهم كانوا جمادًا لَم يَعرفوا أنهم يُعبَدون ، ﴿ ويَكُونونَ عَلَيهم ضِدًّا ﴾ أعوانًا،وذلك أن الله تعالى يَحشر آلهتهم، فَيُنطِقهم، ويُرَكِّب فيهم العقول، فتقول: يا رَب ، عَذِّبْ هؤلاء الذين عَبدونا مِن دُونك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَمَن يَقُلْ مِنهُم إنِّي إلَهٌ مِن دُونِهِ فذلكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كذلكَ نَجْزي الظالمين ﴾ [الأنبياء : ٢٩] .

ومَن يَقُلْ مِن الملائكة إنه إلهٌ مَعَ الله ، فعقوبته عذاب جهنم الشديد ، ومِثل ذلك الجزاء الرهيب، نجزي المشركين ، الذين ظَلَموا أنفسهم بالشِّرك ، وتجاوزوا حُدودَ اللهِ، وعَصَوْا أوامره، ووضعوا العبادةَ في غَير مَوْضعها .

وهذا تحذيرٌ للمُشركين ، وتخويفٌ لهم مِن خُطورة الشِّرك ، وتشديدٌ على ضرورة اعتناق التَّوحيد ، باعتباره طريق النجاة الوحيد في الدنيا والآخرة .

والملائكةُ _ عليهم السلام _ مَعصومون ، والآيةُ تَحمل تهديدًا على سبيل الفَرَض والتقدير .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٣٧) : ((أي : مَن ادَّعى مِنهم أنه إلهٌ مِن دون الله ، أي : مَعَ الله ، ﴿ فذلكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كذلكَ نَجْزي الظالمين ﴾ ، أي : كُل مَن قال ذلك . وهذا شرط ، والشرط لا يَلزم وقوعه)) اهـ .

والآيةُ تدل على عَظَمَة الله وقُوَّته وجبروته وسُلطانه، وسيطرته على كل شيء ، وحُكمه النافذ في كُل شيء . وكُل المخلوقات مقهورة في قَبْضته ، خاضعة لإرادته ، ذليلة أمام بَطْشه ومَجْده .

وقد احتجَّ ابن عباس بهذه الآية على تفضيل النبيِّ محمد ﷺ على الملائكة (أهل السماء) . فعن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ قال : ((إنَّ اللهَ فَضَّلَ مُحمَّدًا ﷺ على أهل السماء ، وفضَّله على أهل الأرض)) . قالوا : يا ابن عباس ، فَبِما فضَّله اللهُ على أهل السماء ؟ ، قال : ((قال اللهُ

عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنهُم إِنِّي إِلَهٌ مِن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظالمين ﴾ . وقال لمحمد ﷺ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحًا مُبينًا (١) لِيَغفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وما تأخَّرَ ﴾ _ الآية _ . ...)) [3].

وقالَ اللهُ تعالى:﴿إنكم وما تَعْبُدونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أنتم لها وَارِدُون﴾[الأنبياء: ٩٨].

الخطابُ الإلهيُّ لكفار قُرَيش عَبَدة الأصنام ومَن اعتنقَ دِينهم الوثنيَّ . إنكم أيها المشركون وما تَعبدونه مِن الآلهة والأصنام والأوثان وقودُ جهنم وحطبها . أنتم داخلوها مَعَ آلهتكم الباطلة وأصنامكم العاجزة . لقد جَمَعَ اللهُ المشركين وآلهتهم (أصنامهم) في عذاب جهنم الشديد ، لزيادة حسرة المشركين وغمِّهم وحُزنهم وألمهم ، وهُم يُشاهدون آلهتهم التي عبدوها مُشتركةً معهم في العذاب، وغَير قادرة على حمايتهم ولا حماية نفْسها . وهذا مُنتهى الخِزي والعار والذُّل والحسرة . والْحَصَبُ ما أُلْقِيَ في النار . وأصْلُه مِن الحصباء ، وهو الحصى . والمعنى العام : إن المشركين يتم إلقاؤهم في النار كما يُلقَى الحطب لإشعالها ومَنع انطفائها [4].

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٣٠٠) : ((قال العلماء : لا يَدخل في هذا عيسى ولا عُزَير ولا الملائكة، صلوات الله عليهم، لأن ﴿ ما ﴾ لغير الآدميين ، فلو أراد ذلك لقال : " ومَن". قال الزَّجاج : ولأن المخاطَبين بهذه الآية مُشركو مكة دُون غَيْرهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَوْ كانَ هَؤلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وكُلٌّ فِيها خَالِدُون ﴾[الأنبياء : ٩٩] .

لو كانت هذه الأصنامُ التي عبدتموها أيها المشركون آلهةً حقيقيةً وصحيحةً ما دَخلوا النارَ ، ومَن وقع عليه العذاب لا يكون إِلَهًا.والعابدون والمعبودون كُلُّهم خالدون في عذاب النار الأبديِّ، بلا نهاية ، ولا انقطاع ، ولا خلاص لهم مِنه ، ولا تُوجد أيَّة فرصة للنجاة ، ولا أحد سَيُنقِذهم أو يُخرجهم مِن النار . إنه خُلود في العذاب إلى الأبد . وهذا يدل على بُطلان عبادة المشركين للأصنام ، فهي آلهة وهمية وباطلة ومزعومة ، لا تضرُّ ولا تنفع. عاجزة عن نفع نفْسها ، فكيف

---

(٣) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٨١) برقم (٣٣٣٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٤) قال ابن منظور في لسان العرب(١/ ٣١٨): ((فمعنى قَوله: ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ أَي: يُلْقَوْنَ فيها كما يُلْقَى الحطَبُ في النار.وقال الفَرَّاءُ: الحصَبُ في لغة أَهل نَجْد، ما رَمَيْتَ به في النار.وقال عِكرمة : حَصَبُ جهنم هو حَطَبُ جهنم بالحبَشية . وقال ابن عرفة : إن كان أَراد أَن العرب تكلَّمت به فصار عَرَبيةً ، وإلا فليس في القرآن غَيْرُ العربية)) .

تنفع غَيْرَها ؟!. والآيةُ تَحمل توبيخًا شديدًا للمُشركين عَبَدَةِ الأصنام ، وتقريعًا وتَبْكيتًا لهم . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٩١) : ((﴿ لَوْ كانَ هَؤلاءِ ﴾ يعني الاصنام ﴿ آلِهَةً ﴾ على الحقيقة ﴿ ما وَرَدُوها ﴾ . فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنه إشارة إلى الأصنام ، والمعنى : لو كانوا آلهة ما دَخلوا النارَ. والثاني أنه إشارة إلى عابديها، فالمعنى: لو كانت الأصنام آلهة منعت عابديها دخول النار . والثالث أنه إشارة إلى الآلهة وعابديها ، بدليل قَوله تعالى : ﴿ وكُلٌّ فِيها خَالِدُون ﴾ يعني : العابد والمعبود)) اهـ .

وعن عِكرمة عن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ قال : لَمَّا نزلت: ﴿ إنكم وما تَعْبُدونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أنتم لها وَارِدُون ﴾ . فقال المشركون : الملائكة وعيسى وعُزَير ، يُعبَدون مِن دُون الله ، فقال : ﴿ لَوْ كانَ هَؤلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها ﴾ . قال: فَنَزلت: ﴿ إنَّ الذينَ سَبَقَتْ لَهُم مِنَّا الْحُسْنَى أُولئكَ عَنْهَا مُبْعَدُون ﴾ ، عيسى ، وعُزَير ، والملائكة [5].

إنَّ السياق القُرآنِيَّ يتحدَّث عن مُشركي مكة عَبَدَةِ الأصنام والأوثان . وقد حاولَ المشركون إقامة الْحُجَّة على النبيِّ ﷺ وإفحامه ، والرد على القُرآن ، وذلك بِذِكْر الملائكة وعيسى وعُزَير ، حيث إن مُشركي العرب اعتبروا الملائكة بنات الله ، وعبدوها، والنصارى اعتبروا عيسى ابن الله، وعبدوه مَعَ الله ، واليهود اعتبروا عُزَيْرًا ابن الله ، وعبدوه مَعَ اللهِ تعالى . وقد أكرمَ اللهُ الملائكةَ وعيسى وعُزَيْرًا ، ونزَّههم عن كُفر المشركين ، وأبعدهم عن النار ، فضلاً مِنه ، وتَكَرُّمًا عليهم ، وتشريفًا لهم . وهذا رَد إلهيٌّ بليغ على أوهام المشركين وأعذارهم الباطلة وحُجَجهم الداحضة .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثان ﴾[الحج : ٣٠] .

اجتنبوا الرِّجْسَ الذي هو الأوثان، كما تُجْتَنَب القاذورات والأوساخ والأنجاس ، وابتعدوا عن عبادة الأوثان التي فيها طاعة الشيطان . وهذا غاية الْمُبالَغة في النَّهْي عن عبادة الأوثان وتعظيمها.

والآيةُ أبلغ وأقوى مِن القَول: لا تعبدوا الأوثانَ. إذ إن الآية تأمر بالابتعاد عن الأوثان وعدم الاقتراب مِنها. و﴿ مِنَ ﴾ للبيان ، وليس للتَّبعيض . فالرِّجْس هو الأوثان ، فاجتنبوها وابتعدوا عنها، لأنها سبب العذاب والهلاك .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٥٢) : ((الرِّجْس : الشيء القَذِر ، والوثن : التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونَحْوها ، وكانت العرب تَنصِبها وتَعبدها ، والنصارى تَنصِب

---

(٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤١٦) برقم (٣٤٤٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الصليب وتعبده وتُعظِّمه ، فهو كالتمثال أيضًا... . وسُمِّيَ الصنم وثنًا لأنه يُنصَب ويُركَز في مكان فلا يَبْرَح عنه . يُريد : اجتنبوا عبادةَ الأوثان . رُوِيَ عن ابن عباس وابن جُرَيج . وسَمَّاها رِجْسًا لأنها سبب الرِّجْز، وهو العذاب. وقيل : وَصَفَها بالرِّجْس، والرِّجْس النَّجَس ، فهي نَجِسَة حُكْمًا . ليست النجاسة وصفًا ذاتيًّا للأعيان ، وإنما هي وصف شرعي من أحكام الإيمان ، فلا تُزَال إلا بالإيمان ، كما لا تجوز الطهارة إلا بالماء . ﴿ مِنَ ﴾ في قَوله : ﴿ مِنَ الأوثان ﴾ ، قِيل : إنها لبيان الجنس ، فيقع نَهْيُه عن رِجْس الأوثان فقط ، ويبقى سائر الأرجاس نَهْيُها في غَير هذا الموضع . ويُحتمَل أن تكون لابتداء الغاية ، فكأنه نهاهم عن الرِّجْس عامًّا ، ثم عَيَّنَ لهم مبدأه الذي منه يَلحقهم ، إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورِجْس)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ حُنفاءَ للهِ غَيْرَ مُشركينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ باللهِ فكأنما خَرَّ مِنَ السماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أوْ تَهْوي بِهِ الرِّيحُ في مكانٍ سَحِيق ﴾ [الحج : ٣١] .

اجتنبوا عبادةَ الأوثان أيها الناس ، مائلين إلى الحق ، مُستقيمين على التَّوحيد ، ثابتين على الطاعة ، مُسلمين لله ، مُخلِصين له الدِّين ، عابدين له ، وَحْدَه لا شريك له .

وبعد هذا التَّوجيه الإلهيِّ السَّامي ، ضَرَبَ اللهُ مثلاً بليغًا للمُشرِك في كفره وضلاله وضياعه وهلاكه ، وبُعْده عن الحق والهدى : ومَن يُشرِك بالله فكأنما سقط من السماء ، فتُقطِّعه الطيورُ في الهواء بمخالبها وتُمزِّقه ، وتنهشه بلا رحمة . أو تَقذفه الريح وتَرْمي بِه في مكان بعيد ، فلا أمل في نجاته ، ولا يُرجَى خلاصه . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٢٩) : ((وفي المراد بهذا المثَل قَولان: أحدهما أنه شَبَّهَ المشرك بالله في بُعْده عن الهدى وهلاكه بالذي يَخِرُّ من السماء، قاله قَتادة . والثاني أنه شبَّه حال المشرك في أنه لا يملك لنفْسه نفعًا ولا دفع ضر يوم القيامة ، بحال الهاوي من السماء ، حكاه الثعلبي)) اهـ .

والخطف هو تناول الشيء بسرعة . لقد سقط هذا المشركُ من مَنْزلة الإيمان الرفيعة ، إلى مكانة الكفر الوضيعة. وانتكست فِطرته المبنية على التَّوحيد، فاختارَ الشِّرك، ووصلَ إلى الحضيض.

وهذا يعني أن المشرك وصل إلى مرحلة العجز التام والضياع الشامل والهلاك الأكيد، فلا يَقْدِر على جلب النفع له، ولا دفع الضر عنه، ولا إنقاذ نفْسه من العذاب ، ولا حماية حياته من الهلاك . ومَن أشركَ بالله فقد أهلكَ نفْسه بنفْسه،وظلمها أشد الظلم، لأنه قادها إلى الخلود في عذاب النار .

واللهُ تعالى لَم يقل : ومَن يُشرِك به ، بل قال : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ باللهِ ﴾ . وإظهار لفظ الجلالة لبيان عَظَمَة الله، وشناعة الشِّرك بِه، وقُبح هذا الذنب العظيم. فاللهُ وَحْدَه هو الإله ، لا شريك له.

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٨٣): ((﴿ حُنفاءَ للهِ ﴾ مُخلِصين له ، ﴿ غَيْرَ مُشركينَ بِهِ ﴾. قال قتادة : كانوا في الشِّرْك يَحُجُّون ، ويُحرِّمون البنات والأمهات والأخوات ، وكانوا يُسَمَّوْنَ حُنفاء ، فَنَزلت : ﴿ حُنفاءَ للهِ غَيْرَ مُشركينَ بِهِ ﴾ أي : حُجَّاجًا لله ، مُسلمين مُوحِّدين . يعني : مَن أشركَ لا يكون حنيفًا . ﴿ وَمَن يُشْرِكْ باللهِ فكأنما خَرَّ ﴾ أي : سقط ﴿ مِنَ السماءِ ﴾ إلى الأرض ، ﴿ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾ أي : تستلبه الطير وتذهب به . والخطف والاختطاف : تناوُل الشيء بسرعة . ﴿ أوْ تَهْوي بِهِ الرِّيحُ ﴾ أي : تَميل وتذهب به ﴿ في مكانٍ سَحِيق ﴾ أي : بَعيد . معناه: بُعْد مَن أشركَ من الحق كَبُعْد مَن سقط من السماء ، فذهبت به الطير ، أو هوت به الريح ، فلا يصل إليه بحال.وقِيل: شبَّه حال المشرك الهاوي من السماء في أنه لا يملك لنفْسه حِيلةً حتى يقع،بحيث تُسقِطه الريح، فهو هالك لا مَحالة، إمَّا باستلاب الطير لَحْمَه، وإمَّا بسقوطه إلى المكان السحيق . وقال الحسن:شبَّه أعمال الكفار بهذه الحال في أنها تذهب وتبطل،فلا يَقْدِرون على شيء منها)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِين ﴾[الشُّعراء : ٢١٣] .

الخطابُ للنبيِّ ﷺ ، والمقصود غَيره ، لأنه ﷺ معصوم . وحاشاه أن يقع في الكفر والشِّرك .

لا تعبد يا محمد مَعَ اللهِ إلَهًا آخر ، فتقع عليك العقوبة الشديدة ، وَيَنْزِل بِك العذاب الأليم . والمعنى : اعبد اللهَ ، وحده لا شريك له ، فهذا هو الطريق الوحيد للنجاة من العذاب .

وإذا كان اللهُ يُحذِّر النبيَّ ﷺ (أكرم مخلوقات الله وأعظمها وأشرفها) مِن الشِّرك ، ويَأمره بالتَّوحيد،ويُخبِره بأنه سيُعذِّبه لو أشركَ بالله، واتَّخذَ مَعَ الله إلَهًا آخَر ، فكيفَ بِغَيره مِن العباد ؟!.

والآيةُ تحثُّ على التَّوحيد الصافي ، وإخلاص العبادة لله وَحْدَه ، لا شريك له ، وتُبيِّن قُبح جريمة الشِّرك وسُوء عاقبتها ، وكَوْنها أسوأ الذنوب على الإطلاق ، بحيث نهى اللهُ محمدًا ﷺ عنها ، وحذَّره مِنها ، وهو النبيُّ الكريم المعصوم الْمُنَزَّه عن الكفر والشِّرك والضلال ، فما بالكَ بالمشركين الغارقين في كُفرهم وضلالهم ويعيشون حياتهم بالطُّول والعَرْض ؟! .

وفي زاد المسير (٦/ ١٤٧) : ((قال ابن عباس : يُحذِّر به غَيْرَه . يقول : أنتَ أكرم الخلق عليَّ ، ولو اتَّخَذْتَ مِن دُوني إلَهًا لَعَذَّبْتُكَ)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٥٥): ((﴿ فلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِين ﴾ تهييج لازدياد الإخلاص ، ولُطف لسائر المكلَّفين)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تأمُرُونِّي أعبدُ أيُّها الجاهلون ﴾ [الزُّمَر : ٦٤] .

قُل يا محمد لِمُشركي قَومك الذين يَدعونك إلى عبادة الأصنام والأوثان، والإشراك بالله تعالى: أتأمروننى أن أعبدَ غَير الله ، وأُشرِك به ، بعد قيام الْحُجَج على وَحدانية الله ، ووضوح الأدلة ، وظُهور البراهين ، وسُطوع الآيات ، وانقطاع الأعذار ، يا أيها الجاهلون بالله ؟ . والاستفهامُ للإنكار التَّوبيخي .

لقد دعا كُفارُ قُرَيش النبيَّ ﷺ إلى دِينهم الوثنيِّ ، دِين الآباء القائم على عبادة الأصنام ، واتِّخاذ الآلهة مِن دُون الله تعالى . وهذا يدل على جهلهم وضلالهم وعِنادهم وغبائهم . وقد أمرَ اللهُ النبيَّ ﷺ بالرد عليهم ، وفضح باطلهم ، ونَسْف جَهْلهم، وبيان أن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة ، ولا تصلُح العبادة لشيء سِواه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٩) : ((ذكروا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغَيره عن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ أن المشركين مِن جَهْلهم دَعَوْا رسولَ الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلَهَه ، فَنَزلت : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تأمُرُونِّي أعبدُ أيُّها الجاهلون ﴾)) اهـ .

٣ــ تَنْزيه الله عن الشريك :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ أأربابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الواحدُ القَهَّار ﴾ [يُوسُف : ٣٩] .

أآلهةٌ كثيرة متعددة ومُتفرِّقة، لا تنفع ولا تضرُّ،ولا تستجيب دُعاء عابديها كالأصنام والأوثان، خَيْرٌ أَم عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، المتفرِّد بالوَحدانية والألوهية والعَظَمَة والجلال ، الذي قَهر كُلَّ شيء ؟!. والاستفهام للإنكار التَّوبيخي . وهذه الْحُجَّةُ الإلهيةُ جاءت على لسان النبيِّ يُوسُف ﷺ لصاحِبَيْه اللذين كانا معه في السِّجن ، وقد أشارَ إلى تفرُّق الآلهة في العدد والنَّوع والطبيعة، واختلاف صفاتها،وهذا دليل نقصها وتناقضها وعَجْزها وبُطلان عبادتها، لأن تعدُّد الآلهة يعني تفرُّق الإرادة، وظُهور الصراعات والنِّزاعات بينها، في محاولتها للسيطرة والهيمنة وبسط النفوذ. وتفرُّق الآلهة في العدد وتكاثرها واختلاف أوصافها ، وتبايُن خصائصها، كُل هذا يدل على أنها لَيْسَت آلهة . واللهُ وَحْدَه هو الإله الحق ، واحدٌ في ذاته ، وواحد في صفاته، ذَلَّ لعَظَمَته وسُلطانه كُل شيء، وخَضعت المخلوقات جميعها لأمره وحُكمه .

واللهُ لا شريك له، ولا صاحبة، ولا ولد ، ولا نِد ، ولا ضِد. لا يُنافسه أحد، ولا يُغالِبه مُغالِب ، ولا يُعانِده مُعانِد ، ولا يُشاركه مخلوق في أُلوهيته ورُبوبيته . وكُل ما سِوى الله مخلوق ذليل لله تعالى. وهذا مَثَلٌ بليغ ضَربه لعبادة الله وَحْدَه وعبادة الآلهة الباطلة (الأصنام والأوثان) .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٢١٧) : ((ذُكِر أن يُوسُف صلوات الله عليه قال هذا القَول للفَتَيَيْن اللذين دخلا معه السجن ، لأن أحدهما كان مُشركًا ، فدعاه بهذا القول إلى الإسلام ، وترك عبادة الآلهة والأوثان ... . وقَوله : ﴿ أأربابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الواحدُ القَهَّار ﴾ . يقول : أعبادة أرباب شَتَّى مُتفرِّقين وآلهة لا تنفع ولا تضرُّ ، خَيْرٌ أَم عبادة المعبود الواحد الذي لا ثاني له في قُدرته وسُلطانه الذي قَهر كُلَّ شيء ، فَذَلَّله وسخَّره ، فأطاعه طَوْعًا وكَرْهًا ؟!)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٢٥):((قَوله تعالى: ﴿ أأربابٌ مُتَفَرِّقُونَ ﴾ يعني : الأصنام مِن صغير وكبير ﴿ خَيْرٌ ﴾ أي : أعظم صِفة في المدح ﴿ أَمِ اللهُ الواحدُ القَهَّار ﴾ يعني أنه أحق بالإلهية من الأصنام . فأمَّا الواحد ، فقال الخطابي : هو الفرد الذي لَم يزل وَحْدَه . وقيل : هو المنقطع القرين ، المعدوم الشريك والنظير ، وليس كسائر الآحاد من الأجسام المؤلَّفة ، فإن كُل شيء سِواه يُدعَى واحدًا مِن جهة، غَير واحد من جهات. والواحد لا يُثَنَّى مِن لفظه. لا يُقال : واحدان. والقهَّار الذي قَهر الجبابرةَ مِن عُتاة خَلْقه بالعقوبة، وقَهر الخلقَ كُلَّهم بالموت. وقال غَيره: القهَّار الذي قَهر كُلَّ شيء فَذَلَّلَهُ ، فاستسلمَ ، وذَل له)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أفأصفاكُم رَبُّكم بالبَنينَ واتَّخَذَ مِنَ الملائكةِ إناثًا إنكم لَتَقُولونَ قَوْلاً عَظيمًا ﴾ [الإسراء : ٤٠].

هذا توبيخٌ وتقريعٌ لِمُشركي العرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله، تعالى اللهُ عُلُوًّا كبيرًا . أفَخَصَّكم رَبُّكم بالذكور ، واختارَ لنفْسه الإناث _ وَفْق زعمكم _ ؟ .

إنكم تَكرهون البنات وتَئِدونهن وتقتلونهن ولا تَقْبلون بهن،فكيفَ تَجعلون لله تعالى ما تَكرهون لأنفسكم؟.كيفَ تجعلون الذكور (النسل الأعلى) لأنفسكم، والإناث (النسل الأدنى) لله تعالى؟.

إن قَولكم : الملائكة بنات الله ،كذبٌ واضح ، وافتراء على الله ، وكفر شنيع، وضلال مُبين. إنكم تقولون قَولاً في غاية الكفر والضلال والسُّوء ، حيث تَنسِبون الأولادَ إلى الله تعالى ، وهُو مُنَزَّه عن الصاحبة والولد ، لأن التكاثر من صفات الأجسام الزائلة الفانية ، والله هو الخالق الذي لا يموت ولا يزول ولا يفنى . وتُفضِّلون أنفسَكم على الله الخالق، حيث تنسِبون إليه البنات اللواتي تكرهونهن ، وتختصون بالذكور (أفضل الأولاد) . وتَجعلون الملائكة أصحاب المكانة الشريفة الرفيعة إناثًا في مرتبة دُونية وضيعة . لقد كفرتم مِن كُل الوجوه ، وضاعفتم ذُنوبكم وضلالكم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٨) : ((يقول تعالى رَادًّا على المشركين الكاذبين الزاعمين _ عليهم لعائن الله _ أن الملائكة بنات الله ، فجعلوا الملائكة الذين هُم عباد الرحمن إناثًا ، ثم

ادَّعوا أنهم بنات الله ، ثم عبدوهم ، فأخطأوا في كُل من المقامات الثلاث خطأ عظيمًا ، فقال تعالى مُنكِرًا عليهم : ﴿ أفأصفاكُم رَبُّكم بالبَنينَ ﴾ أي : خصَّصكم بالذكور ، ﴿ واتَّخَذَ مِنَ الملائكةِ إناثًا ﴾ أي : واختار لنفْسه _ على زعمكم _ البنات . ثم شدَّد الإنكار عليهم ، فقال: ﴿ إنكم لَتَقُولونَ قَوْلاً عَظيمًا ﴾ أي : في زعمكم أن لله ولدًا ، ثم جَعْلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يَكُنَّ لكم ، وربما قتلتموهنَّ بالوأد ، فَتِلْكَ إذًا قِسمة ضِيزى _ يعني جائرة ظالمة _)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الذينَ زَعَمْتُم مِن دُونِهِ فلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُم ولا تَحْويلاً ﴾ [الإسراء : ٥٦] .

قُل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يَعبدون غَيْرَ الله تعالى: ادْعُوا الذينَ زعمتم أنهم آلهة وأرباب وأنداد مِن دُون الله تعالى، فلا يستطيعون رفع البلاء عنكم، ولا إنقاذكم مِن الكَرْب، ولا تخليصكم مِن الشِّدة ، ولا إزالة الضُّر عنكم كالمرض والفقر والقَحْط ، ولا تَحويل البلاء إلى غَيْركم ، ولا تحويلكم مِن السُّقم والفقر إلى الصحة والغِنى . وهذا يدل على عَجْز آلهتكم المزعومة وبُطلان عبادتها . إن الله وَحْدَه هو القادر على جلب النفع ، ودفع الضر ، لأنه خالق كُل شيء ، والقادر على كُل شيء ، له الخلق والأمر والْحُكم ، لا شريك له .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٢٤٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الذينَ زَعَمْتُم مِن دُونِهِ ﴾ . لَمَّا ابْتُلِيَتْ قُرَيش بالقحط ، وشَكَوْا إلى رسول الله ﷺ ، أنزلَ اللهُ هذه الآية . أي: ادْعُوا الذين تعبدون مِن دُون الله ، وزعمتم أنهم آلهة . وقال الحسن : يعني الملائكة وعيسى وعُزَيْرًا . ابن مسعود : يعني الجن . ﴿ فلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُم ﴾ أي : القَحْط سبع سنين ، على قول مُقاتل ، ﴿ ولا تَحْويلاً ﴾ مِن الفقر إلى الغِنى ، ومِن السُّقم إلى الصحة)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤٩): ((قَوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الذينَ زَعَمْتُم مِن دُونِهِ ﴾ ، في سبب نزولها قَولان : أحدهما أن نَفَرًا من العرب كانوا يَعبدون نَفَرًا مِن الجِن ، فأسلمَ الجن ، والنَّفَر مِن العرب لا يَشعرون ، فَنَزلت هذه الآية والتي بعدها . رُوِيَ عن ابن مسعود . والثاني أن المشركين كانوا يعبدون الملائكة، ويقولون : هي تشفع لنا عند الله ، فلمَّا ابتُلُوا بالقحط سبع سنين ، قِيل لهم : ادْعُوا الذين زعمتم . قاله مقاتل . والمعنى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الذينَ زَعَمْتُم ﴾ أنهم آلهة ، ﴿ فلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُم ولا تَحْويلاً ﴾ له إلى غَيركم)) اهـ .

وعن ابن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ قال : ((كان نَفَرٌ مِن الإنس يَعبدون نَفَرًا مِن الجِن ، فأسلمَ النَّفَرُ مِن الجن ، وتَمَسَّكَ الإنسيون بعبادتهم ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ قُلِ ادْعُوا الذينَ

زَعَمْتُم مِن دُونِهِ فلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُم ولا تَحْوِيلاً ﴾ ـ والآية التي بعدها ـ)) [6]. وَالنَّفَرُ مِن الثلاثة إلى العشرة . وقال الفراهيدي في كتاب العَين (٨/ ٢٦٧) : ((يُقال : هؤلاءِ عشرةُ نَفَر ، أي : عشرة رجال . ولا يُقال : عشرون نَفَرًا ، ولا ما فوقَ العَشَرة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم لهم آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِن دُونِنَا لا يَستطيعونَ نَصْرَ أنفُسِهِم ولا هُم مِنَّا يُصْحَبُون ﴾ [الأنبياء : ٤٣] .

المقصود بالخطاب الإلهيِّ الكافرون الذين يستعجلون بالعذاب سُخريةً واستهزاءً : أَلَهُم آلهة غَيْر الله ، تَحميهم مِن عذاب الله ، وتَمنعهم من عقابه ؟ . وهذا استفهام إنكاري لتوبيخهم .

لقد خابَ ظَنُّهم ، وسَقط وَهْمُهم ، وبَطَلَ زَعْمُهم . ليس الأمر كما توهَّموا وزَعموا ، إن آلهتهم المزعومة التي اعتمدوا عَلَيها ، واستندوا إلَيها ، لا يستطيعون نصرَ أنفسهم، فكيف ينصرون عابديهم ؟ . وهذه الآلهة الباطلة لا تستطيع أن تُجير نفسها مِن عذاب الله ، ولا تَحْمي نفسها من غضبه وعقوبته ، لأنه عاجزة وضعيفة ، لا تنفع ولا تضرُّ ، ووجودها كعدمه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٥٣) : ((﴿ أَم لهم آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِن دُونِنَا ﴾ ، فيه تقديم وتأخير ، وتقديره : أَم لهم آلهة مِن دُوننا تَمنعهم . وهاهُنا تَمَّ الكلام ، ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال : ﴿ لا يَستطيعونَ نَصْرَ أنفُسِهِم ﴾ . والمعنى : مَن لا يَقْدِر على نَصْر نفْسه عمَّا يُراد به ، فكيف يَنصر غَيْرَه ؟ . قَوله تعالى : ﴿ ولا هُم ﴾ في الْمُشار إِلَيهم قَولان : أحدهما أنهم الكفار ، وهو قول ابن عباس . والثاني أنهم الأصنام ، قاله قتادة . وفي معنى : ﴿ يُصْحَبُون ﴾ أربعة أقوال : أحدها يُجَارُون ، رواه العَوْفي عن ابن عباس . قال ابن قُتَيبة : والمعنى : لا يُجيرهم مِنَّا أحد ، لأن الْمُجِير صاحب لجاره . والثاني يُمْنَعُون ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث يُنصَرون ، قاله مجاهد . والرابع لا يُصحَبون بِخَير ، قاله قَتادة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ إنَّ الذينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وإن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب﴾ [الحج : ٧٣] .

ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً بليغًا للآلهة المعبودة مِن دُون الله ، وهي الأصنام والأوثان . وهذا المثَل يدل على سخافة الآلهة الباطلة (الأصنام والأوثان) وجهلِ عابديها وغبائهم وضلالهم وعنادهم .

---

(٦) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٩٤) برقم (٣٣٧٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

واللهُ يُوضِّح حُجَجَ تَوحيده ودلائلَ عَظَمَته بضرب الأمثال لتقريب المعنى إلى عقول الناس وأفهامهم ، بلا تعقيد ولا غُموض .

يا مُشركي مكة ، جَعل اللهُ لكم ولآلهتكم المعبودة مِن دُون الله شَبَهًا دقيقًا ومَثَلاً بليغًا ، فأنصِتوا لهذا المثَل ، واعرفوا مَعناه ، وافهموا أبعادَه ، وتدبَّروه بشكل عميق ، إن آلهتكم الأصنام التي تعبدونها مِن دُون الله ، لن تستطيع خَلْقَ ذُبابة على ضعفها وصِغرها ومهانتها، ولو اجتمعت على ذلك. يعني: لو اجتمعت الأصنامُ والأوثانُ والأندادُ مِن أجل خلق ذبابة واحدة، لعجزوا عن ذلك، وما قَدِروا عليه. فكيفَ تتَّخذون هذه الأصنامَ العاجزة آلهةً وتعبدونها ؟! . إن الإله المستحق للعبادة هو اللهُ الخالق القادر على كُل شيء ، ولا يُعجِزه شيء .

والذبابُ اسمُ واحد للذكر والأنثى ، وسُمِّيَ بهذا الاسم لكثرة حركته وسُرعة انتشاره .

وعَجْزُ الأصنام لَم يقف عند هذا الحد (العجز عن خلق ذبابة) ، بل أيضًا ، إن يَأخذ الذبابُ شيئًا مِن الطِّيب الذي كان المشركون يُضمِّخون بِه أصنامَهم تعظيمًا لها وتشريفًا لِقَدْرها ، لَن تَقْدِر هذه الأصنام (الآلهة الباطلة) أن تسترجعه مِن الذباب رغم ضعفه وحقارته ، وهذا يدل على عَجْز الأصنام وكَوْنها آلهةً مزعومةً وباطلةً ، لأن الإله الحق لا يكون ضعيفًا ولا عاجزًا ولا خاضعًا. كما يدل على ضلال المشركين وعنادهم وجهلهم ، إذ إنهم أشركوا بالله الخالق القادر على كل شيء ، وجعلوا الأصنامَ العاجزة الضعيفة شريكةً لله القويِّ العزيز الذي أوجدَ الأشياء مِن العدم بِقُدرته المطْلقة ، وقَهَر المخلوقاتِ بجبروته وهَيمنته وجَلاله ، فكيفَ تكون الأصنام العاجزة المغلوبة شبيهةً لله الخالق القاهر وشريكةً له في أُلوهيته ومُلْكه؟!.إن الله وَحْدَه هو الإله الحق، لا شريك له.

ضَعُفَ المشرِك العابد (الطالب) الذي يَطلب المعونة والنُّصرة والشفاعة والخير مِن الصَّنم ، وَضَعُفَ الصَّنم المعبود (المطلوب) الذي تُطلَب مِنه الحوائج ، ويُتَوَجَّه إليه بالدعاء . كِلاهُما ضعيف حقير وضيع مَهِين .

والأصنام (الآلهة الباطلة) عاجزة وضعيفة أمام الذباب وهو أضعف مخلوقات الله وأحقرها . فكيفَ تكون الأصنام الحقيرة الدنيئة شريكةً لله الخالق الرازق المسيطِر على كل شيء ؟! .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٨٩):((وخُصَّ الذباب لأربعة أمور تَخُصُّه: لمهانته، وضعفه، ولاستقذاره ، وكَثرته . فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره ، لا يَقْدِر مَن عَبَدوه مِن دُون الله عز وجل على خَلْق مِثْله ، ودفع أذِيَّته ، فكيف يجوز أن يكونوا آلهةً معبودين ، وأربابًا مُطاعين ، وهذا مِن أقوى الْحُجَّة وأوضح البُرهان)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٥١ و٤٥٢): ((قَوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ . قال الأخفش : إن قِيل : أين المثَل ؟، فالجواب أنه ليس هاهُنا مَثَل، وإنما المعنى : يا أيها الناس ضُرِبَ لِي مَثَل ، أي شُبِّهَتْ بِيَ الأوثان ، فاستمعوا لهذا المثَل. وتأويل الآية: جَعل المشركون الأصنامَ شُركائي ، فعبدوها معي ، فاستمعوا حالها، ثُمَّ بيَّن ذلك بِقَوله: ﴿ إنَّ الذينَ تَدْعُونَ ﴾ أي : تَعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ ﴾ ... .وقِيل: إنما خُصَّ الذباب لمهانته واستقذاره وكثرته . ﴿ وَلَوِ اجْتَمَعُوا ﴾ يعني : الأصنام ﴿ لَهُ ﴾ أي : لِخَلْقه . ﴿ وإن يَسْلُبْهُمُ ﴾ يعني : الأصنام . قال ابن عباس : كانوا يَطْلُون أصنامهم بالزَّعفران فيجف ، فيأتي الذباب فيختلسه . وقال ابن جُرَيج: كانوا إذا طَيَّبوا أصنامهم عجنوا طِيبهم بشيء من الحلواء كالعسل ونَحْوه ، فيقع عليه الذباب فيسلبها إيَّاه ، فلا تستطيع الآلهة ولا مَن عَبَدَها أن يَمنعه ذلك . وقال السُّدي : كانوا يَجعلون للآلهة طعامًا ، فيقع الذباب عليه ، فيأكل منه . قال ثعلب : وإنما قال : ﴿ لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ فجعل أفعال الآلهة كأفعال الآدميين ، إذ كانوا يُعظِّمونها ويَذبحون لها وتُخَاطَب... . قَوله تعالى: ﴿ ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أن الطالب الصنم ، والمطلوب الذباب . رواه عطاء عن ابن عباس . والثاني الطالب الذباب ، يَطلب ما يَسلبه مِن الطِّيب الذي على الصنم، والمطلوب الصنم، يَطلب الذبابُ مِنه سَلْبَ ما عليه ، رُوِيَ عن ابن عباس أيضًا . والثالث الطالب عابد الصنم ، يَطلب التقرب بعبادته ، والمطلوب الصنم . هذا معنى قول الضَّحاك والسُّدي)) .

وعن أبي هريرة ــ رضي اللهُ عنه ــ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول : ((قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَمَن أظلمُ مِمَّن ذَهب يَخلق كَخَلْقي ، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّة ، أو لِيَخْلقوا حَبَّة ، أو شعيرة)) [7].

لا يوجد أسوأ ولا أظلم مِمَّن قَصَدَ أن يَصنع كصُنع اللهِ في الهيئة، أو يَخلق كَخَلْقه في الصورة، فليخلقوا ذَرَّةً فيها رُوح ، أو يَصنعوا مَخلوقًا مهما كان صغيرًا . وهذا أمر تعجيز . إنهم عاجزون عن فِعل ذلك ، لأن الله وَحْدَه هو الخالق القادر الذي أوجد المخلوقات من العدم . والعبدُ المخلوق عاجز لأن قُدرته محدودة وضعيفة ، أمَّا اللهُ الخالق فلا يُعجِزه شَيء ، لأن قُدرته مُطْلقة ، وإرادته نافذة في كل شيء ، ولا شيء يُوقفها أو يُبطِلها .

والإنسان الذي يُريد أن يتحدَّى اللهَ ، ويخلق كَخَلْقه ، أو يَصنع كصُنعه ، قد ظَلَمَ نَفْسَه أشدَّ الظلم ، لأنه أوردها المهالك ، وقادها إلى عذاب النار الأبديِّ ، الذي لا نهاية له ولا انقطاع .

---

(٧) متفق عليه.البخاري (٦/ ٢٧٤٧) برقم (٧١٢٠)،ومسلم (٣/ ١٦٧١)برقم (٢١١١).

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٤/ ٤٨١ و٤٨٢) عن إحدى روايات الحديث: ((" قال الله تعالى : ومَن أظلمُ مِمَّن ذهب " ، أي قصد " يَخْلُق خَلْقًا كَخَلْقي " ، أي : ولا أحد أظلم مِمَّن قَصَدَ أن يَصنع كَخَلْقي، وهذا التَّشبيه لا عُموم له، يعني كَخَلْقي مِن بعض الوجوه في فِعل الصورة، لا مِن كل وجه. واسْتُشْكِل التعبير بأظلم ، بأن الكافر أظلم . وأُجِيب بأنه إذا صوَّر الصنم للعبادة كان كافرًا ، فَهُوَ هُوَ ، ويزيد عذابه على سائر الكُفار بِقُبح كُفره . " فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً " نملةً صغيرة ، " أو لِيَخْلُقُوا حَبَّةً " ، أي حبة بُر ، بقرينة ذِكر الشعير ، أو هي أعَم . " أو لِيَخْلُقُوا شَعيرةً " ، والمراد تعجيزهم تارةً بتكليفهم خَلْق حيوان وهو أشد ، وأخرى بتكليفهم خلق جَماد وهو أهْوَن . ومع ذلك لا قُدرة لهم عليه ، وأَخَذَ منه مجاهد حُرمة تصوير ما لا رُوح فيه ، حيث ذَكَرَ الشعيرة وهي جماد ، وخالفه الجمهور استدلالاً بِقَوله في حديث آخَر : " أَحْيُوا ما خَلَقْتُم ". وفيه نوع من التَّرَقِّي في الخساسة ، ونوع من التَّنَزُّل والإلزام . وحُكِيَ أنه وقع السؤال عن حِكمة التَّرَقِّي مِن الذَّرَّة إلى الحبَّة إلى الشعيرة ، فأجاب التَّقي الشمني بديهةً بأن صُنع الأشياء الدقيقة فيه صعوبة ، والأمر بمعنى التَّعجيز ، فناسبَ التَّرَقِّي مِن الأعلى للأدنى ، فاستحسنه الحافظ ابن حجر)) اهـ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤/ ٩١) : ((وأمَّا قَوله تعالى : " فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أو حَبَّةً أو شَعيرةً " ، ومعناه : فليخلقوا ذَرَّة فيها رُوح تتصرَّف بنفْسها كهذه الذَّرَّة التي هي خَلْق الله تعالى ، وكذلك فليخلقوا حَبَّة حِنطة أو شعير ، أي: ليخلقوا حَبَّة فيها طَعْم تُؤكَل وتُزرَع وتَنبت، ويوجد فيها ما يوجد في حَبَّة الحِنطة والشعير، ونَحْوهما مِن الْحَبِّ الذي يَخلقه اللهُ تعالى، وهذا أمرُ تعجيز ، والله أعلم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون ﴾[المؤمنون : ٩٢] .

إنَّ اللهَ يَعلم كُلَّ شيء . يَعلم ما غابَ عن خَلْقه من الأشياء ، وخَفِيَ عليهم ، ولَم يُشاهدوه ، ويَعلم ما شَاهَدُوه وأدركوه بِحَوَاسِّهم. أي إن الله يَعلم ما يَغيب عَن المخلوقات وما لَم يَغِبْ عَنهم. فتقدَّسَ اللهُ وتَنَزَّهَ وتعالى عن الشريك والصاحبة والولد والنِّد .

والمخلوقُ يَعلم الأشياءَ الظاهرة التي يراها ويُشاهدها،لكنه لا يَعلم الغَيْبِيَّات التي لا يُشاهدها ولا يَرَاها ، لأنه كائن ضعيف عاجز ذو قُدرة محدودة . أمَّا اللهُ فهو الخالق العظيم الذي أحاطَ بكل شيء عِلْمًا . يَعلم شُؤون خَلْقه ، ويُدرِك السِّرَّ والعلانيةَ ، ولا تَخفى عليه خافية ، لأن قُدرته مُطْلقة ، لا حُدود لها ، وإرادته نافذة في كل شيء، ولا يُعجِزه شيء. لقد تفرَّدَ اللهُ بالعِلم الشامل ، والإحاطةِ الكُلِّية بكل شيء ، ومَن كانت هذه صِفته ، فلا شَكَّ في تعاليه عن أن يكون له شريك.

وقال الطبري في تفسيره (٩ /٢٣٩) : ((وقَوله : ﴿ عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ ﴾ . يَقول تعالى ذِكْرُه : هو عالِم ما غاب عن خَلْقه مِن الأشياء ، فَلَم يَرَوْه ، ولَم يُشاهدوه ، وما رَأَوْهُ وشاهدوه . إنما هذا مِن الله خبر عن هؤلاء الذين قالوا من المشركين : اتَّخذ اللهُ ولدًا ، وعبدوا من دونه آلهة، إنهم فيما يقولون ويفعلون مُبطِلون مُخطئون ، فإنهم يقولون ما يقولون مِن قول في ذلك مِن غَير عِلم ، بَل عن جهل مِنهم به ، وإنَّ العالِم بقديم الأمور وبحديثها ، وشاهِدها وغائبها عنهم، الله الذي لا يخفى عليه شيء ، فخبره هو الحق دون خبرهم ... . وقَوله : ﴿ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون ﴾ ، يقول تعالى ذِكْرُه: فارتفعَ اللهُ وعلا عن شِرْك هؤلاء المشركين ، ووَصْفهم إيَّاه بما يصفون)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إلَهًا آخَرَ لا بُرهانَ لَهُ بِهِ فإنما حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافرون ﴾ [المؤمنون : ١١٧] .

هذا وعيدٌ إلهيٌّ شديد للمشركين ، وتوبيخٌ وتقريع لهم . ومَن يَجعل لله شريكًا في أُلوهيته ومُلْكه، ويَعبده مَعَ اللهِ تعالى، ولا دليل له على قَوْله ولا حُجَّة على عَمَله، فجزاؤه وعِقابه عند الله، وسوفَ يُحاسبه أشد الحساب. والكافرون الذين جَحدوا وَحدانيةَ اللهِ ، وكَذَّبوا بِنُبُوَّة محمد ﷺ ، لا يَنجحون في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا يَفوزون ، ولا يَسْعَدُون . ومصيرهم الخِزي والعار والذل في الدَّارَيْن ، ونهايتهم هي الخلود في عذاب النار الشديد . وقد أهلكوا أنفسهم بأنفسهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٧١) : ((﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إلَهًا آخَرَ ﴾ يَعبده إفرادًا ، أو إشراكًا ، ﴿ لا بُرهانَ لَهُ بِهِ ﴾ جِيء بِها للتأكيد ، وبناء الْحُكم عليه ، تنبيهًا على أن التدين بما لا دليل عليه مَمنوع ، فضلاً عمَّا دَل الدليل على خِلافه، أو اعتراض بين الشرط والجزاء، لذلك : ﴿ فإنما حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ ، فهو مُجَاز له مقدار ما يستحقه)) اهـ .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٦ / ١٥٣) : ((والأصل حسابه أنه لا يُفلِح هُوَ ، فوُضِع ﴿ الكافرون ﴾ مَوضع الضَّمير ، لأن مَن يَدْعُ في معنى الجمع ، وكذلك حِسابه أنه لا يُفلِح ، في معنى : حسابهم أنهم لا يُفلِحون)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ واتَّخَذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وهُم يُخْلَقُونَ ولا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِم ضَرًّا ولا نَفْعًا ولا يَمْلِكُونَ مَوْتًا ولا حَياةً ولا نُشُورًا ﴾ [الفُرقان : ٣] .

غَرِقَ المشركون في كُفرهم وضلالهم وجهلهم وعِنادهم، معَ ظُهور الآيات الدالة على وَحدانية الله تعالى، وقِيام الْحُجَّة عليهم ، وانقطاع أعذارهم . فقد اتَّخذوا مِن دُون الله آلهةً وأصنامًا وأندادًا وشُركاء لله تعالى ، يَعبدونهم ، ويُقدِّسونهم ، ويتوجَّهون إليهم .

اتَّخذ المشركون مِن دُون الله آلهةً ضعيفةً عاجزةً، لا يَخلقون شيئًا، واللهُ يَخلقهم . فالأصنام مَخلوقة لا خالقة، وعُبَّاد الأصنام هُم الذين يَصنعونها بأيديهم . فكيفَ يكون الإلهُ مصنوعًا بيد عبده ؟! . وتَمَّ التعبير عن الآلهة كما يُعبَّر عن العقلاء ، لأن المشركين اعتقدوا أن آلهتهم تضرُّ وتَنفع، وبالتالي أخرجوها مِن حيِّز الجمادات العاجزة إلى مجال العقلاء القادرين الذين يَملكون المشيئة والإرادة . وأيضًا ، لأن في معبودات الكفار وآلهتهم المسيح وعُزَير والملائكة .

والآلهةُ الباطلةُ لا يَملكون دَفْعَ الضر عن أنفسهم ، ولا عَن عابديهم ، ولا جلب النفع إلى أنفسهم ولا إلى عابديهم ، فهي جمادات في مُنتهى الضعف والعجز . وقُدِّم الضر على النَّفع ، لأن دَفْع الضر أهم مِن جلب النَّفع ، ومُقدَّم عليه ، كما أن دفع الضر هو بداية النفع وأساسه .

والآلهةُ الباطلةُ لا يَقْدِرون على دفع الضر عن أنفسهم ولا جلب النفع إلى أنفسهم ، فكيفَ يَحمون غَيْرَهم مِن الضر ويَجلبون لهم النفع ؟! . مَن كان عاجزًا عن مُساعدة نفْسه ، فهو عن مُساعدة غَيْره أكثر عجزًا . والآلهةُ الباطلةُ لا يُميتون أحدًا ، ولا يُحْيونه ، ولا يَقْدِرون على بعث أحد من قبره ، وإحيائه بعد مَوْته . إنهم عاجزون بشكل تام وكامل عن إحياء الأحياء وإحياء الأموات وبعثهم مِن القُبور . والنُّشور هو الإحياء بعد الموت .

والآيةُ تُبيِّن العجز التام لآلهة المشركين المعبودة من دُون الله ، وتُبيِّن القُدرةَ المطْلقة لله تعالى، فهو وَحْدَه الإله الحق، لأنه القادر على الخلق ، ودفع الضر ، وجلب النفع ، والإماتة ، والإحياء ، والبعث . والإلهُ الحق يجب أن يكون قادرًا على البعث والجزاء ، لأن هذا من لوازم الأُلوهية ، ومَن لا يَقْدِر على ذلك فليس إلَهًا. فكيف يَعبد المشركون هذه الآلهة (الأصنام) الباطلة العاجزة، ويَتركون تَوحيدَ الله القادر على هذه الأشياء العظيمة الباهرة ؟ . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤١٢) : ((يُخبِر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة مِن دون الله، الخالق لكل شيء، المالك لأزِمَّة الأمور، الذي ما شاء كان، وما لَم يشأ لَم يكن، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يَقْدِر على خلق جناح بعوضة ، بل هم مَخلوقون ﴿ ولا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِم ضَرًّا ولا نَفْعًا ﴾ ، فكيف يَملكون لعابديهم؟. ﴿ ولا يَمْلِكُونَ مَوْتًا ولا حَياةً ولا نُشُورًا ﴾ أي: ليس لهم من ذلك شيء، بل ذلك كُله مَرجعه إلى الله عز وجل، الذي هو يُحيي ويُميت، وهو الذي يُعيد الخلائق يوم القيامة أوَّلَهم وآخرهم. فهو الله الذي لا إله غَيْرُه، ولا رَب سِواه،ولا تنبغي العبادة إلا له، لأنه ما شاء كان، وما لَم يشأ لَم يكن، وهو الذي لا ولد ولا والد له،ولا عديل ولا نديد ولا وزير ولا نظير.بل هو الأحد الصمد الذي لَم يلد ولَم يُولد ولَم يكن له كُفُوًا أحد)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لكم رِزْقًا فابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ واعبدوهُ واشكُروا لَهُ ﴾ [العنكبوت : ١٧] .

إن آلهتكم الأصنام التي تعبدونهم مِن دُون الله يا أيها المشركون ، لا يستطيعون أن يَرزقوكم شيئًا، لأن الأصنام جمادات ضعيفة وعاجزة ، لا تضرُّ ولا تنفع ، فاطلبوا الرزقَ مِن الله وَحْدَه ، فهو القادر عليه ، والمالك له . وتنكير ﴿ رِزْقًا ﴾ للتَّعميم .

آلهتكم الأصنام العاجزة لا يَستطيعون رِزْقَكم ، فاعبدوا اللهَ وَحْدَه بلا شريك ، لأنه الإله المستحق للعبادة، واشكروه على نِعَمه وآلائه التي أنعمَ بها عليكم . وبالشُّكر تَدوم النِّعَم . ومَن جَحَدَ نِعمةَ الله فقدها ، وعِندئذ سيعرف قيمتها الحقيقية ، ويندم أشدَّ الندم ، يوم لا يَنفع الندم .

والشُّكرُ الحقيقيُّ يَكون بالقلب واللسان والجوارح. ومَن أشركَ بالله تعالى، فهو جاحدٌ لِنَعمه ، وغَير مُعترف بفضله ، ورافض لشُكره ، حتى لَو زَعم غَيْرَ ذلك .

وقال أبو السعود في تفسيره (٧ / ٣٤): ((﴿ إنَّ الذينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ بيان لِشَرِّية ما يَعبدونه ، مِن حيث إنه لا يكاد يُجديهم نفعًا ، ﴿ لا يَمْلِكُونَ لكم رِزْقًا ﴾ أي : لا يَقْدِرون على أن يَرزقوكم شيئًا مِن الرِّزق ، ﴿ فابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ ﴾ كُلَّه ، فإنه هو الرَّزاق ذو القوة المتين ، ﴿ واعبدوهُ ﴾ وَحْدَه ، ﴿ واشكُروا لَهُ ﴾ على نَعْمائه ، مُتَوَسِّلين إلى مطالبكم بعبادته ، مُقيِّدين بالشُّكر للعتيد ، ومُستجلبين للمزيد)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ اللهُ الذي خَلَقَكم ثُمَّ رَزقكم ثُمَّ يُميتُكم ثُمَّ يُحييكُم هَلْ مِن شُركائِكُم مَن يَفعلُ مِن ذَلِكُم مِن شَيْءٍ سُبحانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُون ﴾[الرُّوم : ٤٠] .

اللهُ هو الخالق الرازق ، لا تصلُح العبادة إلا له . خلقكم مِن العدم ، ولَم يكن لكم وجود ، ثم رزقكم النِّعَمَ الكثيرةَ التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ، ولَم تكونوا تَملكون شيئًا. ثم يُميتكم بعد انقضاء آجالكم في الحياة الدنيا ، ثُمَّ يبعثكم من قبوركم ، ويُحييكم يوم القِيامة ليُجازيَكم على أعمالكم ، حيث يُجازي المحسِن بإحسانه ، والْمُسيء بإساءته .

هل مِن آلهتكم وأصنامكم وأوثانكم التي تعبدونها أيها المشركون مَن يَستطيع أن يَفعل ذلك ؟. هل تَقْدِر آلهتكم الباطلة على الخلق والرزق والإماتة والبعث ؟. وهذا توبيخٌ شديد للمُشركين ، وتقريع لهم . وهو احتجاج على المشركين ، وإقامة للحُجَّة عليهم، إذ إن المشركين مُعترفون أن آلهتهم الأصنام لا تَخلق ولا تَرزق ولا تُحيي ولا تُميت . والاعتراف سيِّد الأدلة، ومِن أفواههم نُدينهم . وقد أقاموا الْحُجَّةَ على أنفسهم ، وقطعوا أعذارهم بأنفسهم .

وقد أضافَ اللهُ الشُّركاء إلى المشركين ﴿ شُركائِكُم ﴾، لأنهم كانوا يَعتبرون الأصنامَ آلهةً لهم ، ويتبرَّكون بِها ، ويَجعلون لها نصيبًا مِن أموالهم ومُمتلكاتهم .

إن آلهتكم لا تفعل شيئًا مِن ذلك لأنها جمادات ضعيفة وعاجزة ، فكيف تعبدونها وهي لا تضرُّ ولا تنفع ، ووجودها كعدمه ، وتتركون تَوحيدَ الله القادر على كل شيء ؟ . إن الله وَحْدَه هو القادر على الخلق والرزق والإماتة والبعث . وقد أثبتَ اللهُ لذاته العَلِيَّة لوازم الأُلوهية وخصائصها، ونفاها عن آلهة المشركين (الأصنام والأوثان) . والإلهُ الحق يجب أن يكون قادرًا على كل شيء.

تَقَدَّسَ اللهُ وتَنَزَّهَ وتعالى عن شِرك هؤلاء المشركين الضَّالين عُبَّاد الأصنام . فاللهُ وَحْدَه هو الإله الحق ، لا شريك له ، ولا شَبيه ، ولا نَظير ، ولا صاحبة ، ولا ولد ، ولا نِد . والآيةُ تُوضِّح العجز التام للآلهة الباطلة (الأصنام والأوثان) ، كما تُوضِّح جهل المشركين وضلالهم وعنادهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٧٥) : ((قَوله عز وجل: ﴿ اللهُ الذي خَلَقَكم ثُمَّ رَزقكم ﴾ أي : هو الخالق الرَّزاق ، يُخرِج الإنسانَ من بطن أُمِّه عُرْيانًا ، لا عِلم له ، ولا سمع ، ولا بصر ، ولا قوة ، ثُمَّ يَرزقه جميع ذلك بعد ذلك والرِّياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب ... . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُميتُكم ﴾ أي : بعد هذه الحياة ، ﴿ ثُمَّ يُحييكُم ﴾ أي : يوم القيامة . وقَوله تعالى : ﴿ هَلْ مِن شُركائِكُم ﴾ ، أي : الذين تعبدونهم من دون الله ، ﴿ مَن يَفعلُ مِن ذَلِكُم مِن شَيْءٍ ﴾ ؟، أي: لا يَقْدِر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرِّزق والإحياء والإماتة ، ثم يَبعث الخلائقَ يوم القيامة ، ولهذا قال بعد هذا كُلِّه : ﴿ سُبحانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُون ﴾ أي : تعالى وتَقَدَّسَ وتَنَزَّهَ وتعاظمَ وَجَلَّ وعَزَّ عن أن يكون له شريك، أو نظير أو مُساوٍ أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لَم يلد ولَم يُولَد ، ولَم يكن له كُفُوًا أحد)) .

٤ــ الشُّبَه التي يَحْتَجُّون بها :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الذينَ أشْرَكوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنا ولا آباؤُنا ولا حَرَّمْنا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الذينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنا ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

علَّقوا شِرْكهم على مشيئة الله جهلاً منهم ، وجعلوا الشِّرك إنما تَمَّ بمشيئته تعالى وإرادته وَفْقَ منظورهم الرامي إلى تخليص أنفسهم من أية مسؤولية على اختياراتهم . فنظرتهم العَقَدية متمركزة حول فكرة جَبرية، وأنهم واقعون تحت مشيئة الله التي أجْبَرَتْهم على ارتكاب الذنوب والوقوعِ في الشِّرك ــ وَفْقَ عقيدتهم الباطلة ــ ، وأنَّ اللهَ لَوْ أرادَ لَمَنَعَهم مِن الشِّرْك .

إن الشخص الذي تُقام عليه الْحُجَّةُ، ولَيس له حُجَّة، سَيتذرَّع بِفَهْمه المغلوط للقضاء والقَدَر ، للتَّنصُّل من مسؤوليته الشخصية ، وإظهارِ نفْسِه كشخصٍ بريء ليس له علاقة بذنوبه التي اقترفَها بكامل قُواه العقلية ، وبكل حُرِّية ، وعن سَبْقِ الإصرار والتَّعمد. وقد تمسَّكوا بمشيئة اللهِ في هذا السياق ، جهلاً وعِنادًا ودَفْعًا للاحتجاج عَلَيهم . ومشيئةُ اللهِ شاملةٌ لكلِّ شيء ، وتَعُمُّ كُلَّ شيء، ولكنْ لا حُجَّةَ لِمَن تمسَّكَ بها وتركَ الأمرَ. فعلى الإنسانِ الالتزام بأوامرِ اللهِ، ولا يَبحث عن تبرير لآثامه ومَعاصيه . والوقتُ الذي يَأخذه الإنسانُ لتبرير أخطائه وخطاياه ، يَكفي لإصلاحها كُلِّها.

والمشركون قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنا ﴾ سُخريةً واستهزاءً ولَعِبًا ، ولَم يَقولوها تعظيمًا للهِ ، وإيمانًا بمشيئته التي تَعلو فوق كُل شيء . ولوْ قالوها تعظيمًا للهِ وصِفاتِه لَمَا عَابَهم اللهُ وذَمَّهم .

وقد فَضَحَ المشركون أنفسَهم بأنفسهم ، ووَقَعوا في التناقض والاضطراب ، فَهُم يَزعمون أنَّ النبيَّ ﷺ وأصحابَه ضَالُّون وعلى غَير هُدى ، فلماذا لَم يَقولوا إنَّ المؤمنين تحت مشيئة اللهِ ، ولا ذَنْبَ لهم ، ولا يَتحمَّلون مسؤوليةَ أعمالهم ؟! .

إنَّ المشركين يَجهلون أنَّ الخير والشر، والإيمان والكفر، يكتسبه الإنسان بِمِلْكِ إرادته ، وأن القَدَر لا يُعارض تحمُّلَ الإنسان لمسؤولياته كاملة غير منقوصة. فالله أحاطَ بكل شيء عِلْمًا ، لكنه لَم يُجبِر الإنسانَ على سلوك طريق مُحدَّد . واللهُ يَعلم أنَّ المشركين سَيَغرقون في الشِّرك لكنه لَم يُجْبِرهم على سلوك هذا الطريق . ولوْ كان هناك إجبارٌ لفقدَ الأنبياءُ شَرعيةَ وجودهم ، وأصبحت الجنةُ والنارُ بلا معنى، ولَم يَعُدْ هناك فائدة ليوم الحساب . والعقيدة الْجَبْرية تتعارض ــ جُملةً وتفصيلاً ــ مع عقيدة الثواب والعقاب في الآخرة . واللهُ قادرٌ على الْمَنْح والْمَنْع ، لكنَّه سُبحانه أعطى الإنسانَ حُريةَ الاختيار ، والإنسانُ يتحمَّل مسؤوليةَ اختياره في الدُّنيا والآخرة . وعندما يُطيعُ الإنسانُ اللهَ تعالى ، فهذا مِن فَضْلِ اللهِ وله المِنَّة . وإن عَصَاه ، فقد خَذَلَه اللهُ وله الْحُجَّة .

والآيةُ ﴿ سَيَقُولُ الذينَ أشْرَكوا ﴾ إخبار عن أمرٍ غَيبيٍّ في المستقبَل ، وقد تحقَّق . وهذا دليلٌ على إعجاز القُرآن وصِدْقِ النبيِّ ﷺ .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أنه سمع رَجلاً يقول : الشَّرُّ ليس بقَدَر ، فقال ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ : ((بَيْنَنا وبَيْنَ أهلِ القَدَر : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا ﴾ ... . قال ابن عباس: والعَجْز والكَيْس مِن القَدَر)) [8].

---

(٨) رواه الحاكم في المستدرَك (٢ / ٣٤٧) برقم (٣٢٣٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وأهلُ القَدَر هم نُفاة القَدَر ، فهم يُنكرونه . والآية القرآنية توضِّح إيمان المشركين بالقَدَر، ولكنْ من منظور مغلوط. فهم يعتقدون أنَّ القَدَرَ سالبٌ لحريتهم، وأنَّ شِرْكَهم خاضعٌ لمشيئة الله ولا علاقة لهم بالموضوع . وهذا يتنافى مع الإيمان . صحيحٌ أن كل شيء خاضع للمشيئة الإلهية، لكنَّ اللهَ أعطى العبدَ القدرةَ على اختيار طريقه، إمَّا الإيمان أو الكفر . والعبدُ يتحمل مسؤوليةَ اختياره الحر . والجزاءُ يترتَّب على قرار العبد ، إنْ خَيْرًا فَخَيْر ، وإن شَرًّا فَشَر .

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٤٩) : ((وأمَّا قَوْلُه في الأنعام: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا ﴾ الآية. فقد تمسَّك بها المعتزلة وقالوا إن فيها رَدًّا على أهل السُّنة . والجواب أن أهل السُّنة تمسَّكوا بأصل قامت عليه البراهين ، وهو أن الله خالق كل مخلوق ، ويستحيل أن يخلق المخلوق شيئًا . والإرادة شَرْط في الخلق ، ويستحيل ثبوت المشروط بدون شَرْطه . فلمَّا عاندَ المشركون المعقولَ ، وكذَّبوا المنقولَ الذي جاءتهم به الرُّسُل ، وأُلْزِموا الْحُجَّة بذلك ، تمسَّكوا بالمشيئة والقَدَر السابق ، وهي حُجَّة مردودة ، لأن القَدَر لا تبطل به الشريعة ، وجريان الأحكام على العباد بأكسابهم)) اهـ .

قالت المعتزلة _ اعتمادًا على قَوْلِ اللهِ تعالى : ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ _ : قد ذَمَّ اللهُ هؤلاء المشركين الذين جَعَلوا شِرْكَهم خاضعًا لمشيئة اللهِ ، والمعتزلة تريد أن تقول : إنَّ الشِّرْكَ والأفعال السَّيئة لَيْسَت بمشيئة اللهِ ، وإنَّما يَخلقها الإنسانُ بنفْسه . وهذا انحرافٌ عَقَدِيٌّ واضح . فكلُّ شيء خاضع لمشيئة اللهِ. وقد ذَمَّ اللهُ المشركين لأنَّهم لَم يَنظروا في الأدلة الشَّرعية،ولَم يَبحثوا عن الحق ، بل قالوا كلامَهم سُخريةً ولَعِبًا وتبريرًا لِكُفرهم ، ولوْ قالوا كلامَهم تعظيمًا للهِ ، وإظهارًا لِقُدرته ، وتَقديسًا لإرادته ، وتَمجيدًا لمشيئته ، لَمَا ذَمَّهم اللهُ ، وَوَصَمَهم بالخزي والعار والضلال والجهل . ومنهجُ المعتزلة في الاستدلال قائم على ضَرب النصوص ببعضها البعض، وأخذها مُجتزأةً . وهذا منهج مهزوز لا تقوم له قائمة. فالنصوصُ الدينية وَحدة واحدة ينبغي أن تُؤخَذ معًا ، ولا بُد من معرفة القواعد العامة للإسلام ، ورَدِّ الْمُتشابِه إلى الْمُحْكَم ، والمطْلَق إلى المقيَّد ، والعام إلى الخاص ، والمنسوخ إلى الناسخ ، والْمُجْمَل إلى الْمُبَيَّن . ويجب تقديم الجمع والتوفيق بين النصوص الشرعية قبل الذهاب إلى النَّسْخ أو الترجيح . والمشرِكون قد رَبطوا شِرْكهم بالمشيئة الإلهية ، وتعلَّقوا بشُبهة وهي أن الله قادر على منعهم من الشِّرك ، ولو شاء لجعلهم وآباءهم غير مشرِكين ، وبما أنه سُبحانه لَم يَفعل ذلك ، فهذا دليل على شرعية شِرْكهم ورضا الله عنهم . وهذه حُجَّةٌ داحضة عند الله تعالى ، لأنها قائمة على أوهام مُتخيَّلة لا تَمُتُّ للواقع بِصِلة .

صحيحٌ أن كل شيء خاضع للمشيئة الإلهية ، وأيضًا إن الله تعالى قد خَلق الخيرَ والشر ، وأعطى الإنسانَ القدرة على الاختيار بينهما ، ووَفْقَ الاختيار يتحدد الجزاء (الجنَّة أو النار) ، فأداءُ الإنسان في هذا الامتحان الإلهيِّ يُحدِّد النتيجةَ ، إمَّا النجاح ، وإمَّا الفشل .

وقد ذَهبت المعتزلةُ إلى أن الإنسان يَخلق أفعالَه ، وهذا منتهى الضلال. فالإنسانُ كائن ضعيفٌ ومخلوق خاضع لخالقه ، والخلقُ صفةٌ لله تعالى ، ومُحالٌ أن يتساوى المصنوع مع الصانع في فِعْل الخلْقِ . وكلُّ ما سِوى اللهِ مخلوقٌ، واللهُ خالقُ كلِّ شيء . ولا يمكن أن يخلق المخلوق شيئًا لأن فاقد الشيء لا يُعطيه. فاللهُ خَلَقَ العبادَ وأكسابَهم ، وصَنع الفاعلَ (العبدَ) وفِعْلَه ، وهو سُبحانه مالِكٌ لهم ولِمَا مَلَّكهم . لكنَّ المشركين لا يَملكون الْحُجَّةَ والمنطقَ الصحيح لذا تمسَّكوا بالقَدَر السابق . إن القضاء والقَدَر لا يَسلبان قُدراتِ الفرد ، ولا يُجرِّدانه من مسؤولياته . كما أن عِلْمَ الله الذي أحاط بكل شيء ليس إجبارًا للمرء ، أو دفعه في طريق محدَّد رغمَ أنفه . لكنَّ العاجز دائم البحث عن مُبرِّرات لِعَجْزه وفشله . ومن هنا يتم التعلق بالقضاء والقَدَر والمشيئة الإلهية والإرادة الرَّبانية ، دون معرفة المعاني الحقيقية لهذه المفاهيم التي حَار الكثيرون في فهمها والوقوف على معانيها بسبب عدم معرفة قواعد الإسلام ومنهجه . وكثيرٌ مِنَ الناس ضَلُّوا طريقَهم بسبب فهمهم المغلوط للقضاء والقَدَر ، وكثيرٌ مِنَ الفِرَق والطوائف شَيَّدت أفكارَها المنحرِفة وفلسفتَها الشاذة على الفهم الْمُشوَّش للقَضاء والقَدَر ، حتى انتَهَوا إلى الطعن في صفاتِ اللهِ تعالى . ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنا ولا آباؤُنا ولا حَرَّمْنا مِن شَيْءٍ ﴾ . حُجَّة المشركين الواهية هي : إنَّ اللهَ قادرٌ على مَنْعِنا مِنَ الشِّرْك ، وبما أنَّهُ لَم يَمْنَعْنا ، فهذا دليلٌ على رِضاه عن شِرْكنا . ويُريد المشركون أن يَقولوا : لَوْ شاءَ اللهُ لأرسلَ إلى آبائنا رَسولاً فنهاهم عن الشِّرْك وأمرَهم بالتَّوحيد .

أمَّا قضيةُ التحريم ، فَيَقصدون تحريم البَحيرة والسَّائبة والوَصيلة والحام [9].

---

(٩) قال الواحدي في الوجيز (١/ ٣٣٨): ((والبَحيرة : الناقة إذا نتجت خمسة أبطن شَقُّوا أُذنها وامتنعوا من ركوبها وذبحها. (السَّائبة): هو ما كانوا يُسَيِّبونه لآلهتهم في نذْر يلزمهم إن شُفِيَ مريض، أو قُضيت لهم حاجة . (الوصيلة) : كانت الشاةُ إذا وَلدت أنثى فهي لهم ، وإن وَلدت ذَكَرًا جعلوه لآلهتهم ، وإن وَلدت ذكرًا وأنثى قالوا : وَصَلت أخاها فلم يذبحوا الذَّكر لآلهتهم . (الحام) إذا نتجت مِن صُلْب الفَحْل عشرة أبطن ، قالوا : قد حَمَى ظَهْرَه فلم يُركَب، ولم يُنتفَع بِه ، وَسُيِّب لأصنامهم فلا يُحمَل عليه)) اهـ .

والمعنى: لَوْ شاءَ اللهُ ما حَرَّمْنا هذه الأشياءَ . وبما أنَّنا حَرَّمْناها ، فهذا دليلٌ على رِضا اللهِ عنها، وأنَّنا وافَقْنا مُرادَه. ومَقصودهم هُوَ تكذيب النبيِّ ﷺ والتشكيك برسالته، والطعن فيها. إنَّهم لَم يَعتذروا عن شِرْكهم ، وإنما بَحثوا عَن مُسَوِّغ دينيٍّ وأخلاقيٍّ لهذا الشِّرْك . لقد أرادوا شَرْعنةَ شِرْكِهم بالْحُجَّةِ الواهية الْمُتَخَيَّلة في أذهانهم . وهنا تبرز خطورة التمادي في الذنوب وتبريرها ومحاولة إيجاد شرعية لها . كما تبرز أهميةُ القاعدة الدِّينية والأخلاقية : الرُّجوعُ إلى الحق خَيرٌ مِنَ التَّمادي في الباطل . ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الذينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنا ﴾ . كما كَذَّبَ هؤلاء المشركون ، كَذَّبَت الأممُ السابقةُ أنبياءَها ، وواصَلُوا ضلالَهم حتى حَلَّ عليهم العذابُ الإلهيُّ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٥٠) : ((أي بهذه الشُّبهة ضَلَّ مَن ضَلَّ قبل هؤلاء ، وهي حُجَّة داحضة باطلة ، لأنها لَوْ كانت صحيحة لَمَا أذاقهم الله بأسَه ، ودَمَّرَ عليهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ البالِغةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُم أجْمَعين ﴾ [الأنعام : ١٤٩] .

قُل يا مُحمَّد : فللهِ الحِكمةُ الكاملةُ والْحُجَّةُ التَّامة على الناس بالقُرآن والسُّنةِ ، وكِلاهما وَحْيٌ إلهيٌّ . يَهدي مَن يشاءُ ، وَيُضِلُّ مَن يشاء . ولَهُ سُبحانه الحِكمة في الهداية والإضلال ، ولهُ الْحُجَّة البالغة على خَلْقِه بالوَحْي والنُّبُوَّة ، ولَيْسَ لِخَلْقِه الْحُجَّةُ عَلَيه بمشيئته وإرادته . وَلَوْ شاءَ اللهُ لَهَدى الناسَ كُلَّهم إلى الإيمان ، ولكنَّه سُبحانه مَنَحَ الإرادةَ الْحُرَّةَ للإنسان ، وأعطاه القُدرةَ على اختيار الإيمان أو الكُفر ، لِيَتحقَّق معنى التكليف . والإيمانُ والكفرُ خاضعان لمشيئة اللهِ ، وهذا لا يتعارض مع حقيقة أنَّ اللهَ يُحب المؤمنين ، ويُبغِض الكافرين . واللهُ سُبحانه إن هدى الإنسانَ إلى الإيمان فَبِفَضْلِ الله ، وله المِنَّة ، ويَكون اللهُ قد وفَّقه . وإن هداه إلى الكُفرِ فَبِعَدْلِ الله ، وله الْحُجَّة، ويَكون اللهُ قد خَذَلَه. واللهُ مُنَزَّهٌ عن الظلم، لا يُسأل عمَّا يَفعل، والإنسانُ يتحمَّل مسؤوليةَ أعماله في الدُّنيا والآخرة.وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٦٣):((﴿ قُل فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ البالِغةُ ﴾ البَيِّنة الواضحة التي بَلَغَت غاية المتانة والقوة على الإثبات، أو بَلَغَ بها صاحبُها صِحَّةَ دَعواه، وهي مِنَ الْحَجِّ ، بمعنى القَصْد ، كأنها تَقْصِد إثباتَ الْحُكم وتَطْلُبه)). وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ١١٥) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ قُل فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ البالِغةُ ﴾ أي التي تَقطع عُذر المحجوج، وتُزيل الشَّكَّ عمَّن نظر فيها ، فَحُجَّتُه البالغة على هذا تبيينه أنَّه الواحد ، وإرسالُه الرُّسُل والأنبياء ، فَبَيَّنَ التوحيدَ بالنظر في المخلوقات ، وأيَّدَ الرُّسُلَ بالْمُعجِزات ، ولَزِمَ أمرُه كُلَّ مُكلَّف، فأمَّا عِلْمُه وإرادتُه وكلامُه فَغَيْبٌ لا يَطَّلع عليه العبد ، إلا مَن ارتضى مِن رسول، ويكفي في التكليف أن يكون العبد بحيث لَوْ أراد أن يَفعل ما أُمر بِه لأمكنه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿بَلْ قالوا إنَّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارِهِم مُهتدون﴾[الزُّخْرُف: ٢٢].

بَل للإضراب ، وهو الانتقال من كلام إلى آخر . وهؤلاء المشركون ليس لهم دليل على شِرْكهم، ولا يَملكون حُجَّةً على كُفرهم، ولَم يتأثَّروا بشُبهة. ولكنهم سائرون على خُطى آبائهم الضَّالين ، ومُقتدون بِهم ، ومُتَّبعون لهم ، ومُقلِّدون لهم بشكل أعمى ، بلا دليل ولا بصيرة ، وليس لهم حُجَّة نقلية ولا عقلية ، وإنما اختاروا تقليد آبائهم الجهلة . وكما قال الشاعر :

ومَن يَكُن الغرابُ له دَليلاً يَمُر بِهِ على جِيَفِ الكِلابِ

قال المشركون : إنَّا وَجْدَنا آباءنا على دِين ومِلَّة وهي عبادة الأصنام والأوثان، ونَحْنُ سائرون على طريقتهم ، ومُقتدون بِسُنَّتهم ، ومُتمسِّكون بمنهجهم ، ومُتَّبعون لمذهبهم، ومُهتدون بآثارهم.

وقد جعلوا أنفسهم صالحين ومُهتدين بِمُجرَّد اتِّباعهم لآبائهم، وتقليدهم الأعمى لهم بلا دليل. والآيةُ تَذُمُّ التقليدَ الأعمى،وتَحُث على النظر والتأمُّل وإعمال العقل،وعدم أخذ الأمور كمُسلَّمات إلا بعد التحقق منها . وأكبر إهانة للعقل البشري أن يَلتزم شيئًا ويَعتقده بلا دليل ولا بَيِّنة . وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٦٥) : ((وفي هذا دليل على إبطال التقليد ، لِذَمِّه إيَّاهم على تقليد آبائهم ، وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول ﷺ)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكر أن الأُمَّة هي الدِّين والطريقة . سُمِّيت بهذا لأنها تُؤمُّ وتُقصَد .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١٧٦): ((يقول تعالى ذِكْرُه : ما آتَيْنَا هؤلاء القائلين : لَوْ شاء الرحمن ما عَبَدْنا هؤلاء الأوثان ، بالأمر بعبادتها كتابًا من عندنا ، ولكنهم قالوا : وَجَدْنا آباءنا الذين كانوا قَبْلنا يَعبدونها ، فنحن نعبدها كما كانوا يعبدونها ، وعنى جَلَّ ثناؤه بقوله : ﴿ بَلْ قالوا إنَّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ ﴾ ، بَل وَجَدْنا آباءَنا على دِين ومِلَّة ، وذلك هو عبادتهم الأوثان ... . وقَوله : ﴿ وإنَّا على آثَارِهِم مُهتدون ﴾ . يقول : وإنَّا على آثار آبائنا فيما كانوا عليه من دِينهم مُهتدون ، يعني : لَهُم مُتَّبِعون على مِنهاجهم)) اهـ .

٥ــ بَراءةُ اللهِ ورَسُولِه من المشركين :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَراءةٌ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ إلى الذينَ عَاهَدتُم مِنَ المشركين ﴾[التَّوبة : ١] .

هذه براءةٌ ، أي : تَبَرُّؤ مِن الله ورسوله . لقد بَرِئَ اللهُ ورسولُه مِن العَهْد الذي عاهدتم به المشركين ، وتَمَّ نَقْض هذا الاتفاق ، ولَم يعد مُلْزِمًا الوفاء بهذا العَهْد الْمَلْغِيِّ الباطل .

والسبب في ذلك هو نقض المشركين للعهد ، وخيانتهم للأمانة ، وعدم احترامهم للاتفاق بينهم وبين المؤمنين . وهذا سبب إبطال العهد ونقضه. وقد كانوا عاهدوا مُشركي العرب بإذن الله وبإشراف النبيِّ ﷺ ، فنكث المشركون،ونقضوا العهد إلا بني ضَمْرة وبني كِنانة ، فأمرَ اللهُ المسلمين بنبذ العهد إلى الناكثين . والمقصود بالخطاب الإلهيِّ في الآية : ﴿ عَاهَدتُم ﴾ هُم الصحابة _ رضي اللهُ عنهم _ معَ أن النبيَّ ﷺ هُو الذين عاهدَ المشركين وعاقدهم ، باعتباره قائد المسلمين وزعيمهم ورأسهم . ولأن النبيَّ ﷺ عاهدهم وأصحابه راضون بهذا العهد، ومُوافقون عليه، فكأنهم عاقدوا وعاهدوا بأنفسهم. والمرءُ إذا رَضِيَ بشيء ووافقَ عليه ، نُسِب إليه ، حتى لَو لَم يُباشره بنفْسه . وقال القرطبي في تفسيره (٨ / ٦٠): ((قَوله تعالى : ﴿ بَراءةٌ ﴾ . تقول : بَرِئْتُ مِن الشيء، أَبْرَأُ براءةً ، فأنا منه بريء ، إذا أَزَلْتَهُ عن نفْسك وقطعتَ سبب ما بينك وبينه . و ﴿ بَراءةٌ ﴾ رُفع على خبر ابتداء مُضمَر ، تقديره : هذه براءة . ويَصِح أن تُرفَع بالابتداء ، والخبر في قَوله : ﴿ إلى الذينَ ﴾ . وجاز الابتداء بالنَّكرة ، لأنها موصوفة ، فتعرَّفت تعريفًا ما ، وجاز الإخبار عنها ... . قَوله تعالى : ﴿ إلى الذينَ عَاهَدتُم مِنَ المشركين ﴾ ، يعني : إلى الذين عاهدهم رسول الله ﷺ، لأنه كان الْمُتَوَلِّي للعُقود، وأصحابه بذلك كُلهم راضون ، فكأنهم عاقدوا وعاهدوا ، فَنَسَبَ العَقْدَ إليهم، وكذلك ما عقده أئمة الكفر على قَومهم مَنسوب إليهم ، مَحسوب عليهم ، يُؤاخَذون به ، إذ لا يمكن غَير ذلك ، فإن تحصيل الرضا من الجميع مُتعذِّر ، فإذا عَقَدَ الإمامُ لِمَا يراه من المصلحة أمرًا ، لزم جميع الرعايا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وأذانٌ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ إلى الناسِ يَوْمَ الحجِّ الأكبرِ أنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ المشركينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التَّوبة : ٣] .

وإعلامٌ وإنذارٌ مِن الله ورسوله إلى جميع الْخَلْق بلا استثناء، يَوْمَ النَّحْر (أوَّل أيام عِيد الأضحى/ العاشر مِن ذي الْحِجَّة).وهذا اليوم العظيم مِن أيام الله تعالى، وله فضل كبير، لاحتوائه على كثير من المناسك والعبادات والطاعات . وهو أفضل أيام العام على الإطلاق . ووُصِف بِـ ﴿ الأكبرِ ﴾ على وَجْه المدح والتعظيم، لأن الناس يَجتمعون فيه، ومُعظم أفعال الحج ومَناسكه فِيه.

وروى الترمذي في سُننه (٣/ ٢٩١) : عن عليٍّ قال : سألتُ رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر . فقال : ((يَوْمُ النَّحْر)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٩٦) : ((وفي تسميته بيوم الحج الأكبر ثلاثة أقوال: أحدها أنه سَمَّاه بذلك لأنه اتَّفق في سنة حَجَّ فيها المسلمون والمشركون، ووافق ذلك عيد

اليهود والنصارى، قاله الحسن.والثاني أن الحج الأكبر هو الحج، والأصغر هو العُمرة، قاله عطاء والشَّعبي. والثالث أن الحج الأكبر القِرَان ، والأصغر الإفراد ، قاله مجاهد)) اهـ .

﴿ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ المشركينَ وَرَسُولُهُ ﴾ . اللهُ ورسولُه بريئان من عهود المشركين ومواثيقهم. لقد أمرَ اللهُ رسولَه ﷺ أن يُعلِم مُشركي العرب ويُخبِرهم في يوم النَّحْر ببراءته مِن عهودهم . وهذه العهود لَم تَعُدْ مُلزِمة ، ولا معنى للوفاء بها بعد نقضها وإبطالها .

ولأن الغدر والخيانة مَذمومان ومُحرَّمان، وهُما مِن أسوأ الأخلاق والصفات ، فقد أمرَ اللهُ بإعلام المشركين بنقض عهودهم مُسْبَقًا، كي يَستعدوا لِمَا ينتظرهم، ويُرتِّبوا أمورَهم ، ويُعيدوا حساباتهم ، ولا يَسقطوا ضَحِيَّةَ المفاجأة ، ولا يَأخذوا فكرة سيِّئة عن أخلاق المسلمين . وهذا يدل بوضوح على أن الإسلام دِين قائم على الحق والصِّدق والوفاء واحترام العهود والوعود والمواثيق ، ولا يَقوم على الغدر والخيانة والطعن في الظَّهْر والتلاعب بالاتفاقات .

وقال النَّسفي في تفسيره (٢/ ٧٧): ((والأذان بمعنى الإيذان، وهو الإعلام ، كما أن الأمان والعطاء ، بمعنى الإيمان والإعطاء . والفرق بين الجملة الأولى والثانية ، أن الأولى إخبار بثبوت البراءة، والثانية إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت ، وإنما عُلِّقت البراءة بالذين عُوهِدوا من المشركين، وعُلِّق الأذان بالناس ، لأن البراءة مُختصة بالْمُعَاهَدِين والناكثين منهم ، وأمَّا الأذان فعام لجميع الناس ، مَن عاهدوا ، ومَن لَم يُعاهِدوا . مَن نَكَثَ من الْمُعَاهَدِين ، ومَن لَم يَنكُث)) اهـ .

وعن عليٍّ بن أبي طالب ــ رضي اللهُ عنه ــ أن النبيَّ ﷺ بعثه يَوْمَ الحج الأكبر بأربع : أنْ لا يَطُوفَ أحدٌ بالبَيت عُرْيان ، ولا يَدْخُلُ الجنةَ إلا نَفْسٌ مُسلمة ، ولا يَحُجُّ مُشْرِكٌ بعد عامه هذا ، ومَن كان بَيْنَه وبَيْنَ رسول الله ﷺ عَهْدٌ ، فأجَلُه إلى مُدَّته [10].

إن منهج الإسلام واضحٌ في تَطهير الأنساق الحياتية من شوائب الشِّرك ، وحراسة العقائد والمناسك والعبادات من لَوْثة الجاهلية وضلالها . وقد كان الواحد في الجاهلية يَطوف بالبَيت عاريًا، وهذا يتنافى مع قُدْسِيَّة الكعبة ومكانة المسجد الحرام العظيمة ، لذلك تَمَّ منع الطواف بهذه الصورة الفاضحة المخزية . والمسلمون وَحْدَهم سَيَدخلون الجنة ، لأنهم مُوحِّدون ، والجنة مُحرَّمة على المشركين . والمشركون غارقون في الكفر والضلال، ولا يَعرفون قيمة المقدَّسات الإسلامية ، لذلك تَمَّ منعهم من الحج بعد عامهم هذا. وكُل عهد أبرمه النبيُّ ﷺ معَ أيِّ شخص، فالنبيُّ ﷺ

---

(١٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ١٩٨) برقم (٧٣٥٤) وصَحَّحه ، ووافقه الذهبي .

مُلتزم بِه إلى انقضاء مُدَّة العهد . وهذا يدل على إخلاص النبيِّ ﷺ ووفائه والتزامه بالعهود والمواثيق ، وابتعاده كُل البُعد عن الغدر والخيانة والتلاعب بالاتفاقيات. وكلام النبيِّ ﷺ حَق ، وتعامله مع الناس قائم على الصدق والوفاء، ولا مجال للحِيَل والألاعيب والكذب والطعن في الظَّهْر . والنبيُّ ﷺ يتحلى بالأخلاق الحميدة في التعامل مع المؤمنين والكافرين على السَّواء ، وهو ﷺ مُنَزَّهٌ عَن الأخلاق المذمومة ، ومَعصوم عن كُل ما يَقْدَح في مَقام النُّبُوَّة الشريف .

٦_ أصنامُهم وتَبكيتهم على عبادتها :

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أمثالُكُم فادْعُوهم فَلْيَستجيبوا لكم إن كُنتم صادقين ﴾ [الأعراف : ١٩٤] .

الخطابُ الإلهيُّ للمشركين عُبَّادِ الأصنام . يَقول الله مُوَبِّخًا لهم على عبادتهم لآلهتهم الباطلة (الأصنام الضعيفة العاجزة): إن الذين تَعبدونهم مِن دُون الله أيها المشركون، وتعتقدون أنهم آلهة، مخلوقون مِثْلكم ، واللهُ خالقهم ومالكهم ، مِثلما هُوَ سُبحانَه خالقكم ومالككم . وأنتم أفضل مِنهم، لأنكم تُبصِرون وتسمعون وتَمشون وتَنطقون ، ولَدَيكم أعضاء وحواس وقُدرات، والأصنامُ جمادات لا تَفعل شيئًا مِن ذلك ، ولا تضرُّ ولا تنفع ، ووجودها كعدمه . وسُمِّيت الأصنام عبادًا ، لأنها مخلوقة ومملوكة لله ، ومُسخَّرة لأمره ، ومُذَلَّلَة لِمَا أُرِيد مِنها . وتَمَّ التعبير عن آلهة المشركين (الأصنام) كما يُعبَّر عن العُقَلاء ، لأن المشركين اعتقدوا أنها تضرُّ وتنفع .

فادعوهم لدفع ضر أو جلب نفع ، إن كُنتم صادقين في زعمكم أن الأصنام آلهة تضرُّ وتنفع ، وتستحق العبادة والتقديس.وهذا أمر تعجيز لتوبيخهم وتقريعهم وفضح باطلهم ، وتَسفيه عقولهم.

والآيةُ تُوضِّح العجزَ التام للأصنام ، وتفاهتها ، وبُطلان عبادتها ، وجهل المشركين وعنادهم .

إنكم عندما تَطلبون منهم الحوائج، وتَدعونهم، لا يَسمعون دُعاءكم ، ولا يستجيبون لكم . وهذا دليل واضح على عَجْزهم وضعفهم ، وبُطلان عبادتكم لهم . فاعبدوا اللهَ وَحْدَه ، فهو الذي ينفع ، ويضرُّ ، ويَسمع دُعاءكم ، ويستجيب لكم ، ويُنعِم عليكم . وهذه هي لوازم الأُلوهية وخصائصها . واللهُ وَحْدَه هو المستحق للأُلوهية ، والمعبود بحق وصِدق .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ١٤٩) : ((يقول جَلَّ ثناؤه لهؤلاء المشركين مِن عَبَدَة الأوثان، مُوبِّخهم على عبادتهم ما لا يضرُّهم ولا يَنفعهم من الأصنام : ﴿ إنَّ الذينَ تَدْعُونَ ﴾ أيها المشركون آلهةً ﴿ مِن دُونِ اللهِ ﴾ ، وتعبدونها شِرْكًا مِنكم وكُفرًا بالله ﴿ عِبَادٌ أمثالُكُم ﴾ . يقول :

هُم أملاك لربكم كما أنتم له مَماليك، فإن كنتم صادقين أنها تضرُّ وتنفع، وأنها تستوجب منكم العبادة لنفعها إيَّاكم، فليستجيبوا لدعائكم إذا دعوتموهم، فإن لَم يستجيبوا لكم، لأنها لا تسمع دُعاءكم، فأيقنوا بأنها لا تنفع ولا تضرُّ، لأن الضَّر والنَّفع إنما يكونان مِمَّن إذا سُئِل سمع مسألة سائله وأعطى وأفضلَ ومَن إذا شُكِيَ إليه مِن شَيء سَمِعَ فَضَرَّ مَن استحق العقوبة، ونَفَعَ مَن لا يستوجب الضر)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦٦):((معاذ بن عمرو بن الْجَمُوح ومعاذ بن جبل ــ رَضِيَ الله عنهما ــ ، كانا شَابَّيْن قد أسلما لَمَّا قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ ، فكانا يَعْدُوَان في الليل على أصنام المشركين ، يكسرانها ، ويُتلفانها ، ويتَّخذانها حطبًا للأرامل ، ليعتبر قومهما بذلك ، ويرتؤوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الْجَمُوح ــ وكان سَيِّدًا في قَومه ــ صنم يَعبده ، ويُطيِّبه، فكانا يَجيئان في الليل ، فَيُنكِّسانه على رأسه ، ويُلطِّخانه بالعَذِرَة ــ النَّجَس ــ ، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صُنع به ، فيغسله ويُطيِّبه ، ويضع عنده سيفًا ، ويقول له : انتصِرْ ، ثُمَّ يعودان لِمِثْل ذلك ، ويعود إلى صنيعه أيضًا ، حتى أخذاه مَرَّةً فَقَرَناه مع كلب مَيْت ، ودَلَّياه في حبل في بِئر هناك ، فلمَّا جاء عمرو بن الجموح ، ورأى ذلك ، نظرَ فَعَلِمَ أن ما كان عليه من الدِّين باطل ، وقال :

تاللهِ لَوْ كُنتَ إلَهًا مستَدن لَم تَكُ والكلبَ جميعًا في قَرَن

ثُمَّ أسلمَ ، فَحَسُنَ إسلامه ، وقُتِل يوم أُحُد شهيدًا ــ رضي اللهُ عنه ــ وأرضاه ، وجَعل جَنَّة الفِرْدَوْس مأواه)) اهـ .

وهذه القصة تدل على عجز الأصنام التام ، فهي جمادات لا تضرُّ ولا تنفع ، ولا تَقْدِر على حماية نفْسها ، فكيفَ تَحمي عابديها والمؤمنين بها ؟ . كما تدل على سخافة عقول المشركين وضلالهم وجهلهم وعِنادهم . والعِبرة تَكمن في الهداية الرَّبَّانية ، والسِّر يُوجَد في التَّوفيق الإلهيِّ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهم لا يَسْمَعوا دُعاءَكُم وَلَوْ سَمِعُوا ما استجابوا لكم ويَوْمَ القِيامةِ يَكفرونَ بِشِرْكِكم ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبير ﴾ [فَاطِر : ١٤] .

إن تَدعوا أيها المشركون آلهتكم الأصنام التي تعبدونهم مِن دُون الله ، لا يَسمعوا دُعاءكم ، لأنهم جَماد بلا أرواح ولا حواس ، لا يَسمعون ولا يُبصِرون ولا يَعْقِلون ولا يَضُرُّون ولا يَنفعون .

ولو سمعوا دُعاءكم، وفهموا كلامكم ، وعرفوا مطالبكم ، على سبيل الفَرَض والتقدير، ما استجابوا لكم ، لأنهم عاجزون ، ولا يَنطِقون ، ولا يَقْدِرون على تلبية طلباتكم ، لأنهم لا يَملكون الإرادة ولا المشيئة ولا القُدرة .

فكيفَ تعبدون الأصنامَ العاجزة الضعيفة التافهة ، وتَتركون تَوحيد اللهَ الخالق الرازق القادر الذي يُبصِر ويَسمع وينفع ويضرُّ،ويُجيب الدعاء،ويُنعِم على خَلْقه بالنِّعَم التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى؟.

ويَوْمَ القيامة، تتبرَّأ آلهتكم التي كُنتم تعبدونهم مِن دُون الله، مِن شِرْككم، ويَجحدون عبادتكم لهم ، ويُنكِرون أن يكونوا شُركاء لله تعالى ، ولا يَرْضَوْن بالشِّرك ، ولا يَقْبَلُون بِه .

ولا يُخبِرك يا محمد عن آلهة المشركين وأصنامهم وأوثانهم وأحوالها في يوم القيامة ، وتَبَرُّئها مِن الكافرين،مِثل ذِي خِبرة ومعرفة بأمرها وأمرهم(بأمر المعبودين وأمر العابدين). والخبيرُ هو الله الذي أحاطَ بكل شيء عِلْمًا ، ولا تخفى عليه خافية. وبعبارة أخرى، لا يُنبِّئك أحدٌ مِثْلي، خبيرٌ بحقيقة الأشياء وبواطنها ، وعارف بأحوال الدنيا والآخرة ، وعَالِم بعواقب الأمور ، ومآلات الأحداث . وهذا يدل على أن الإله الحق المستحق للأُلوهية والعبادة هو الله وَحْدَه ، لأنه عَالِم بكل شيء . أمَّا الأصنام فهي جمادات عاجزة وضعيفة ، فلا تستحق الأُلوهية ولا العبادة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٢٩٣): ((قَوله تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهم لا يَسْمَعوا دُعاءَكُم ﴾ أي : إن تستغيثوا بهم في النوائب ، لا يَسمعوا دُعاءكم ، لأنها جمادات لا تُبصِر ولا تسمع ، ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا ما استجابوا لكم ﴾ ، إِذْ ليس كُل سامع ناطقًا. وقال قتادة: المعنى: لو سَمِعوا لَم ينفعوكم. وقِيل : أي: لَوْ جَعَلْنا لهم عقولاً وحياةً فسمعوا دُعاءكم ، لكانوا أطْوَعَ لله مِنكم ، ولَمَا استجابوا لكم على الكُفر ، ﴿ ويَوْمَ القِيامةِ يَكفرونَ بِشِرْكِكم ﴾ ، أي : يَجحدون أنكم عبدتموهم ، ويتبرَّؤون منكم. ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين مِمَّا يَعقِل كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين أي : يَجحدون أن يكون ما فعلتموه حقًّا ، وأنهم أمروكم بعبادتهم . ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضًا ، أي : يُحييها اللهُ حتى تُخبر أنها لَيْسَت أهلاً للعبادة ، ﴿ ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبير ﴾ هو الله جَلَّ وعَزَّ ، أي : لا أحد أَخْبَر بِخَلْق الله مِن الله ، فلا يُنبِّئك مِثْلُه في عمله)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم شُرَكَاءَكُمُ الذينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي ماذا خَلَقُوا مِنَ الأرضِ أَمْ لهم شِرْكٌ في السماواتِ أَمْ آتَيْنَاهُم كِتابًا فَهُم عَلى بَيِّنةٍ مِنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظالمونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إلا غُرُورًا ﴾ [فَاطِر : ٤٠] .

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ . قُل يا محمد للمشركين عَبَدَة الأصنام توبيخًا لهم : أخبروني أيها القوم عن آلهتكم وأصنامكم وأوثانكم الذين تَعبدونهم مِن دُون الله، واتَّخذتموهم شُركاء لله وأندادًا له ، أخبروني أيَّ شَيء خَلقوا مِن الأرض . ما هي مَخلوقات الأصنام التي خَلَقْتها وأوجدتها ؟ . وقد أُضيف الشُّركاء إليهم ﴿ شُرَكَاءَكُمُ ﴾ ، لأنهم جَعلوهم شُركاء لله باطلاً وزُورًا ، بلا دليل .

أم لآلهتكم شِرك مَعَ الله في السماوات، إن لَم يَكونوا خَلقوا مِن الأرض شيئًا ؟ . هل شَارَكوا اللهَ في خَلْق السماوات ، أو امتلاكها ، أو التصرُّف فيها ، أو التَّحكم بِها ، حتى يَستحقوا مُشارَكة الله في أُلوهيته ؟ . ليس لهم شَيء مِن ذلك .

أَم أنزلنا على المشركين كتابًا سماويًّا ، يتضمَّن الإشراك بالله واتِّخاذ الأصنام آلهةً ، فهُم على بُرهان مِن أمر الله لهم بالإشراك في هذا الكتاب، وعلى يقين تام وحُجَّة واضحة مِن ذلك الكتاب؟.

هل أنزلَ اللهُ على مُشركي مكة كتابًا سماويًّا يُوجِد فيها أن هناك شريكًا لله ، فهُم على دليل وثقة بهذا الكتاب ؟. ليس الأمر كذلك .

وهذا دليل على أن جميع الكتب السماوية جاءت بتوحيد الله ، ولا يوجد فيها شائبة شِرك ولا كُفر. والمشركون يتَّبعون أهواءهم الشخصية، ومصالحهم الذاتية ، ويُقلِّدون آباءهم بشكل أعمى ، ويَغرقون في ضلالهم وعنادهم وجهلهم وأمانيهم التي يَخدعون أنفسهم بها، وهي أوهام سخيفة وأكاذيب باطلة .

ورُؤوس القَوم (السادة والزعماء) يَغُرُّون أتباعهم الْحُثالة والعبيد والأنذال بالأوهام التافهة ، ويَخدعونهم بالأماني الفارغة ، ويقولون لهم إن الآلهة (الأصنام) تَنفعكم وتُقرِّبكم إلى الله ، وتَشفع لكم ، فآمنوا بها ، واحرصوا على التَّمَسُّك بها . والغُرُورُ ما يَغُرُّ الإنسانَ مِمَّا لا أصل له .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/٥٠٤):((﴿ بَلْ إِن يَعِدُ الظالمونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إلا غُرُورًا ﴾ أي : ما يَعِدُ الظالمون بعضُهم بعضًا، كما يَفعله الرؤساء والقادة من المواعيد لأتباعهم، إلا غرورًا ، يَغُرُّونهم به ، ويُزيِّنونه لهم ، وهو الأباطيل التي تَغُرُّ ، ولا حقيقة لها. وذلك قولهم : إن هذه الآلهة تنفعهم وتُقرِّبهم إلى الله ، وتشفع لهم عنده ، وقِيل : إن الشياطين تَعِد المشركين بذلك، وقِيل: المراد بالوعد الذي يَعِد بعضُهم بعضًا ، هو أنهم يُنصَرون على المسلمين ويَغلبونهم)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/ ٤٩٥ و٤٩٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتُم شُرَكَاءَكُمُ ﴾ المعنى : أخبروني عن الذين عبدتم مِن دُون الله ، واتَّخذتموهم شُركاء بزعمكم ، بأي شيء أوجبتم لهم الشِّرْكة في العبادة ؟ ، أبشيء خلقوه من الأرض ؟ ، أَم شاركوا خالق السماوات في خَلْقها ؟ . ثم عاد إلى الكفار، فقال: ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُم كِتابًا ﴾ يأمرهم بما يَفعلون ، ﴿ فَهُم عَلى بَيِّنةٍ مِنْهُ ﴾ والمراد: البيان بأن معَ الله شريكًا ، ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ الظالمونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إلا غُرُورًا ﴾ ، يعني : المشركين يَعِدُ بعضُهم بعضًا أن الأصنام تَشفع لهم ، وأنه لا حساب عليهم ، ولا عِقاب ، وقال مُقاتل : ما يَعِد الشَّيطانُ الكفارَ مِن شَفاعة الآلهة إلا باطلاً)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لعلهم يُنصَرون ﴾[يس : ٧٤] .

يُنكِر اللهُ على المشركين عبادتهم للأصنام واتِّخاذ الآلهة العاجزة الضعيفة .

واتَّخذ هؤلاء المشركون مِن دُون الله أصنامًا وأوثانًا وأندادًا يَعبدونها ويُقدِّسونها ، ويتوجَّهون إليها ، طمعًا أن تَنصرهم هذه الآلهة ، وتشفع لهم عند الله ، وتَحميَهم مِن عذابه ، وتَدفع عنهم عقابه . إنهم يَغرقون في الأوهام التافهة ، ويَخدعون أنفسهم بالأماني الزائفة . فهذه الآلهةُ الباطلة لا تضرُّ ولا تنفع ، ولا تستطيع نصرَ نفسها ، فكيفَ تنصر عابديها والمؤمنين بها ؟! .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٥٤٣) : ((ذَكَرَ سُبحانَه جهلهم واغترارهم ووَضْعهم كُفران النِّعَم مكان شُكرها، فقال: ﴿ واتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً ﴾ مِن الأصنام ونَحْوها، يعبدونها، ولا قُدرة لها على شيء ، ولَم يحصل لهم منها فائدة ، ولا عاد عليهم من عبادتها عائدة ، ﴿ لعلهم يُنصَرون ﴾ أي : رَجاءَ أن يُنصَروا مِن جِهتهم ، إن نزل بهم عذاب، أو دَهَمَهم أمر من الأمور)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يَستطيعونَ نَصْرَهُم وهُم لهم جُندٌ مُحْضَرُون ﴾ [يس : ٧٥] .

هذه الآلهة ضعيفة وعاجزة ، لا تَقْدِر على دَفع الضر ، ولا جلب النفع ، ولا تستطيع أن تَنصر المشركين (عابديها) مِن الله ، إن أرادَ تعذيبهم أو مُعاقبتهم . إنها عاجزة عن نصر نفسها ، وبالتالي لن تَقْدِر على نصر عابديها ، لأنها جماد لا تَسمع ولا تُبصِر ولا تَعقِل . وجمع الآلهة بالواو والنُّون : ﴿ لا يَستطيعونَ ﴾ ، لأن اللهَ أخبر عنهم بخبر البشر العقلاء ، إذ إن المشركين كانوا يَزْعمون أن آلهتهم تضرُّ وتنفع وتَعقِل . والمشركون جُند لأصنامهم (آلهتهم)، يُدافعون عنها ، ويَغضبون لها ، ويُعظِّمونها في الدنيا ، وهي لا تُفيدهم بشيء ، ولا تَنفعهم . أو : المشركون جُند لأصنامهم مجموعون في عذاب النار يوم القيامة ، لأن أصنام المشركين معهم في النار. وهذا يَزيد من ألم المشركين وحُزنهم وحَسْرتهم، عندما يَرَوْنَ آلهتهم معهم في النار ، وقد عبدوها في الدنيا كَي تُنقذهم وتَحميَهم وتُساعدهم وتَشفع لهم عند الله . إن العابدين والمعبودين معًا في عذاب النار الشديد ، وهذا مُنتهى الخِذلان والحسرة.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٦٦) : ((يقول تعالى مُنْكِرًا على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله ، يبتغون بذلك أن تَنصرهم تلك الآلهة ، وترزقهم ، وتُقرِّبهم إلى الله زُلفى. قال الله تعالى : ﴿ لا يَستطيعونَ نَصْرَهُم ﴾ . أي : لا تَقْدِر الآلهةُ على نصر عابديها ، بل هي أضعف من ذلك ، وأقل ، وأحقر ، وأدحر ، بل لا تَقْدِر على الاستنصار لأنفسها ، ولا الانتقام مِمَّن أرادها بِسُوء ، لأنها جماد لا تسمع ولا تَعقِل . وقَوله تبارك وتعالى : ﴿ وهُم لهم جُندٌ مُحْضَرُون ﴾ . قال

مجاهد : يعني عند الحساب ، يريد أن هذه الأصنام مَحشورة مجموعة يوم القيامة مُحْضَرَة عند حساب عابديها ، ليكون ذلك أبلغ في حُزنهم، وأدَل عليهم في إقامة الْحُجَّة عليهم، وقال قتادة : ﴿ لا يَستطيعونَ نَصْرَهُم ﴾ يعني الآلهة ، ﴿ وهُم لهم جُندٌ مُحْضَرُون ﴾ والمشركون يَغضبون للآلهة في الدنيا ، وهي لا تَسُوق إليهم خيرًا ، ولا تدفع عنهم شرًّا ، إنما هي أصنام . وهكذا قال الحسن البصري ، وهذا القول حسن ، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٣٩) : ((ذَكَرَ اللهُ جهلهم فقال : ﴿ واتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لعلهم يُنصَرون ﴾ ، أي : لتمنعهم من عذاب الله ، ثم أخبر أن ذلك لا يكون بِقَوله : ﴿ لا يَستطيعونَ نَصْرَهُم ﴾ أي : لا تَقْدِر الأصنام على منعهم مِن أمر أراده الله بِهم ، ﴿ وهُم ﴾ يعني الكفار ﴿ لهم ﴾ يعني الأصنام ﴿ جُندٌ مُحْضَرُون ﴾ ، وفيه أربعة أقوال: أحدها جُند في الدنيا مُحْضَرُون في النار، قاله الحسن . والثاني مُحْضَرُون عند الحساب، قاله مجاهد . والثالث المشركون جُند للأصنام يَغضبون لها في الدنيا، وهي لا تَسُوق إليهم خيرًا، ولا تدفع عنهم شرًّا، قاله قتادة . وقال مُقاتل: الكفار يَغضبون للآلهة ويَحْضُرونها في الدنيا.وقال الزجاج:هُم للأصنام ينتصرون وهي لا تستطيع نصرهم . والرابع هُم جُند مُحْضَرُون عند الأصنام يَعبدونها ، قاله ابن السائب)) .

٧_ الإعراض عن المشركين المستهزئين :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وقدْ نزَّلَ عَلَيْكم في الكتاب أَن إذا سَمِعْتُم آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بِها ويُسْتَهْزأُ بِها فلا تَقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غَيْرِهِ إنكم إذًا مِثْلُهم ﴾ [النساء : ١٤٠] .

الآيةُ تخاطب الذين أَظْهَروا الإيمانَ ، سواءٌ كانوا مؤمنين حقًّا أَم منافقين . وكلُّ شخصٍ يَرْضى بالجلوس في مكان يُكفَر فيه بآيات الله تعالى ، ويُسْتَهْزَأ بها ، وهو لا يُحرِّك ساكنًا، وإنما يكتفي بالاستماع والإقرار، يُعْتَبَر مُشارِكًا في المعصية والإثم،ولا فَرْقَ بَيْنه وبَيْنهم. فمن لَم يبتعد عنهم ، فقد رَضِيَ بِعملهم الخبيث ، والرضا بالكُفرِ كُفرٌ ، والرضا بالمعصية معصية. والواجبُ عليه في هذه الحالة عدم القعود معهم حتى يُغيِّروا الموضوعَ، ويبتعدوا عن الكفر بآيات الله والاستهزاء بها . وقد كان المنافقون يَجْلسون إلى أحبار اليهود ، فَيَسْخرون مِن القُرآن الكريم .

وبشكل عام ، كُلُّ مَن يجلس في مكان عليه أن يُنكِر أيَّةَ معصية تَظْهر فِيه ، فإن لَم يَقْدر على ذلك ، فعليه الانسحاب من المجلس ومغادرته فَوْرًا. فالمسْلمُ لَيس إِمَّعة ، بَل هُوَ مُمَيَّزٌ بِقَوْله وفِعْله .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٣٢٨) : ((وفي هذه الآية الدَّلالة الواضحة على النهي عن مُجالسة أهل الباطل مِن كُل نوع من الْمُبْتَدِعَة والفَسَقة عند خَوْضهم في باطلهم. وبنحو ذلك كان جماعة من الأئمة الماضين يقولون تأوُّلاً منهم هذه الآية إنه مُراد بها النهي عن مشاهدة كُل باطل عند خَوْض أهله فيه)) اهـ . وهكذا تتَّضح أهميةُ الجليس ، وخطورة المجالس . فالقضيةُ لَيْست مُجامَلة اجتماعية ، أو حَفلة عائلية ، أو وسيلة لملء وقت الفراغ. إنها قضية دينية شديدة الأهمية، تترتب عليها أحكام شرعية . والأمرُ يصل إلى الكُفر في بعض الأحيان .

وعن أبي موسى الأشعريِّ ــ رضي الله عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((مَثَلُ الجليس الصالح والسَّوْء كَحَامِل المِسك ونافخ الكِير ، فحاملُ المِسك إمَّا أن يُحْذِيَكَ ، وإمَّا أن تبتاع مِنه ، وإمَّا أن تجد منه رِيحًا طَيِّبة ، ونافخُ الكِير إمَّا أن يُحرق ثيابَك ، وإمَّا أن تجد رِيحًا خبيثة)) [11].

إن الجليس الصالح كحامل المِسك ، إمَّا أن يُعطيَكَ شيئًا من المِسك (يُحْذِيَكَ) ، أو تشتريَ مِنه ، أو تشمَّ رائحةً طيِّبة تُنعِشك وتُقوِّيك . وهذا يَعني أنكَ رابحٌ في كل الحالات .

أمَّا الجليس السَّوْء فهو كنافخ الكِير (ما يَنْفُخ بِه الحدَّاد في النار)، إمَّا أن يَحرق ثِيابَك بالنار، أو تَنبعث مِنه رائحة خبيثة تؤذيك . وهذا يَعني أنكَ خاسرٌ في كل الحالات .

والحديثُ يُرغِّب في مجالسة الصالحين الذي يُساعدون الإنسانَ في أمر دِينه ودُنياه ، ويُحذِّر من مجالسة الفاسدين الذي يُبعِدون الإنسانَ عن دِينه ، ويُفسِدون دُنياه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٧٨): ((وفِيه فضيلة مُجالَسة الصالحين، وأهل الخير ، والمروءة ، ومكارم الاخلاق ، والوَرَع ، والعِلم ، والأدب ، والنهي عن مجالسة أهل الشَّر، وأهل البِدَع، ومَن يَغتاب الناسَ، أو يَكْثُر فُجره وبطالته، ونحو ذلك من الأنواع المذمومة)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وإذا رَأيْتَ الذينَ يَخُوضُونَ في آيَاتِنا فأعْرِضْ عَنْهُم حتى يَخُوضوا في حَديثٍ غَيْرِهِ وإمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيطانُ فلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكرى مَعَ القَوْمِ الظالمين ﴾ [الأنعام : ٦٨] .

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ ، والمؤمنون داخلون في الخطاب، لأن عِلَّة النَّهْي عن مُجالسة المكذِّبين بآيات الله تَشمل النبيَّ ﷺ والمؤمنين . وإذا رَأيتَ يا محمد المشركين يُكذِّبون بالآيات التي أنزلها اللهُ عليك ، ويَستهزئون بِها ، ويَسخرون مِنها ، ويَطعنون فيها ، ويَشتمونها ، فلا تُجالسهم، وقُم عنهم، واتركهم، ولا تجلس معهم، حتى يتكلموا في حديث آخر غَير الاستهزاء

---

(١١) متفق عليه.البخاري (٥/ ٢١٠٤) برقم (٥٢١٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٦)برقم (٢٦٢٨) .

بآيات الله والطعن فيها . وهذا تأديبٌ للمشركين وإشعار بوقاحتهم وجهلهم وضلالهم ، كي يُغيِّروا موضوع الحديث . وقد كانت قُرَيش في أنديتها ومجالسها تَطعن في آيات الله وتَسخر مِنها، وتُكذِّبها.وإذا كان المؤمنون ممنوعين مِن مُجالسة الكافرين في حال تكذيبهم بآيات الله والطعن فيها، فما بالكَ بِمُوالاة الكافرين ومحبتهم ونُصرتهم والافتخار بهم ؟!. والضَّمير في ﴿ غَيْرِهِ ﴾ يعود على القُرآن ، لأنه يضمُّ الآيات . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ١٨٥): ((وفي هذه الآية موعظة عظيمة لِمَن يتسمَّح بِمُجالسة المبتدِعة الذين يُحرِّفون كلام الله، ويتلاعبون بكتابه وسُنَّة رسوله، ويرد ذلك إلى أهوائهم الْمُضِلة وبِدعهم الفاسدة ، فإنه إذا لَم يُنكِر عليهم ويُغيِّر ما هم فيه ، فأقل الأحوال أن يترك مُجالستهم ، وذلك يسير عليه غير عسير ، وقد يجعلون حضوره معهم مع تَنَزُّهه عمَّا يتلبَّسون به شُبهة يُشبِّهون بها على العامة، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر.وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر ، وقُمنا في نُصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه، وبلغت إليه طاقتنا ، ومن عرف هذه الشريعة المطهَّرة حق معرفتها ، عَلِمَ أن مُجالسة أهل البِدع الْمُضِلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما في مُجالسة مَن يَعصي اللهَ بفعل شيء من المحرَّمات ، ولا سِيَّما لمن كان غير راسخ القدم في عِلم الكتاب والسُّنة ، فإنه ربما يتفق عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البُطلان بأوضح مكان، فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه، ويعسر دفعه فيعمل بذلك مُدَّة عُمره، ويلقى الله به معتقدًا أنه من الحق، وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر)) اهـ .

وإن أنساكَ الشَّيطانُ النَّهْيَ عن الجلوس معهم ، والإعراضِ عنهم ، بالوَسْوسة ، وإشغال الذهن بأمور أخرى ، ثم ذَكَرْتَ ذلك ، فَقُم عنهم ، وغادِرْ مَجلسهم ، ولا تقعد بعد تَذَكُّرك مع القوم الذين ظَلَموا أنفسهم ، باختيارهم الكفر على الإيمان، وحِرصهم على تكذيب الآيات الإلهية، والاستهزاء بها ، والتطاول عليها ، وشتمها . والظلمُ هو وضع الشَّيء في غَير مَوضعه .

واللهُ لَم يقل : مَعَهُم ، وإنما قال : ﴿ مَعَ القَوْمِ الظالمين ﴾ . ووضعُ الظاهر مَوضع الْمُضْمَر ، لإدانتهم والتَّسجيل عليهم بالظلم، فقد ظَلموا أنفسَهم، وقادوها إلى الهلاك والعذاب، بتكذيبهم لآيات الله والاستهانة بها ، والمفروض أن يُصدِّقوا بها ، ويتفكروا فيها ، ويُعظِّموها .

والآيةُ دليل على أن الله لا يُؤاخِذ بالنسيان ، وأن النسيان مَعْفُوٌّ عنه ، ولكن يُؤاخِذ بالمعرفة والتَّذَكُّر. والأحكامُ الشرعية قائمة على التذكر والقصد والإرادة، ولا تقوم على الخطأ أو النسيان أو الإكراه.والنِّسيانُ في حق النبيِّ ﷺ جائز، بِحُكم طبيعته البشرية، وهذا لا يُقلِّل من شأنه العظيم.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٦٢) : ((قَوله تعالى: ﴿ وإذا رَأيْتَ الذينَ يَخُوضُونَ في آيَاتِنا ﴾ . فيمن أُرِيد بهذه الآية ، ثلاثة أقوال : أحدها المشركون، والثاني اليهود، والثالث أصحاب الأهواء . والآيات القرآن . وخَوض المشركين فيه تكذيبهم به ، واستهزاؤهم ، ويُقاربه خَوض اليهود وخَوض أهل الأهواء بالمِرَاء والخصومات . قَوله تعالى : ﴿ فأعْرِضْ عَنْهُم ﴾ أي : فاترك مُجالستهم حتى يكون خَوْضُهم في غَير القرآن ، ﴿ وإمَّا يُنسِيَنَّكَ ﴾ . والمعنى : إذا أنساكَ الشيطانُ فقعدتَ معهم ناسيًا نَهْيَنا لك ، ﴿ فلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكرى ﴾ ، والذِّكر والذِّكرى واحد . قال ابن عباس : قُم إذا ذَكَرْتَه . والظالمون المشركون)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَذَرِ الذينَ اتَّخَذُوا دِينَهُم لَعِبًا ولَهْوًا وغَرَّتْهُمُ الحياةُ الدُّنيا ﴾[الأنعام: ٧٠].

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ:واترُك يا محمد هؤلاء الكافرين الذين اتخذوا دِين الله (الإسلام) لعبًا عابرًا ولَهْوًا باطلاً ، وسَخروا مِن الدِّين ، واستهزؤوا بِه ، ولَم يَعملوا بِه ، وكذَّبوا آياتِ الله، وتلاعبوا عِند ذِكر الله ، واستهانوا بطاعته ، وأهملوا عبادته. وكان الواجب عليهم أن يُعظِّموا الدِّينَ، ويَحترموه ، ويلتزموا بأوامره ونَواهيه . دَعْهُم يا محمد ، وأعرِض عنهم ، ولا تَعْبَأ بِهم ، ولا تحزن بشأنهم ، ولا تُبالِ بكفرهم وضلالهم وتكذيبهم واستهزائهم ، وأمهلهم قليلاً ، فإن مصيرهم إلى عذاب النار الشديد . واللهو ما يُشغِل الإنسانَ مِن هوى أو طرب . وخدعتهم هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة، حتى اعتقدوا أنها البداية والنهاية ، ولا توجد حياة بعدها . لقد غرقوا في شهواتهم الوضيعة وأمانيهم الباطلة ، واطمأنُّوا بالحياة الدنيا وركنوا إليها، وأنكروا البعث ، وجَحدوا وجودَ الدار الآخرة . كُل تفكيرهم محصور في شهوات الدنيا. وقد اغترُّوا بِنِعَم الله عليهم ، وطُول إمهالهم ، وثقتهم الوهمية في رحمة الله ونعيمه ومغفرته . وهذه الأماني الكاذبة قادتهم إلى الهلاك والعذاب . وعلى المؤمن أن يتذكر الموت وما بعده ، ويُركِّز في الحياة الآخرة الباقية ، ولا يغتر بزخارف الحياة الدنيا الفانية . وعُمر الإنسان مهما طال ، لا بُد له مِن نهاية ، وسوف يرحل من هذه الدنيا الزائلة، إلى الدار الآخرة الباقية، فإمَّا نعيم أبدي في الجنة ، أو عذاب أبدي في النار . ولا يُوجد حَل وسط . والآيةُ للوعيد والتهديد . ولا يُوجد فيها نَسْخ ، لأنها تَحمل خبرًا ، والأخبار لا نَسْخ فيها . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٩) : ((﴿ وَذَرِ الذينَ اتَّخَذُوا دِينَهُم لَعِبًا ولَهْوًا ﴾ أي : بَنَوْا أمرَ دِينهم على التشهي ، وتديَّنوا بما لا يعود عليهم بنفع عاجلاً أو آجلاً ، كعبادة الأصنام وتحريم البحائر والسوائب، أو اتخذوا دينهم الذي كُلِّفوه لعبًا ولَهْوًا، حيث سخروا به ، أو جَعلوا عيدهم الذي جُعل ميقات عبادتهم زمانَ لَهْو ولعب . والمعنى : أعْرِضْ عنهم ، ولا

تُبالِ بأفعالهم وأقوالهم . ويجوز أن يكون تهديدًا لهم)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٦٤) : ((قَوله تعالى:﴿ وَذَرِ الذينَ اتَّخَذُوا دِينَهُم لَعِبًا ولَهْوًا ﴾ . فِيهم قَولان : أحدهما أنهم الكفار ، والثاني اليهود والنصارى . وفي اتِّخاذهم دينهم لعبًا وَلَهْوًا ثلاثة أقوال : أحدها أنه استهزاؤهم بآيات الله إذا سَمِعوها. والثاني أنهم دانوا بما اشْتَهَوْا كما يَلْهُون بما يَشتهون . والثالث أنهم يُحافظون على دينهم إذا اشْتَهَوْا كما يَلْهُون إذا اشْتَهَوْا . قال الفرَّاء : ويُقال : إنه ليس من قوم إلا ولهم عيد ، فهم يَلْهُون في أعيادهم إلا أُمَّة محمد ﷺ ، فإن أعيادهم صلاة وتكبير وبِر وخَير. ولعلماء الناسخ والمنسوخ في هذا القَدْر مِن الآية قَولان: أحدهما أنه خرج مخرج التهديد، كقَوله : ﴿ ذَرْني ومَن خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [المدثِّر : ١١]. فعلى هذا هو مُحكَم ، وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد . والثاني أنه اقتضى الْمُسامَحة لهم ، والإعراض عنهم ، ثُمَّ نُسِخ بآية السَّيف ، وإلى هذا ذهب قَتادة والسُّدي)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ لا إلهَ إلا هُوَ وأعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ [الأنعام : ١٠٦] .

هذا أمرٌ إلهيٌّ للنبيِّ ﷺ : اتَّبِعْ يا محمد القُرآن الذي أنزله اللهُ عليك، وأوحاه إليك ، واثبت على الحق والحقيقة ، والتزِمْ بآيات الله وأحكامه وشرائعه القائمة على التَّوحيد ، فإن الوَحْيَ الإلهيَّ هو الحق والصِّدق . وذِكر الرُّبوبية والإضافة إلى ضمير النبيِّ ﷺ : ﴿ رَبِّكَ ﴾ ، يدل على لُطف الله بالنبيِّ ﷺ ، ورحمته بِه ، وإحسانه إليه ، وإنعامه عليه . لا معبود بحق إلا الله ، وهو الإله المستحق للأُلوهية والعبادة ، وَحْدَه لا شريك له . وبما أن الله وَحْدَه هو الإله الحق ، المنفرِد بالأُلوهية والرُّبوبية والأمر والْحُكم، فيجب اتِّباع وَحْيه ، والالتزام بكلامه ، بلا زيادة ولا نُقصان ، لأن الحق (الوَحْي) لا يَصْدُر إلا عَن الحق سُبحانَه وتعالى.ولا تَعْبأ بالمشركين،ولا تنشغل بهم، ولا تُجادلهم، ولا تُعلِّق قلبك بهم، بَل زَكِّزْ في العبادة، وعَلِّقْ قلبك بالله ودِينه ، وواصل نشر الدعوة الإسلامية ، ولا تتضايق مِن كُفرهم وضلالهم ، وتَجَاهَلْ أهواءهم الفاسدة ، وأهْمِلْ آراءهم السخيفة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٢٠) : ((يقول تعالى آمِرًا لرسوله ﷺ وَلِمَن اتَّبعَ طريقته : ﴿ اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ ﴾ ، أي: اقتدِ به ، واقتفِ أثره ، واعمل به ، فإن ما أُوحِيَ إليك من ربك هو الحق ، الذي لا مِرْية فيه ، لأنه ﴿ لا إلهَ إلا هُوَ ﴾ ، ﴿ وأعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ أي : اعْفُ عنهم ، واصفح ، واحتمل أذاهم ، حتى يفتح اللهُ لك ، وينصرك ، ويُظفِّرك عليهم ، واعلم أن لله حِكمة في إضلالهم ، فإنه لو شاء لهدى الناس جميعًا، ولو شاء لجمعهم على الهدى)) اهـ.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾[الأعراف : ١٩٩] .

يأمرُ اللهُ النبيَّ ﷺ بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الصفات ، وفضائل الأعمال ، والالتزام بالقواعد الأخلاقية في الشريعة الإسلامية . تَعَامَلْ مَعَ الناس يا محمد بِرِفق ولِين وأدب ، وخُذ بالسهل اليسير في معاملتهم ومُعاشرتهم ، وأمُر بالمعروف والأقوال الحسنة والأفعال الجميلة . والمعروف هو كل ما يعرفه الشرع ، ويَعرف حُسْنَه كُلُّ شخص . وأهْمِل السُّفهاءَ والجهَلةَ، ولا تلتفت إليهم، ولا تَعْبأ بهم، ولا تُقابلهم بِطَيْشهم وسَفَههم ، وتَجَاوَزْ عن جهلهم وسُوء أخلاقهم ، واحلُم عليهم، واصفح عنهم ، معَ وُجوب الإنكار عليهم ، وفضح باطلهم ، وإظهار الحق . وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٢/٤٠٦):((﴿ وأعْرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾ أي: إذا أقمتَ الْحُجَّةَ في أمرهم بالمعروف، فلم يَفعلوا،فأعْرِضْ عنهم،ولا تُمارهم،ولا تُسافههم مُكافأةً لِمَا يَصدر مِنهم مِن المِرَاء والسَّفاهة)) .

والخطابُ الإلهيُّ ــ وإن كان مُوَجَّهًا للنبيِّ ﷺ ــ إلا أن يشمل جميع الناس ، لأن العلاقات الاجتماعية مبنية على الأخلاق الحسنة والاحترام المتبادل. ويجب على الجميع التَّحلي بالأخلاق.

والآيةُ تدل على أخلاق النبيِّ الحميدة ، ورِفعة مَنْزلته ، وعُلُوِّ مكانته ، وشرف صفاته . فهو يتعامل مع الناس بأدب واحترام وتقدير . وهذه الصفات الحسنة تنبع من القوة والقُدرة والعِز ، وليس مِن الضعف والاستكانة والذل . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٨٤) : ((﴿ خُذِ العَفْوَ ﴾ أي : خُذ ما عفا لك مِن أفعال الناس ، وتسهَّل ، ولا تطلب ما يَشُق عليهم مِن العَفْو ، الذي هو ضد الْجَهْد (المشقة) . أو : ﴿ خُذِ العَفْوَ ﴾ عن المذنبين ، أو الفَضْل وما يَسهُل مِن صدقاتهم ، وذلك قبل وجوب الزكاة . ﴿ وأْمُرْ بالعُرْفِ ﴾ المعروف الْمُسْتَحْسَن مِن الأفعال ، ﴿ وأعْرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾ ، فلا تُمارهم ، ولا تُكافئهم بِمِثل أفعالهم . وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق ، آمِرة للرسول باستجماعها)).وقالَ اللهُ تعالى:﴿فاصْدَعْ بِمَا تُؤمَرُ وأعْرِضْ عَنِ المشركين﴾[الحِجْر: ٩٤].

أمرَ اللهُ رسولَه محمدًا ﷺ أن يُبلِّغ قَوْمَه والناسَ الوَحْيَ الإلهيَّ كاملاً ، فافعلْ ما تُؤمَر يا محمد. اجْهَرْ بِه وأظْهِرْه . بَلِّغْ رسالةَ اللهِ ، ولا تَعْبَأ بالمشركين الذين يُريدون مَنْعَكَ مِن أداء مهمتك ، ولا تهتم بِسُخريتهم واستهزائهم ، ولا تلتفت إِلَيهم إذا لاموكَ على إظهار الدَّعوة المحمدية الإسلامية .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٢١) : ((وفي قَوْله : ﴿ وأعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها اكْفُفْ عَن حربهم . والثاني لا تُبالِ بهم، ولا تلتفِتْ إلى لَوْمهم على إظهار أمْرِك. والثالث أعْرِضْ عن الاهتمام باستهزائهم. وأكثر المفسِّرين على أنَّ هذا القَدْر من الآية مَنسوخ بآية السَّيف)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ فأعْرِضْ عَن مَن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنا وَلَم يُرِدْ إلا الحياةَ الدُّنيا ﴾[النَّجْم: ٢٩] .

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ : فأعْرِضْ يا محمد عن هؤلاء المشركين الذين جَحدوا وَحدانيةَ الله، وكَذَّبوا بالوَحْي الإلهيِّ (القُرآن) ، ولَم يعترفوا بِنُبُوَّتك ، وأدبروا عن ذِكر الله ، ولَم يُعظِّموه .

وقال أبو السعود في تفسيره (٨ / ١٦٠) : ((﴿ فأعْرِضْ عَن مَن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنا ﴾ أي : عنهم . ووضع الموصول مَوضع ضميرهم، للتوسل به إلى وصفهم بما في حيِّز صِلته من الأوصاف القبيحة ، وتعليل الحكم بِها . أي : فأعْرِضْ عمَّن أعرضَ عَن ذِكْرنا الْمُفيد للعِلم اليقيني ، وهو القرآن المنطوي على علوم الأولين والآخرين ، الْمُذكِّر لأمور الآخرة ، أو عَن ذِكرنا كما ينبغي ، فإن ذلك مُستتبع لِذِكر الآخرة ، وما فيها من الأمور المرغوب فيها ، والمرهوب عنها)) اهـ .

كُل تفكيرهم مَحصور في شهوات الدنيا الزائلة ، ولا هَم لَهُم إلا الاستمتاع بِحُطام الدنيا الفاني، معَ إنكار تام للدار الآخرة ، وما فيها من النعيم الدائم بلا انقطاع ولا زوال . إن الدنيا هي أكبر هَمِّهم ، ومُنتهى عِلمهم، ولا يَرَوْنَ أبعد منها . لذلك لا فائدة من نُصحهم ودَعوتهم ، لأنهم غارقون في مستنقع الحياة الدنيا الفانية . والآيةُ تنهى عن دَعوة الْمُعرِضين عن كلام الله ، الرافضين لوَحدانيته ، الذين لا يحرصون على الحق ، ولا يَهتمون بالأدلة . وهؤلاء يَجب الإعراض عنهم وهَجْرهم،وعدم مُناقشتهم ولا مُجادلتهم،ولا إضاعة الوقت معهم، لأنه لا فائدة مِن دَعوتهم، ولا معنى للحديث معهم،ولا خَير فيهم،ولا يُرجَى مِنهم شيء .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٥٧): ((فأعْرِضْ عن دَعوته والاهتمام بشأنه ، فإن مَن غَفَلَ عَن الله ، وأعرضَ عن ذِكْره ، وانهمكَ في الدنيا، بحيث كانت مُنتهى هِمَّته، ومَبلغ عِلمه ، لا تزيده الدعوة إلا عنادًا ، وإصرارًا على الباطل)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٥٩) : ((﴿ فأعْرِضْ عَن مَن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنا ﴾ ، أي: أَعْرِضْ عمَّن أعرضَ عَن ذِكْرنا . والمراد بالذِّكر هُنا القُرآن أو ذِكر الآخرة ، أو ذِكر الله على العموم.وقِيل: المراد بالذِّكر هُنا الإيمان. والمعنى: اترُك مُجادلتهم ، فقد بَلَّغْتَ إليهم ما أُمِرْتَ به ، وليس عليك إلا البلاغ . وهذا مَنسوخ بآية السَّيف . ﴿ وَلَم يُرِدْ إلا الحياةَ الدُّنيا ﴾ أي : لَم يُرِدْ سِواها،ولا طَلَب غَيرها، بل قَصَرَ نظره عليها،فإنه غير متأهل للخير، ولا مستحق للاعتناء بشأنه)).

الفصل الثاني : الكافرون

١ــ صِفاتهم :

قالَ اللهُ تعالى:﴿إنَّ الذينَ كفروا سَواءٌ عَلَيهم أأنذَرْتَهُم أَم لَم تُنذِرْهُم لا يُؤمِنون ﴾[البقرة: ٦].

إن الكافرين ــ كأبي جهل وأبي لهب وغَيرهما ــ لديهم موقف مسبق رافض للإيمان، سواءٌ ظهر الحق أم لَم يَظهر. والنتيجةُ واحدة سواءٌ تَمَّت دَعوتهم أَم لا. إنهم متمسكون بضلالهم وجهلهم وعنادهم، والكفر عناد. ولا يَبحثون عن الحق، وليسوا حريصين على معرفة الصواب . والحوار مع هذه الفئة مَضيعة للوقت وبلا فائدة، فالحق لن يُؤثِّر فيهم،ولَن يستفيدوا شيئًا من الآيات والأدلة والبراهين والْحُجَج ، ولَن ينفعهم الهدى .

إنهم يَعتبرون الإيمان خطرًا على وجودهم ، وتهديدًا لمصالحهم الشخصية ، وإزالةً للعبودية التي يُمارسونها على الضعفاء والمسحوقين والمنبوذين ، لذلك يُحاربون الإيمانَ بكل الوسائل المتاحة . وهذا يعني أن كفرهم عن سبق الإصرار والتَّعَمُّد ، وليس بسبب شُبهة أو غموض .

لقد سَتَرَ الكافرون نِعَمَ الله عليهم ، وأنكروا الآيات والبراهين ، وجَحدوا وَحدانيةَ الله ، لذلك لَم يستحقوا شرفَ الإيمان. وقد خذلهم اللهُ في حياتهم ومَماتهم ، فعاشوا كافرين ، وماتوا كافرين .

إن اللهَ يَعلم بِعِلْمه السابق أنهم لَن يُؤمنوا ، وسيموتون على الكفر . وقد أرادَ اللهُ التخفيفَ عن النبيِّ ﷺ وإراحته ، وقطع طَمعه في إيمانهم، فالنبيُّ ﷺ كان مُتضايقًا للغاية من عدم إيمانهم ، ومُنْزعجًا من إصرارهم على الكفر،فأخبره اللهُ أن المشكلة هي مشكلة الكافرين، وليست مشكلتك يا محمد. والعيب في الكافرين ، وليس في الدعوة الإسلامية . إنهم مُتمسِّكون بالكفر بأظافرهم وأسنانهم ، وسيموتون عليه ، سواءٌ أرشدتهم يا محمد أَم لَم تُرشدهم .

والإنذارُ هو الإبلاغ والإعلام مع تخويف . وهؤلاء لا يستحقون البشارة لقساوة قلوبهم ، وسُوء أخلاقهم ، وقُبح صفاتهم ، وفساد طِباعهم ، ولا يتم التعامل معهم إلا بالإنذار والزَّجر عن الذنوب والآثام والمعاصي ، والتخويف من عذاب الله وعقابه، لأن الإنذار أشد وقعًا في النفوس، وأقوى تأثيرًا في القلوب.وحتى التَّخويف مِن عذاب النار الشديد لَم يُؤثِّر فيهم، ولَم يأتِ بنتيجة.

والحكمة مِن الإنذار ــ مَعَ أنه لَن يأتيَ بنتيجة ــ هو إقامة الْحُجَّة عليهم ، وقطع أعذارهم . ووظيفةُ النبيِّ ﷺ مَحصورة في البلاغ والتَّبليغ ، ولا يَقْدِر على إدخال نور الإيمان إلى قلوبهم ، لأن هذا الأمر بيد الله وَحْدَه .

إنَّ النبيَّ ﷺ يُؤدِّي مهمته في دعوة الناس على أكمل وَجْه، ويحصل على الأجر الإلهيِّ العظيم، وينال المكانة الرفيعة في الدنيا والآخرة . وكُل إنسان حُر في اختياره، يختار الإيمانَ أو الكفر، بكامل قواه العقلية، ودون ضغط من أحد ، ويتحمَّل مسؤولية هذا الاختيار المصيري في الدنيا والآخرة .

تساوى عند الكافرين إنذارك لهم يا محمد وعدم إنذارك، ففي الحالتين لا يُؤمنون،وسيبقون مُتمسِّكين بالكفر كمنهج حياتي لا مَحيد عنه ، ومُتمسِّكين بالضلال كخيار وحيد لا رَجعة عنه .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٣) : ((يَقول تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ كفروا ﴾ أي : غَطُّوا الحقَّ وستروه . وقد كَتب اللهُ تعالى عليهم ذلك ، سواءٌ عليهم إنذارك وعدمه ، فإنهم لا يؤمنون بما جِئتهم به ... . إن مَن كَتب اللهُ عليه الشقاوة، فلا مُسعِد له، ومَن أضَلَّه فلا هادي له ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وبلِّغهم الرسالة ، فمَن استجاب لك فله الحظ الأوفر ، ومَن تَوَلَّى فلا تحزن عليهم ، ولا يَهُمَّنك ذلك ... . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ كفروا سَواءٌ عَلَيهم أأنذَرْتَهُم أَم لَم تُنذِرْهُم لا يُؤمِنون ﴾ . قال: " كان رسول الله ﷺ يحرص أن يُؤمن جميع الناس ، ويُتابعوه على الهدى ، فأخبره اللهُ تعالى أنه لا يؤمن إلا مَن سَبَقَ له مِن الله السعادة في الذِّكر الأول ، ولا يَضِل إلا مَن سَبَقَ له من الله الشقاوة في الذِّكر الأول)) اهـ.

وقال القرطبي في تفسيره (١/ ٢٣٠) : ((واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ، فقِيل : هي عامَّة ، ومعناها الخصوص فِيمن حقَّت عليه كلمة العذاب ، وسَبَق في عِلم الله أنه يموت على كُفره. أراد اللهُ تعالى أن يُعلِم أن في الناس مَن هذه حاله ، دُون أن يُعيِّن أحدًا. وقال ابن عباس والكلبي : نزلت في رُؤساء اليهود مِنهم : حُيَي بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما.وقال الربيع ابن أنس : نزلت فيمن قُتِل يوم بَدْر مِن قادة الأحزاب . والأول أصَح ، فإن مَن عَيَّنَ أحدًا ، فإنما مَثَّلَ بِمَن كَشف الغَيب عنه بِمَوته على الكفر ، وذلك داخل في ضمن الآية)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلى قُلوبِهم وعلى سَمْعِهم وعَلى أبصارِهم غِشَاوةٌ ولهم عَذابٌ عظيم ﴾ [البقرة : ٧] .

إن الإيمان شرف لا يَمنحه اللهُ لأيِّ شخص، وإنما يَمنحه لأشخاص مُحدَّدين . وهناك أشخاص يَمنعهم اللهُ مِن الإيمان ، ويَحجب عنهم النُّور ، فيُغرقهم في ظُلمات الكفر والضلال والجهل ، ويعيشون كفارًا ، ويموتون كفارًا . لقد حَكَمَ اللهُ على قلوبهم بالكفر وَفْق عِلْمه الأزليِّ فيهم .

طَبَعَ اللهُ على قلوبهم ، وغطَّى عليها ، وخلق فيها الكفرَ ، فلا يصل إليها النُّور ، ولا يَدخلها الإيمان ، ولا تستوعب الخير والحق والهدى ، ولا تفهم معناه ، ولا تُدرِك أبعاده ، ولا تعرفه .

والقلبُ هو مَلِك الأعضاء ، وأشرف الجوارح ، وهو موضع العقل والفهم والفكر . وسُمِّيَ قلبًا لتقلُّبه . لذلك ،كانت القلوب في الآية أول ما ذُكِر .

وأيضًا ، طَبَعَ اللهُ على موضع سَمْعهم ، فلا يَسمعون الحق ، ولا يَفهمونه ، ولا يستفيدون مِنه. والمقصود بالسَّمْع هو الأسماع ، ولكن جِيء السَّمع بصيغة المفرَد، لأنه مصدر، والمصدر لا يُثنَّى ولا يُجمَع . وعلى أبصارهم غطاء وحجاب ، فلا يَرَوْنَ الحق ، ولا يَعرفونه ، ولا يَشعرون بِه . ولهم عقابٌ شديد في الدنيا بالقتل والأسر،ولهم عذابٌ مُؤلم ورهيب ودائم في نار جهنم،في الآخرة.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٤٣) : ((﴿ خَتَمَ اللهُ عَلى قُلوبِهم وعلى سَمْعِهم وعَلى أبصارِهم غِشَاوةٌ ﴾ ، تعليل للحُكم السابق، وبيان لِمَا يقتضيه. والختم الكَتْم. سُمِّيَ به الاستيثاق من الشيء ، يُضرَب الخاتَم عليه ، لأنه كَتْم له والبلوغ آخره ، نظرًا إلى أنه آخر فِعل يُفعَل في إحرازه . والغِشاوة : فِعالة مِن غِشاء ، إذا غطَّاه ... . وإنما المراد بهما أن يُحدِث في نفوسهم هيئة تُمرِّنهم على استحباب الكفر والمعاصي ، واستقباح الإيمان والطاعات، بسبب غَيِّهم وانهماكهم في التقليد ، وإعراضهم عن النظر الصحيح ، فتجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيها ، وأسماعهم تعاف استماعه ، فتصير كأنها مُسْتَوْثَق منها بالختم ، وأبصارهم لا تجتلي الآيات المنصوبة لهم في الأنفس والآفاق كما تجتليها أعين المستبصرين، فتصير كأنها غُطِّيَ عليها، وحِيل بينها وبين الإبصار))اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما يَوَدُّ الذينَ كفروا مِن أهلِ الكتابِ ولا المشركينَ أن يُنَزَّلَ عَلَيكم مِن خَيْرٍ مِن رَبِّكُم ﴾ [البقرة : ١٠٥] .

إن الله يُوضِّح شِدَّة عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين.حيث إنهم لا يُحِبُّون أن يحصل المؤمنون على الخير من عند الله تعالى . وهذا يعكس الحقد المتجذر في صدورهم ، وابتعادهم عن مفهوم الأخوة الإنسانية الخاضعة للخالق تعالى . والمؤمنُ يحبُّ الخيرَ للجميع لأنه يُدرك أن له رسالة في هذه الحياة محدودة بمدة زمنية . فعليه أن يستغل هذا الوقت في الدعوة وإرشاد الناس إلى خالقهم وإعادة القطار الاجتماعي المنحرف إلى السِّكة . والإسلامُ ليس سُلطةً كهنوتية مغلَّفة بالأسرار والطلاسم ، ومغلقة في وجه الآخرين . إنه الدِّين العالمي للإنس والجن على السواء . ومقياسُ التفاضل بين الخلائق يعتمد على التقوى وليس الجنس أو العِرق أو اللون . والكفر ليس

عقيدةً مخفية في الصدور فَحَسْب، بل هو أيضًا ذو انعكاس واضح على أرض الواقع ، حيث يتجذر الحقد ضد المؤمنين ، وتتأجج الكراهية في أبشع صورها . فالكافرُ يَوَدُّ لو كان الناسُ كلهم كفارًا ، وهذا مِن تَمَنِّي انتشار المنكَرات في المجتمع،لئلا يَشعر المنحرفون أنهم شاذون عن المسار الحياتي الإنساني .

ينبغي الحذر من اليهود والمشركين، بسبب قَسوة قلوبهم، وعنادهم، وضلالهم ، وحقدهم، وخُبثهم ، وشِدَّة عداوتهم للإسلام والمسلمين. وينبغي التعامل معهم بانتباه ويقظة وفِطنة . إنهم لا يُحِبُّون إنزال الخير مِن الله على المسلمين الْمُوحِّدين . والخيرُ كلمة عامة شاملة ، غَير مَحصور في أمر مُعيَّن ، والمقصود هو كُل خَير . وهذا يدل على حِقدهم الفظيع ، وكراهيتهم للحق .

لقد عادى اليهودُ الإسلامَ والمسلمين ، وطعنوا في نُبُوَّة محمد ﷺ ، بدافع الحقد والحسد ، لأن النبيَّ محمدًا ﷺ خرج من العرب (مِن وَلد إسماعيل ﷺ)، ولَم يَظهر مِن بني إسرائيل (يعقوب ﷺ). واليهودُ كانوا يَرَوْنَ أنفسهم الأحق بالنُّبُوَّة والوَحْي،لذلك اختاروا مُحاربة الإسلام والتَّشكيك فيه، وعداوة النبيِّ ﷺ ورفض نُبُوَّته، ومُقاومة الدَّعوة الإسلامية بكل الوسائل. وقد كان اليهودُ يُظهِرون محبة المؤمنين ومَوَدَّتهم ، وأنهم يُريدون لهم الخير والتقدم والازدهار والرِّفعة والنَّهضة ، فكذَّبهم اللهُ، وفضح باطلهم ، وكشف ضلالهم ، وأظهرَ ما في قلوبهم مِن الحقد والحسد والعداوة . والوُدُّ هو محبة الشَّيء معَ تَمَنِّيه .

أمَّا سبب عداوة المشركين للنبيِّ ﷺ ، فلأنه هَدَمَ تراثهم الوثني ، وعابَ آلهتهم (الأصنام) ، وأزالَ رياساتهم ومكاسبهم،وسفَّه أحلامهم، وبيَّن كُفرهم وضلالهم،وكشف جهل آبائهم وغبائهم.

والجديرُ بالذِّكر أن كلمة ﴿ رَبِّكُم ﴾ تدل على رُبوبية الله تعالى ، وعَظَمَة الخير الذي يُنَزِّله اللهُ، لأن شرف الشَّيء مِن شرف مَصدره. والإضافة إلى ضمير المؤمنين : ﴿ رَبِّكُم ﴾ تدل على شرفهم ورِفعة قَدْرهم ، وعُلُوِّ مَنْزلتهم ، وسُمُوِّ مكانتهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٢٦ و١٢٧): ((قَوله تعالى: ﴿ ما يَوَدُّ الذينَ كفروا مِن أهلِ الكتابِ ﴾ . قال ابن عباس : هُم يهود المدينة ونصارى نَجْران ، فالمشركون مُشركو أهل مكة . ﴿ أن يُنَزَّلَ عَلَيكم ﴾ ، أي : على رسولكم ﴿ مِن خَيْرٍ مِن رَبِّكُم ﴾ ، أرادَ النُّبُوَّةَ والإسلامَ. وقال أبو سليمان الدمشقي : أرادَ بالخير العِلم والفِقه والحِكمة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الذينَ كَفروا كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إلا دُعَاءً ونِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُم لا يَعْقِلُون ﴾ [البقرة : ١٧١] .

ضَـرَبَ اللهُ مَـثَلاً للكـافرين ، فـي ضـلالهم وجهلهـم وعنـادهم وغبـائهم . وهـذا المثَـل الإلهـيُّ الحكيم يُوضِّح حالَ الكافرين السَّيئة ، فهُم كالأنعام والبهائم والدواب التي تَسمع صَوت الرَّاعي ، ولكن لا تَفهم مَعناه ، ولا تَعقِله . يَصِلها الصَّوت بشكل مُجرَّد، ولكن لا تَعرف المقصود مِنه . إنها تحس بالنداء وتشعر بِه، ولكنها لا تَفهم مَعناه ، ولا تعرِف مَغزاه . والنعيق والنعق صياح الراعي بالغنم. وكذلك الكافرون يَسمعون كلامَ الله ومواعظه وحِكَمه وإرشاداته،لكنهم لا يَنتفعون بشيء مِن ذلك، ولا يَستفيدون مِنه،فكأنهم لَم يَسمعوه أصلاً. وهذا يدل على غرقهم في الكفر والضلال، مِمَّا أدَّى إلى غياب عقولهم، ومَوت قلوبهم، وتعطُّل حواسِّهم،وعجزهم عن التفكر والتأمُّل والفهم.

إن النبيَّ ﷺ يَدعو الكافرين إلى نُور الإيمان واعتناق الحق ، بالأسلوب اللطيف ، والكلام البليغ المؤثِّر ، والدليل والبُرهان ، ويَستخدم الترغيبَ والترهيب ، ويُوضِّح القضايا والمسائل ، ويُزيل الشُّبهات ، ويُقيم عليهم الْحُجَّة ، ويقطع أعذارهم . ولكن الكافرين لا يَستفيدون مِن هذه المواعظ ، ولا يَنتفعون بِها ، ولا يتدبَّرونها ، كالبهائم التي تَسمع صَوت راعيها ، ولكنها لا تَفهمه.

وقد وصفهم اللهُ بالصُّم لأنهم لا يَسمعون الحق، والبُكْم (الْخُرْس) لأنهم لا يَقولون الصوابَ، ولا يَنطقون بالحق ، ولا يَعترفون بالوَحْي والنُّبُـوَّة ، والعُمْـي لأنهـم لا يَـرَوْنَ الآيـات البـاهرة ، والْمُعجِزات العظيمة ، والبراهين الواضحة ، ولا يُبصِرون طريقَ الحق والهدى .

إنهـم لَـم يستفيدوا مِـن أعضـائهم وحواسِّـهم فـي معرفـة الحق والإيمـان والهـدى. وقـد رَفضـوا الإيمانَ، ولَم يَقبلوا بالوَحْي والنُّبُـوَّة ، ولَم يَستفيدوا مِن الآيات والمواعظ ، فكان وجود حواسِّهم كعدمها ، بلا فائدة ولا نفع ولا جَدوى.وهذا يدل على غياب تام للعقل والفهم.إنهم لا يَعقِلون ولا يَفهمون. وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٢٠٩) : ((شبَّه تعالى وَاعِظَ الكفار وداعيهم ، وهو محمد ﷺ بالرَّاعي الذي يَنعِق بالغنم والإبل ، فلا تسمع إلا دُعاءه ونداءه ، ولا تفهم ما يقول . هكذا فسَّره ابن عباس ، ومجاهد ، وعِكرمة ، والسُّدي ، والزَّجاج ، والفرَّاء ، وسيبوَيْه ، وهذه نهاية الإيجاز)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ولا يَزَالُونَ يُقاتِلُونَكُم حتى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُم إنِ استطاعوا﴾[البقرة:٢١٧].

إن كفار قُرَيش مُستمرون على ضلالهم، ومُصِرُّون على عداوة الإسلام والمسلمين . يُحاولون جاهدين فِتنة المسلمين عن دِينهم ، ويُواصلون قتالَهم حتى يُعيدوهم إلى الكفر ، إن استطاعوا ، وتَمَكَّنوا مِن ذلك . و ﴿ إنِ استطاعوا ﴾ لاستبعاد استطاعتهم، وإشارة واضحة إلى أن الكافرين لَن يَرُدُّوا المسلمين عن دِينهم الحق ، وذلك لقوة إيمانهم ، وثباتهم على الحق ، وتمسُّكهم بالهدى .

وإضافة الدين إلى المسلمين ﴿ دِينِكُم ﴾ لبيان العلاقة المصيرية الثابتة بينهم وبين الإسلام ، بحيث لا يُمكن الافتراق ، ولا الاختلاف . كما أن مسؤولية حماية الدين تقع على كاهل المسلمين ، وعليهم أن يُدافعوا عن دِينهم بالغالي والنفيس ، وحتى الرَّمَق الأخير .

وهؤلاء الكافرون يَصِلُون الليل بالنهار ، من أجل حرب الإسلام والمسلمين ، ولا يَشعرون بالتعب ولا الكَسَل ولا شُعور بالنَّدم أو الذنب . لذلك ينبغي أخذ الحِيطة والحذر في التعامل معهم. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٣٣١) : ((وقَوله : ﴿ ولا يَزَالُونَ ﴾ ابتداء كلام يتضمَّن الإخبار من الله عَزَّ وَجَلَّ للمؤمنين، بأن هؤلاء الكفار لا يزالون مُستمرين على قتالكم وعداوتكم ، حتى يَرُدُّوكم عن الإسلام إلى الكفر ، إن استطاعوا ذلك ، وتهيَّأ لهم مِنكم . والتَّقَيُّد بهذا الشرط مُشعِر باستبعاد تَمَكُّنهم من ذلك ، وقُدرتهم عليه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ كَفروا أولياؤُهُمُ الطاغوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

إن الكافرين وَلِيُّهم الشَّيطان يتلاعب بهم ، ويُوَسْوِس لهم ، ويُزيِّن لهم الذنوب والمعاصي والموبقات ، ويَعِدهم بالوعود الكاذبة ، ويُمنِّيهم بالأماني الباطلة ، ويُخرِجهم مِن نور الإيمان إلى ظُلُمات الكفر . والجديرُ بالذِّكر أن لفظة ﴿ النُّورِ ﴾ جاءت بالْمُفرَد ، و ﴿ الظُّلُماتِ ﴾ بالجمع، لأن الحق واحد لا يتعدَّد ، أمَّا الكفر فأجناس كثيرة ومذاهب شَتَّى وأنواع مُتعدِّدة .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٥٨) : ((﴿ والذينَ كَفروا أولياؤُهُمُ الطاغوتُ ﴾ ، أي : الشياطين أو الْمُضِلاَّت من الهوى والشيطان وغَيرهما . ﴿ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ ﴾ ، مِن النُّور الذي مُنِحوه بالفِطرة إلى الكفر وفساد الاستعداد والانهماك في الشهوات ، أو مِن نور البَيِّنات إلى ظُلُمات الشُّكوك والشُّبهات.وقِيل: نزلت في قوم ارتدوا عن الإسلام. وإسناد الإخراج إلى الطاغوت باعتبار التَّسَبُّب ، لا يأبى تعلق قُدرته تعالى وإرادته بها)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٠٦ و٣٠٧): ((والظلماتُ الضَّلالة ، والنُّورُ الهدى. والطاغوت الشياطين هُنا ، قَول ابن عباس وعِكرمة في آخرين . وقال مقاتل : الذين كفروا هُم اليهود، والطاغوت كعب بن الأشرف. قال الزَّجاج : والطاغوت هاهُنا واحد في معنى جماعة ، وهذا جائز في اللغة إذا كان في الكلام دليل على الجماعة ... . فإن قِيل : متى كان المؤمنون في ظُلمة ؟، ومتى كان الكفار في نُور ؟ ، فعنه ثلاثة أجوبة : أحدها أن عِصمة الله للمؤمنين عن مُواقَعة الضلال إخراج لهم مِن ظلام الكفر ، وتزيين قُرناء الكفار لهم الباطل الذي يَحيدون به عن

الهدى إخراج لهم مِن نُور الهدى . والإخراج مُستعار هاهُنا . وقد يُقال للمُمْتَنِع من الشيء خَرَجَ مِنه ، وإن لَم يكن دَخَلَ فيه ... . والثاني أن إيمان أهل الكتاب بالنبيِّ قبل أن يَظهر نُور لهم ، وكُفرهم به بعد أن ظَهر خُروج إلى الظلمات. والثالث أنه لَمَّا ظَهرت مُعجزات رسول الله ﷺ ، كان الْمُخَالِف له خارجًا مِن نُور قد عَلِمَه ، والموافِق له خارجًا مِن ظُلمات الجهل إلى نُور العِلم)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ :ــ ﴿ والذينَ كَفروا أولياؤُهُمُ الطاغوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ ﴾ . قال : ((هُم قَوم آمنوا بعيسى ، فلمَّا بُعث محمد كفروا به)) [1].

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ كَفروا لَن تُغنِيَ عَنْهُم أموالُهُم ولا أولادُهُم مِنَ اللهِ شَيْئًا وأُولئكَ هُم وَقُودُ النارِ ﴾ [آل عِمران : ١٠] .

إن الكافرين لَن تَنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ولَن تُفيدهم بشيء، ولن تَحميَهم مِن عُقوبة الله، ولن تدفعَ عنهم عذابه الشديد في الآخرة ، والكافرون هُم حطب جهنم الذي تُوقَد بِه النار .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١ / ١١) : ((﴿ إنَّ الذينَ كَفروا ﴾ عام في الكَفَرَة . وقِيل : المراد به وفد نَجْران، أو اليهود أو مُشركو العرب ﴿ لَن تُغنِيَ عَنْهُم أموالُهُم ولا أولادُهُم مِنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ ، أي : مِن رحمته ، أو مِن طاعته ، على معنى البدلية ، أو من عذابه)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٥٥): ((قَوله تعالى : ﴿ لَن تُغنِيَ عَنْهُم أموالُهُم ﴾، أي : لَن تَدفع ، لأن المال يَدفع عن صاحبه في الدنيا ، وكذلك الأولاد ، فأمَّا في الآخرة ، فلا يَنفع الكافرَ مالُه ولا ولدُه . وقَوله تعالى : ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ ، أي : مِن عَذابه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُم إلا أذًى وإن يُقاتِلُوكم يُوَلُّوكُمُ الأدبارَ ثُمَّ لا يُنصَرون ﴾ [آل عِمران : ١١١]. بِذرة الضعف كامنة في طبيعة الكُفر، ونواة الانهيار مُتجذرة في نفوس الكافرين . لذلك ، فإن الكافرين ضعفاء وأذلاء مهما ظَهروا بمظهر القوة والعَظَمَة ، إذ إن عوامل سُقوطهم كامنة فيهم . الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ والمؤمنين : لَن يَضُرَّكم الكافرون إلا أذى تسمعونه مِنهم ، ولَن يُسبِّبوا لكم إلا ضررًا بسيطًا بألسنتهم،مِن شَتم وكَذِب وطَعن واستهزاء وسُخرية وتهديد ووعيد.

وهذا الضَّرر اليسير لا أثر له ولا تأثير ، ولا يُشكِّل خطرًا عليكم أيها المؤمنون. إن أذاهم مَحصور في ألسنتهم، دُون وجود أيِّ فِعل على أرض الواقع ، وهذا يدل على ضعفهم وانكسارهم،

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٨٢). وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٣): ((فيه أبو بلال الأشعري ، وهو ضعيف)) .

وأنهم بيَّاعو كلام ، ولا يُتقنون غَيْرَه ، لأنهم عاجزون عن ترجمته إلى فِعل تطبيقي . وإذا قاتلوكم ، فإنهم يَنهزمون ويَهربون دُون أن يُحقِّقوا أيَّة نتيجة أو فائدة ، ودُون أن ينالوا مِنكم شيئًا من القتل أو الأسر . وهذا خبر غَيْبي صدَّقه الواقع ، وصحَّحه الوجود . وهذا مِن أعلام نُبُوَّة محمد ﷺ وآياته الباهرة التي تدل على صِدقه وصِحَّة رسالته ، وأن القُرآن مِن عِند الله ، وليس مِن عِند محمد ﷺ ، فقد أخبرَ القُرآن بأمرٍ غَيْبي ، وتحقَّقَ على أرض الواقع كما أخبرَ بالضبط .

وخُصَّ ﴿ الأدبارَ ﴾ بالذِّكر دُون الظَّهْر ، إهانةً للهارب ، وتحقيرًا لشأن الفارِّ .

وهُم مَخذولون ، لا يُنصَرون ، ولا يفوزون ، ولا يَغلِبون ، ولا تَعلو لهم راية، ولا ترتفع لهم كلمة . بَل يكون لكم النصر عليهم . وهذا يدل على جُبْن اليهود وانكسار معنوياتهم ، وانهيارهم الروحي ، ودناءة أخلاقهم ، وخِسَّة طِباعهم . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥١٩) : ((قال تعالى مُخْبِرًا عباده المؤمنين ، ومُبَشِّرًا لهم أن النصر والظَّفَر لهم على أهل الكتاب الكَفَرة الملحدين ، فقال تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُم إلا أذًى وإن يُقاتِلُوكم يُوَلُّوكُمُ الأدبارَ ثُمَّ لا يُنصَرون ﴾ . وهكذا وقع ، فإنهم يوم خَيْبَر أذَلَّهم اللهُ ، وأرغمَ أنوفهم، وكذلك مَن قَبْلهم من يهود المدينة بني قَيْنُقاع وبني النَّضير وبني قُرَيظة ، كُلهم أذلهم اللهُ ، وكذلك النصارى بالشام ، كسرهم الصحابة في غَير ما مَوطن ، وسلبوهم مُلْك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين ، ولا تزال عِصابة (جماعة) الإسلام قائمة بالشام ، حتى يَنْزل عيسى بن مريم ، وهُم كذلك، ويَحكم بِمِلَّة الإسلام وشرع محمد_عليه أفضل الصلاة والسلام _ فيكسر الصليب، ويَقتل الخِنزير ، ويَضع الجِزية ، ولا يَقبل إلا الإسلامَ)) اهـ . و﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّراخي في المرتبة ، لأن الإخبار بسيطرة الخِذلان عليهم ، أعظم وأكثر أهمية مِن الإخبار بتوليتهم الأدبار . وقال أبو السعود في تفسيره (٢/ ٧٢) : ((و﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّراخي في الرُّتبة، أي لا يُنصَرون من جهة أحد، ولا يُمنَعون مِنكم قتلاً وأخذًا. وفيه تثبيت لِمَن آمنَ منهم ، فإنهم كانوا يُؤذونهم بالتَّلَهِّي بهم ، وتوبيخهم ، وتضليلهم ، وتهديدهم. وبشارة لهم بأنهم لا يَقْدِرون على أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضَرر يُعبَأ به ، مع أنه وَعَدَهم الغلبة عليهم ، والانتقام منهم ، وأن عاقبة أمرهم الخِذلان والذُّل)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكر أن الآية﴿ ثُمَّ لا يُنصَرون ﴾ جُملة مُسْتَأنَفة،وليست معطوفة على ﴿ يُوَلُّوكُمُ ﴾. ولو كانت معطوفة لقالَ : ثُمَّ لا يُنصَروا . وهذه العبارة تعني أن نفي النصر مُقيَّد بحال قتالهم فقط.

ولكن الله قالَ : ﴿ ثُمَّ لا يُنصَرون ﴾ بثبوت النون ، وهذا إخبار بالْحُكم ابتداءً ، ليشير إلى أن النصر الإلهيَّ للمؤمنين عام ومُطْلق وشامل ومُتحقِّق وثابت وواقع لا مَحالة ، سواءٌ قَاتَلَهم اليهودُ أَم

لَم يُقاتلوهم . إن نصر الله للمؤمنين وعد مُطْلق في كل الحالات ، وغَير محدود بحالة مُعيَّنة . وقال أبو السعود في تفسيره (٢/ ٧٢) : ((وإنما لَم يَعطِف نَفْيَ منصوريتهم على الجزاء ، لأن المقصود هو الوَعْد بِنَفْي النصر مُطْلَقًا ، ولو عَطف عليه لكان مُقَيَّدًا بِمُقاتلتهم كَتَولية الأدبار. وكَم بين الوعدَيْن !. كأنه قِيل: ثُمَّ شأنهم الذي أُخبِركم عنه، وأُبشِّركم به،أنهم مخذولون مُنْتَفٍ عنهم النَّصْر والقوة ، لا يَنهضون بعد ذلك بجناح ، ولا يقومون على ساق ، ولا يستقيم لهم أمر . وكان كذلك ، حيث لَقِيَ بنو قُرَيظة والنَّضير وبنو قَيْنُقاع ويهود خَيْبَر ما لقوا)) اهـ .

والآيةُ وعدٌ إلهيٌّ للنبيِّ ﷺ وأصحابه بأن أهل الكتاب لا يَغلبونهم، ولا ينتصرون عليهم ، وأن المؤمنين هم المنصورون عليهم بإذن الله. ولَن تَعلوَ راية الكفر على راية التَّوحيد .

لقد وَعد اللهُ نَبِيَّه والمؤمنين بالنصر على اليهود ، فصدقَ الوعدُ الإلهيُّ ، وتحقَّقَ على أرض الواقع ، ولَم يُقاتل اليهودُ النبيَّ ﷺ إلا انهزموا وهربوا . وهذا الآية تُثبِّت المؤمنين على الحق ، وترفع معنوياتهم ، وتُقوِّي عزائمهم ، وتُريح بالهم بإخبارهم أن الله معهم وناصرهم على أعدائهم. وأيضًا ، تُحطِّم هذه الآيةُ معنوياتِ اليهود ، وتبث في قلوبهم الرعب والخوف ، وتَكسر عزائمهم ، وتُهدِّدهم ، وتُجلِّلهم بالخزي والعار والضلال والخِذلان .

وهذه الآية مُعجزة للنبيِّ ﷺ ، لأن مَن قاتله من اليهود انهزمَ ، وهربَ . وما ذَكَرَتْهُ الآيةُ مِن أمر غَيبي قد تحقَّقَ على أرض الواقع . فبعد هذه الآية ، انهزمَ اليهودُ في كل المواطن ، ولَم ترتفع لهم راية ، ولَم ينتصر لهم جَيش . وهذه مِن مُعجِزات النُّبُوَّة وأعلامها ودلائل صِدْقها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٤٠ و٤٤١) : ((قَوله تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُم إلا أذًى ﴾ . قال مُقاتل:سبب نزولها أن رُؤساء اليهود عَمَدوا إلى عبد الله بن سلام وأصحابه، فآذَوْهُم لإسلامهم، فَنَزلت هذه الآية . قال ابن عباس : والأذى قَولهم : ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ﴾ [التَّوبة: ٣٠]. و ﴿ المسيحُ ابْنُ اللهِ ﴾ [التَّوبة : ٣٠] . و ﴿ ثالثُ ثلاثةٍ ﴾ [المائدة : ٧٣] . وقال الحسن : هو الكذب على الله،ودعاؤهم المسلمين إلى الضَّلالة. وقال الزَّجاج: هو البُهْت(الكذب والافتراء) والتحريف. ومقصود الآية إعلام المسلمين بأنه لن ينالهم منهم إلا الأذى باللسان مِن دُعائهم إيَّاهم إلى الضَّلال،وإسماعهم الكفر،ثم وَعَدَهم النصرَ عليهم في قَوله:﴿وإن يُقاتِلُوكم يُوَلُّوكُمُ الأدبارَ ﴾)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلةُ أيْنَ ما ثُقفوا إلا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وحَبْلٍ مِنَ الناسِ وباؤوا بِغضبٍ مِنَ اللهِ وضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴾ [آل عِمران : ١١٢] .

أُلْزِمَ اليهود الذين كذَّبوا بالقُرآن ونُبُوَّةِ محمد ﷺ بالخِزي والعار والذل أينما وُجدوا ، فَهُم مُجَلَّلُون بالذل في كُل مكان مِن بلاد المسلمين والمشركين ، وأحاطَ بهم الهوان مِن كل الجهات .

صارت الذِّلة مُحيطة بهم مِن كل الجوانب في كل الحالات والأمكنة ، إلا إذا تمسَّكوا واعتصموا بعهد من الله وعهد من المسلمين ، يعني : ذِمَّة الله وذِمَّة المسلمين .

ورَجعوا مُستحقين لغضب الله وعذابه وعقوبته ، وَأُلْزِمُوا بالفقر المدقع والحاجة الشديدة ، فهي محيطة بهم من كل الجوانب، إحاطة البَيت المضروب على أهله . وهذا الْحُكم وَفْق الأغلب الأعَم ، لأن غالبية اليهود فقراء ، أمَّا النادر فلا حُكم له . وتَسليط الفقر والحاجة والمسكنة على اليهود عقوبةً لهم ، لأنَّهم وصفوا اللهَ تعالى بأنه فقير ، وأنهم أغنياء ، فأذاقهم اللهُ الفقرَ والحاجة والخشوع، ليعرفوا أنهم هُم الفقراء ، والله هو الغنيُّ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥١٩): ((قال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلةُ أيْنَ ما ثُقفوا ﴾ أي : أَلزمهم اللهُ الذِّلةَ والصَّغارَ أينما كانوا فلا يَأمنون ، ﴿ إلا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ ﴾ ، أي : بِذِمَّة من الله وهو عَقْد الذِّمَّة لهم ، وضَرْب الجِزية عليهم ، وإلزامهم أحكام المِلَّة ، ﴿ وحَبْلٍ مِنَ الناسِ ﴾ أي : أمان منهم لهم كما في الْمُهَادَن والْمُعَاهَد والأسير ، إذا أَمَّنه واحد من المسلمين ، ولو امرأة ، وكذا عَبْد على أحد قَوْلَي العلماء . قال ابن عباس : ﴿ إلا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وحَبْلٍ مِنَ الناسِ ﴾ ، أي : بعهد مِن الله وعهد من الناس ، وكذا قال مجاهد وعِكرمة وعطاء والضَّحاك والحسن وقَتادة والسُّدي والربيع بن أنس. وقَوله: ﴿ وباؤوا بِغضبٍ مِنَ اللهِ ﴾ ، أي : أُلْزِمُوا فالتزموا بغضب من الله ، وهُم يستحقونه ، ﴿ وضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴾ ، أي : أُلْزِمُوها قَدَرًا وشَرْعًا)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمَنوا لا تتَّخذوا بِطَانةً مِن دُونِكُم لا يَألونكم خَبَالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَد بَدَتِ البَغضاءُ مِن أفواههم وما تُخفي صُدُورُهم أكبرُ قَدْ بَيَّنَّا لكمُ الآياتِ إن كُنتم تَعْقِلُون﴾ [آل عِمران : ١١٨] (2) .

هذا توجيهٌ إلهيٌّ للمؤمنين بألا يتَّخذوا أولياءَ وأصفياء لأنفسهم من غير المؤمنين، وهنا تبرز ضرورة عدم الرُّكون إلى الكفار، فهُم لَيسوا أهلاً للثقة بسبب فساد عقائدهم، وخُبثهم، ومكرهم.

---

(٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٤٦) : ((قال ابن عباس ومُجاهد : نزلت في قَوم مِن المؤمنين كانوا يُصَافون المنافقين ، ويُواصلون رجالاً من اليهود، لِمَا كان بينهم من القرابة والصداقة والجِوار والرَّضاع والحِلْف ، فَنُهوا عن مُباطنتهم)) اهـ .

وبِطانة الرَّجل خاصته الذينَ يَستبطنون أمره، ويطَّلعون على أسراره ، تشبيهًا بِبطانة الثَّوْب . وقال ابن كثير في تفسيره(١/ ٥٢٨):((بِطانة الرَّجل هُم خاصة أهله الذين يطَّلعون على داخلة أمره)).

﴿ لا يَألونكم خَبَالاً ﴾ . هؤلاء القَوْم لا يُقصِّرون في إفساد المسلمين . فهُم يبذلون كل ما بِوُسْعهم لإلحاق الأذى بالمسلمين والإضرار بهم. ولا يَدَّخرون جُهْدًا في جلب الفساد والشر . فهُم أصحاب قلوب قاسية وخبيثة. وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٧٤) : ((لا يَتركون الْجُهد في فَسادكم،يعني أنهم وإن لَم يُقاتلوكم في الظاهر، فإنهم لا يَتركون الْجُهد في المكر والخديعة)).

﴿ وَدُّوا ما عَنِتُّمْ ﴾ . تَمَنُّوا مَشقَّتكم ، ووَدُّوا ما يَشُقُّ عليكم من الشر والهلاك. والعَنَتُ المشقَّة وشِدَّة الضَّرر . وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٢٢٨) : ((تَمَنُّوا ضَلالكم عن دِينكم)) اهـ .

﴿ قَد بَدَتِ البَغضاءُ مِن أفواههم ﴾ [3]. قد ظَهَرَ على وُجوههم وألسنتهم الحقدُ والكراهيةُ والعداوةُ . والبُغضُ ضِدُّ الْحُبِّ . وقد ظَهرت البغضاءُ في كلامهم بسبب شِدَّة الحقد الذي يَحرق صُدورَهم ، فلم يَقْدروا أن يتمالكوا أنفسهم ، فتركوا التَّقِيَّةَ ، وأظهَروا التكذيبَ مثل اليهود الذين يُظهِرون عداوتهم ولا يُخفونها. أمَّا المنافقون الحريصون على إخفاء عداوتهم، فيظهر تكذيبُهم في فَلَتات ألسنتهم ، لأن فَلَتات الألسنة تكشف عن أسرار القلب ، وما يَجول في الصدور . والحقدُ والحسدُ لا بُدَّ أن يَظهرا _ عاجلاً أو آجِلاً _ ، مهما اجتهد المرء في إخفائهما وسَتْرهما .

---

(٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٤٧) : ((قال القاضي أبو يعلى : وفي هذه الآية دَلالة على أنه لا يجوز الاستعانة بأهل الذِّمة في أمور المسلمين من العِمالات والكَتَبة . ولهذا قال أحمد : لا يستعين الإمام بأهل الذِّمة على قتال أهل الحرب. ورُوِيَ عن عمر أنه بلغه أن أبا موسى استكتبَ رَجلاً من أهل الذِّمة ، فكتب إليه يُعنِّفه ، وقال : لا تَرُدُّوهم إلى العِز بعد إذ أذَلَّهم اللهُ)) اهـ . وفي صُبح الأعشى (١/ ٩٤) : ((وَلَمَّا فَتحت الصحابةُ _ رضوان الله عليهم _ مِصْرَ ، بَعث عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ إلى عمرو بن العاص ، يأمره أن لا يستعمل في عمل من أعمال المسلمين كافرًا ، فأجابه عمرو بأن المسلمين إلى الآن لَم يعرفوا حقيقة البلاد ، ولَم يَطَّلعوا على مقادير خَراجها ، وقد اجتهدتُ في نصراني عارف مَنسوب إلى أمانة إلى حين معرفتنا بها فنعزله، فغضب عمر _ رضي الله عنه _ وقال : كيف تُؤمِّنهم وقد خَوَّنهم اللهُ ؟ ، وكيف تُعِزُّهم وقد أذَلَّهم اللهُ ؟ ، وكيف تُقَرِّ بهم وقد أبعدهم اللهُ ؟، ثم تلا: ﴿ يا أيها الذينَ آمَنوا لا تتَّخذوا بِطَانةً مِن دُونِكُم ﴾ الآية، وقال في آخر كتابه : مات النصراني ، والسلام)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٧٤) : ((وخَصَّ تعالى الأفواه بالذِّكر دون الألسنة إشارة إلى تشدُّقهم وثرثرتهم في أقوالهم هذه)) اهـ .

﴿ وما تُخفي صُدُورُهم أكبرُ ﴾ . وما يُبطِنون من العداوة والحقد والخِيانة أكثر مِمَّا يُظهِرون بأفواههم . حيث إن قلوبهم تشتعل حِقْدًا ، وصدورهم تحترق غَيظًا وحسدًا . وصدقَ القائلُ :

لا تُعاشِرْ مَعْشَرًا ضَلُّوا الهدى فسواءٌ أقْبَلوا أو أدْبَروا
بَدَت البغضاءُ مِن أفواههم والذي يُخفونَ مِنها أكبرُ

ولا يخفى أن كل إنسان يَميل إلى ابْنِ دِينه ، ومَن يُماثله في التفكير . فالمسْلمُ يَنجذبُ إلى المسلم ، والنصراني إلى النصراني ، واليهودي إلى اليهودي ... إلخ . كما أن العالِم يَنجذب إلى العالِم ، والجاهل إلى الجاهل ... إلخ . وهذا الأمرُ واضحٌ لا يحتاج إلى دليل . والطيورُ على أشكالها تقعُ ، ومَن صحبَ قَوْمًا عُرِف بهم [4].

﴿ قَدْ بَيَّنَّا لكمُ الآياتِ إن كُنتم تَعْقِلُون ﴾ . وضَّح اللهُ لكم أيها المؤمنون العِبَرَ والأدلةَ والبراهين التي تُشير إلى وجوب إخلاص العبادة لله وَحْدَه ، ومُوالاة المؤمنين ، ومُعاداة الكافرين ، إن كُنتم تعقلون ذلك ، وتفهمونه ، وتُدرِكون منفعتكم ومصلحتكم ، فلا تُوالوهم .

وهذا تنبيه وتحذير للمؤمنين مِن مُوالاة الكافرين . واللهُ يَعلم أن المؤمنين أصحاب عقول وفِطنة وذكاء ، ولكن الآية لتهييج مشاعرهم ، وبث الحماسة فيهم ، وهَز قلوبهم . كما تقول لشخص : إن كُنْتَ رَجلاً فافعل كذا.وأنتَ تَعرِف أنه رَجل،لكنك أردتَ إشعاله بالرغبة والحماسة والاندفاع.

---

(٤) في صُبح الأعشى (١/ ٩٣): ((قال أبو الفضل الصوري في تذكرته : وإنَّ من الفِطرة التي جُبل كل أحد عليها حنين كل شخص مِن الناس إلى مَن يرى رَأيَه ويَدين دِينه.قال:وهذا أمر يجده كل أحد في نفْسه،ولذلك شَرَطَ بعضهم في الكاتب أن يكون على مذهب الْمَلِك الذي يتمذهب به من مذاهب المسلمين ، لِيَكون مُوافِقًا له من كل وجه)) اهـ . وقال ابن حِبَّان في رَوضة العُقلاء (١/ ١٠٨) : ((إن من أعظم الدلائل على معرفة ما فيه المرء مِن تقلُّبه وسُكونه ، هو الاعتبار بِمَن يُحادثه ويُوِدُّه ، لأن المرءَ على دِين خَليله، وطَير السماء على أشكالها تقع ، وما رَأيتُ شيئًا أدل على شيء ، ولا الدُّخَان على النار ، مثل الصاحب على الصاحب)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٤٠٦):((﴿ قَدْ بَيَّنَّا لكمُ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ الآياتِ ﴾ العِبَر . قد بَيَّنا لكم مِن أمر هؤلاء اليهود الذين نَهَيْناكم أن تتَّخذوهم بِطانة مِن دُون المؤمنين ما تعتبرون وتتعظون به من أمرهم ، ﴿ إن كُنتم تَعْقِلُون ﴾ . يعني:إن كنتم تعقلون عن الله مواعظَه وأمرَه ونَهْيَه ، وتعرفون مواقعَ نفع ذلك منكم ، ومَبلغ عائدته عليكم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ ها أنتُم أُولاءِ تُحِبُّونهم ولا يُحِبُّونكم وتُؤمنونَ بالكتابِ كُلِّهِ وإذا لَقُوكُم قالوا آمَنَّا وإذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيكمُ الأناملَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوتوا بِغَيْظِكُم إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدورِ ﴾ [آل عِمران : ١١٩] . الخطابُ الإلهيُّ للمؤمنين : أنتم أيها المؤمنون خاطئون في مُوالاة الكافرين . إنكم تُحِبُّونهم لإظهارهم الإيمان والصلاح ، أو بسبب القرابة والرَّضاع والْمُصَاهَرَة والصداقة . ويَكرهونكم لاختلاف الدِّين ، وسيطرةِ الحقد والحسد على قلوبهم . تُريدون لهم الخيرَ والسعادة، ويُريدون لكم الشر والتعاسة ، ويُعادونكم ظاهرًا وباطنًا .

وتُصدِّقون بالكتب السماوية جميعها ، بلا تمييز ولا شك ولا رَيْب ، ومعَ ذلك يَكرهونكم ، ولا يُطيقونكم . وقُلوبهم مُمتلئة بالشَّك والْحَيْرة والرَّيْب . فلماذا تُحِبُّونهم وهُم يَكفرون بكتابكم (القُرآن) ويَطعنون فيه ، وَيَشُكُّون فِيه ، ولا يُصدِّقون به ؟! . وهذا توبيخ وتقريع للمؤمنين .

والمعنى : إن الكافرين في ضلالهم وباطلهم أكثر صلابة وأقوى مِنكم في إيمانكم وحقِّكم . والمفروض أن صاحب الحق أقوى وأكثر صلابة وثباتًا وإصرارًا وثقةً بالنَّفْس مِمَّن هو على الباطل.

وإذا لقوكم أظْهَروا أمامكم الإيمانَ والتقوى والصلاح نِفاقًا وَتَقِيَّةً وخِداعًا وتَغريرًا ، وهذا يدل على عداوتهم الشديدة ، وحِقدهم الدفين ، وخُبثهم العميق .

وإذا خَلَتْ مَجالسهم مِنكم ، أو اجتمعوا فيما بينهم، عَضُّوا عليكم أطرافَ أصابعهم مِن شِدَّة الحقد والكراهية والحسد والغضب ، بسبب تماسك المسلمين وتلاحمهم وقوتهم واجتماع كلمتهم . وهذه هي حال المنافقين في كل زمان ومكان ، إنهم يُظهِرون للمؤمنين المحبة والمودة والخير ، وهُم في باطنهم وقرارة أنفسهم بِخِلاف ذلك كُلِّيًا . وهذا يُشير إلى شِدَّة الغَيْظ والحسرة والأسف لِمَا يفوتهم مِن تدمير المسلمين وتحطيمهم وجلب الشر لهم .

إن الكافرين في غاية الحسرة ومُنتهى الألم ، لأنهم لَم ينتقموا من المؤمنين ويَقضوا عليهم . والعربُ تَصِف الْمُغتاظ والنادم بعضِّ الأنامل ، وهي أطراف الأصابع .

قُل يا محمد: أدامَ اللهُ غَيْظَكم إلى تموتوا. أي : ابقوا إلى الممات بِغَيظكم ، فلن تَرَوْا ما يُسعدكم ويَسُركم . سَوْفَ تَرَوْنَ فشلكم وانهياركم وتعاستكم بأُمِّ أعينكم . والآيةُ دُعاء عليهم بدوام

الغَيظ واستمراره وزيادته بِظُهور الإسلام وانتشاره وارتفاع رايته وكلمته ، وزيادة قُوَّة المسلمين ومجدهم وعِزِّهم ، وغرق الكافرين في الذل والخِزي والعار ، حتى يَكون هذا سببًا في هلاكهم ، ودمارهم الشامل ، وانهيارهم الكُلِّي . والمراد منه : التقريع والإغاظة. والمعنى : إنهم لا يُدرِكون ما يُؤمِّلون ، فإن الموت دون ذلك . إن اللهَ بالغَ أمره ، وناشر دِينه في العالَم ، ورافع كلمته في الآفاق ، فموتوا أنتم بِغَيظكم وحِقدكم وحسدكم ، واذهبوا إلى الجحيم .

إن الله عالِم بما تُخفيه صدوركم من العداوة والحسد للمؤمنين ، وما تُخبِّئه ضمائركم من الكراهية للحق ، وهو سُبحانَه عليم بما في القلوب من خير وشر ، وصلاح وفساد . لا تخفى عليه خافية ، ولا يَفوته شيء . وسوفَ يُجازيكم على ذُنوبكم ومعاصيكم ، بالألم والحسرة والفشل في الدنيا ، وبعذاب جهنم الشديد في الآخرة .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٧٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ ها أنتُم أُولاءِ تُحِبُّونهم ﴾ يعني : المنافقين . دليله قوله تعالى : ﴿ وإذا لَقُوكُم قالوا آمَنَّا ﴾ ، قاله أبو العالية ومقاتل . والمحبة هُنا بمعنى الْمُصَافاة ، أي : أنتم أيها المسلمون تُصافونهم ولا يُصافونكم لنفاقهم . وقِيل : المعنى: تُريدون لهم الإسلام ، وهم يُريدون لكم الكفر. وقِيل : المراد اليهود ، قاله الأكثر . والكتاب اسم جِنس . قال ابن عباس : يعني: بالكتب . واليهود يُؤمنون بالبعض . ﴿ وإذا لَقُوكُم قالوا آمَنَّا ﴾ ، أي : بمحمد ﷺ ، وأنه رسول الله ﷺ . ﴿ وإذا خَلَوْا ﴾ فِيما بَينهم ، ﴿ عَضُّوا عَلَيكمُ الأناملَ ﴾ يعني : أطراف الأصابع ﴿ مِنَ الغَيْظِ ﴾ والْحَنَق عليكم ، فيقول بعضُهم لبعض : ألا تَرَوْنَ إلى هؤلاء ، ظَهروا وكَثُروا . والعَض عبارة عن شِدَّة الغَيْظ مع عدم القدرة على إنفاذه ... . قَوله تعالى : ﴿ قُلْ مُوتوا بِغَيْظِكُم إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدورِ ﴾ . إن قِيل : كيف لَم يموتوا والله تعالى إذا قال لشيء : كُن فيكون ؟. قِيل عنه جوابان : أحدهما _ قال فيه الطبري وكثير من المفسِّرين : هو دعاء عليهم، أي : قُل يا محمد : أدامَ اللهُ غَيْظَكم إلى أن تموتوا ، فعلى هذا يتَّجه أن يَدعوَ عليهم بهذا مُواجَهةً وغير مُواجَهة بِخِلاف اللعنة . الثاني : أن المعنى أخْبِرْهم أنهم لا يُدرِكون ما يَأملون ، فإن الموت دون ذلك ، فعلى هذا المعنى ، زال معنى الدعاء ، وبَقِيَ معنى التَّقريع والإغاضة)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٤٧): ((قَوله تعالى : ﴿ ها أنتُم أُولاءِ تُحِبُّونهم ﴾ . قال ابن عباس : كان عامة الأنصار يُواصلون اليهود ، ويُواصلونهم ، فلمَّا أسلمَ الأنصارُ بَغَضَهم اليهود ، فنزلت هذه الآية . والخطاب بهذه الآية للمؤمنين . قال ابن قُتَيبة : ومعنى الكلام : ها أنتم يا هؤلاء ، فأمَّا ﴿ تُحِبُّونهم ﴾ فالهاء والميم عائدة إلى الذين نُهُوا عن مُصَافاتهم . وفي معنى

محبة المؤمنين لهم أربعة أقوال : أحدها أنها الميل إليهم بالطِّباع لموضع القَرابة والرَّضاع والحِلف ، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس. والثاني أنها بمعنى الرحمة لهم لِمَا يفعلون من المعاصي التي يُقابلها العذاب الشديد ، وهذا المعنى منقول عن قَتادة . والثالث أنها لموضع إظهار المنافقين الإيمان ، رُوِيَ عن أبي العالية . والرابع أنها بمعنى إرادة الإسلام لهم، وهُم يُريدون المسلمين على الكفر، وهذا قول المفضَّل والزَّجاج ، والكتاب بمعنى الكُتب ، قاله الزَّجاج)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إِن تَمْسَسْكُم حَسَنَةٌ تَسُؤْهُم وإِن تُصِبْكُم سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وإِن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُم كَيْدُهُم شَيْئًا إنَّ اللهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيط ﴾ [آل عِمران : ١٢٠] .

إذا أصابَ المؤمنين ما يَسُرُّهم ويُسعِدهم مِن نصر وغنيمة ومجد وعِز وخِصْب ورخاء ، ساءَ ذلك الكافرين. وإذا أصابَ المؤمنين ما يَضُرُّهم ويُحزِنهم مِن قَحْط وهزيمة وشِدَّة ، فرح الكافرون بذلك . وهذا يدل على قَسوة قلوبهم ، وحِقدهم العميق ، وشِدَّة عداوتهم للمؤمنين ، حيث إنهم يتضايقون مِن كل خير يُصيب المؤمنين، ويَفرحون بكل شَر يُصيبهم. وهذا مُنتهى الحقد والعداوة. ومَن كان هذا حاله ، فهو ليس أهلاً للثقة به ولا الاطمئنان إليه ، ولا اتِّخاذه بِطانةً . والمعنى : إن الكافرون وصلوا إلى أبعد نقطة في عداوتكم ، وبلغوا الغايةَ في كراهيتكم والحقد عليكم ، فلماذا تُوالونهم وتتَّخذونهم بِطانةً لكم ؟ . يجب الابتعاد عنهم، وأخذ الحِيطة والحذَر في التعامل معهم .

وصدق القائل :

كُلُّ العَداوةِ قد تُرْتَجى إماتتها ... إلا عَداوةَ مَن عاداكَ مِن حَسَدِ

فإنَّ في القلبِ مِنها عُقدةً عُقِدَتْ ... ولَيْسَ يَفتحُها رَاقٍ إلى الأبدِ

والتعبيرُ بالمسِّ في الحسنة ، وبالإصابة في السَّيئة ، للدَّلالة على أن مُجرَّد مَس الحسنة للمؤمنين يَحصل به الْمَسَاءة وانزعاج الكافرين. والكافرون لا يَفرحون إلا بإصابة السَّيئة للمؤمنين .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٩٦): ((وقَوله تعالى: ﴿ إِن تَمْسَسْكُم حَسَنَةٌ ﴾ ، أي: تُصِبْكم أيها المؤمنون بِظُهوركم على عدوكم ، وغنيمة تنالونها منهم ، وتتابع الناس في الدخول في دِينكم ، وخِصْب في معايشكم ﴿ تَسُؤهُم ﴾ تُحْزِنهم ، ﴿ وإِن تُصِبْكُم سَيِّئَةٌ ﴾ مَسَاءة بإخفاق سَرِيَّة لكم ، أو إصابة عدو منكم، أو اختلاف يكون بينكم ، أو جَدْب ، أو نكبة تُصِبْكم ﴿يَفْرَحُوا بِها ﴾))اهـ .

والحل يَكمن في الصبر والتقوى . وهاتان العبادتان العظيمتان قادرتان على حماية المؤمنين مِن ضَرَر الكافرين وأذاهم بإذن الله تعالى . وقد أرشدَ اللهُ المؤمنين إلى التَّمَسُّك بهما ، والحرص عليهما، لأنهما الوقاية الفعَّالة مِن كل شر وضرر وسُوء . ومَن التزمَ بالصبر والتقوى قَولاً وفِعلاً ،

كان في حِفظ الله ورعايته . وهذا إرشادٌ إلهيٌّ إلى أن الطريقة الْمُثلى لِمُقاومة كيد الأعداء ومُجابهة مَكْرهم هي الصبر والتقوى . وإن تصبروا على أذاهم وعداوتهم ومَكْرهم ، وتتَّقوا اللهَ في أقوالكم وأعمالكم، وحَرَكاتكم وسَكَناتكم، وظاهركم وباطنكم ، لا يَضُرُّكم كَيْدُهم ، ولا يُؤثِّر فيكم مَكْرُهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٢٨) : ((يُرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكَيد الفُجَّار ، باستعمال الصبر والتقوى ، والتوكل على الله ، الذي هو مُحيط بأعدائهم ، فلا حَوْلَ ولا قُوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لَم يشأ لَم يَكُن ، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته ، ومَن تَوَكَّلَ عليه كفاه)) اهـ .

إنَّ اللهَ عليم بقلوب الكافرين ، ومُحيط بأقوالهم وأفعالهم . والقُدرةُ الإلهية مُحيطة بجميع المخلوقات ، والعِلْمُ الإلهيُّ مُحيط بكل الأشياء. واللهُ سُبحانَه يَعْلَم خُططهم الماكرة ، وتَدبيرهم الخبيث، ويَعرف ما يُدبِّرونه للمؤمنين مِن أذى وشَر. ولكن اللهَ حافظ المؤمنين ، يَحميهم مِن الشر، وسوفَ يُعاقب الكافرين في الدنيا ، ويُعذِّبهم في الآخرة أشدَّ العذاب .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٨٦) : ((﴿ إِن تَمْسَسْكُم حَسَنَةٌ تَسُؤهُم وإِن تُصِبْكُم سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها ﴾ ، بيان لتناهي عداوتهم إلى حَد حسدوا ما نالهم من خير ومنفعة ، وشَمتوا بما أصابهم مِن ضرر وشِدَّة. والْمَسُّ مُستعار للإصابة.﴿ وإِن تَصْبِرُوا ﴾ على عداوتهم أو على مَشَاق التكاليف ﴿ وتَتَّقُوا ﴾ مُوالاتهم ، أو ما حرَّم اللهُ جَلَّ جلالُه عليكم ، ﴿ لا يَضُرُّكم كَيْدُهُم شَيْئًا ﴾ بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ ، وحِفظه الموعود للصابرين والمتَّقين)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذينَ كَفروا في البِلاد ﴾ [آل عِمران : ١٩٦] .

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ ، والمقصود أُمَّته . لا يَغُرَّنَّكَ يا محمد تصرُّف الكافرين في البلاد ، وانتقالهم فيها مِن أجل منافعهم ومصالحهم ومعايشهم ، وكسب الأموال ، والحصول على المراتب الرفيعة ، ولا تظن أن حال الكافرين حسنة . إنهم يَغرقون في الكفر والضلال والضياع .

نهى اللهُ النبيَّ ﷺ عن الاغترار بحركةِ الكافرين في الأرض طُولاً وعَرْضًا، وتحقيقِ الإنجازات، والحصول على المال والجاه والمكانة والرِّفعة . إن اللهَ يُمهِلهم ولا يُهْمِلهم . وعاقبةُ أمرهم سيِّئة مهما جمعوا مِن حُطام الدنيا الفاني ، وينتظرهم عذاب شديد . والكافرون كانوا أصحاب تجارة وأموال وأولاد ومناصب ، ويتحرَّكون في طُول البلاد وعَرْضها بسهولة ويُسْر ، ويتنعَّمون في الرَّخاء والعَيش الرغيد ، في حين أن المؤمنين كانوا فقراء ، ويُعانون من الحاجة والجوع والخوف ، فَنَزلت الآية لتنبيه المؤمنين وتَوجيههم وإرشادهم إلى عدم الاغترار بسلامة الكافرين في أسفارهم .

وفي صحيح مسلم (٤ / ٢٢٧٢) أن النبيَّ ﷺ : ((الدُّنيا سِجْنُ المؤمن ، وجَنَّةُ الكافر)) .

والآيةُ لتثبيت المؤمنين على الحق ، ورفع معنوياتهم ، وتقوية عزائمهم ، ومنحهم الثقة بالنفس. وتُوضِّح الآيةُ حقارةَ شأن الدنيا، وتفاهةَ حُظوظ الكافرين مِنها. وما عِند الله للمؤمنين خَير وأبقى .

والنبيُّ ﷺ هو أعلم الخلق بالله تعالى ، لذلك لَم يغتر بهؤلاء الكافرين ، ولَم يَخدعوه . وقد قضى حياته داعيًا إلى الله ، ومُتَوَكِّلاً عليه ، وثابتًا على الدَّعوة الإسلامية ، غَير مُلتفِت إلى حُطام الدنيا الفاني ، وغَير مَخدوع بأموال الكافرين ومناصبهم وجَاههم وحَسَبهم ونَسَبهم ، حتى وفاته. وسيرةُ النبيِّ ﷺ واضحة ومكشوفة للجميع،وتَشهد بهذا.ولو اغترَّ النبيُّ ﷺ بالكافرين _ وحاشاه_، لانكشفَ أمرُه ، وصارَت هذه القضية نقطة سوداء في سيرته للطعن فيه والتَّشكيك بحقيقته ، ولكن هذا لَم يحدث ، بشهادة الوقائع التاريخية ، وشهادةِ الأعداء . والفضلُ ما شَهِدَت بِه الأعداء . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٣١): ((قَوله تعالى: ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذينَ كَفروا في البِلاد ﴾ . اختلفوا فِيمَن نزلت على قَولين : أحدهما أنها نزلت في اليهود ، ثم في ذلك قَولان : أحدهما أن اليهود كانوا يَضْرِبون في الأرض ، فَيُصِيبون الأموالَ، فَنَزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والثاني أن النبيَّ ﷺ أرادَ أن يَستسلف مِن بعضهم شعيرًا ، فأبى إلا على رَهْن ، فقال النبيُّ ﷺ : " لَوْ أعطاني لأَوْفَيْتُه ، إني لأمينٌ في السماء ، أمينٌ في الأرض " ، فَنَزلت. ذَكَره أبو سليمان الدمشقي . والقول الثاني أنها نزلت في مُشركي العرب ، كانوا في رَخاء، فقال بعض المؤمنين: قد أَهْلَكَنَا الْجَهْد (يعني المشقة)، وأعداء الله فِيما تَرَوْنَ ، فَنَزلت هذه الآية ، هذا قول مُقاتل. قال قَتادة : والخطاب للنبيِّ ﷺ ، والمراد غَيْرُه . وقال غَيْرُه : إنما خاطبه تأديبًا وتحذيرًا ، وإن كان لا يَغتر . وفي معنى تقلبهم ثلاثة أقوال: أحدها تصرُّفهم في التِّجارات، قاله ابن عباس والفرَّاء وابن قُتَيبة والزَّجاج. والثاني تقلُّب لَيْلهم ونهارهم ، وما يَجري عليهم مِن النِّعَم ، قاله عِكرمة ومُقاتل . والثالث تقلُّبهم غَير مأخوذين بذنوبهم ، ذَكَره بعض المفسِّرين)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُم جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَاد ﴾ [آل عِمران : ١٩٧] .

إن الكافرين يتنعَّمون بأموالهم وأولادهم ونسائهم ومناصبهم قليلاً ، ثم تَزول المتعة ، ويَفنى النعيم ، وتختفي الملذات والشهوات بشكل سريع ، لأن الدنيا دار فانية زائلة سريعة الزوال .

إنهم يتنعَّمون بِحُطام الدنيا الفاني قليلاً ، حتى تنقضيَ آجالهم ، وتنتهيَ أعمارهم ، وتزول أُمنياتهم،ويُوقظهم الموتُ مِن أوهامهم وأحلامهم.والْمَتَاعُ هو الشَّيء الذي يُنْتَفَع بِه ، ويُسْتَمْتَع بِه. وهو قليل لأنه زائل وفانٍ لا يَدوم ، وكُل شَيء زائل _ مهما كان كثيرًا _ ، فهو قليل ، لأن العِبرة

بالدَّوام والبقاء والخلود ، وليس بالانقطاع والزَّوال والفناء . والمتاعُ القليل مَنفعة بسيطة ويسيرة في الدنيا . ومَتاعُ الدنيا قليل لا يُذكَر مُقارنةً مَعَ النعيم الأبديِّ الذي أعَدَّه اللهُ للمؤمنين في الآخرة .

ومصيرهم ومرجعهم في الآخرة (بعد مَوتهم) إلى عذاب جهنم الشديد . وبِئسَ الفِرَاش والقَرار جهنم ، وبِئس ما مهَّدوا لأنفسهم في جهنم بكفرهم وضلالهم . والمأوى هو المصير الذي يَأوون إليه في الآخرة ، ويصيرون فيه . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٨٧) : ((يقول تعالى : لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مُتْرَفُون فيه مِن النِّعمة والغِبطة والسُّرور ، فعمَّا قليل يَزول هذا كُله عنهم ، ويُصبحون مُرتهنين بأعمالهم السيئة ، فإنما نمدُّ لهم فيما هُم فيه استدراجًا ، وجميع ما هم فيه ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأوَاهُم جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَاد ﴾)) اهـ .

وقال أبو السعود في تفسيره (٢/ ١٣٥) : ((﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ خَبَر لمبتدأ محذوف ، أي : هو متاع قليل ، لا قَدْرَ له في جَنْب ما ذُكِر مِن ثواب الله تعالى ... . لا يُجدي وجوده لواجديه ، ولا يَضُر فُقدانه لفاقديه . ﴿ ثُمَّ مَأوَاهُم ﴾ أي : مصيرهم الذي يَأوون إليه ، لا يَبْرَحُونه)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٣) أن النبيَّ ﷺ قال : ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخرة إلا مِثْلُ ما يَجعل أحدُكم إصبعَه هذه ــ وأشار أحد الرواة إلى السَّبابة ــ في اليَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرجع ؟)) .

أقسمَ النبيُّ ﷺ باللهِ لتقوية الْحُكم والتَّشديد عليه والتأكيد له ، وتنبيه السامع على أهمية الكلام ، وضرورة فهمه واستيعابه بكل تركيز . إن الدنيا قصيرة ومتاعها قليل في جَنْب الآخرة الباقية ذات النَّعيم الأبديِّ الذي لا يَزول . ويجب النظر إلى هذه الحقيقة نظرَ اعتبار وتفكُّر وتأمُّل. والمرءُ لو وضع إصبعه في البحر ، فإن ما يَعْلق بإصبعه من الماء قليل للغاية ، يكاد لا يُذكَر ، ونِسبة الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية كنسبة الماء القليل العالق بالإصبع إلى البحر الكبير .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧ / ١٩٢) : ((ومعناه : لا يَعْلَق بها كثير شَيء من الماء . ومعنى الحديث : ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قِصَر مُدَّتها وفَناء لَذَّاتها ، ودَوام الآخرة ودوام لَذَّاتها ونعيمها ، إلا كنسبة الماء الذي يَعْلَق بالإصبع إلى باقي البحر)) اهـ .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٦/ ٣٥٩): ((وهذا تَمثيل تقريبي ، وإلا فأين المناسبة بين المتناهي وغَيره ؟ . والمراد أن نعيم الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة في المقدار كذلك ، أو ما الدنيا في قِصَر مُدَّتها وفناء لَذَّتها ، بالنسبة للآخرة في دوام نعيمها ، إلا كنسبة الماء الذي يَعْلق بالأصابع إلى باقي البحر)) اهـ .

وصدقَ القائل :

كُلُّ شَيءٍ تراه في هذه الدنيا خيالٌ إذا انتبهْتَ يَزولُ
ما يدومُ النعيمُ فيها ولا البؤسُ مَتاعُ الدنيا مَتاعٌ قَليلُ
والذي يَصْرِفُ الهمومَ إذا ما ضِقْتَ ذَرْعًا بِهِنَّ صَبْرٌ جميلُ

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ يَبْخَلُونَ ويَأمُرونَ الناسَ بالبُخْلِ ويَكْتُمونَ ما آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وأعْتَدْنا للكافرينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [النِّساء : ٣٧] .

لَقد ذَمَّ اللهُ الذينَ لا يُخرِجون ما أوجبَ اللهُ في أموالهم، ولا يُنفِقونها في سبيل الله ، ولا يَبذلونها في طاعته ، ويَأمرون غَيْرَهم بعدم الإنفاق. لَم يَكتفوا بعدم الإنفاق، بل أيضًا يَأمرون الناس بترك الإنفاق. إنهم يَبخلون بما في أيديهم، وبما في أيدي غَيْرهم. إنهم ضَالُّون في أنفسهم ومُضِلُّون لغيرهم في آنٍ معًا، وهذا مُنتهى الضلال والفساد، ويدل على فساد قلوبهم وسُوء طباعهم وخِسَّة أنفسهم.

نزلت الآيةُ في اليهود ، وهُم مشهورون بالبُخل ، وعبادة المال وتقديسه . ومعَ هذا ، فالآية عامة وشاملة . والعِبرة بعموم اللفظ ، وليس بخصوص السبب . وقد كان اليهودُ يأمرون الأنصارَ بعدم إنفاق أموالهم على النبيِّ ﷺ ، وكان يُخفِّونهم مِن الفقر والحاجة .

ومَن أنفقَ فإنما يُنفِق لنفْسه ، فاللهُ غنيٌّ عن كل شيء ، ليس بحاجة إلى أموال الناس . فهو مالكهم ومالكها ، وهو سُبحانَه مالك لِمَا ملَّكهم .

والبُخْلُ المذموم والمحرَّم شَرْعًا هو عدم أداء حق الله في المال، أي : مَنع أداء ما أوجبَ اللهُ على العبد في ماله . والبُخْلُ مِن أسوأ الصفات ، وهو يدل على الخِسَّة والنذالة والدَّناءة .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢١٣) : ((البُخْل في كلام العرب: منع السائل من فضل ما لديه . وفي الشَّرع : منع الواجب)) اهـ .

ويُخفُون آثارَ نِعمة الله عليهم ، ويَجحدونها ، ولا يُظهِرون ما أنعمَ اللهُ عليهم مِن المال والغِنى. أي إن نِعمة الله عليهم لا تَظهر في مأكلهم ومَلبسهم ومُعاملاتهم اليومية وعلاقاتهم الاجتماعية .

ويُخفون صِفة النبيِّ محمد ﷺ في التَّوراة ، ويَكتمون ما لَديهم مِن العِلم بِشأنه . واللهُ يُحِب أن يرى آثار نِعمته على عبده . ومِن شُكر النِّعمة إظهارها وإسنادها إلى الله تعالى .

إنهم يُخفون فَضلَ الله عليهم ، وهذا الفضل يتجلى في الغِنى والعِلم . لذلك كانوا جَديرين بالخِزي والعار ، ومُستحقين للعقوبة والعذاب . وقد توعَّدهم اللهُ بالعذاب الشديد .

هَيَّأ اللهُ للكافرين الذين يَجحدون نِعَمَه، ولا يَعترفون بِها ، عذابًا أليمًا شديدًا يُخزيهم ويُذِلُّهم. والكَفْرُ هو السَّتْر والتغطية . والكافرُ سَتَرَ نِعَمَ الله وأخفاها وجَحدها ولَم يُظهِرها ، ولَم يشكر اللهَ عليها ، فهو كافرٌ لِنَعم اللهِ ، مُهين لها . لذلك كان جزاؤه عذاب النار الشديد الذي يُذِلُّه ويُخزيه ويُهينه ، كما أهانَ نِعَمَ الله ، والجزاءُ مِن جِنس العمل .

واللهُ لَم يَقُل : وأعتدنا لهم عذابًا مُهِينًا ، وإنما قال : ﴿ وأعْتَدْنا للكافرينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ . ووضع الظاهر موضع الْمُضْمَر ، للتَّسجيل عليهم بالكفر والضلال ، وبيان أن مَن كَتم نِعَمَ الله وجَحدها ، فهو كافرٌ لها ، ومُستحق للعذاب الشديد الذي يُهينه كما أهانَ نِعَمَ الله واحتقرها .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٧) : ((﴿ وأعْتَدْنا للكافرينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ . وضع الظاهر فيه موضع الْمُضْمَر ، إشعارًا بأن مَن هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله، ومَن كان كافرًا لنعمة الله فله عذاب يُهينه ، كما أهانَ النِّعمة بالبُخل . والإخفاء والآية نزلت في طائفة من اليهود كانوا يقولون للأنصار تنصيحًا : لا تُنفِقوا أموالكم ، فإنَّا نخشى عليكم الفقر . وقِيل : في الذين كتموا صفة محمد ﷺ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ والذينَ يُنفِقُونَ أموالَهُم رِئاءَ الناسِ ولا يُؤمنونَ باللهِ ولا باليَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيطانُ لَهُ قَرينًا فساءَ قَرينًا ﴾ [النِّساء : ٣٨] .

يُنفقون أموالهم للفخر والْمُباهاة والسُّمعة والشُّهرة ونَيْل المديح والإشادة ، وليس ابتغاء وجه الله تعالى . إنهم يُنفِقون أموالهم في سبيل الشَّيطان ، وليس سبيل الله تعالى ، لأن تفكيرهم محصور في حُطام الدنيا الزائل. وهذا أدَّى إلى غرقهم في الرِّياء ، وغياب الإخلاص عن أعمالهم .

ولا يُصدِّقون باللهِ ولا بالحياة بعد الموت (اليوم الآخر) ، كالمنافقين ومُشركي مكة ، لأن قلوبهم مليئة بالشَّك والْحَيْرة والرِّيبة والنِّفاق. والآيةُ تتحدَّث عن المنافقين الذين يُبطِنون الكُفرَ ، ويُظهِرون الإيمانَ . ومَن كان الشَّيطانُ صاحبًا له وصديقًا يُسوِّل له ، ويُزيِّن له المعاصي ، فيعمل بأمره، فساءَ هذا الصاحب ، وبِئس هذا الصديق ، حيث حَمَلَهم على الضلال والمعاصي . ويَجوز أن يكون وعيدًا لهم ، بأن الشيطان يُلازمهم في النار ويُصاحبهم ويقترن بهم .

والجديرُ بالذِّكر أن﴿والذينَ يُنفِقُونَ أموالَهُم رِئاءَ الناسِ ﴾عطف على قَوله: ﴿ الذينَ يَبْخَلُونَ ﴾ وهذان الفريقان مَذمومان ومُفرِّطان ، وواقعان في الكفر والضلال والآثام والمعاصي. فالفريقُ الأول التزمَ بالبُخل، ومَنَعَ أداء ما أوجبَ اللهُ في المال ، حِرْصًا على حُطام الدنيا الفاني ، ومَتاعها القليل الزائل، ولَم يكتفِ بهذا ، بل أيضًا أمرَ الناس بالبُخل ، وحثَّهم على الإمساك خَوْفًا من الفقر .

والفريقُ الثاني أنفقَ الأموالَ وبذلها ، ولكن رِياءً وسُمعة ، وليس ابتغاء وجه الله تعالى .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٨) : ((﴿ والذينَ يُنفِقُونَ أموالَهُم رِئاءَ الناسِ ﴾ عطف على ﴿ الذينَ يَبْخَلُونَ ﴾ أو الكافرين . وإنما شاركهم في الذم والوعيد ، لأن البُخل والسَّرَف الذي هو الإنفاق لا على ما ينبغي ، مِن حيث إنهما طَرَفا إفراط وتفريط ، سواءٌ في القُبح واستجلاب الذم)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٨٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ والذينَ يُنفِقُونَ أموالَهُم رِئاءَ الناسِ ﴾ . اختلفوا فِيمَن نزلت على ثلاثة أقوال : أحدها أنهم اليهود ، قاله ابن عباس ومجاهد ومقاتل . والثاني أنهم المنافقون ، قاله السُّدي والزَّجاج وأبو سليمان الدمشقي. والثالث مُشركو مكة ، أنفقوا على عداوة النبيِّ ﷺ ، ذَكَرَه الثعلبي. والقرين الصاحب الْمُؤالف، وهو فَعِيل ، مِن الاقتران بين الشيئين . وفي معنى مُقارَنة الشيطان قَولان : أحدها مُصاحبته في الفِعل ، والثاني مُصاحبته في النار)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ كَفروا لَوْ أنَّ لهم ما في الأرضِ جميعًا ومِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِن عَذابِ يَوْمِ القِيامةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُم ولهم عَذابٌ أليم ﴾ [المائدة : ٣٦] .

لو كان للكافرين جَميع ما في الأرض مِن أموال وخَيرات وثروات وذَهَب وقُصور ، ومِثْله معه، ليفتدوا به من عقوبة الله الشديدة وعذابه الرهيب على رَفضهم أوامره وعبادة غَيْره، في يوم القيامة ، ما قَبِلَ اللهُ ذلك مِنهم عِوَضًا مِن عذابهم ، وما نفعتهم مُمتلكاتهم ، وإن الله سيُعذِّبهم في نار جهنم عذابًا مُوجِعًا مُؤلِمًا . لو مَلَكَ الكافرُ الدنيا بكل ما فيها ، ومِثْلها معها ، ثُمَّ قدَّم كُلَّ ما يَملكه فِديةً مِن عذاب الله يوم القيامة ، لَم يَقبل اللهُ مِنه هذه الفِدية ، ولا تَنفعه مُمتلكاته شيئًا . وهذا يعني أن العذاب مُحيط بالكافر ، ولازم له ، وواقع لا مَحالة ، ولا فُرصة للنجاة مِنه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٣) : ((أخبرَ تعالى بما أَعَدَّ لأعدائه الكفار من العذاب والنَّكال يوم القيامة ... . أي : لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بِملء الأرض ذهبًا وبِمِثْله لِيَفتديَ بذلك من عذاب الله ، الذي قد أحاط به ، وتيقَّنَ وصوله إليه ، ما تُقُبِّل ذلك منه ، بل لا مَندوحة عنه ، ولا مَحيص ولا مناص . ولهذا قال : ﴿ ولهم عَذابٌ أليم ﴾ ، أي : مُوجِع)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ رُبَما يَوَدُّ الذينَ كَفروا لَوْ كانوا مُسْلِمين ﴾ [الحِجْر : ٢] .

رُبما يتمنَّى الكفارُ لَوْ كانوا مُسلمين في الدنيا،مُقرِّين بِوَحدانية الله، ومُصدِّقين بِنُبوَّة محمد ﷺ، ومُلتزمين بأوامر الله ، ومُجتنبين لِنَواهيه . وهذا التَّمَنِّي عِندَما يَرَوْنَ أهوال الآخرة وصُعوبة الموقف.

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧١٩) : ((إخبار عنهم أنهم سَيَندمون على ما كانوا فيه مِن الكفر ، ويَتَمَنَّوْنَ لَوْ كانوا في الدنيا مُسلمين)) اهـ .

إن "رُبما"للتَّقليل،ومعَ هذا فإن تَمَنِّي الإسلام يَكْثُر مِن الكافرين. فكيفَ نُوفِّق بين الأمرَيْن؟. يُمكن القَول إن " رُبما " قد تأتي لإفادة التَّكثير في مواضع مُعيَّنة. أو : قد يَكون عذابُ الكافرين الشديد قد أشغلهم عن النَّدامة والتفكر في حالهم . فَهُم مَشغولون بالعذاب ، غير مُتفرِّغين للتفكر.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٨٠ و٣٨١) : ((واختلف المفسِّرون متى يقع هذا من الكفار على قَولين : أحدهما أنه في الآخرة ، ومتى يكون ذلك ؟ . فيه أربعة أقوال : أحدها أنه إذا اجتمع أهل النار في النار ، ومعهم مَن شاء اللهُ مِن أهل القِبلة ، قال الكفار للمسلمين : ألَم تكونوا مُسلمين ، قالوا : بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صِرْتُم معنا في النار ، قالوا : كانت لنا ذُنوب فَأُخِذْنا بِها، فسمع اللهُ ما قالوا ، فأَمَرَ بِمَن كان في النار مِن أهل القِبلة فأُخْرِجوا ، فلمَّا رأى ذلك الكفار ، قالوا : يا لَيْتَنا كُنَّا مُسلمين ، فَنَخرج كما أُخْرِجوا ، رواه أبو موسى الأشعريُّ عن النبيِّ ﷺ . وذهب إليه ابن عباس في رواية ، وأنس بن مالك ومجاهد وعطاء وأبو العالية وإبراهيم. والثاني أنه ما يَزال اللهُ يَرحم ويَشفع، حتى يَقول: مَن كان مِن المسلمين ، فَلْيَدْخُلْ الجنة ، فذلك حين يَوَدُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، رواه مجاهد عن ابن عباس . والثالث أن الكُفار إذا عَايَنوا القِيامة ، وَدُّوا لَوْ كانوا مُسلمين ، ذَكَره الزَّجاج . والرابع أنه كُلما رأى أهل الكفر حالاً من أحوال القيامة ، يُعذَّب فيها الكافر،ويسلم مِن مَكروهها المؤمن ، وَدُّوا ذلك . ذَكَره ابن الأنباري . والقول الثاني أنه في الدنيا إذا عَايَنوا ، وتَبَيَّنَ لهم الضلال مِن الهدى، وعلموا مصيرهم ، وَدُّوا ذلك . قاله الضَّحاك . فإن قِيل : إذا قُلْتُم إن : " رُب " للتقليل ، وهذه الآية خارجة مَخرج الوعيد ، فإنما يُناسب الوعيد تكثير ما يُتواعد به ، فعنه ثلاثة أجوبة ذَكَرها ابن الأنباري : أحدهن أن " رُبما " تقع على التقليل والتكثير . والثاني أن أهوال القيامة وما يقع بهم مِن الأهوال تكثر عليهم، فإذا عادت إليهم عقولهم وَدُّوا ذلك . والثالث أن هذا الذي خُوِّفوا به لو كان مِمَّا يُوَد في حال واحدة من أحوال العذاب ، أو كان الإنسان يخاف الندم إذا حصل فيه ولا يتيقَّنه ، لَوَجَبَ عليه اجتنابه . فإن قِيل: كيف جاء بعد " رُبما " مُستقبل ، وسبيلها أن يأتيَ بعدها الماضي. تقول: رُبما لَقِيتُ عبد الله. فالجواب أن ما وَعَدَ اللهُ حق، فمُستقبله بمنْزلة الماضي)) اهـ.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ذَرْهُم يَأكلوا ويَتمتَّعوا ويُلْهِهِمُ الأملُ فَسَوْفَ يَعْلَمُون ﴾ [الحِجْر : ٣].

هذه الآيةُ وعيدٌ أكيدٌ للكافرين ، وتهديدٌ شديد لهم .

اترُكهم يا محمد، فهؤلاء لا يَهتمون بالحق، وغَير مَعنيين بالإيمان ، ولا يَطلبون الأدلةَ والبراهين. إنهم غارقون في شهواتهم ولذَّاتهم، وعقولهم مَحصورة في الأكل والشراب كالحيوانات.

دَع الكافرين يا محمد يَحْصُلوا على نصيبهم من الدنيا، ويَأخذوا حُظوظهم مِنها . اتركهم يَأكلوا كما تأكل الأنعام والدواب، ويستمتعوا بِحُطام الدنيا الفاني، ويتمتَّعوا بالشهوات والملذات حتى انقضاء أجلهم المحدَّد، وتَخدعهم الأماني الباطلة ، ويُلْهِهم الأملُ الكاذب عن التَّوبة والطاعة ، ويُشغِلهم طُولُ العُمر ورَغَد العَيش وكثرة الأموال والأولاد ، عن التفكر في مسارهم الحياتي ومصيرهم بعد الموت، والاستعداد لليوم الآخِر، وما يُنجِّيهم من عذاب الله .

وإلهاءُ الأملِ للكافرين يتجلى في إشغالهم عن الموتِ ، والتَّوبةِ الصادقة ، والإنابةِ إلى الله، وعملِ الطاعات ، وأداءِ العبادات . حيث إنهم يُؤمِّلون طُولَ البقاء في الدنيا ، وطُول الأعمار، والرخاء والازدهار والغِنى، وتحقيق الشهوات والملذات، والحصول على المنافع الشخصية والمصالح الذاتية . لذلك ، يَسقط الكافرون في فخ الأمل الكاذب ، حتى يُداهمهم الموت ، ويَقضيَ على كل شيء ، ولا يجدون أمامهم يوم القيامة إلا عذاب النار الشديد ، بدون أيَّة فرصة للنجاة، ولا محاولة أُخرى، لأن الموت ذهاب بلا عَودة . إمَّا الجنة الأبدية ، أو النار الأبدية .

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُون ﴾ عاقبةَ أمرهم ، وسُوءَ صنيعهم ، إذا رَأَوْا أهوالَ يوم القيامة ، وذاقوا وَبالَ ما صَنعوا . وهذه الآيةُ عند المفسِّرين مَنسوخة بآية السَّيف .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٦١) : ((والغرض إقناط الرسول ﷺ مِن ارعوائهم ، وإيذانه بأنهم من أهل الخِذلان، وإن نُصْحهم يُعَد اشتغالاً بِما لا طائل تحته، وفيه إلزام للحُجَّة، وتحذير عن إيثار التَّنَعُّم ، وما يُؤدِّي إليه طُول الأمل)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكر أن ﴿ ذَرْهُم ﴾ تهديد ، و ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُون ﴾ تهديد آخر ، فكيفَ يَطِيب عَيْش الكافرين ، وهو مَحصور بين تهديدَيْن ؟!.وقال الطبري في تفسيره (٧ / ٤٩١) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه محمد ﷺ : ذَرْ يا محمد هؤلاء المشركين يأكلوا في هذه الدنيا ما هُم آكلوه ، ويتمتَّعوا مِن لذَّاتها وشهواتهم فيها إلى أجلهم الذي أجَّلْتُ لهم ، ويُلْهِهم الأملُ عن الأخذ بِحَظِّهم مِن طاعة الله فيها ، وتزوُّدهم لِمَعادهم مِنها بِما يُقرِّبهم من ربهم ، فَسَوْفَ يَعلمون غدًا إذا وَردوا عليه، وقد هلكوا على كُفرهم بالله وشِركهم، حِين يُعاينون عذابَ الله ، أنهم كانوا مِن تَمَتُّعهم بِما كانوا يتمتَّعون فيها مِن الملذات والشهوات ، كانوا في خَسار وتَباب (هلاك))) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿فَادْخُلوا أبوابَ جَهَنَّمَ خَالدينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِين﴾[النَّحْل: ٢٩].

يُقال للكافرين عند الموت: فادخلوا جهنم ماكثين فيها أبدًا،ولا تُوجد أيَّة فرصة للخروج مِنها، ولا النَّجاة مِن عذابها . وجهنم ذات دَرَكَات مُتعدِّدة ، وعذابها بلا انقطاع ولا نهاية .

وبِئسَت جهنم مَقَرًّا ومُقامًا للمتكبرين عن طاعةِ الله والإيمانِ به،الرافضين لعبادته، الْمُكذِّبين بِوَحدانيته . والآيةُ تُوضِّح أن التَّكَبُّر هو السبب لخلودهم في عذاب جهنم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٤٩): ((أي: بِئسَ المقيل والْمُقام والمكان مِن دار هَوان ، لِمَن كان مُتَكَبِّرًا عن آيات الله، واتِّباع رُسله،وهُم يدخلون جهنم مِن يوم مَماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قُبورها مِن حَرِّها وسَمُومها فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم ، وخُلِّدَت في نار جهنم)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٩١): ((قوله تعالى: ﴿ فَادْخُلوا أبوابَ جَهَنَّمَ ﴾ ، أي: يُقال لهم ذلك عند الموت.وقِيل:هو بشارة لهم بعذاب القبر،إذ هو باب من أبواب جهنم للكافرين. وقِيل : لا تصل أهل الدَّرَكَة الثانية إليها مثلاً إلا بدخول الدركة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة ، هكذا. وقِيل : لكل دَرَكة باب مُفرَد ، فالبعض يدخلون من باب ، والبعض يدخلون من باب آخر ، فالله أعلم . ﴿ خَالدينَ فِيها ﴾ ، أي: ماكثين فيها ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ﴾ ، أي: مُقام ﴿ الْمُتَكَبِّرِين ﴾ الذين تَكَبَّرُوا عن الإيمان ، وعن عبادة الله تعالى)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وقالوا رَبَّنا إنَّا أطَعْنا سَادَتَنَا وكُبَرَاءَنا فأضَلُّونا السَّبيلا﴾[الأحزاب: ٦٧].

نَدِمَ الكافرون يوم لا يَنفع النَّدَم ، واعترفوا بخطيئتهم العظيمة . لقد أطاعوا أشرافهم وزعماءهم وقادتهم ، فأبْعَدُوهم عن طريق الحق والإيمان ، وأضَلُّوهم عن سبيل الهدى ، وذلك بتزيين الكفر والضلال والمعاصي ، وتجميل صورة الباطل ، والتَّلبيس على الأتباع وخِداعهم ، واستغلال جهلهم وولائهم.وهؤلاء الأتباع العُميان اعتقدوا أن زعماءهم على الحق،وأن الأنبياء على الباطل ، فاكتشفوا أن الأمر عكس ذلك تمامًا ، ولكن بعد فوات الأوان .

امتثلوا أمرَ رُؤسائهم في الدنيا ، وخضعوا لِحُكمهم ، ونفَّذوا توجيهاتهم ، واقْتَدَوْا بهم ، وخالفوا الأنبياءَ _ عليهم الصلاة والسلام _ . فكانت النتيجة الهلاك الحتمي والعذاب الدائم .

وهذا نَهْيٌ شديد عن التَّقليد الأعمى ، وتحذيرٌ مِنه ، لأنه يُعطِّل نِعمة العقل ، والعقل مَناط التَّكليف . وإذا لَم يُعمِل المرءُ عَقْلَه في التفكير والتأمُّل والتحليل والاستنباط ، فقد قادَ نفْسه إلى الضياع الشامل ، والهلاك الأكيد .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٣٣٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وقال الكافرون يوم القيامة في جهنم : رَبَّنا إنَّا أَطَعْنا أئمتنا في الضلالة ، وكُبَراءنا في الشِّرك، ﴿ فأضَلُّونا السَّبيلا ﴾ يقول: فأزالونا عَن مَحَجَّة الحق، وطريق الهدى، والإيمان بِك، والإقرار بِوَحدانيتك ، وإخلاص طاعتك في الدنيا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ رَبَّنا آتِهِم ضِعْفَيْنِ مِنَ العذابِ والْعَنْهُم لَعْنًا كَبيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٨] .

بعد اتَّضاح الحقيقة،وانكشاف الأمر.صارَ الأتباع الجهَّال يَدْعُون على أشرافهم وزُعمائهم: رَبَّنا اجْعَلْ عذابهم مِثْلَي عذابنا ، لأنهم ضَالُّون ومُضِلُّون في آنٍ معًا ، وقد كانوا سبب كُفرنا وضلالنا، وهُم الذين أضَلُّونا وقاموا بإغوائنا بشتى الوسائل. والعنهم لَعْنًا شديدًا، عَظيم القَدْر، وعَذِّبْهُم عذابًا كثيرًا ، وأخْزِهم خِزْيًا كبيرًا .

وهذه هي نتيجة التقليد الأعمى،واتِّباع القادَة والزعماء والأشراف بلا بصيرة ولا تفكير. وهؤلاء القادة الفاسدون الْمُفسِدون الضَّالون الْمُضِلُّون ، دائمًا يُضَحُّون بالأتباع الجهَّال ، من أجل مصالحهم الشخصية ، ومنافعهم الذاتية . وزُعماء الضلال والإضلال ، ليس لهم أمان ، لأنهم يَعتبرون كل فرد يَتْبعهم ويُواليهم كَبْش فِداء ، وسوفَ يتخلَّصون مِنه عندما يُصبِح ورقةً مَحروقة. والتابعُ الجاهلُ الذي رَفض إعمالَ عقله ، عليه أن يتوقع أن يكون كبشَ المحرقة في أيَّة لحظة .

وينبغي على المرء أن يُفكِّر قبل أن يقوم بأيِّ عمل ، فإن كان عملاً صالِحًا أقدمَ عليه، وإن كان عملاً باطلاً أهمله، بغض النظر عن شخصية الأفراد ، وطبيعة الزمان والمكان ، لأن الحق أحق أن يُتَّبع ، والرجالُ يُعرَفون بالحق ، والحق لا يُعرَف بالرجال. ولا تَأمَن على حَيٍّ فِتنةً. والأنبياء وَحْدَهم هُم المعصومون المؤيَّدون بِوَحْي السماء الذي لا يَكذب ، ولا يَخدع ، ولا يَخون . ومَن كان مُقْتَدِيًا فَلْيَقْتَدِ بالأنبياء الكرام _ عليهم الصلاة والسلام _ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٨٧) : ((﴿ رَبَّنا آتِهِم ضِعْفَيْنِ مِنَ العذابِ ﴾ مِثْلَي ما آتَيْتَنا مِنه ، لأنهم ضَلُّوا وأَضَلُّوا ، ﴿ والْعَنْهُم لَعْنًا كَبيرًا ﴾ كَثيرَ العدد . أي : لَعْنًا ، هو أشد اللعن وأعظمه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿إنَّ هَؤلاءِ يُحِبُّونَ العاجلةَ ويَذَرُونَ وَرَاءَهُم يَوْمًا ثَقيلاً﴾[الإنسان : ٢٧].

إن هؤلاء المشركين يُفضِّلون الدنيا على الآخرة، ويُحِبُّون البقاءَ في الدنيا،والاستمتاع بشهواتها الفانية وملذاتها الزائلة . يُفضِّلون حُطام الدنيا الفاني على نعيم الآخرة الباقي . يُقبِلون على الدنيا بكل أعضائهم وحواسِّهم ، ويُهمِلون الدار الآخرة . ولا يَعملون لِمَا بعد الموت .

ويَتركون أمامهم يَوْمًا عسيرًا شديدًا ، عظيم الأهوال ، وفي غاية الشِّدة والصعوبة . وهو يوم القيامة الرهيب . وسُمِّيَ يوم القيامة ثقيلاً لِشِدَّة أهواله ، وكثرة شدائده .

أي إنهم يَتركون يوم القيامة القادم لا مَحالة ، فلا يُؤمنون به ، ولا يَعملون له ، لأن تفكيرهم مَحصور في الحياة الدنيا فقط . وحُب الدنيا رأس كُل خطيئة .

لَم يَستعدوا ليوم القيامة، ولَم يهتموا بِه، كَمَن رَمَى الشَّيء وراء ظَهْره ، إهمالاً له ، وتهاونًا بِه ، واستخفافًا بأمره وشأنه . وفي حقيقة الأمر ، إن يوم القيامة أمامهم، لأنهم سَائرون إليه.والموتُ هو الحد الفاصل بين الدار الفانية (الدنيا) والدار الباقية (الآخرة) .

والآيةُ تَوبيخٌ شديدٌ لكفار مكة الغارقين في شهوات الدنيا الزائلة ، دُون النظر إلى الحياة الآخرة الباقية . واللهُ يُحذِّر عباده مِن الانهماك في شهوات الدنيا ولذَّاتها ، وإهمال أمر الآخرة الباقية . ولو كانت الدنيا من ذَهَب ، والآخرة من حديد ، لَفَضَّلَ العاقلُ الحديدَ الباقي على الذهب الزائل . فما بالك والدنيا بكل ما فيها لا تُساوي شيئًا في جَنْب الآخرة ؟! .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩ / ١٣٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّ هَؤلاءِ يُحِبُّونَ العاجلةَ ﴾ تَوبيخ وتقريع . والمراد أهل مكة ، والعاجلة الدنيا. ﴿ ويَذَرُونَ ﴾ أي : ويَدَعُون ﴿ وَرَاءَهُم ﴾ أي : بين أيديهم ﴿ يَوْمًا ثَقيلاً ﴾ أي: عسيرًا شديدًا. أي: يتركون الإيمان بيوم القيامة.وقِيل: ﴿ وَرَاءَهُم ﴾ أي : خَلْفهم ، أي : ويَذَرُون الآخرة خَلْف ظهورهم ، فلا يعملون لها. وقِيل : نزلت في اليهود فيما كتموه من صفة الرسول ﷺ ، وصِحَّة نُبُوَّته . وحُبُّهم العاجلة : أخذهم الرِّشا على ما كتموه. وقيل: أراد المنافقين لاستبطانهم الكفر وطلب الدنيا . والآية تعمُّ. واليوم الثقيل يوم القيامة ، وإنما سُمِّيَ ثقيلاً لشدائده وأهواله . وقِيل : للقضاء فيه بين عباده)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فأمَّا مَن طَغى ﴾ [النَّازِعات : ٣٧] . فأمَّا مَن تَمَرَّدَ عن الطاعة ، وعَتَا عن أمر الله، وجاوزَ الحد في الضلال والمعاصي ، وجازَ القَدْرَ في الكفر والشَّر . وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ٤٤٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : فأمَّا مَن عَتَا على ربِّه ، وعصاه ، واستكبر عن عبادته)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا ﴾ [النَّازِعات : ٣٨] .

وفضَّل حُطامَ الدنيا الفاني على نعيم الآخرة الباقي ، فعمل من أجل الدنيا الزائلة ، ولَم يَعمل من أجل الآخرة الباقية ، ولَم يستعد لها بالإيمان والعبادة والطاعة ، وقدَّم الحياةَ الدُّنيا على دِينه وآخرته، وغرق في شهوات الدنيا المحرَّمة، ولذَّاتها الدنيئة ، وأمانيها الباطلة ، وأحلامها الخادعة .

وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ٤٤٠) : ((قَوله : ﴿ وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا ﴾ . يقول : وآثرَ مَتاعَ الدُّنيا على كرامة الآخرة ، وما أعدَّ اللهُ فيها لأوليائه ، فعمل للدنيا ، وسعى لها ، وترك العمل للآخرة)) اهـ. وقال القرطبي في تفسيره (١٩ / ١٨٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ فأمَّا مَن طَغى (٣٧) وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا (٣٨) ﴾ . أي : تجاوزَ الحد في العِصيان . قيل : نزلت في النَّضْر وابنه الحارث . وهي عامة في كُل كافر آثرَ الحياةَ الدنيا على الآخرة . ورُوِيَ جُوَيبر عن الضَّحاك قال :

قال حذيفة : أخْوَفُ ما أخاف على هذه الأُمَّة أن يُؤثِروا ما يَرَوْنَ على ما يَعْلَمون . ويَرْوي أنه وَجد في الكتب : إنَّ اللهَ جَل ثناؤه قال : " لا يُؤثِر عبد لي دُنياه على آخرته إلا بثثتُ عليه هُمومه ، وضَيَّعْتُه ، ثُمَّ لا أُبالي في أيِّها هَلَك ")) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإنَّ الجحيمَ هِيَ المأوَى ﴾ [النَّازِعات : ٣٩] .

فإن جهنم هي مَنْزله ومأواه ، لا مَنْزل له سِواها ، وهذه النارُ العظيمةُ هي مصيره الذي يصير إليه يوم القيامة . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٠٣): ((﴿ فإنَّ الجحيمَ هِيَ المأوَى ﴾ أي : فإن مصيره إلى الجحيم ، وإن مَطْعَمه مِن الزَّقُّوم ، ومَشْرَبه مِن الحميم)) اهـ .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٣/ ٦٧) : ((... الآخرة أعواض ، وثواب مُرتَّب على ما كان في النَّشأة الأُولى.قال ابن عطاء الله : الدار الدُّنيوية بَيت العمل،وأساس الخير لأهل التوفيق ، والشَّر لغيرهم، لأن فيها ما ليس في الدار الآخرة ، وهو كسب الأعمال ، وكُل سِر لَم يَظهر في الدنيا لَم يَظهر في الآخرة... . فمن كان مُخْلِصًا في شُغله بالعمل في الدنيا، كانت دُنياه آخرته ، ومَن اشتغلَ بِلَذَّة نفْسه ، وآثرَ الحياة الدنيا ﴿ فإنَّ الجحيمَ هِيَ المأوَى ﴾)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ كَفروا مِن أهلِ الكِتابِ والمشركينَ في نارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيها أُولئكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّة ﴾ [البَيِّنة : ٦] .

إن الذينَ كذَّبوا بالقُرآن (الوَحْي السَّماويِّ) ، وجَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ مِن اليهود والنصارى والمشركين عَبَدَة الأصنامِ والأوثان ، ماكثون في نار جهنم إلى الأبد ، وخالدون فيها ، بلا خُروج ولا مَوْت ، أُولئك هُم شَر الخلق على الإطلاق ، ولا يُوجد أسوأ مِنهم .

وهذا مصيرُ المكذِّبين بالوَحْي والنُّبُوَّة . ومَن كَذَّبَ القُرآنَ ، فقد كَذَّبَ الكُتبَ السماوية جميعها ، ومَن كَفَرَ بمحمد ﷺ فقد كفرَ بجميع الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، حتى لَو زعم غَير ذلك. و﴿ أُولئكَ ﴾ اسم إشارة للبعيد . وهو يدل على بُعد مَنْزلة الكافرين في الضلال والشَّر ، فهُم البعيدون المطرودون مِن رحمة الله تعالى . وهُم أسوأ الخليقة أعمالاً . لقد وصلوا إلى قاع الكفر ، الذي لا قاع بعده .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥١٦) : ((﴿ إنَّ الذينَ كَفروا مِن أهلِ الكِتابِ والمشركينَ في نارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيها ﴾ . أي : يوم القيامة ، أو في الحال لِمُلابستهم ما يُوجب ذلك،واشتراك الفريقين في جِنس العذاب لا يُوجِب اشتراكهما في نَوْعه، فلعله يختلف لتفاوت كفرهما . ﴿ أُولئكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّة ﴾ أي : الخليقة)) اهـ .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٣١/ ٤٩) : ((فإن قيل : لِمَ ذكر ﴿ كَفروا ﴾ بلفظ الفعل ، ﴿ والمشركينَ ﴾ باسم الفاعل ؟ . فالجواب تنبيهًا على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر ، لأنهم كانوا مُصدِّقين بالتَّوراة والإنجيل ، ومُقِرِّين بمبعث محمد ﷺ ، ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام ، بخلاف المشركين ، فإنهم وُلدوا على عبادة الأوثان، وإنكار الحشر والقيامة ، وقَوله : ﴿ أُولئكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّة ﴾ لإفادة الحصر ، أي : شَر مِن السُّرَّاق ، لأنهم سرقوا من كتاب الله صفةَ محمدﷺ، وشَر من قُطاع الطريق،لأنهم قطعوا طريق الحق على الخلق)).

٢ ـ تشبيههم بالموتى والصُّم والبُكْم والعُمْي :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ كَذَّبوا بآياتِنا صُمٌّ وبُكْمٌ في الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنعام : ٣٩] .

والذين كذَّبوا بالقرآن(الوَحْي الإلهيِّ) وبِحُجَج اللهِ الدَّالة على وَحدانيته وأُلوهيته ورُبوبيته وصِفاته العظيمة ، صُم لا يَسمعون كلامَ الله سَماع قَبول ، ولا تتأثر قلوبهم بِه ، وخُرْس لا ينطقون بالحق. خابطون في ظُلمات الكفر، وتائهون في ضلالات الجهل والعِناد والتقليد الأعمى، وضائعون في متاهة الأهواء الباطلة والأماني الكاذبة. إنهم حائرون في الظلمات، ولا يَستطيعون الخروج منها ، ولا يوجد ضَوء في نهاية النَّفق . فكيف يَهتدون إلى الحق ؟ ، وكيف يعرفون طريقَ الهدى ؟ . والآية عامة في كل المكذِّبين ، وشاملة لهم . لقد رَفضوا الْحُجَجَ الواضحة ، والبراهين الجلِيَّة ، والأدلة الباهرة ، والآيات الظاهرة ، وعجزوا عن الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم وحواسِّهم ، ولَم يستفيدوا مِنها في معرفة الإيمان والحق والصواب ، فصار وجود حواسِّهم كعدمه ، بلا فائدة ولا جدوى . وإذا تعطَّلت حواسُّ الإنسان، فَقَدَ قُدرته على التمييز والتفكير والتأمُّل، وضاعَ في متاهة الضلال . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٧٨) : ((أي : مَثَلُهم في جَهلهم ، وقِلَّة عِلمهم ، وعدم فهمهم ، كَمَثَل أَصَم ، وهو الذي لا يَسمع ، أبكم وهو الذي لا يتكلم ، وهو مع هذا في ظُلمات لا يُبصِر ، فكيف يهتدي مِثل هذا إلى الطريق ، أو يَخرج مِمَّا هو فيه)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ١٨٨) : ((﴿ والذينَ كَذَّبوا بآياتِنا ﴾ بِحُجَج الله وأعلامه وأدلته ، ﴿ صُمٌّ ﴾ عَن سَماع الحق ، ﴿ وبُكْمٌ ﴾ عَن القِيل به ﴿ في الظُّلُمَاتِ ﴾ ، يعني : في ظُلمة الكفر حائرًا فيها . يقول : هو مرتطم في ظُلمات الكفر ، لا يُبصِر آيات الله فيعتبر بها ، ويعلم أن الذي خَلَقَه وأنشأه فدبَّره ، وأحكمَ تدبيره ، وقدَّره أحسن تقدير ، وأعطاه القوة ، وصحَّح له آلة

جِسمه، لَم يَخلقه عبثًا، ولَم يتركه سُدى، ولَم يُعطه ما أعطاه من الآلات ، إلا لاستعمالها في طاعته وما يُرضيه، دون معصيته وما يُسخِطه . فهو لِحَيرته في ظُلمات الكفر، وتردُّده في غمراتها ، غافل عمَّا الله قد أثبتَ له في أُم الكتاب ، وما هو به فاعل ، يوم يحشر إليه جميع سائر الأمم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَستوي الأعمى والبصيرُ ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

قُل يا محمد : هَل يَستوي الكافر الذي رَفض الحق ، وضَلَّ عن طريق الهدى ، وأعرضَ عن التفكر في آيات الله، معَ المؤمن المتفكِّر في آيات الله، والذي اعتنقَ الحقَّ واتَّبع طريقَ الهدى ؟ .

والأعمى هو الكافر الذي عَمِيَ عَن آيات الله وحُجَجه ، والبصيرُ هو المؤمن الذي أبصرَ نُورَ الوَحْي والنُبُوَّةِ ، ولَزِمَ الحقَّ طريقًا لا مَحِيد عنه .

والاستفهامُ في الآية للإنكار . والمعنى : لا يَستوي الكافر والمؤمن ، أو الضَّال والْمُهتدي ، أو الجاهل والعالِم . والآيةُ تدل على ظُهور آيات الله بلا لَبْس ولا غُموض ، وهذا يعني إقامة الْحُجَّة على الكافرين وقطع أعذارهم . كما تدل على أهمية الإيمان ، وضرورةِ اعتناق الحق والسَّيْرِ في طريق الهدى ، وخطورة الكفر ، وضرورة الابتعاد عن الضلال والعناد والجهل .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ١٩٧) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : قُل يا محمد لهم : هل يَستوي الأعمى عن الحق والبصير به؟.والأعمى هو الكافر الذي قد عَمِيَ عن حُجَج الله فلا يتبيَّنها فيتَّبعها. والبصير المؤمن الذي قد أبصرَ آياتِ الله وحُجَجه، فاقتدى بها، واستضاء بضيائها)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصائرُ مِن رَبِّكُم فَمَنْ أبصرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وما أنا عَلَيكم بِحَفيظ ﴾ [الأنعام : ١٠٤].قد جاءكم البَيِّنات والْحُجَج والبراهين والأدلة مِن الله تعالى ، التي تُبصِرون بها الإيمانَ من الكفر ، والهدى مِن الضلال ، وتُميِّزون بها بين الحق والباطل .

قد جاءكم القُرآن الذي يَحتوي على البيان الباهر ، والفصاحة الفائقة ، والبلاغة العُليا ، والآيات العظيمة، والْحُجَج الظاهرة ، والبراهين الجلِيَّة ، والأدلة الواضحة . والبصائرُ جمع بصيرة ، وهي الْحُجَّة الظاهرة ، والدَّلالة الواضحة . والبصيرةُ نُور القلب ، والبصرُ نُور العَين .

والتعرُّض لمعنى الرُّبوبية في قَوله تعالى : ﴿ رَبِّكُم ﴾ ، لبيان لُطف الله بعباده ، وحُبِّه لهدايتهم ، وإرادته الخير لهم، وإنقاذهم من العذاب، ومنحهم النعيم.وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٢١٨): ((البصائر هي البَيِّنات والْحُجَج التي اشتمل عليها القرآن ، وما جاء به رسول الله ﷺ)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ٥٣) : ((يعني بالبصيرة الْحُجَّة البَيِّنة الظاهرة ، ووصفَ الدَّلالة بالمجيء ، لتفخيم شأنها ، إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقَّع حُضوره للنَّفْس)) اهـ .

فَمَن عَرَفَ حُجَج اللهِ ، وصدَّق بآياته ، وأقرَّ بِوَحدانية الله ، وآمنَ بِنُبُوَّة محمد ﷺ، واعتنقَ الحقَّ ، والتزمَ الصوابَ ، فقد أفادَ نَفْسَه ، وقادها إلى طريق الخير والنعيم في الدنيا والآخرة .

ومَن جَهِلَ حُجَجَ الله ، ولَم يستدل بالأدلة والبراهين ، ولَم يُصدِّق بالآيات التي تدل على وَحدانية الله وصِدق نُبُوَّة محمد ﷺ، فقد ضَرَّ نَفْسَه، وأساءَ إليها ، وقادها إلى طريق الهلاك والعذاب الأبديِّ . ونَفْعُ الإبصار يعود على العبد وَحْدَه، وضررُ العَمى يعود على العبد وَحْدَه. والتَّعبير بالإبصار للترغيب في اتِّباع الأدلة والبراهين ، واعتناق الحق . والتَّعبير بالعمى للترهيب مِن إهمال الأدلة والبراهين ، ورفض الحق . والإبصارُ يَحمل معنى النُّور والضياء ، وهذا يُحبِّب الناس في الهدى ، والعمى يَحمل معنى الظلام والانغلاق ، وهذا يُبعِد الناسَ عن الضلال ، ويُنفِّرهم مِنه .

والنبيُّ محمد ﷺ ليس رقيبًا على العباد ، وليست وظيفته إحصاء أقوالهم وأفعالهم ، إنما هو رسول يُبلِّغ الوَحْيَ الإلهيَّ بدون زيادة ولا نُقصان ، ولا يُحاسِب أحدًا . وكُل إنسان له الحرية الكاملة في اختيار الإيمان أو الكفر، ويتحمَّل مسؤولية اختياره في الدنيا والآخرة . واللهُ هو الرقيب على العباد ، الحفيظ عليهم، يَهدي مَن يشاء ، ويُضِل مَن يشاء . لا تخفى عليه خافية . وقد أحاطَ بأقوال الناس وأفعالهم ، وسَوْفَ يُجازي الْمُحسِن بإحسانه ، والْمُسيء بإساءته . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٣٩) : ((﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصائرُ مِن رَبِّكُم ﴾ . البصائر جمع بصيرة ، وهي للنَّفْس كالبصر للبدن.سُمِّيت بها للدَّلالة،لأنها تُجلِّي لها الحق،وتُبصِّرها به.﴿ فَمَنْ أبصرَ ﴾ ، أي : أبصرَ الحقَّ وآمنَ به ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ أبصر، لأن نفعه لها ، ﴿ وَمَنْ عَمِيَ ﴾ عن الحق وضَل ﴿ فَعَلَيْها ﴾ وَبَاله . ﴿ وما أنا عَلَيكم بِحَفيظ ﴾ ، وإنما أنا مُنذِر ، والله سُبحانَه وتعالى هو الحفيظ عليكم ، يَحفظ أعمالكم، ويُجازيكم عليها. وهذا كلام ورد على لسان رسول الله عليه الصلاة والسلام)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٩٩) : ((البصائر جمع بصيرة ، وهي الدَّلالة التي تُوجِب البصرَ بالشيء ، والعِلم به . قال الزَّجاج : والمعنى: قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر . ﴿ فَمَنْ أبصرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ نَفْع ذلك ، ﴿ وَمَنْ عَمِيَ ﴾ فعلى نفْسه ضرر ذلك ، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ غنيٌّ عن خَلْقه ، ﴿ وما أنا عَلَيكم بِحَفيظ ﴾ أي: لستُ آخذكم بالإيمان أخذ الحفيظ والوكيل)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أَوَ مَن كانَ مَيْتًا فأحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لهُ نُورًا يَمشي بِهِ في الناسِ كَمَن مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنها كذلكَ زُيِّنَ للكافرينَ ما كانوا يَعْمَلُون ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

أوَ مَن كان كافرًا مَيْت القلب ، ضالاً أعمى البصيرة ، جاهلاً بالوَحْي والنُّبُوَّة ، بعيدًا عن العبادة والطاعة ، فهداه اللهُ إلى الإسلام ، وأحيا قلبه بالإيمان والمعرفة ، وأنقذه من الضلال بالقُرآن والعِلم ، وعرَّفه وَحدانية الله ، وعلَّمه شرائع الدين ومعالم الحق ، وجعل له مع هذه الهداية نُورًا عظيمًا يَستضيء بِه، ويتأمَّل به الأشياء، ويتفكَّر فيها، ويَعرِف به الحق من الباطل ، ويُميِّز بواسطته الهدى من الضلال ، ويَمشي على الطريق المستقيم هاديًا مهديًّا، كَمَن هو يتخبَّط في ظُلمات الكفر والضلال والجهل والعِناد تائهًا ضائعًا ، بلا مَخْرَج ولا طَوْق نجاة ولا فُرصة للخُروج ؟ .

والموت إنما هو مَوت القلب الذي يتجلى في الكفر والضلال والجهل ، والحياةُ إنما هي حياة القلب التي تتجلى في الإيمان والهدى والعِلم . والإيمانُ هو حياة القلوب ونعيمها وسِر سعادتها . إن هذا الْمَثَل الإلهيَّ يُوضِّح أن المهتدي كان مَيْتًا ، أحياه اللهُ بالإيمان ، ونوَّر قلبه بالقُرآن ، فصارَ إنسانًا مُستضيئًا بنور الوَحْي والنُّبُوَّة ، يتحرَّك بين الناس ، ويَمشي فيهم بنور الإيمان والحق والهدى . أمَّا الكافرُ فهو شخص ضائع وتائه في ظلمات الكفر والضلال ، التي لا يتخلَّص منها .

كذلك حسَّن الشيطانُ للكافرين وزيَّن لهم الشِّرك وعبادة الأصنام والمعاصي والذنوب ، وأوهمهم أنهم أفضل من المسلمين، وأن دِينهم الوثني الباطل أعظم من دين التوحيد (الإسلام) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٣١) : ((هذا مَثَل ضَرَبه اللهُ تعالى للمؤمن الذي كان مَيْتًا، أي : في الضلالة ، هالكًا حائرًا ، فأحياه اللهُ ، أي : أحيا قلبه بالإيمان ، وهداه له ، ووفَّقه لاتِّباع رُسله ، ﴿ وَجَعَلْنا لهُ نُورًا يَمشي بِهِ في الناسِ ﴾ ، أي : يهتدي كيف يَسلك ، وكيف يتصرَّف به . والنُّور هو القرآن ، كما رواه العَوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس.وقال السُّدي: الإسلام، والكُل صحيح ﴿ كَمَن مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ ﴾ ، أي : الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة ، ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنها ﴾ ، أي : لا يهتدي إلى مَنْفَذ ولا مَخْلص ... . وزعم بعضُهم أن المراد بهذا المثَل رَجلان مُعيَّنان ، فقِيل : عمر بن الخطاب هو الذي كان مَيْتًا ، فأحياه اللهُ ، وجعل له نورًا يمشي به في الناس . وقِيل : عمار بن ياسر . وأمَّا الذي في الظلمات ليس بخارج منها أبو جهل عمرو ابن هشام لعنه اللهُ . والصحيح أن الآية عامة ، يَدخل فيها كُل مؤمن وكافر . وقَوله تعالى : ﴿كذلكَ زُيِّنَ للكافرينَ ما كانوا يَعْمَلُون ﴾ أي: حسَّنا لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة قَدَرًا من الله ، وحِكمةً بالغة ، لا إله إلا هو ، وَحْدَه لا شريك له)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١١٦ و١١٧):((وفي قَوله: ﴿كانَ مَيْتًا فأحْيَيْناهُ ﴾ قَولان : أحدهما كان ضالاً فهديناه ، قاله

مجاهد . والثاني كان جاهلاً فعلَّمناه، قاله الماوردي . وفي النُّور ثلاثة أقوال : أحدها أنه الهدى، قاله ابن عباس. والثاني القرآن، قاله الحسن ، والثالث العِلم. وفي قَوله : ﴿ يَمشي بِهِ في الناسِ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها يهتدي به في الناس، قاله مقاتل. والثاني يمشي به بين الناس إلى الجنة، والثالث ينشر به دِينه في الناس فيصير كالماشي، ذَكرهما الماوردي. قَوله تعالى: ﴿ كَمَن مَثَلُهُ ﴾ ، الْمَثَل صِلة . والمعنى: كَمَن هُوَ في الظلمات . وقِيل : المعنى : كَمَن لو شُبِّه بشيء كان شبيهه مَن في الظلمات. وقِيل: المراد بالظلمات هاهُنا الكفر. قَوله تعالى: ﴿كذلكَ زُيِّنَ ﴾ ، أي : كَما بَقِيَ هذا في ظُلماته ، لا يتخلَّص مِنها ، ﴿كذلكَ زُيِّنَ للكافرينَ ما كانوا يَعْمَلُون ﴾ مِن الشِّرك والمعاصي)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى:﴿وَمَن كانَ في هَـذِهِ أعمى فَهُوَ في الآخرةِ أعمى وأضلُّ سَبيلاً﴾[الإسراء: ٧٢]. ومَن كان في هذه الدنيا أعمى القلبِ والبصيرةِ، غافلاً عن آيات الله وحُجَجه ، رافضًا للدعوة الإسلامية ، ضائعًا في مَتاهة الكفر والضلال، تائهًا في دُروب الشَّك والحيرة والجهل والعناد ، لا يَعرِف الحقَّ ، ولا يَهتدي إليه ، ولا يَعرِف الطاعات ، ولا يَفعلها . فهو في الآخرة أشد عمًى ، وأسوأ حالاً ، وأضل طريقًا ، وأشد ضياعًا وانحرافًا عن طريق السعادة والنعيم والنجاة. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٦٦) : ((وفي الْمُشار إليها بِـ﴿ هَذِهِ ﴾ قَولان : أحدهما أنها الدنيا ، قاله مجاهد . ثم في معنى الكلام خمسة أقوال ، أحدها : مَن كان في الدنيا أعمى عن معرفة قدرة الله في خَلْق الأشياء ، فهو عمَّا وُصِف له في الآخرة أعمى، رواه الضَّحاك عن ابن عباس . والثاني مَن كان في الدنيا أعمى بالكفر، فهو في الآخرة أعمى، لأنه في الدنيا تُقبَل توبته ، وفي الآخرة لا تُقبَل ، قاله الحسن. والثالث مَن عَمِيَ عن آيات الله في الدنيا، فهو عن الذي غُيِّبَ عنه من أمور الآخرة أشد عمًى.والرابع مَن عَمِيَ عن نِعَم الله ... فهو في الآخرة أعمى عن رشاده وصلاحه، ذَكَرَهما ابن الأنباري.والخامس مَن كان فيها أعمى عن الْحُجَّة ، فهو في الآخرة أعمى عن الجنة ، قاله أبو بكر الوراق . والثاني أنها النِّعَم ، ثم في الكلام قَولان : أحدهما مَن كان أعمى عن النِّعَم التي تُرَى وتُشَاهَد، فهو في الآخرة التي لَم تُرَ أعمى، رواه عِكرمة عن ابن عباس . والثاني مَن كان أعمى عن معرفة حق الله في هذه النِّعَم ... ولَم يُؤدِّ شُكرها، فهو فيما بينه وبين الله مِمَّا يُتقرَّب به إليه ، أعمى وأضل سبيلاً ، قاله السُّدي . قال أبو علي الفارسي : ومعنى قَوله : ﴿ في الآخرةِ أعمى ﴾ ، أي : أشد عمًى ، لأنه كان في الدنيا يُمكنه الخروج عَن عَمَاه بالاستدلال ، ولا سبيل له في الآخرة إلى الخروج مِن عَمَاه . وقِيل : معنى العمى في الآخرة أنه لا يَهتدي إلى طريق الثواب ، وهذا كُله مِن عَمَى القلب)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتى ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا وَلَّوْا مُدْبِرِين﴾[النَّمْل: ٨٠].

إنكَ يا محمد لا تَستطيع إسماع الكفار المواعظ والإرشادات، ولا تَقْدِر على إفهامهم الحق ، لأنهم تَركوا الاعتبارَ ، وأهملوا التَّدَبُّرَ ، ولا يَتفكرون في آيات الله ، ولا يتأمَّلون مظاهر قُدرته ، ولا يَفهمونه حُجَجه وبراهينه وأدلته ، فهُم كالموتى ، قلوبهم مُغلَقة ، وعقولهم مُعطَّلة ، بلا مشاعر ولا حواس، إذ إنهم لَم ينتفعوا بها، ولَم يستفيدوا مِنها،فكان وجودها كعدمه،بلا فائدة ولا جَدوى.

ولا تَستطيع يا محمد إسماعَ الكفار دُعاءك ونداءك ومواعظك، ودَعوتك إلى تَوحيد الله وعبادته وطاعته ، لأنهم كالصُّم الذين لا يَسمعون، ولا يَفهمون ، ولا يُجيبون . لا سِيَّما إذا ابتعدوا عنكَ ، وأعرضوا عن دَعوتك، ووَلَّوْا مُدبِرين . إن الكفار بمنْزلة الصُّم ، لا يَسمعون النداء ، ولا يَفهمون الدعاء، إذا أعرَضوا وأدْبَرُوا . ومَن كان هذا شأنه ، فهو أبعد ما يُمكن عن الإيمان والحق والهدى. وهذا يدل على إعراضهم التام عن الحق ، ورفضهم الأكيد للهدى ، فإن الأصم لا يَسمع الدعاء إذا كان مُقْبِلاً ، فكيفَ يَسمعه إذا كان مُعْرِضًا مُدْبِرًا ؟! . وهذا تأكيد ومُبالَغة ، لتوضيح شِدَّة كفرهم وضلالهم وعنادهم ، ورفضهم سَماع الحق . فكيفَ يُؤمنون ويَهتدون وهُم يَرفضون مُجرَّد سَماع الحق ؟! . والآيةُ تَدعو النبيَّ ﷺ إلى التَّوكُّل على اللهِ ، والاعتماد عليه ، وإسناد الأمر إليه ، وقطع الأمل في إسلام هؤلاء الكفار ، والإعراض عنهم . فهُم كالموتى ، لا يَنتفعون بما يَسمعونه مِن الآيات العظيمة والحِكَم البليغة والمواعظ المؤثِّرة . ولا فائدة مِنهم ، ولا جَدوى مِن دَعوتهم . وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٢): ((قَوله: ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتى ﴾ يقول : إنك يا محمد لا تَقْدِر أن تُفهِم الحقَّ مَن طَبَعَ اللهُ على قلبه فأماته، لأن الله قد خَتَمَ عليه أن لا يَفهمه ﴿ ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ ﴾ يقول:ولا تَقْدِر أن تُسمِع ذلك مَن أَصَمَّ اللهُ عن سماعه سَمْعَه ﴿ إذا وَلَّوْا مُدْبِرِين ﴾ يقول: إذا هُم أدْبَروا مُعرِضين عنه لا يسمعون له لغلبة رَيْن (طَبْع) الكفر على قُلوبهم، لا يُصغون للحق ولا يتدبَّرونه ولا يُنصِتون لقائله، ولكنهم يُعرِضون عنه ويُنكِرون القَول به والاستماع له)) اهـ . وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٧٦) : ((فإن قِيل : ما معنى قَوله : ﴿ وَلَّوْا مُدْبِرِين ﴾ ، وإذا كانوا صُمًّا لا يَسمعون ، سواء وَلَّوْا أو لَم يُوَلُّوا ؟ . قِيل : ذَكَرَه على سبيل التأكيد والْمُبالَغة . وقِيل : الأصَم إذا كان حاضرًا فقد يسمع برفع الصوت ، ويَفهم بالإشارة ، فإذا وَلَّى لَم يَسمع ، ولَم يَفهم . قال قَتادة : الأصم إذا وَلَّى مُدْبِرًا ثُمَّ نَادَيْتَه ، لَم يَسمع ، كذلك الكافر ، لا يَسمع ما يُدعَى إليه من الإيمان. ومعنى الآية : أنهم لِفَرْط إعراضهم عمَّا يُدْعَوْنَ إليه كالميْت الذي لا سبيل إلى إسماعه . والأصَم الذي لا يَسمع)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (١/ ٤٦٢) عن عائشة _ رضي اللهُ عنها_ قالت: إنما قال النبيُّ ﷺ : ((إنهم لَيَعْلَمُونَ الآنَ أن ما كُنتُ أقولُ حَق)) . وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ إنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتى ﴾ .

لقد احتجَّت عائشة _ رضي اللهُ عنها _ بهذه الآية ، وأنكَرت أن النبيَّ ﷺ قد أسمعَ مَوْتى بَدْر (كفار قُرَيش المقتولين بِبَدْر) . والثابتُ أن النبيَّ ﷺ قد أسمعهم . وهذا أمر خاص بالنبيِّ ﷺ ، حيث خَرَقَ اللهُ له العادةَ ، ومَنَحَه القدرة على إسماع الموتى .

والعبارة (وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ إنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتى ﴾) . هذا الكلام لعائشة _ رضي اللهُ عنها_. ومعنى الآية: لا تُسْمِع الموتى يا محمد إسماعًا يَستفيدون مِنه، ويَنتفعون به ، ويتَّعظون بسببه. وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٢٣٤ و٢٣٥):((وأمَّا استدلالها بِقَوله تعالى: ﴿ إنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتى ﴾ ، فقالوا : معناها : لا تُسْمِعهم سماعًا يَنفعهم ، أو لا تُسْمِعهم إلا أن يشاء الله . وقال : السُّهَيلي: عائشة لَم تحضر قَولَ النبيِّ ﷺ ، فَغَيرها مِمَّن حضر أحفظ للفظ النبيِّ ﷺ . وقد قالوا له: يا رسول الله، أَتُخَاطِب قَوْمًا قد جَيَّفوا ؟، فقال: " ما أنتم بأسمعَ لِمَا أقول مِنهم " . قال : وإذا جاز أن يكونوا في تلك الحال عالِمِين،جَاز أن يكونوا سامعين،إمَّا بآذان رؤوسهم كما هو قَول الجمهور، أو بآذان الرُّوح ، على رأي مَن يُوجِّه السؤال إلى الرُّوح مِن غَير رجوع إلى الجسد ... انتهى. وقَوله : إنها لَم تَحضر ، صحيح . لكن لا يَقْدَح ذلك في روايتها ، لأنه مُرسَل صحابي،وهو محمول على أنها سَمعتْ ذلك مِمَّن حَضَرَه، أو من النبيِّ ﷺ بَعْد... .وقال ابن التين: ... الموتى لا يسمعون بلا شك ، لكن إذا أرادَ اللهُ إسماعَ ما ليس مِن شأنه السَّماع لَم يمتنع)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وما أنتَ بهادي العُمْي عَن ضَلالتهم إن تُسْمِعُ إلا مَن يُؤمِنُ بآياتِنا فَهُم مُسلِمون ﴾ [النَّمْل : ٨١] . ولا تَقْدِر يا محمد أن تَهديَ مَن أعمى اللهُ قَلْبَه وبصيرته ، وَصَرَفَه عن الإيمان والحق والهدى ، ولا تستطيع أن تَخْلق الإيمانَ في قلبه ، ولا تُخْرِجه مِن كُفره وضلاله وجَهله وعناده . واللهُ وَحْدَه هو القادر على هداية القلوب ، لأن القلوب بيد الله وَحْدَه .

ما تُسْمِع سَمَاعَ تَدَبُّر وإفهام إلا المؤمنين ، الذينَ صدَّقوا بآيات الله ، فهؤلاء وَحْدَهم هُم المنتفعون بالآيات والْحُجَج والبراهين والحِكَم والمواعظ والإرشادات . لقد كَتَبَ اللهُ لهم السعادةَ والهناء ، ومَنَحَهم شَرَفَ الإيمان تَفَضُّلاً مِنه عليهم . وهُم مُصدِّقون بِوَحدانية الله ، ومُخلِصون له العبادة. قلوبهم عامرة بالإيمان والطاعات، وإذا سَمعوا آياتِ الله تُتلَى عليهم، عَرَفوا دَلالة ألفاظها، وفهموا معناها،وعملوا بما فيها . لذلك كان سماع المؤمنين للآيات سماعًا نافعًا مُفيدًا ، يَعود عليهم بالخير والبركات ، بعكس الكافرين .

ولا يَستجيب للدَّعوة المحمَّدية الإسلامية إلا أهل الإيمان والتقوى، الذين أسلموا للهِ وأقَرُّوا بِوَحدانيته ، وخَضعوا لِحُكمه ، وانقادوا لأمره ، وصدَّقوا بِنُبُوَّة محمد ﷺ.

إن مَن يستجيب لكَ يا محمد ، ويُصدِّق بِنُبُوَّتك ودَعوتك ، هو صاحب القلب الحي بنور الإيمان،الذي يُبصِر آيات الله ومظاهر قُدرته ودلائل عَظَمَته، ويتفكر فيها ، ويتأمَّل في إعجازها . وهذا هو البصر النافع (البصيرة)، ويَسمع المواعظ والإرشادات بتركيز وفهم ووَعْي ، ويُطبِّقها على أرض الواقع . وهذا هو السماع النافع . أمَّا مَن أعماه اللهُ عن الحق ، ومَنَعَه مِن الإيمان ، وحَجَب عنه الهدى ، عُقوبةً له ، لأنه لا يستحق شَرَفَ الإيمان ، فهذا هالكٌ لا مَحالة ، وعاجز عن الاهتداء إلى الحق ، وإصابةِ الرَّشاد ، ومعرفةِ طريق الصواب ، فكيفَ تَهْديه يا محمد وقد أضَلَّه اللهُ تعالى ؟ . إن الله يَهْدي مَن يشاء ، ويُضِل مَن يشاء . والهدايةُ والإضلال بيد الله وَحْدَه .

وقال النَّسفي في تفسيره (٣/ ٢٢٢ و٢٢٣) : ((لَمَّا كانوا لا يَعُون ما يَسْمعون ، ولا به يَنتفعون ، شُبِّهوا بالموتى ، وهم أحياء صِحَاح الحواس ، وبالصُّم الذين يُنعَق بهم ، فلا يَسْمعون ، وبالعُمْي حيث يَضِلُّون الطريق ، ولا يَقْدِر أحد أن يَنْزِع ذلك عنهم ، ويَجعلهم هُداة بُصَراء إلى الله تعالى . أكَّد حال الصُّم بِقَوله : ﴿ إذا وَلَّوْا مُدْبِرِين ﴾ ، لأنه إذا تباعدَ عن الدَّاعي بأن تَوَلَّى عنه مُدْبِرًا ، كان أبعدَ عن إدراك صَوْته ... . ﴿ إن تُسْمِعُ إلا مَن يُؤمِنُ بآياتِنا ﴾ ، أي : ما يُجْدي إسْمَاعُك إلا على الذين عَلِمَ اللهُ أنهم يُؤمنون بآياته،أي: يُصدِّقون بها ﴿ فَهُم مُسلِمون ﴾ مُخْلِصون، مِن قَوله : ﴿ بلى مَن أسلمَ وَجْهَهُ لله ﴾ [البقرة : ١١٢] يعني : جَعله سَالِمًا لله ، خالصًا له)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآنًا أعجمِيًّا لقالوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ أأعْجَمِيٌّ وعربِيٌّ قُلْ هُوَ للذينَ آمَنوا هُدًى وَشِفاءٌ والذينَ لا يُؤمنونَ في آذانِهِم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِم عَمًى أُولئكَ يُنادَوْنَ مِن مكانٍ بعيدٍ ﴾[فُصِّلَتْ: ٤٤]. لَوْ جَعَلَ اللهُ القُرآنَ أعجميًّا لقالت قُرَيشٌ (قَوْمُ النبيِّ ﷺ) تَعَنُّتًا وعِنادًا:هَلاَّ نَزَلَ بلغة العرب كَي نَفهمه ونعرف ما فِيه،فنحن عربٌ لا نعرف إلا اللغةَ العربية .

والاستفهامُ في الآية ﴿ أأعْجَمِيٌّ وعربِيٌّ ﴾ للإنكار، يعني: لَقالوا أكلامٌ أعجميٌّ ورسولٌ عربيٌّ؟. والأعجميُّ هُوَ الذي لا يُفهَم كلامُه. وفي الآيةِ دليلٌ على أن القُرآن عربيٌّ ، وإذا نُقِلَ إلى لُغةٍ أخرى لم يَعُدْ قُرآنًا ، وفقدَ إعجازَه.وَلَوْ كان القُرآنُ بغَير العربية، لَكان المشركون معذورين في كُفرهم بِه ، لأنه _ عِندئذٍ _ سَيَكون كلامًا غَير مفهوم ، ولا معنى له بالنِّسبة إلَيهم ، ولا يَعْرِفون ألفاظَه ومَعانيه. أمَّا نُزوله بِلُغتهم فقد قَطَعَ عُذْرَهم، ولا حُجَّةَ لهم . وبِما أنهم عاجزون عن مُجاراته أو الإتيان بِمِثْلِه

وهو بِلُغتهم ، وهُم أهل الفصاحة والبلاغة، فهذا دليلٌ واضحٌ على أن القُرآنَ لَيس مِن عِندِ محمد الأُمِّيِّ، وإنما مِن عِند الله تعالى . واللهُ وَحْدَهُ هو الذي أعلنَ أن القُرآنَ كلامُه . ولوْ كانَ القُرآن مِن تأليف أي مخلوق،فلماذا لَم يَظهر هذا المخلوقُ ويُخبِرنا بأن القُرآن مِن تأليفه، وأنَّ مُحَمَّدًا قد أخذه مِنه؟. والمشركون سيخترعون أعذارًا واهية لعدم إيمانهم، مهما كانت لُغة القُرآن ، وسَوْفَ يَجدون تبريراتٍ لِكُفرهم وجُحودهم ، وهذا هو العِناد والتَّعَنُّت والاستكبار في أسوأ صُوَرِه . فالقُرآن الذي هُوَ بِلُغتهم قالوا عنه إنَّهُ أساطير الأوَّلين، ومِن تأليف محمد ﷺ. ولوْ نزلَ بغَير اللغة العربية لَطَعنوا فِيه لأنه لَيس بِلُغتهم . إن الكُفرَ ــ عِندَهم ــ مسألةُ مَبدأ ، ومَوْقِفٌ مُسْبَق وثابت، سواءٌ نزلَ القُرآنُ أَم لَم يَنْزِل، وسواءٌ كانَ بالعربية أَم بغَيْرِها، وسواءٌ ظَهرت الْمُعجِزاتُ أَم لَم تَظهر . والكُفر عِناد . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٣٩) : ((والأعجميُّ : الذي لا يُفصِح سَواءٌ كان مِنَ العَرَبِ أو مِنَ العَجَم.والأعجم ضِد الفصيح:وهو الذي لا يُبَيِّن كَلامَه ، ويُقال للحيوان غير الناطق أعْجَم)) اهـ .

وهذه الآية توضِّح أهمية الدعوة باللغة التي يفهمها الناس كَي يَستوعبوا الأحكامَ والشرائعَ ، ويَقفوا على معنى الكلام ودلالاته ، ويقوموا بتطبيق الأحكام على أرض الواقع . أمَّا الدعوة باللغة التي لا يُتقنها الناس فهي مَضيعة للوقت ، بسبب انعدام وسيلة الحوار والتخاطب ، وغياب معنى استقبال الكلام وإرساله . وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٣٢٠) : ((قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جعلناه قُرآنًا أعجميًّا ﴾ أي بلغة غير العرب ﴿ لقالوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُه ﴾ أي بُيِّنت بلغتنا، فإننا عرب لا نفهم الأعجمية ، فبيَّن أنه أنزله بلسانهم ليتقرَّر به معنى الإعجاز ، إِذْ هُم أعلم الناس بأنواع الكلام نَظْمًا ونَثْرًا ، وإذا عَجِزُوا عن مُعارضته كان من أدل الدليل على أنه مِن عِندِ الله ، ولو كان بلسان العَجَم لقالوا : لا عِلْمَ لنا بهذا اللسان)) اهـ .

﴿ قُلْ هُوَ للذينَ آمَنوا هُدًى وَشِفاءٌ ﴾. إنَّ القُرآنَ هُدًى للمؤمنين مِنَ الضلالة ، يُرْشِدُهم إلى طريق الحق ، ويَشفيهم مِنَ الجهل والأمراض والشُّبهات .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٣١) : ((أي : قُل يا محمد ، هذا القرآن لِمَن آمنَ بِه ، هُدًى لقلبه ، وشفاءٌ لِمَا في الصدور مِنَ الشُّكوك والرِّيَب)) اهـ .

﴿ والذينَ لا يُؤمنونَ في آذانِهِم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِم عَمًى ﴾ . أمَّا الكافرون ، ففي آذانِهم صَمَمٌ وثِقَلٌ ، يَستمعون القُرآنَ ، فلا يَفهمون ما فيه، فيزدادون كُفرًا وضَلالاً وتعاسة ، بسبب عِنادهم وتكبُّرهم، والقُرآنُ عَلَيهم عَمًى ، لأنهم لا يَرَوْنَ فِيه المواعظَ الجليلة ، والحِكَمَ البليغة ، والْحُجَجَ

الباهرة . لقد عَمِيَتْ قُلوبُهم عن القُرآن ، وصَمُّوا عَن سَماعه ، فلا يَنتفعون مِنه بشيء . وهذا يدل على أن الله تعالى يَهدي أقوامًا بأن يَفتح قلوبَهم وحَوَاسَّهم للقُرآن ، ويُضِلُّ آخرين بأن يُغلِق قلوبَهم أمام القُرآن ، ويُعمي أبصارَهم ، ويَسُدُّ آذانَهم. وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٣٢٠) : ((أي صَمَم عن سماع القرآن ، ولهذا تَوَاصَوا باللغو فيه)) اهـ .

وإذا لَم يَشعر الإنسانُ بِعَظَمةِ القُرآن وإعجازِه ، ولَم يَذُقْ حلاوةَ القُرآن ، ففي قلبِه أوساخٌ لا بُدَّ من إزالتها . إذْ إن نُور القُرآن لا يَهبط في قلبٍ قَذِرٍ . فعلى الإنسان أن يُنَظِّفَ قَلْبَه قبل استماع القُرآن كَي يَشعر بكلامِ اللهِ تعالى. وكما أن نُور الشمس لا يَدخل إلى الغرفة إلا إذا فَتح الإنسانُ النافذةَ ، فكذلك نور القُرآن لا يَدخل إلى حياة الإنسان إلا إذا فَتح قَلْبَه . وفي حاشية زاده على البَيضاوي (٣/ ٢٦٥): ((إنَّ القُرآنَ لِوُضوح آياته ، وسُطوع براهينه ، هادٍ إلى الحق ، ومُزيل للرِّيَب والشك ، وشفاء مِن داء الجهل والكفر والارتياب . وَمَن ارتابَ فيه ولَم يُؤمن به ، فارتيابه إنما نشأ عَن توغُّله في اتِّباع الشهوات ، وتقاعده عن تفقُّد ما يُسعده ويُنجِّيه)) اهـ .

﴿ أُولئكَ يُنادَوْنَ مِن مكانٍ بعيدٍ ﴾ . إنَّ الكافرين لا يَسمعون الحقَّ ، كأنهم يُنادَوْنَ مِن مكانٍ بعيد ، فلا يَفهمون معنى النِّداء ولا الْمُراد مِنه ، وهذا يُشير إلى المسافة الهائلة التي تَفصل قُلوبَهم عن الحق، لذلك لا يَنتفعون بشيء من المواعظ والأحكام . وإذا سَمِعُوا النِّداءَ فإنهم لا يَفهمون مِنهُ شَيئًا ، كالبهائم ، تَسمع النداءَ لكنها لا تَفهم معناه .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١١٨) : ((اختلف أهل التأويل في معناه فقال بعضهم : معنى ذلك : تشبيه الله جَلَّ ثناؤه لِعَمى قُلوبهم عن فَهم ما أُنزِل في القرآن مِن حُجَجِه ومواعظه ببعيدِ فَهْمٍ ، سامع صوت مِن بعيد ، نُودِيَ فلم يَفهم ما نُودِيَ)) اهـ. وهذا معنى مجازيٌّ. وهناك معنى آخر على الحقيقة . قال الثعالبي في تفسيره (٤/ ٩٧) : ((وأن معناه أنهم يوم القيامة يُنَادَوْنَ بِكُفرهم وقَبيحِ أعمالهم مِن بُعْد ، حتى يَسمع ذلك أهل الموقِف، لِيُفْضَحوا على رؤوس الخلائق، ويكون أعظم لتوبيخهم ، وهذا تأويل الضَّحاك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أُولئكَ الذينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فأصَمَّهُم وأعْمَى أبْصَارَهُم ﴾ [مُحَمَّد : ٢٣] .

طَرَدَهم اللهُ مِن رَحمته ، وأبعدهم عَن مغفرته ، لإفسادهم في الأرض ، وقطعهم الأرحام ، وَفْق ما جاء في الآية السابقة [محمد : ٢٢] . و﴿ أُولئكَ ﴾ إلى الْمُخَاطَبِين بما تَقَدَّمَ . فأصَمَّهم عن سَماع الحق بسبب سُوء أعمالهم، وأعمى قلوبهم عن طريق الحق والهدى بسبب رفضهم لمظاهر قُدرة الله ، فلا يَنتفعون بالمواعظ ، ولا يَهتدون إلى الخير ، ولا يَستفيدون مِن الآيات .

لقد غرقوا في الشهوات والذنوب والمعاصي ، فطردهم اللهُ مِن رَحمته عقوبةً لهم على فسادهم وإفسادهم ، ومَنَعَهم مِن التفكر بآياته العظيمة ، لعدم استحقاقهم لهذا الشرف الرفيع ، وَسَلَبَهم القُدرة على الانتفاع بأسماعهم والاستفادة من أبصارهم ، فَرَفضوا الإيمانَ والحقَّ ، ولَم يَهتدوا إلى طريق الهدى ، وصارَ كالبهائم التي لا تَعقِل . يَعيشون ويأكلون ويَموتون ، بلا هدف ولا غاية .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٣٢٠) : ((وقَوله : ﴿ أُولئكَ الذينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه : هؤلاء الذين يَفعلون هذا ، يعني الذين يُفسِدون، ويُقطِّعون الأرحام، الذين لعنهم اللهُ ، فأبعدهم من رحمته ، ﴿ فأصَمَّهُم ﴾ . يقول : فَسَلَبَهُم فَهْمَ ما يَسْمعون بآذانهم من مواعظ الله في تَنْزيله ، ﴿ وأعْمَى أبْصَارَهُم ﴾ . يقول : وسلبهم عقولهم فلا يتبيَّنون حُجَجَ الله ، ولا يتذكرون ما يَرَوْنَ مِن عِبَره وأدلته)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أفلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أَم على قُلوبٍ أقفالُها ﴾[مُحَمَّد : ٢٤] (5).

يَأمرُ اللهُ بالتَّفكر في القُرآنِ ، ومعرفةِ أحكامه ، ودراسةِ حُجَجِه ، والوقوفِ على إعجازِ آياته ، والعملِ بما فِيه. والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، أفلا يَتفهَّمون القُرآنَ ، فينتفعون بمواعظه ، أَم أغلقَ اللهُ قلوبَهم بأقفال ، فلا يَفهمون آياتِ اللهِ تعالى ، ولا يُدرِكون ما فِيها من الأحكام والعِبَر .

والأقفالُ في هذا السِّياق تُشير إلى أن القلوب مُغلَقة بإحكامٍ ، وتخلو من الإيمان ، لا يَخرج مِنها الكفرُ ، ولا يَدخل إلَيها الإيمان . وقد تكون ﴿ أَم ﴾ بمعنى " بَل " . أي : بَل على قلوبٍ أقفالُها، فلا يصل إلَيها شيء مِن معاني القُرآن . وفي الآية استعارةٌ تصريحية ، فقد شَبَّهَ قلوبَهم بالأبواب الْمُقْفَلة ، حيث لا تَنفتح للوَعْظِ والإرشادِ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٩٤) : ((﴿ أَم ﴾ مُنقَطِعة. ومعنى الهمزة فيها التقرير . وتنكير القلوب لأن المراد قلوب بعض منهم ، أو للإشعار بأنها لإبهام أمرها في القساوة أو لِفَرْط جهالتها ونُكْرِها، كأنها مُبْهَمة مَنكورة ، وإضافة الأقفال إليها للدَّلالة على أقفال مناسبة لها مختصة بها لا تُجانس الأقفالَ المعهودة)) اهـ .

---

(٥) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٤٠٨) : ((وذِكْرُ الأقفال استعارة. والمراد أن القلب يكون كالبيت الْمُقْفَل لا يَصِلُ إليه الهدى.قال مجاهد:الرَّان أيسرُ مِنَ الطَّبْع،والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشدُّ ذلك كُلِّه.وقال خالد بن مَعْدان:ما مِن آدميٍّ إلا وله أربع أعين: عَينان في رأسه لدنياه وما يُصلِحه مِن مَعيشته ، وعينان في قلبه لِدِينه ، وما وَعد اللهُ من الغَيب ، فإذا أراد اللهُ بعبدٍ خَيْرًا أبصرتْ عَيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد به غَيْرَ ذلك طَمس عليهما، فذلك قَوْلُه : ﴿ أَم على قُلوبٍ أقفالُها ﴾)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٠) : عن أبي هريرة قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((إنَّ اللهَ خلق الخلقَ ، حتى إذا فَرَغَ مِنهم ، قامت الرَّحِمُ فقالت : هذا مَقامُ العائذِ مِنَ القطيعة ، قال : نعم ، أمَا تَرْضَيْنَ أن أصِلَ مَن وَصَلَكِ ، وأقطعَ مَن قَطعك ؟ ، قالت : بلى . قال : فذاكَ لَكِ)). ثم قال رسول الله ﷺ : ((اقرؤوا إن شِئتم : ﴿ فَهَل عَسَيْتُم إن تَوَلَّيْتُم أن تُفسِدوا في الأرضِ وتُقَطِّعوا أرحامَكُم (٢٢) أُولئكَ الذينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فأصَمَّهُم وأعمَى أبصارَهُم (٢٣) أفلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أَم على قُلوبٍ أقفالُها (٢٤) ﴾)) [6].

استجارت الرَّحِمُ باللهِ ولَجَأت إلَيه . وهذا يدل على أهمية وَصْلِها ، وعظيمِ حقِّها ، ورِفعةِ شأنها . كما يدل على حُرمة قَطْعها ، وتغليظِ عُقوبة هذا الفِعْل . وقطعُ الرَّحِم كبيرة مِن الكبائر .

وفي الدُّر المنثور (٧/ ٥٠١) : ((أخرج إسحق بن رَاهَوَيْه وابن جرير وابن المنذر وابن مَرْدَوَيه عن عُروة ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : تلا رسولُ الله ﷺ : " ﴿ أفلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أَم على قُلوبٍ أقفالُها ﴾ "،فقال شابٌّ مِن أهل اليمن: بَل عَلَيها أقفالُها حتى يَكون اللهُ يَفْتَحُها أو يُفَرِّجُها، فقال النبيُّ ﷺ : " صَدَقْتَ". فما زال الشاب في نفْسِ عُمر رضي اللهُ عنه حتى وَلِيَ فاستعان به)).

أحسنَ قَوْلاً هذا الشابُّ اليمنيُّ ، فكلُّ القلوبِ مُغلَقة ، إلا إذا فَتَحَها اللهُ تعالى ، فاللهُ الهادي والْمُوَفِّقُ ، ولَيس الإيمانُ بذكاء الإنسان أو مهاراته ، وإنما هو بهداية الله وتوفيقه ، أوَّلاً وأخيرًا .

وقد أدركَ عُمر ــ رضي اللهُ عنه ــ أن هذا الشاب يمتاز بالتَّقوى والفِطنة، ولا بُدَّ مِنَ الاستفادة مِنه ، لذلك عندما صارَ عُمر أميرًا للمؤمنين استعانَ بِه . وهذا يدل على أهمية احتضان المواهب الشابة ، وتوظيفها لخدمة الإسلام والمسلمين . وصدقَ القائلُ :

إذا لَم يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ للفَتى فأوَّلُ ما يَجني عَلَيْهِ اجتهادُه

٣ ــ الكُفْر ظُلُمات :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الذينَ آمَنوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّور ﴾[البقرة : ٢٥٧] .

---

(٦) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١١٢) : ((قال القاضي عِياض : الرَّحِمُ التي تُوصَل وتُقطَع وتُبَرُّ، إنما هي معنى من المعاني، ليست بجسم ، وإنما هي قَرابة ونَسَب تجمعه رَحِمُ والدة، ويتَّصل بعضُه ببعض ، فَسُمِّيَ ذلك الاتصال رَحِمًا . والمعنى لا يتأتى مِنه القيام ولا الكلام ، فيكون ذِكْرُ قِيامها هنا وتَعَلُّقها ضَرْبَ مَثَلٍ وحُسنَ استعارة ، على عادة العرب في استعمال ذلك)) اهـ .

اللهُ ناصرُ المؤمنين ، ومُعينهم ، ومُؤيِّدهم ، يَرعاهم ، ويَعتني بِهم ، ويتولى أمورهم ، ولا يَكِلُهم إلى غَيْره ، ويُوفِّقهم إلى الحق والهدى والخير . يُخرِجهم مِن ظُلُمات الكفر إلى نُور الإيمان .

والكُفْرُ ظُلُمات،لعدم وضوح طُرُقه وتشعُّبها وتفرُّقها، وكثرة الشُّكوك والشُّبهات والوساوس. والإسلام نُور لوضوح طريقه ، ووجود اليقين الثابت والثقة الأكيدة .

وجاءت ﴿ الظُّلُماتِ ﴾ بالجمع ، لأن الكفر مذاهب شَتَّى مُتناحرة ، وطُرُق كثيرة مُتفرِّقة . وجاء ﴿ النُّور ﴾ بالْمُفرَد ، لأن الحق واحد لا يَتعدَّد ولا يَتفرَّق ، وهو الإسلام .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٢٣) : ((يعني تعالى ذِكْرُه بِقَوله : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الذينَ آمَنوا ﴾ نصيرهم وظَهيرهم، ويتولاهم بِعَونه وتوفيقه . ﴿ يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ ﴾ . يعني بذلك : يُخْرِجهم مِن ظُلمات الكفر إلى نُور الإيمان . وإنما عنى بِـ ﴿ الظُّلُماتِ ﴾ في هذا الموضع الكفر ، وإنما جَعل ﴿ الظُّلُماتِ ﴾ للكفر مَثَلاً،لأن الظُّلُمات حاجبة للأبصار عن إدراك الأشياء لإثباتها، وكذلك الكفر حاجب أبصار القلوب عن إدراك حقائق الإيمان والعِلم بِصِحَّته وصِحَّة أسبابه، فأخبرَ تعالى ذِكْرُه عباده أنه وَلِيُّ المؤمنين ومُبصِّرهم حقيقةَ الإيمان وسُبله وشرائعه وحُجَجه، وهاديهم فمُوفِّقهم لأدلته الْمُزيلة عنهم الشُّكوك بِكَشْفه عنهم دَواعي الكفر ، وظُلْم سواتره عن أبصار القلوب)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم هَلْ تَسْتَوي الظُّلُماتُ والنُّور ﴾[الرَّعْد : ١٦] .

هذا تمثيل لضلال الكافرين في عبادة غَيْر الله تعالى.هل تَستوي ظُلمات الكفر ونُور الإيمان ؟. والاستفهام للتَّقريع والتَّوبيخ ، واستحالةِ الاستواء والتَّعادل .

لا مُقارَنة بينهما ، ولا يُمكن المساواة بين الحق والباطل ، فالنُّور واضح ، والظلام واضح . وإذا حَدَث لَبْس في الموضوع أو غُموض ، فهذه مشكلة العبد ، وليست مشكلة الحق .

قَد تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِن رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ مِن سَقَمِ

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٣٦٧):((يقول تعالى ذِكْرُه: وهل تستوي الظلمات التي لا ترى فيها الْمَحَجَّة فتسلك، ولا يرى فيها السبيل فيركب، والنُّور الذي تُبصر به الأشياء ، ويجلو ضَوْؤه الظلام؟ يقول: إن هذين لا شك لَغَير مُستويَيْن، فكذلك الكفر بالله إنما صاحبه منه في حَيرة يضرب أبدًا في غمرة،لا يرجع منه إلى حقيقة الإيمان بالله،صاحبه منه في ضياء يعمل على عِلم بربِّه، ومعرفة منه بأن له مُثيبًا يُثيبه على إحسانه، ومُعَاقِبًا يُعاقبه على إساءته، ورازقًا يَرزقه، ونافعًا ينفعه)) .

٤ــ الْمُقابَلة بين المؤمن والكافر :

قالَ اللهُ تعالى:﴿ فأمَّا الذينَ آمَنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ فَهُم في رَوْضَةٍ يُحْبَرُون ﴾[الرُّوم: ١٥].

فأمَّا المؤمنون الأتقياء الذين أقَرُّوا بِوَحدانية الله،وصدَّقوا بِنُبُوَّة محمد ﷺ، والتزموا بأوامر الله، واجتنبوا نَواهيه،أي: جَمَعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فهُم في رياض الجنة، يَفْرَحون، ويَسْعَدون، ويُكرَمون ، ويُنَعَّمُون . والرَّوضةُ (البُستان) هي الأرض ذات الأزهار والأنهار والنَّضارة والجمال. وتَنكيرُ ﴿ رَوْضَةٍ ﴾ لإخفاء أمرها ، وتعظيمه ، وتفخيمه ، والمراد بها الجنة . والْحُبُور السُّرُور . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٢٩٢ و٢٩٣) : ((قال المفسِّرون : والمراد بالروضة رياض الجنة . وفي معنى ﴿ يُحْبَرُون ﴾ أربعة أقوال : أحدها يُكرَمون ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني يُنَعَّمُون ، قاله مجاهد وقتادة . قال الزَّجاج : والْحَبْرَةُ في اللغة كل نِعمة حسنة.والثالث يَفرحون، قاله السُّدي. وقال ابن قُتَيبة : يُحْبَرُون يُسَرُّون ، والْحَبْرَةُ السُّرور . ...)).

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وأمَّا الذينَ كَفروا وكَذَّبوا بآياتِنا ولِقَاءِ الآخرةِ فأُولئكَ في العذابِ مُحْضَرُون ﴾ [الرُّوم : ١٦] .

وأمَّا الذين كَفروا باللهِ تعالى ، وأنكَروا القُرآن (الوَحْي الإلهيَّ) ، وكذَّبوا بالبعث بعد الموت ، والحساب ، والجنة والنار، فأُولئك في عذاب جهنم مُقيمون فيه إلى الأبد ، بلا انقطاع ولا نهاية . وهذا يدل على دوام عذابهم واستمراره بلا توقف . إنهم خالدون في عذاب النار الرهيب .

و " أُولئك " اسم إشارة للبعيد ، يدل على بُعدهم في الشَّر ، وطردهم مِن رحمة الله تعالى . والمعنى : أولئك الموصوفون بالصفات السَّيئة والخِصال القبيحة في عذاب النار مُحْضَرُون يوم القيامة ، لا يَغيبون ، ولا يَهْربون . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٩٣) : ((أي: هُم حاضرون العذاب أبدًا ، لا يُخفَّف عنهم)) اهـ .

والآيتان تتضمَّنان مُقارَنة بين حال المؤمنين السُّعداء ، وحال الكافرين الأشقياء .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أَم نَجعلُ الذينَ آمَنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ كالْمُفْسِدِينَ في الأرضِ أَم نَجعلُ الْمُتَّقِينَ كالفُجَّار ﴾ [ص : ٢٨] .

هل نجعل المؤمنين الصالحين المصلحين الذين أقَرُّوا بِوَحدانية الله، وصدَّقوا بِنُبُوَّة محمد ﷺ، وعملوا الطاعات ، وابتعدوا عن المعاصي كالكَفَرَة الفاسدين المفسِدين الذينَ يُشرِكون بالله تعالى ، ويُخالفون أوامره ، ويَعملون المعاصي والذنوب ؟ . أَم نَجعل المتَّقين الأبرار الذين أطاعوا اللهَ ، وابتعدوا عَن معصيته كالكَفَرَة الأشرار الذين يَغرقون في الذنوب والآثام، ويَتجاوزون حُدودَ الله،

ويَنتهكون حُرماته ؟ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٣): ((أي: لا نفعل ذلك ، ولا يستوون عند الله ، وإذا كان الأمر كذلك، فلا بُد من دار أُخرى يُثاب فيها هذا المطيع، ويُعاقَب فيها هذا الفاجر،وهذا الإرشاد يدل على العقول السليمة والفِطَر المستقيمة، على أنه لا بُد مِن مَعاد وجَزاء، فإنَّا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بِكَمَده، فلا بُد في حِكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يَظلم مِثقال ذَرَّة من إنصاف هذا من هذا، وإذا لَم يقع هذا في هذه الدار ، فَتَعَيَّنَ أن هناك دارًا أُخرى لهذا الجزاء والمواساة)) اهـ .

إن الحِكمة الإلهية العظيمة تقتضي أن لا يتساوى المؤمنون مع الكافرين ، ولا المصلحون مَعَ المفسدين. والاستفهام في الآية لنفْي التَّسوية بين المؤمنين والكافرين،واستحالة التعادل بين الفريقَيْن. وفي الآية دليل على بعث الناس من قبورهم ، وحشرهم للحساب ، ثُمَّ الجزاء العادل ، حيث يُجَازَى المحسِن بإحسانه ، والمسيء بإساءته . والآية تردُّ على الوثنيين مُنكري البَعْث ، الذينَ لا يُؤمنون باليوم الآخرة ولا بالحياة بعد الموت ، وبذلك يكونون قد جَعلوا المصلح والمفسِد في مرتبة واحدة ، ويَعودان إلى مصير واحد،وهذا مُنتهى الظلم والعَبث وضياع الحقوق . ولو لَم يكن هناك يَوم حساب، لكانَ المؤمن مثل الكافر، والمظلوم مِثل الظالم،وهذه سَفَاهة تتعارض معَ الحكمة.واللهُ مُنَزَّهٌ عن السَّفاهة والعَبث، فهو سُبحانَه الإله العادل الحكيم . لا يَظلم ، ولا يَعبث . والآيةُ تشتمل على وعد صادق، ووعيد رهيب. و ﴿ أَم ﴾ بمعنى همزة الإنكار . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ١٢٥):((قال مقاتل: قال كُفار قُرَيش للمؤمنين: إنَّا نُعطَى في الآخرة مِثْلَ ما تُعْطَوْنَ ، فَنَزلت هذه الآية. وقال ابن السائب : نزلت في الستة الذين تبارزوا يوم بدر ، علي رضي الله عنه، وحمزة رضي الله عنه ، وعُبَيدة بن الحارث رضي الله عنه ، وعُتبة وشَيبة والوليد بن عُتبة ، فذكر أُولئك بالفساد في الأرض لِعملهم فيها بالمعاصي ، وسَمَّى المؤمنين بالمتَّقين لاتقائهم الشِّرك . وحُكم الآية عام)) اهـ . إن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب،ولا يَجوز التَّخصيص بلا مُخصِّص. وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَفَمَن يُلْقَى في النارِ خَيْرٌ أَم مَن يَأتي آمِنًا يَوْمَ القِيامة ﴾[فُصِّلَت: ٤٠]. أفمن يُطرَح في عذاب جهنم الشديد خائفًا مَذعورًا ذليلاً، أفضل أَم مَن يكون في الجنة آمنًا مِن عذاب الله ؟. لا مُقارَنة بينهما ، ولا يَستويان عند الله تعالى ، وشَتَّان بين الثرى والثُّرَيَّا . والمقابَلة بين إلقاء الكافر في النار ، وإتيان المؤمن آمِنًا ، تدل على سُوء حال الكافر الذليل ، الذي يُطرَح في النار كأيِّ شَيء تافه مُهْمَل ، ويُلقَى فيها بكل خِزي وعار . وفي نفْس الوقت ، تدل على رِفعة مكانة المؤمن، وعَظَمَة قَدْره ، وسُمُوِّ مَنْزلته ، حيث يأتي

آمنًا عزيزًا كريمًا بكل ثقة . والآيةُ عامة وشاملة . والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . والاستفهام للتقرير ، والهدف منه بيان أن الكافر المكذِّب بآيات الله يُلقَى في النار مُجَلَّلاً بالخِزي والعار والذُّل والمهانة ، في حين أن المؤمن المصدِّق بآيات الله، يأتي آمنًا مُطمئنًّا عزيزًا كريمًا يوم القيامة، بلا خَوف ولا قلق.

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١١٤) : ((أفهذا الذي يُلقَى في النار خَير ، أَم الذي يأتي يوم القيامة آمنًا من عذاب الله ، لإيمانه بالله جَلَّ جَلالُه ؟ . هذا الكافر إنه إن آمنَ بآيات الله ، واتَّبعَ أمرَ الله ونَهْيَه ، أَمَّنه يوم القيامة مِمَّا حَذَّره مِنه، مِن عقابه إن ورد عليه يومئذ به كافرًا)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الذينَ اجْتَرَحُوا السَّيئاتِ أن نَجْعَلَهُم كالذينَ آمَنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُم وَمَمَاتُهُم سَاءَ ما يَحْكُمُون ﴾[الجاثية : ٢١] .

الاستفهام للإنكار . والاجتراحُ الاكتساب ، ومِنه الجوارح. هل يظنُّ الكفارُ الأشرارُ الذين جَحدوا آياتِ الله، وكذَّبوا رُسله ، ورَفضوا أوامر الله ، واكتسبوا المعاصي والآثام ، وغرقوا في الذنوب، أن نَجعلهم في الآخرة كالمؤمنين الأبرار، الذين أقَرُّوا بِوَحدانية الله، وصدَّقوا بآياته ورُسله، وأخلَصوا له العبادةَ والطاعةَ ﴿ سَوَاءً مَحْيَاهُم وَمَمَاتُهُم ﴾ نُساوي بينهم في المحيا والممات ؟.

لا يَستوون . ولا يُمكن المساواة بين المؤمنين والكافرين ، ولا معنى للمُقارَنة بين أهل الطاعة وأهل المعصية ، لا في الدنيا ولا في الآخرة. إن المؤمنين عاشوا مُخلِصين لله طائعين له. أمَّا الكافرون فقد عاشوا على الكفر والضلال والمعاصي والذنوب . المؤمن مؤمن حيًّا ومَيْتًا ، والكافر كافر حَيًّا ومَيْتًا ، فلا مُقارَنة بينهما ، ولا يَستويان ، ولا يَتعادلان ، وشَتَّان بينهما . ومَن عاشَ على شَيء ، ماتَ عليه ، ومَن ماتَ على شَيء ، بُعِث عليه .

وفي تفسير الجلالَيْن (١/ ٦٦٣): ((المعنى: أَحَسِبُوا أن نَجعلهم في الآخرة في خَير كالمؤمنين ، أي : في رَغَد مِن العَيش مُسَاوٍ لِعَيشهم في الدنيا، حيث قالوا للمؤمنين: لَئِن بُعِثْنا لَنُعْطَى مِن الخير مِثْلَ ما تُعْطَوْن)) اهـ .

إن المؤمنين عاشوا في عِز الطاعة وشرف العبادة في الدنيا . ومصيرهم في الآخرة هو نعيم الجنة الدائم بلا انقطاع ولا زوال . أمَّا الكافرون فقد عاشوا في ذُل الكُفر وخِزْي المعصية في الدنيا ، ومصيرهم في الآخرة هو عذاب النار الأبديُّ ، بلا انقطاع ولا خُروج . وشتَّان بين الفريقين.

لَن يُساويَ اللهُ بين الفريقَيْن . إن اللهَ حَكَمٌ عادل كريم . يُجازي المؤمن بإحسانه ، ويُدخله الجنة ، ويُجازي الكافر بإساءته ، ويُدخله النار .

﴿ سَاءَ ما يَحْكُمُون ﴾ . ساءَ حُكمهم الفاسد ، وبِئسَ مَا يَحْكُمون ويَقْضُون ، حيث ظَنُّوا لجهلهم وغرورهم أن اللهَ يُساوي بين الأبرار والفُجَّار ، وأنهم على قَدَم المساواة معَ المؤمنين .

وفي تفسير الجلالَيْن (١/ ٦٦٣):((قال تعالى على وَفْق إنكاره بالهمزة: ﴿ سَاءَ ما يَحْكُمُون ﴾ أي : ليس الأمر كذلك ، فَهُم في الآخرة في العذاب على خِلاف عَيْشهم في الدنيا، والمؤمنون في الآخرة في الثواب بعملهم الصالحات في الدنيا، مِن الصلاة والزكاة والصيام ، وغَير ذلك . و﴿ ما ﴾ مصدرية ، أي : بِئسَ حُكْمًا حُكمهم هذا)) اهـ .

وفي الحديث أن سُفيان الثَّوري تلا قَول الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذينَ اجْتَرَحُوا السَّيئاتِ أن نَجْعَلَهُم كالذينَ آمَنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُم وَمَمَاتُهُم سَاءَ ما يَحْكُمُون ﴾ . ثم قال : سَمعتُ الأعمش: يُحدِّث عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله_رضي اللهُ عنهما_ أن رسول الله ﷺ قال : ((يُبعَث كُلُّ عَبْدٍ على مَا مَاتَ عَلَيه)) [7].

الحديثُ يُشير إلى أنَّ العِبرة بالخواتيم . ومَن ماتَ على شَيء بُعث عَلَيه . فَمَن مات مُؤمنًا بُعِث مُؤمنًا في حال طَيِّبة جميلة ، ومَن مات كافرًا بُعِث كافرًا في حال سَيِّئة قبيحة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢١٠) : ((قال العلماء: معناه : يُبعَث على الحالة التي مات عَلَيها)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أفَمَن كَانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ واتَّبَعُوا أهْوَاءَهُم ﴾ [مُحَمَّد : ١٤] .

الهمزة للإنكار. هل مَن كان على حُجَّة وبُرهان ويقين مِن أمر دِينه ، والعِلم بِوَحدانية الله ، ووُجوب طاعته ، فهو يَعبده مُخْلِصًا له ، كَمَن حسَّن له الشَّيطانُ عَمَلَه القبيح فرآه جميلاً ، فهو يَعمل بِه باستمرار ؟ . واتَّبعوا ما دَعَتْهُم إليه أنفسهم مِن عبادة الأصنام والمعاصي بلا دليل .

لا يَستويان. وشَتَّان بينهما. لا يَستوي مَن كان على دليل وثبات ويقين مِن الوَحْي والنُّبوَّة ، ومَن خَدَعَه الشَّيطان وزيَّن له عبادةَ الأصنام،وحسَّن له المعاصي،والغرق في الشهوات والضَّلالات.

وقال القرطبي في تفسيره (١٦ / ٢٠٠) : ((﴿ واتَّبَعُوا أهْوَاءَهُم ﴾ .أي: ما اشْتَهَوْا هذا التَّزيين ، مِن جهة الله خَلْقًا . ويجوز أن يكون مِن الشيطان دُعاءً ووسوسة . ويَجوز أن يكون مِن الكافر ، أي : زَيَّنَ لنفْسه سُوءَ عمله ، وأصَر على الكفر)) اهـ .

---

(٧) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٩١) برقم (٣٦٨٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال المفسِّرون إن المقصود بِـ ﴿ كَانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ ﴾ هو النبيُّ ﷺ والمؤمنون . والمقصود بِـ ﴿ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أبو جهل وكفار قُرَيش . ولا وَجه لتخصيص الآية بلا مُخصِّص ، والاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب . لا سِيَّما أن المراد هو توضيح الفرق بين مَن يَعبد اللهَ وَحْدَه على عِلم وبصيرة ويقين ثابت،ومَن يَعبد الأصنامَ ويتَّبع شهوات نفْسه ، بلا دليل ولا بُرهان.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ لا يَسْتَوي أصحابُ النارِ وأصحابُ الْجَنَّةِ أصحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الفائزون ﴾ [الحشر : ٢٠] .

لا يتساوى يوم القيامة الكافرون الأشقياء الخالدون في عذاب جهنم الأبديِّ ، والمؤمنون السُّعداء الخالدون في نعيم الجنة الأبديِّ . لا يتساوى أهل النار وأهل الجنة في الشرف والفضل والمكانة. المؤمنون أصحاب الجنة هُم الفائزون برضا الله ، والنعيمِ الدائم والسعادة الأبدية في جنَّته. وهذا هو الشرف الرفيع ، والفَوز العظيم ، والمجد السَّامي ، فقد نَجَوْا مِن عذاب النار ، وحقَّقوا هدفهم ، وحصلوا على مطلوبهم ، وظَفروا بِمُرادهم .

وخَصَّ اللهُ أصحابَ الجنة بالذِّكر : ﴿ أصحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الفائزون ﴾ لبيان أن أصحاب الجنة وَحْدَهم هُم الفائزون ، وأن أصحاب النار هُم الخاسرون ، وليس لهم فَوز ولا نجاة . ولا يَستحقون شَرَفَ ذِكْرهم، أي إن وجودهم كعدمه ، وهُم مَنْسِيُّون مُهْمَلُون خاسرون هالكون في عذاب النار.

وقال النَّسفي في تفسيره (٤/ ٢٣٤): ((هذا تَنبيه للناس، وإيذان بأنهم لِفَرْط غَفْلتهم ، وقِلة فكرهم في العاقبة ، وتهالكهم على إيثار العاجلة ، واتِّباع الشَّهوات ، كأنهم لا يَعرفون الفرق بين الجنة والنار، والبَوْن (الفَرْق) العظيم بين أصحابهما، وأن الفَوز العظيم مع أصحاب الجنة، والعذاب الأليم مع أصحاب النار . فمِن حَقِّهم أن يعلموا ذلك ، ويُنبَّهوا عليه، كما تقول لِمَن يَعُقُّ أباه : هو أبوك . تَجعله بمنْزلة مَن لا يَعرفه، فَتُنَبِّهه بذلك على حق الأُبُوَّة ، الذي يقتضي البِر والتَّعطف . وقد استدلت الشافعية بهذه الآية على أن المسلم لا يُقتَل بالكافر ، وأن الكافر لا يملك مال المسلم بالاستيلاء)) اهـ. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أفَنَجْعَلُ المسلمينَ كالمجرمين ﴾[القَلَم : ٣٥] . الاستفهام للإنكار والتَّوبيخ . أفنساوي بين المسلم والكافر ، والمطيع والعاصي ؟. كَلاَّ ، لا يُمكن المساواة بينهما. إن اللهَ حَكَمٌ عادلٌ لا يُساوي بين المسلم والكافر . والمساواة بينهما ظُلم وعبث ، واللهُ مُنَزَّهٌ عن الظلم والعَبَث .

لقد اغترَّ الكفار في الحياة الدنيا بكثرة أموالهم وأولادهم، ورَغَد عَيْشهم ، في حِين أن المسلمين كانوا يُعانون من الفقر والحاجة . وكان الكفار يقولون : إذا كان هُناك آخرة ، فإنَّنا

سنكون أفضل حالاً مِن المسلمين . وقد قاسوا الغائب (الآخرة) على الشَّاهد (الدنيا) . وهؤلاء الكفار وثنيون لا يُؤمنون بالبعث ولا باليوم الآخر . واعتقدوا أن حالهم في الآخرة _ على فرض وجودها _ ، ستكون مِثل حالهم في الدنيا، حيث الرَّخاء والغِنى ورَغَد العَيش . وقد كذَّبهم اللهُ ، وفضحَ جَهْلَهم. وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٧٣) : ((﴿ أفَنَجْعَلُ المسلمينَ كالمجرمين ﴾ إنكار لِقَول الكَفَرة ، فإنهم كانوا يقولون : إن صَحَّ أنَّا نُبعَث كما يَزعم محمد ومَن معه ، لَم يَفضلونا، بل نكون أحسن حالاً منهم كما نحن عليه في الدنيا)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ١٩٥): ((يقول تعالى ذِكْرُه : أفنجعل أيها الناس في كرامتي ونِعمتي في الآخرة الذين خَضعوا لي بالطاعة وذَلُّوا لي بالعبودية وخشعوا لأمري ونَهْيي ، كالمجرمين الذين اكتسبوا المآثم وركبوا المعاصي وخالفوا أمري ونَهْيي ؟ . كَلاَّ ، ما الله بفاعل ذلك)) .

٥_ افتراؤهم على الله وتكذيبهم ومُجادلتهم بآيات الله :

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وإذا قِيلَ لهم تَعَالَوْا إلى ما أنزلَ اللهُ وإلى الرسولِ قالوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أوَلَوْ كان آباؤُهُم لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ولا يَهْتَدُون ﴾ [المائدة : ١٠٤] .

وإذا قِيل لهؤلاء الكافرين الضَّالين : هَلُمُّوا إلى حُكم الله في القُرآن وإلى حُكم رسوله ﷺ في قضية الحلال والحرام ، كي تُميِّزوا بين الحق والباطل ، وتَعرِفوا الحلال مِن الحرام ، وتتَّضح لكم معالم الهدى . قالوا عِنادًا واستكبارًا وتَعَنُّتًا : يَكفينا مَا وَجَدْنا عليه آباءنا مِن العقائد والأحكام والأفعال والسُّنن التي وضعوها لنا . والمعنى : يَكفينا دِين آبائنا ، فهُم قد شَرَعوا لنا الأحكام ، وسَنُّوا لنا الطرائق . ﴿ أوَلَوْ كان آباؤُهُم لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ولا يَهْتَدُون ﴾ . الهمزة للإنكار . وهذا توبيخٌ شديد لهم ، أيتَّبعون آباءهم الجهَّال الضَّالين ، وهُم لا يَعْلمون شيئًا عن الدِّين الحق ، ولا يَهتدون إلى طريق الصواب ، ولا يَعرِفون معالم الهدى والرشاد ؟ .

وهُنا ، تَبرز خطورة التقليد الأعمى ، لأنه يُعطِّل القُدرات العقلية ، ويُلغي المشاعر الإنسانية ، ويُحطِّم منهجية النقد البَنَّاء . والْمُقَلِّدُ بلا دليل هو أعمى بلا بصيرة ، سائرٌ إلى الهلاك والعذاب .

إن آباءهم جاهلون غارقون في الكفر والضلال ، لا يَعلمون الحقَّ ، ولا يَعرِفون طريقَ الهدى ، فكيفَ يتَّبعونهم في هذه الحالة ؟ . جاهل يتَّبع مَن هُو أجهل مِنه ، وأعمى يتَّبع أعمى .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٧٣): ((﴿ وإذا قِيلَ لهم تَعَالَوْا إلى ما أنزلَ اللهُ وإلى الرسولِ قالوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا ﴾ ، بيان لِقُصور عقولهم وانهماكهم في التقليد ، وأن لا

سند لهم سِواه. ﴿ أَوَلَوْ كان آباؤُهُم لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ولا يَهْتَدُون ﴾ . الواو للحال، والهمزة دخلت عليها لإنكار الفِعل على هذه الحال. أي : حَسْبُهم ما وَجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جَهَلة ضالين. والمعنى أن الاقتداء إنما يصحُّ بمن عُلِم أنه عالم مُهتدٍ وذلك لا يُعرَف إلا بالْحُجَّة فلا يكفي التقليد)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤٤٠): ((قَوله تعالى : ﴿ وإذا قِيلَ لهم ﴾ يعني: إذا قِيل لهؤلاء المشركين الذين حرَّموا على أنفسهم هذه الأنعام: ﴿ تَعَالَوْا إلى ما أنزلَ اللهُ ﴾ في القرآن مِن تحليل ما حرَّمتم على أنفسكم ﴿ وإلى الرسولِ ﴾ ، ﴿ قالوا حَسْبُنا ﴾ أي : يَكْفينا ﴿ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا ﴾ مِن الدِّين والمنهاج ﴿ أَوَلَوْ كان آباؤُهُم لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ مِن الدِّين ﴿ ولا يَهْتَدُون ﴾ له . أيتَّبعونهم في خطئهم ؟)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمَنْ أظلمُ مِمَّنِ افترى على اللهِ كَذِبًا أوْ كَذَّبَ بآياتِهِ إنَّهُ لا يُفْلِحُ الظالمون ﴾ [الأنعام : ٢١] .

الاستفهام إنكاري بمعنى النَّفْي . لا أحد أظلم مِمَّن تَقَوَّلَ على الله واختلقَ عليه الكذبَ ، في ادِّعاء وُجود شريك معه ، أو كَذَّبَ بآيات الله وحُجَجه ، وأنكرَ القُرآنَ والمعجزات . لقد جَمَعَ بين الكذب على الله بدون حُجَّة يستند إليها ، وبين التكذيب بآياته الثابتة بالْحُجَّة والبُرهان، وهذا مُنتهى الكفر والضلال والظلم . لقد ظَلَمَ هذا المفتري الكذَّابُ نَفْسَه أشدَّ الظلم ، ولا يوجد أظلم مِنه، ولا أكثر مِنه عدوانًا وسُوءًا. إنه لا يَنجح المفترون ولا المكذِّبون،ولا يَفوزون، ولا يُفلِحون ، ولا يُحقِّقون مُرادهم ، ولا يَنالون مَطلوبهم . ولَن يَسعَد مَن أنكرَ وَحدانية الله ، وكذَّب بآياته ورُسله. لقد ظَلَمَ نَفْسَه أشد الظلم بأن قادها إلى الهلاك الأبديِّ والعذاب الدائم . والمقصود بالظلم في الآية هو الشِّرك . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٩) : ((﴿ وَمَنْ أظلمُ مِمَّنِ افترى على اللهِ كَذِبًا ﴾ كَقَولهم : الملائكة بنات الله . وهؤلاء شُفعاؤنا عند الله ، ﴿ أوْ كَذَّبَ بآياتِهِ ﴾ ، كأن كذَّبوا بالقرآن والمعجزات ، وسَمَّوْهَا سِحْرًا ، وإنما ذَكَرَ ﴿ أوْ ﴾ ، وهُم قد جمعوا بين الأمرين تنبيهًا على أن كُلاً منهما وَحْدَه بالغ غاية الإفراط في الظلم على النَّفْس.﴿ إنَّهُ ﴾الضَّمير للشأن﴿ لا يُفْلِحُ الظالمون ﴾ فضلاً عمَّن لا أحد أظلم منه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ولا تقولوا لِمَا تَصِفُ ألْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هذا حَلالٌ وهذا حرامٌ لِتَفْتَرُوا على اللهِ الكَذِبَ إنَّ الذينَ يَفْتَرُونَ على اللهِ الكَذِبَ لا يُفْلِحُون ﴾[النَّحْل : ١١٦] .

الآيةُ تَذُمُّ من يُحلِّلون ويُحرِّمون دون دليل ولا مُستند شرعي ، فيخترعون الأحكامَ من بنات أفكارهم ، ويتَّبعون أهواءهم الذاتية ومصالحهم الشخصية دون الرجوع إلى أحكام الشريعة .

ويَدخل في هذا الذَّم كُل البِدَع والْمُسْتَحْدَثَات التي ليس لها دليل شرعي ، وتحليل الحرام ، وتحريم الحلال ، استنادًا إلى الأهواء الشخصية والشهوات الذاتية والأمزجة المتقلِّبة .

والخطابُ الإلهيُّ في الآية للمشركين : ولا تقولوا للذي تصف ألسنتكم الكذبَ فيه ، هذا حلال وهذا حرام، بلا دليل ولا حُجَّة ولا بُرهان، لتكذبوا على الله بنسبة التَّحليل أو التَّحريم إليه، وتقولوا إن الله أمرَنا بهذا . إن الذين يَختلقون الكذب على اللهِ لا يُحقِّقون مُرادهم، ولا يَظْفرون بمطلوبهم ، ولا يَنجحون في الدنيا ، ولا يَنْجُون مِن عذاب النار في الآخرة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٧٣) : ((الآية خطابٌ للكفار الذين حَرَّموا البَحائرَ والسوائبَ ، وأَحَلُّوا ما في بطون الأنعام وإن كان مَيْتة . فقَوله : ﴿ هذا حلال ﴾ إشارة إلى مَيْتة بطون الأنعام وكُل ما أَحَلُّوه،وقوله﴿ هذا حرام ﴾ إشارة إلى البحائر والسوائب وكل ما حَرَّموه)).

إن تحليلكم أيها المشركون وتحريمكم بلا دليل شَرْعي ، وهذا التلاعب في قضية الحلال والحرام ليس له معنى إلا الكذب . والمشركون لَم يَكتفوا بالتحليل والتحريم اتِّباعًا لأهوائهم ومصالحهم ، وإنما نَسبوا الأمرَ إلى الله تعالى ، وقالوا : إن الله أمرَنا بهذا . وهذا كَذِبٌ صريحٌ وافتراء على الله . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٤): ((وانتصاب ﴿ الكَذِبَ ﴾ بـِ ﴿ ولا تقولوا ﴾ ، و﴿ هذا حَلالٌ وهذا حرامٌ ﴾ بدل مِنه ، أو متعلق بِـ ﴿ تَصِفُ ﴾ على إرادة القَول ، أي : ولا تقولوا الكَذِبَ لِمَا تصفه ألسنتكم، فتقولوا: هذا حلال وهذا حرام ، أو مفعول ﴿ ولا تقولوا ﴾ ، و﴿ الكَذِبَ ﴾ مُنتصِب بِـ ﴿ تَصِفُ ﴾ ، و" ما " مصدرية . أي : ولا تقولوا : هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب. أي: لا تُحرِّموا ولا تُحلِّلوا بِمُجرَّد قَول تنطق به ألسنتكم، مِن غير دليل . ووَصْف ألسنتهم الكذب مُبالَغة ، فيُوصَف كلامهم بالكذب ، كأن حقيقة الكذب كانت مجهولة ، وألسنتكم تَصِفها ، وتُعرِّفها بكلامهم هذا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ يُجَادِلُونَ في آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلطانٍ أتاهُم إن في صُدورِهِم إلا كِبْرٌ ما هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ [غَافِر : ٥٦] .

إن الذين يُخاصمونك يا محمد في الآيات الإلهية التي جِئتَ بِها ، ويَرفضون الحقَّ الواضح ، بلا دليل ولا بُرهان ولا حُجَّة من الله ، ما في قلوبهم إلا تكبُّر عن الحق والهدى ، يَمنعهم مِن اتِّباع رسالتك ، والانقياد لشريعتك ، والتَّسليم بها . وهذا التَّكَبُّر يَدفعهم إلى تكذيبك ورَفض الوَحْي والنُّبُوَّة ، مِمَّا يدل على أن صُدورهم تَغلي بالحسد والحِقد والاستكبار والعِناد. والصَّدْرُ هو مَوضع القلب ، فعبَّر بِه عن القلب بسبب القُرب والجِوار .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٥٢):((قال ابن عباس: ما يَحملهم على تكذيبك ، إلا ما في صدورهم مِن الكِبْر والعَظَمَة ، ﴿ ما هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ . قال مجاهد : ما هُم ببالغي مُقتضى ذلك الكِبْر ، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ مُذِلُّهم . قال ابن قُتَيبة : إنْ في صدورهم إلا تكبُّر على محمد ﷺ ، وطمع في أن يَغلبوه ، وما هُم ببالغي ذلك)) اهـ .

والآيةُ نزلت في مُشركي قُرَيش . ومعناها العام : ما يَدفعهم إلى تكذيبك يا محمد ، هو ما في قلوبهم مِن التَّكَبُّر عليك والاستعلاء على شريعتك . فهُم يَرَوْنَ أنفسهم أعظم مِن أن يتَّبعوك ، وأعلى مكانةً مِن السَّير على خُطاك . وما هُم ببالغي ذلك الكِبْر ، لأن الله مُخزيهم ومُذِلُّهم ، وما هُم بواصلين إلى بُغيتهم ومُرادهم مِن هدم دَعوتك ، وإلغاء شَريعتك ، والقضاء على الإسلام .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٩٨): ((﴿ إنَّ الذينَ يُجَادِلُونَ في آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلطانٍ أتاهُم ﴾ عام في كُل مُجَادِل مُبْطِل، وإن نزل في مُشركي مكة واليهود ، حين قالوا: لَسْتَ صاحبنا، بل هو المسيح بن داود ــ يَقصدون المسيح الدجَّال ــ ، يَبلغ سُلطانه البَر والبحر ، وتسير معه الأنهار ، ﴿ إن في صُدورِهِم إلا كِبْرٌ ﴾ ، إلا تكبُّر عن الحق وتعظُّم عن التفكر والتعلم، أو إرادة الرِّياسة، أو إن النُّبُوَّة والْمُلْك لا يكونان إلا لهم ﴿ ما هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ ببالغي دَفْع الآيات)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يُلْحِدُونَ في آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَينا ﴾[فُصِّلَت : ٤٠] .

إن الذين يُكذِّبون بآيات الله، ويَطعنون فيها، ويَتلاعبون بها، ويُحرِّفونها، ويَجحدونها، لا يَخفى أمرُهم على الله ، وهو سُبحانَه عالِم بِهم ، ومُحيط بأقوالهم وأفعالهم ، وسَوْفَ يُحاسبهم أشد الحساب ، ويُجازيهم على سُوء أعمالهم ويُعاقبهم ، عِندما يَجمعهم في يوم القيامة الرهيب . وهذا وعيد شديد ، وتهديد أكيد . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٦١) : ((وفي المراد بالإلحاد هاهُنا خمسة أقوال:أحدها أنه وَضْع الكلام على غَير مَوضعه، رواه العَوفي عن ابن عباس. والثاني أنه الْمُكَاء والصَّفير عِند تلاوة القرآن ، قاله مجاهد . والثالث أنه التكذيب بالآيات، قاله قتادة . والرابع أنه الْمُعَانَدَة ، قاله السُّدي . والخامس أنه الْمَيْل عن الإيمان بالآيات ، قاله مقاتل . قَوله تعالى : ﴿ لا يَخْفَوْنَ عَلَينا ﴾ ، هذا وعيد بالجزاء)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وإذا عَلِمَ مِن آياتِنا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولئكَ لهم عذابٌ مُهِين ﴾[الجاثية: ٩].

وإذا سَمِعَ هذا الكافرُ الضَّال مِن آيات الله شيئًا ، أو وَصَلَ إليه شيء مِن آيات القُرآن التي أنزلها اللهُ على محمد ﷺ، كفر بها ، وسخر منها ، واستهزأ بها ، أولئك الضَّالون المستهزئون بالقُرآن العظيم ، لهم عذاب شديد مُؤلِم ، يُخزيهم ويُهينهم ويُذِلُّهم ويَفضحهم، بسبب استكبارهم

عن الإيمان في الدنيا ، ورفضهم لآيات الله ، وإعراضهم عن طاعته . وكما أنهم أهانوا القُرآنَ ، فإن عذاب النار الذي يَنتظرهم في الآخرة ، سَوْفَ يُهينهم . والجزاء مِن جِنس العمل . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٦٩) : ((﴿ وإذا عَلِمَ مِن آياتِنا شَيْئًا ﴾ وإذا بَلَغه شيء مِن آياتنا، وَعَلِمَ أنه مِنها ﴿ اتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ لذلك،مِن غَير أن يرى فيها ما يُناسب الْهُزْء والضمير لِ ﴿ آياتِنا ﴾، وفائدته الإشعار بأنه إذا سَمِعَ كلامًا ، وعَلِمَ أنه مِن الآيات بادرَ إلى الاستهزاء بالآيات كُلِّها،ولَم يَقتصر على ما سَمِعَه أو لشيء،لأنه بمعنى الآية.﴿ أُولئكَ لهم عذابٌ مُهِين ﴾)).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٧/٣٥٦):((قَوله تعالى: ﴿ اتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ أي: سَخِرَ مِنها، وذلك كفِعل أبي جهل حين نزلت : ﴿ إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأثيمِ (٤٤) ﴾ [الدُّخَان] . فدعا بِتَمْر وزُبْد ، وقال : تَزَقَّمُوا ، فما يَعِدكم محمد إلا هذا)) اهـ .

لقد استهانَ أبو جهل _ لعنه اللهُ _ بآيات القرآن ، وسَخِرَ مِنها ، واستهزأ بها ، وأحضرَ التَّمْر والزُّبْد ، وقال : تَزَقَّمُوا . أي : كُلُوا مِنهما ، فهذا هو وَعْد محمد لكم . وقد دَفَعَ أبو جهل ثمنَ كُفره وضلاله غاليًا جِدًّا ، حيث ماتَ على الكُفر مُجَلَّلاً بالخِزي والعار ، وهو خالد في عذاب جهنم في الآخرة ، وسَوْفَ يَعرِف مَذاق شجرة الزَّقُّوم ، لأنها طعامه في نار جهنم الأبدية .

٦_ إعراضهم عن آيات الله :

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وما تأتِيهِم مِن آيةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِم إلا كانوا عَنْهَا مُعْرِضِين ﴾[الأنعام : ٤] .

وما تجيء مُشركي قُرَيش مُعجِزة مِن المعجزات أو دليل على وَحدانية الله وصِحَّةِ نُبُوَّة محمدﷺ، أو آية مِن القُرآن، إلا أعرَضوا عنها ، وأهملوها، ولَم يتفكروا فيها ، ولَم يَستفيدوا مِنها ، ولَم يستدلوا بها على وُجوب توحيد الله وعبادته وطاعته ، وذلك لقساوة قلوبهم ، وعدم خَوفهم من العذاب ، وعجزهم عن التفكر في مآلات الأمور وعواقبها .

والآيةُ تذمُّ الذين أعرَضوا عن آيات الله وحُجَجه وبراهينه، ولَم يُعمِلوا عقولهم في التفكر فيها، والتأمُّل في معانيها وأبعادها . وهنا تَبرز أهمية استخدام العقل وعدم تعطيل القُدرات الفكرية ، لأن العقل مَناط التَّكليف . وإذا غابَ العقلُ أو غُيِّب ، فلا معنى للحِكَم والمواعظ والآيات والْحُجَج .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٣٦٠) : ((والإعراض : ترك النظر في الآيات التي يجب أن يَستدلوا بها على تَوحيد الله عز وجل مِن خَلْق السماوات والأرض ، وما بينهما ، وأنه يرجع إلى قديم حيٍّ غنيٍّ عن جميع الأشياء ، قادر لا يُعجِزه شيء ، عالِم لا يخفى عليه شيء مِن المعجِزات التي أقامها لِنَبِيِّه ﷺ ، ليُسْتَدَل بِها على صِدقه في جميع ما أتى به)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ انظُر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُون ﴾ [الأنعام : ٤٦] .

انظُر كيف نُبيِّن العلامات الدَّالة على وَحدانية الله وصِحَّة نُبُوَّة محمد ﷺ ، ونُوضِّح الأمثالَ والحِكَمَ والعِبَرَ، ونُخوِّفهم بالعذاب، ثم هُم بعد هذا البيان والتَّوضيح والتَّفسير، يُعرِضون عن الحق، ويُكذِّبون بالآيات، ويَرفضون الهدى ، ولا يَعتبرون ، ولا يُؤمنون .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٠٩) : ((﴿ انظُر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ ﴾ . نُكرِّرها تارةً مِن جهة المقدِّمات العقلية، وتارةً من جهة الترغيب والترهيب، وتارةً بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين ، ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُون ﴾ يُعرِضون عنها . و﴿ ثُمَّ ﴾ لاستبعاد الإعراض بعد تصريف الآيات وظُهورها)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِنْ آيةٍ في السماواتِ والأرضِ يَمُرُّونَ عَلَيها وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُون ﴾ [يُوسُف : ١٠٥] .

كَم مِن الْحُجَج والبراهين والآيات والعلامات الدَّالة على وجود الله ووَحدانيته وأُلوهيته ، في السماوات والأرض ، كالشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والأشجار ، وغَير ذلك مِن العجائب والمصنوعات والآيات . يُشاهدونها في كُل وقت وحِين ، ليلاً ونهارًا ، ويَمُرُّون بها ، ولا يفكرون في عَظَمَتها، ولا يتأمَّلون في إعجازها، ولا يَعتبرون بإبداعها ونظامها الْمُحكَم، ولا يَهتدون إلى الحق ، ولا يؤمنون . والآية تذمُّ الذين يُعرِضون عن آيات الله ، ولا يتفكرون فيها ، ولا يتدبَّرونها ، ولا يتأمَّلون في المخلوقات الباهرة التي تدل على وجود الخالق وَوَحدانيته وعَظَمَته وقُدرته وإبداعه . والمخلوقُ يدل على الخالق ، وإتقانُ الصُّنع يدل على عَظَمَة الصانع .

وإذا رَفض الكفارُ نُبُوَّةَ محمد ﷺ، وجَحدوا رسالته، فهذا الأمر ليس غريبًا ولا عجيبًا، لأنهم أعرَضوا عن آيات الله الباهرة الماثلة أمام أعينهم. فكيف سَيُصدِّقون بِنُبُوَّة محمد ﷺ ويؤمنون به ؟.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٨٣) : ((والمعنى : كَم مِن آية تَدُلُّهم على توحيد الله كائنة في السماوات ، مِن كَوْنها منصوبة بغير عَمَد ، مُزيَّنة بالكواكب النَيِّرة السَّيارة والثوابت. وفي الأرض مِن جِبالها وقِفارها وبِحارها ونباتها وحيواناتها ، تَدُلُّهم على توحيد الله سُبحانَه ، وأنه الخالق لذلك، الرَّزاق له، الْمُحيي والْمُميت ، ولكن أكثر الناس يَمُرُّون على هذه الآيات غَير مُتأمِّلين لها، ولا مُفكِّرين فيها ، ولا مُلتفتين إلى ما تدل عليه مِن وجود خالقها ، وأنه المنفرد بالألوهية ، معَ كَوْنهم مُشاهدين لها . ﴿ يَمُرُّونَ عَلَيها وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُون ﴾ . وإن نظروا إليها بأعيانهم ، فقد أعرَضوا عمَّا هو الثمرة للنظر بالحدَقة ، وهي التفكر والاعتبار والاستدلال)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن أعرضَ عَن ذِكْري فإنَّ لهُ مَعيشةً ضَنكًا ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامةِ أعمى ﴾ [طه : ١٢٤] .

ومَن أعرضَ عن دِين الله وقُرآنه وأمْرِه وذِكْره، ورَفَضَ شريعته وأحكامه، ولَم يستجب لآياته، وجَحَدَ رسالاتِ الأنبياء ، ولَم يتَّعظ بالمواعظ ، ولَم يتأثر بالحِكَم والعِبَر ، فإن له في الدنيا معيشةً قاسية شديدة ضَيِّقة ، مليئة بالكوارث والأزمات والمصائب ، وإن تنعَّمَ في الظاهر ، وبَدَتْ حياته جميلةً وخالية من المشكلات .

وكُل حَرام فهو ضَنْك ، وإن كان مُوَسَّعًا على العبد . كما أن شُؤم الكفر والضَّلال سَيُدمِّر حياة المرء ، ويَجعلها جَحيمًا لا يُطاق . ونحشره في الآخرة أعمى البصر .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٢٧) : ((﴿ وَمَن أعرضَ عَن ذِكْري ﴾ ، أي: خالفَ أمري وما أنزلتُه على رُسولي . أعرضَ عنه وتناساه ، وأخذ مِن غَيره هُداه ، ﴿ فإنَّ لهُ مَعيشةً ضَنكًا ﴾ ، أي : ضَنكًا في الدنيا ، فلا طُمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضَيِّق حَرَج لضلاله ، وإن تنعَّمَ ظاهره ، ولبسَ ما شاء ، وأكلَ ما شاء ، وسكنَ حَيث شاء ، فإن قلبه ما لَم يَخلُص إلى اليقين والهدى ، فهو في قلق وحَيرة وشك ، فلا يزال في رِيبة يتردَّد ، فهذا مِن ضَنك المعيشة)) اهـ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٧٥): ((﴿ وَمَن أعرضَ عَن ذِكْري ﴾ عن الهدى الذاكر لي، والداعي إلى عبادتي ، ﴿ فإنَّ لهُ مَعيشةً ضَنكًا ﴾ ضَيِّقًا ... . وذلك لأن مجامع هِمَّته ومطامح نظره تكون إلى أعراض الدنيا ، مُتهالكًا على ازديادها ، خائفًا على انتقاصها ، بِخِلاف المؤمن الطالب للآخرة، معَ أنه تعالى قد يُضيِّق بِشُؤم الكفر، ويُوسِّع ببركة الإيمان))اهـ . وعن أبي سعيد الْخُدْرِيِّ ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ مَعيشةً ضَنكًا ﴾ ، قال : ((عذاب القبر)) [8].

وروى ابن حِبَّان في صحيحه (٧/ ٣٨٠) أن النبيَّ قال في وصف حال الكافر : ((... ، ثُمَّ يَضِيق عليه قَبْرُه ، حتى تَختلف فيه أضلاعُه ، فتلك المعيشة الضَّنكة التي قال الله : ﴿ فإنَّ لهُ مَعيشةً ضَنكًا ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامةِ أعمى ﴾)) .

وهذا يدل على أن عذاب القبر يشمل الروح والجسد معًا، لأن الأضلاع في الجسد، واختلاف الأضلاع مِن صفات الأجساد ، أي إن الأضلاع تدخل بعضُها في بعض مِن شِدَّة ضِيق القبر ، وتزول عن الهيئة المستوية التي كانت عليها ، بسبب شِدَّة الضَّغطة وقوة التحامها .

---

(٨) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤١٣) برقم (٣٤٣٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٣٠ و٣٣١) : ((قَوله تعالى: ﴿ وَمَن أعرضَ عَن ذِكْري ﴾ . قال عطاء : عن مَوْعظتي . وقال ابن السائب : عن القرآن ، ولَم يُؤمِن به ولَم يَتَّبعه . قَوله تعالى : ﴿ فإنَّ لهُ مَعيشةً ضَنكًا ﴾ . قال أبو عبيدة : معناه معيشة ضَيِّقة ، والضَّنْك يُوصَف به الأنثى والذكر بغير هاء ، وكُل عَيش أو مكان أو مَنْزل ضيِّق فهو ضَنْك . وقال الزَّجاج: الضَّنْك أصله في اللغة الضِّيق والشِّدة . وللمُفسِّرين في المراد بهذه المعيشة خمسة أقوال : أحدها أنها عذاب القبر ... . ومِمَّن ذهب الى أنه عذاب القبر ، ابن مسعود وأبو سعيد الخدري والسُّدي . والثاني أنه ضَغطة القبر حتى تَختلف أضلاعُه فيه، رواه عطاء عن ابن عباس.والثالث شِدَّة عَيْشه في النار، رواه الضَّحاك عن ابن عباس، وبه قال الحسن وقتادة وابن زيد. قال ابن السائب : وتلك المعيشة مِن الضَّريع والزَّقُّوم . والرابع أن المعيشة الضَّنْك كَسْب الحرام. روى الضَّحاك عن ابن عباس قال : المعيشة الضَّنْك أن تضيق عليه أبواب الخير ، فلا يهتدي لشيء منها، وله معيشة حرام يركض فيها. قال الضَّحاك: فهذه المعيشة هي الكَسْب الخبيث، وبه قال عِكرمة . والخامس أن المعيشة الضَّنْك المال الذي لا يتَّقي اللهَ صاحبُه فيه،رواه العَوفي عن ابن عباس. فخرج في مكان المعيشة ثلاثة أقوال : أحدها القبر ، والثاني الدنيا ، والثالث جهنم . وفي قَوله تعالى : ﴿ ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامةِ أعمى ﴾ ... . في هذا العَمَى للمُفسِّرين قَولان:أحدهما أعمى البصر.روى أبو صالح عن ابن عباس قال: إذا أُخرِج مِن القبر خَرج بصيرًا، فإذا سِيق الى المحشَر عَمِيَ. والثاني أعمى عن الْحُجَّة، قاله مجاهد وأبو صالح. قال الزَّجاج: معناه: فلا حُجَّة له يَهتدي بها، لأنه ليس للناس على الله حُجَّة بعد الرُّسُل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ اقتربَ للناسِ حِسَابُهُم وَهُمْ في غَفْلَةٍ مُعْرِضُون ﴾[الأنبياء : ١] .

قَرُبَ وقتُ حساب الناس على أعمالهم ، والمقصود يوم القيامة ، وَدَنا مَوعد مُجازاتهم ، وهُم غارقون في المعاصي والذنوب ، ومُستغرقون في الشهوات والملذات . غافلون عن يوم الحساب العظيم (يوم القيامة) . لا يقومون بالعبادات، ولا يَفعلون الطاعات، ولا يَعملون للآخرة ، ولا يستعدون لها بالإيمان بالله وعمل الصالحات.وتَنكيرُ ﴿ غَفْلَةٍ ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم . والحسابُ قريب لأنه آتٍ، وكُل ما هو آتٍ قريب. وإنما البعيد ما انتهى وانقرضَ. أو : إن الحساب قريب ، لكثرة ما مضى مِن الزمان، وقِلَّة ما بَقِيَ.وعلى العاقل أن يستعد للموت قبل أن يُباغته، وعندئذ لا تُوجد أيَّة فُرصة للتَّعويض ، ومَن ماتَ فقد قامت قِيامته ، وطُوِيت صَفحته ، وانتهى امتحانه الدُّنيوي، وبقي عليه انتظار النتيجة في الآخرة ، فإمَّا الجنة أو النار. والدنيا دار عمل ولا حساب ،

والآخرة دار حساب ولا عمل . أي إن الدنيا مزرعة الآخرة . ولا أحد يَرجع مِن الموت كَي يَعمل صَالِحًا . وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣٢) : ((وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن ابن هانئ أبي نُوَاس الشاعر أنه قال : أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول :

الناسُ في غَفَلاتِهِم وَرَحَى الْمَنِيَّةِ تَطْحَنُ

فقيل له : مِن أين أخذ هذا ؟ ، قال : مِن قَول الله تعالى : ﴿ اقتربَ للناسِ حِسَابُهُم وَهُمْ في غَفْلَةٍ مُعْرِضُون ﴾)) اهـ . واللهُ يُنبِّه عباده على اقتراب يوم القيامة، الذي يُحَاسَب فيه الناس ، ويُجازَى المحسِن بإحسانه، والْمُسيء بإساءته، فإمَّا إلى جنة أبدية أو إلى نار أبدية. والناسُ تائهون في الآثام والخطايا، وضائعون في الآمال الكاذبة والأهواء الباطلة . غافلون عمَّا ينتظرهم ، ولا يُجهِّزون أنفسهم للموت ، ولا يَستعدون لِمَا بعده . كُل تفكيرهم مَحصور في حُطام الدنيا الزائل ، ولا يَعملون للآخرة الباقية . وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٣٦): ((﴿ اقتربَ ﴾ ، أي : قَرُبَ الوقت الذي يُحَاسَبون فيه على أعمالهم ، ﴿ للناسِ ﴾ . قال ابن عباس : المراد بالناس هاهُنا المشركون ... . وقيل : الناس عُموم ، وإن كان الْمُشار إليه في ذلك الوقت كُفار قُرَيش. يدل على ذلك ما بعد مِن الآيات . ومَن عَلِمَ اقترابَ الساعة قَصُرَ أملُه ، وطابت نَفْسُه بالتَّوبة ، ولَم يَركَن إلى الدنيا ، فكأن ما كان لَم يكن إذا ذهب ، وكُل آتٍ قريب ، والموت لا مَحالة آتٍ ، وموت كل إنسان قيام ساعته ، والقيامة أيضًا قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان ، فما بقي من الدنيا أقل مِمَّا مضى . وقال الضَّحاك : معنى ﴿ اقتربَ للناسِ حِسَابُهُم ﴾ ، أي : عذابُهم . يعني : أهل مكة، لأنهم استبطأوا ما وُعِدوا بِه مِن العذاب تكذيبًا. وكان قتلهم يوم بَدْر. النحاس : ولا يجوز في الكلام: اقترب حسابهم للناس، لئلا يتقدم مُضمَر على مُظهَر، لا يجوز أن يُنوَى به التأخير... . ﴿ وَهُمْ في غَفْلَةٍ مُعْرِضُون ﴾ بالدنيا عن الآخرة . الثاني : عن التأهُّب للحساب وعمَّا جاء به محمد ﷺ)) اهـ. وقالَ اللهُ تعالى:﴿ والذينَ كَفروا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُون ﴾[الأحقاف : ٣] .

هؤلاء الكفار الذين أنكروا وَحدانيةَ الله ، وجَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ ، مُهْمِلُون لآيات الله ، رَافضون للوَحْي والنُّبُوَّة، لاهون عن الموت وأهوال يوم القيامة ، مُعرِضون عمَّا خُوِّفوا بِه في القُرآن مِن البعث والحساب والعذاب . غَير مؤمنين بِه ، ولا يتفكرون فيه ، ولا يستعدون له . وقد قامت الْحُجَّة عليهم ، وانقطعت أعذارهم . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٩) : ((أي : عمَّا أُنذِروا وخُوِّفوا به في القرآن، مِن البعث والحساب والجزاء ، مُعرِضون عنه ، غَير مؤمنين به)) اهـ .

٧_ الجاحدون من الكفار :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ خَسِرُوا أنفُسَهُم فَهُم لا يُؤمِنُون ﴾[الأنعام : ١٢] .

هؤلاء الكافرون أهلكوا أنفسهم بالشِّرك ورفض التَّوحيد ، وأضاعوها بكفرهم وضلالهم ، وقَضَوا على مصيرهم بمعاصيهم وذنوبهم وآثامهم في الدنيا ، وخسروا أنفسهم بتعريضها للعذاب الأبديِّ . فهُم لا يُؤمنون ، لِمَا سَبَق فيهم مِن القضاء .

إنهم لا يُؤمنون بِوَحدانية الله ، ولا يُصدِّقون بالوَحْي والنُّبوَّة ، ولا يُقِرُّون بيوم الحساب . وسوفَ يَدفعون ثمنَ كفرهم في يوم القيامة ، وليس لهم إلا عذاب جهنم الشديد .

إن جُحودهم لآيات الله ، وتكذيبهم بِنُبُوَّة محمد ﷺ ، وعدم التفكر في مظاهر قُدرة الله ، وغرقهم في التقليد الأعمى ، وانهماكهم في الشهوات والذنوب والمعاصي ، قادهم إلى الإصرار على الكفر والتمسُّك بِه ، ورَفض الإيمان جُملةً وتفصيلاً .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ١٥٦): ((يعني تعالى ذِكْرُه بِقَوله : ﴿ الذينَ خَسِرُوا أنفُسَهُم ﴾ العادلين به الأوثان والأصنام. يقول تعالى ذِكْرُه : لَيَجْمَعَنَّ اللهُ ﴿ الذينَ خَسِرُوا أنفُسَهُم ﴾ . يقول: الذين أهلَكوا أنفسهم ، وغَبَنُوها بادعائهم لله النِّد والعديل ، فأوبقوها باستيجابهم سخط الله وأليم عقابه في الْمَعاد . وأصل الْخَسَار الغَبْن . يُقال مِنه : خَسِرَ الرَّجلُ في البيع ، إذا غُبِن... . وقوله : ﴿ فَهُم لا يُؤمِنُون ﴾ . يقول : ﴿ فَهُم ﴾ لإهلاكهم أنفسهم وغَبْنهم إيَّاها حظها ﴿ لا يُؤمِنُون ﴾ ، أي : لا يُوحِّدون اللهَ ، ولا يُصدِّقون بِوَعده ووعيده ، ولا يُقِرُّون بِنُبُوَّة محمد ﷺ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنا وَرَضُوا بالحياةِ الدُّنيا واطْمَأنُّوا بِها والذينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غَافِلُون ﴾ [يُونُس : ٧] .

إن الكافرين الذين يُنكِرون اليومَ الآخر ، ويَجحدون البَعثَ ، ولا يُصدِّقون بالمعاد ، ولا يَخافون العذاب ، ولا يَخْشَوْن العِقاب، ولا يَرجون الثواب. والرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع. ورَضوا بالحياة الدنيا عِوَضًا مِن الآخرة، وعملوا لجمع حُطام الدنيا الفاني ، وانحصرَ تفكيرهم في شهواتهم الدنيئة وملذاتهم الدُّنيوية، معَ إنكار وجود الآخرة ، وفرحوا بالدنيا ، وارتاحوا فيها ، وسكنوا إلَيها، وكانت هي كُل شيء بالنسبة إليهم ، واعتبروها البداية والنهاية ، ولا شَيء بعدها ، وزيَّن لهم الشَّيطان المعاصي والذنوب والآثام حتى غرقوا فيها ، والذين هُم عن آيات الله وحُجَجه وبراهينه ، ودلائلِ وَحدانيته ، ومظاهر قُدرته ، لاهون مُعرِضون . لا يَعتبرون ، ولا يَتفكرون .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦١٧) : ((شَرَعَ اللهُ سُبحانَه في شرح أحوال مَن لا يُؤمن بالمعاد ، ومَن يؤمن به ، وقدَّم الطائفة التي لَم تؤمن ، لأن الكلام في هذه السُّورة مع الكفار الذين يُعجَبون مِمَّا لا عَجَب فيه ، ويُهمِلون النظر والتفكر فيما لا ينبغي إهماله ، مِمَّا هو مُشَاهَد لكل حَي طَوال حياته، فيتسبَّب عن إهمال النظر والتفكر الصادق : عدم الإيمان بالمعاد . ومعنى الرجاء هنا الخوف... . وقِيل: يرجون: يَطمعون. فالمعنى على الأول: لا يَخافون عقابًا.وعلى الثاني: لا يَطمعون في ثواب ، إذا لَم يكن المراد باللقاء حقيقته، فإن كان المراد به حقيقته كان المعنى : لا يَخافون رُؤيتنا،أو لا يَطْمعون في رُؤيتنا.وقيل: المراد بالرجاء هنا التوقع فيدخل تحته الخوف والطمع فيكون المعنى ﴿ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنا ﴾ : لا يتوقعون لقاءنا، فهم لا يخافونه ولا يطمعون فيه، ﴿ وَرَضُوا بالحياةِ الدُّنيا ﴾ . أي: رَضُوا بها عِوَضًا عن الآخرة فعملوا لها، ﴿ واطْمَأنُّوا بِها ﴾ أي : سكنت أنفسُهم إليها وفرحوا بها، ﴿ والذينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غَافِلُون ﴾ لا يَعتبرون بها، ولا يتفكرون فيها)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أُولئكَ مأواهُمُ النارُ بِما كانوا يَكْسِبُون ﴾[يُونُس : ٨] .

إن هؤلاء الكافرين الذين هذه صِفتهم (عدم رجاء لقاء الله، والرضا بالحياة الدنيا، والاطمئنان بها ، والغفلة عن آيات الله) ، مصيرهم إلى نار جهنم الشديدة في الآخرة ، ومَثواهم ومُقامهم في عذاب النار الأبديِّ ، بما كانوا يَكسبون في الدنيا مِن الكفر والضلال والتَّكذيب والجحود ، ويَعملون مِن المعاصي والموبقات ، ويَرتكبون مِن الذنوب والآثام . وهذه هي حال مُنكِري البعث، الذين يَجحدون اليوم الآخر ، ولا يُصدِّقون بالحساب والثواب والعِقاب والجنة والنار .

وقال ابن كثير في تفسيره (٦/ ٥٣٣) : ((يقول تعالى مُخْبِرًا عن حَال الأشقياء الذين كَفروا بلقاء الله يوم القيامة ، ولا يَرجون في لقائه شيئًا ، ورضوا بهذه الحياة الدنيا ، واطمأنَّت إليها نفوسُهم . قال الحسن : واللهِ ما زيَّنوها ولا رفعوها حتى رَضُوا بها . وهُم غافلون عن آيات الله الكَونية ، فلا يتفكرون فيها ، والشرعية ، فلا يأتمرون بها ، فإن مأواهم يوم مَعادهم النار، جزاءً على ما كانوا يكسبون في دنياهم مِن الآثام والخطايا والإجرام،مع ما هُم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ لا يُؤمِنُونَ بالآخرةِ زَيَّنَّا لهم أعمالَهُم فَهُم يَعْمَهُون ﴾[النَّمْل: ٤].

إن الكافرين الذي يُنكِرون البَعْثَ ، ولا يُصدِّقون بيوم القيامة ، ولا يُؤمنون بالثواب والعِقاب بعد الموت، زيَّنا لهم أعمالهم السَّيئة حتى رَأَوْهَا جَميلةً، وحَبَّبْنا إليهم المعاصي والآثام حتى

اشْتَهَوْهَا واستمتعوا بِها ، وسَهَّلْنا ذلك عليهم ، فصاروا يَرَوْنَ الذنوبَ رائعةً وحسنةً . فهُم ضائعون في ضَلالهم ، تائهون في أعمالهم القبيحة ، يتردَّدون في أفعالهم الخبيثة مُتحيِّرين ، لا يُميِّزون بين الجمال والقُبح، والجيِّد والسَّيئ ، ولا يُدرِكون المنافع والمضار ، ولا يَهتدون إلى الحق ، ولا يَعرِفون الهدى. وهذه عقوبة إلهية لهم على تكذيبهم بالآخرة ، وجزاء عادل على كفرهم وضلالهم واستكبارهم . والفعل المضارع ﴿ يَعْمَهُون ﴾ يدل على التَّجَدُّد والاستمرارية ، أي إنهم يتحيَّرون في ضلال أعمالهم ، ويتردَّدون في متاهة شهواتهم ، عاجزين عن معرفة نتائج أعمالهم ، وغَير قادرين على إدراك ما يترتَّب عليها مِن منفعة أو مضرَّة. وهذا يدل على غياب عقولهم ، وانتكاس فِطرتهم .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٤/ ١٧٩): ((والمراد مِن التَّزيين هو أن يخلق في قلبه العِلم بما فيها من المنافع واللذات، ولا يخلق في قلبه العِلم بما فيها من المضار والآفات)).

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ١٨٠): ((﴿ إنَّ الذينَ لا يُؤمِنُونَ بالآخرةِ ﴾ وهُم الكفار، أي : لا يُصدِّقون بالبعث ، ﴿ زَيَّنَّا لهم أعمالَهُم ﴾ . قِيل : المراد زيَّن اللهُ لهم أعمالَهم السَّيئة حتى رَأَوْها حسنةً . وقِيل : المراد أن الله زيَّن لهم الأعمال الحسنة ، وذَكَر لهم ما فيها مِن خَيْرَي الدنيا والآخرة ، فلم يَقْبلوا ذلك . قال الزَّجاج : معنى الآية : أنَّا جعلنا جَزاءهم على كفرهم أن زَيَّنا لهم ما هُم فيه ، ﴿ فَهُم يَعْمَهُون ﴾ ، أي : يتردَّدون فيها مُتحيِّرين على الاستمرار ، لا يهتدون إلى طريقة ، ولا يقفون على حقيقة . وقِيل : معنى ﴿ يَعْمَهُون ﴾ يَتَمَادَوْن. وقال قتادة : يَلْعبون)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿أُولئكَ الذينَ لهم سُوءُ العذابِ وَهُم في الآخرةِ هُمُ الأخْسَرُون﴾[النَّمْل: ٥].

هؤلاء الذين لا يُؤمنون بالآخرة ، ولا يُصدِّقون بالبعث ، لهم أشد العذاب في الدنيا ، بالقتل والأسر والتَّشريد ، وهُم يوم القيامة أسوأ حالاً ، وأشد خُسرانًا ، وأعظم خَيبةً . وخسارتهم في الآخرة لا يُمكن تعويضها ، لأن مصيرهم إلى عذاب النار الدائم ، وهُم خالدون فيه ، بلا انقطاع ولا نهاية . ولا يُوجد أسوأ مِن هذه الحال .

لقد خَسِروا أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، وصاروا إلى عذاب النار الأبديِّ، وهذه أعظم خسارة على الإطلاق ، لأن الآخرة باقية ودائمة بعكس الدنيا الفانية الزائلة ، وكُل خسارة في الدنيا يُمكن تعويضها . وحتى لَو لَم يتم تعويضها ، فإن الخسارة في الدنيا زائلة بزوال الدنيا ، أما خسارة الآخرة فباقية ببقاء الآخرة . وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم وَضلالهم ، وهُم خالدون في النار .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٤٩٥): ((وقَوله : ﴿ أُولئكَ الذينَ لهم سُوءُ العذابِ ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه : هؤلاء الذين لا يُؤمنون بالآخرة، لهم سُوء العذاب في الدنيا، وهُم الذين قُتِلوا

بِبَدْر مِن مُشركي قُرَيش ، ﴿ وَهُم في الآخرةِ هُمُ الأخْسَرُون ﴾ . يقول : وهُم يوم القيامة هُم الأوضعون تجارةً ، والأوْكَسوها باشترائهم الضلالة بالهدى)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى:﴿والذينَ يَسْعَوْنَ في آياتِنا مُعَاجِزِينَ أُولئكَ في العذابِ مُحْضَرُون﴾[سَبَأ : ٣٨].

والذينَ يَسْعَوْنَ جاهدين للطعن في آيات الله ، وإبطالِ حُجَجه وبراهينه ودلائل وَحدانيته ومظاهر قُدرته ، ويَبذُلون الغالي والنفيس في مُحاربة الإسلام والمسلمين ، بكل عِناد واستكبار ، ويَحسَبون أنهم يُعجِزون اللهَ ويَغلبونه ، ويُفلِتون مِن عِقابه وعذابه . أُولئك مَجْزِيُّون بأعمالهم القبيحة سُوء الجزاء ، وسَوْفَ يَدفعون ثمن كُفرهم وضلالهم في عذاب جهنم الدائم بلا انقطاع .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٤٧٠) : ((﴿ والذينَ يَسْعَوْنَ في آياتِنا ﴾ بالرد لها ، والطعن فيها حال كَوْنهم ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ مُسَابِقِين لنا، زاعمين أنهم يَفُوتوننا بأنفسهم، أو مُعاندين لنا بكفرهم ﴿ أُولئكَ في العذابِ مُحْضَرُون ﴾ ، أي : في عذاب جهنم تُحضِرهم الزَّبانية إليها ، لا يجدون عنها مَحِيصًا (مَهْرَبًا))) اهـ .

٨ــ تَعَنُّتُهم واستعجالهم العذاب :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالَ الذينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنا اللهُ أوْ تأتِينا آيةٌ ﴾[البقرة : ١١٨] .

هذه الآيةُ تُشير إلى عِناد الكافرين وتَعَنُّتهم وإصرارهم على الكفر والضلال ، وعدم بحثهم عن الحق والدليل . فالكفرُ بالنسبة إليهم موقف مُسبَق مبدئي ثابت ، سواءٌ ظَهر لهم الحق أَم لَم يَظهر. وقال الكافرون(الجهَّال الْمُعانِدون مِن المشركين أو مِن أهلِ الكتاب) : هَلاَّ يُكلِّمنا اللهُ مُبَاشَرَةً بدون واسطة ، ويُخبِرنا بِصِحَّة نُبُوَّتك يا محمد ، فنعلم أنك نبيٌّ صادق . وهذا استكبار وعِناد وتعنُّت. لقد أرادوا أن يُكلِّمهم اللهُ مُوَاجَهَةً، بدون رسول ولا مَلَك . وهذا مُنتهى الجهل والغرور والعِناد . وهُم يُضيِّعون وقتهم في التَّسلية باقتراح الآيات وطلبِ المعجزات .

أو تأتينا علامة وحُجَّة وبُرهان على صِحَّة نُبُوَّتك يا محمد وصِدْقك . وهذا جُحود لِنُبُوَّة محمد ﷺ وإنكار لها . وقد قدَّم اللهُ لهم الآيات والْحُجَج والبراهين ، فرفضوها ، وصاروا يَخترعون الأعذار، ويَقترحون الآيات عنادًا واستكبارًا ، وليس طلبًا للحق أو سَعْيًا وراء الهدى ومعرفة الصواب . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٣٧) : ((فِيهم ثلاثة أقوال : أحدها أنهم اليهود ، قاله ابن عباس . والثاني النصارى ، قاله مجاهد . والثالث مُشركو العرب ، قاله قتادة والسُّدي عن أشياخه . و﴿ لَوْلا ﴾ بمعنى هَلاَّ)) اهـ .

وقد نفى اللهُ عنهم العِلمَ ، لأنهم مُعَانِدُون ، اختاروا الضلال على الهدى ، ولَم يَعْملوا بالعِلم ، ولَم ينتفعوا بِه ، ولَم يَستفيدوا مِنه ، فصارَ وجود عقولهم كعدمه . ليس لَدَيهم عقول ولا عِلم .

وقال أبو السعود في تفسيره (١/ ١٥١) : ((ووصفهم بعدم العِلم ، لعدم عِلمهم بالتَّوحيد والنُّبُـوَّة كما ينبغي ، أو لعدم عَمَلهم بموجب عِلْمهم ، أو لأن ما يُحكَى عنهم لا يَصْدر عمَّن له شائبة عِلم أصلاً)) اهـ . وفي العُجاب في بيان الأسباب لابن حجر (١/ ٣٦٨): ((أخرج الطبري من طريق محمد ابن إسحاق بسنده المتكرر عن ابن عباس قال : قال رافع بن حُرَيملة _ أحد زعماء اليهود _ لرسول الله : إن كُنتَ رسولاً مِن عند الله كما تقول ، فقل لله فَلْيُكَلِّمْنَا حتى نسمع كلامه، فأنزلَ اللهُ تعالى في ذلك مِن قَوله : ﴿ وقالَ الذينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنا اللهُ أوْ تأتِينا آيةٌ ﴾ الآية كُلها . وأخرج مِن طريق ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال : هُم النصارى ... . ومن طريق سعيد عن قتادة قال: هُم كفار العرب. ومِن طريق أسباط عن السُّدي ومن طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس جميعًا مِثله.ورجَّح الطبري قول مجاهد،والراجح من حيث السند قول ابن عباس رضي الله عنهما)) اهـ .

إن هؤلاء الكافرين الضَّالين الغارقين في الاستكبار والجهل ، طَلبوا أن يُكلِّمهم اللهُ كما يُكلِّم الملائكة، ويُخبِرهم بِصِحَّة نُبُوَّة محمد، أو تأتيَهم حُجَّة على صِدْقه، وهُم يَقترحون الآيات ويَطلبون المعجِزات سُخريةً وعِنادًا واستكبارًا ، وليس بحثًا عن الحق والصواب ، أو حِرْصًا على التأكُّد مِن صِحَّة نُبُـوَّة محمد ﷺ . لقد كانوا يَعْلمون أن محمدًا ﷺ نبيٌّ صادق ، وهُم يَعْلَمون كُل تفاصيل حياته مُنذ ولادته ، فهو مَعروفٌ لَدَيهم ، وعائلته أشهر مِن نار على عَلَم . ولكن الكُفر عِناد .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يَسألُكَ أهلُ الكِتابِ أن تُنَـزِّلَ عَلَيهم كِتابًا مِنَ السماءِ فَقَدْ سَألوا مُوسى أكبرَ مِن ذلكَ فقالوا أرِنا اللهَ جَهْرَةً فأخَذَتْهُمُ الصاعقةُ بِظُلْمِهِم ﴾[النِّساء : ١٥٣] .

هذه الآيةُ تدل على تعنُّت اليهود وعِنادهم واستكبارهم وطُغيانهم ورفضهم للحق .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٤١) : ((قَوله تعالى : ﴿ يَسألُكَ أهلُ الكِتابِ ﴾ ، في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أنهم سألوه أن يُنَـزِّل كتابًا عليهم خاصة،هذا قول الحسن وقَتادة .والثاني أن اليهود والنصارى أَتَوْا إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : لا نُبايعك حتى تأتِيَنا بكتاب من عند الله إلى فُلان أنك رسول الله ، وإلى فلان بكتاب أنك رسول الله ، فَنَزلت هذه الآية ، هذا قول ابن جُرَيج . والثالث أن اليهود سألوا النبيَّ ﷺ أن يُنَزِّل عليهم كتابًا من السماء مكتوبًا ، كما نزلت التوراة على موسى ، هذا قول القُرَظي والسُّدي . وفي المراد بأهل الكتاب قَولان: أحدهما

اليهود والنصارى ، والثاني اليهود . وفي المراد بالكتاب الْمُنَزَّل من السماء قَولان : أحدهما كتاب مكتوب غَير القرآن ، والثاني كتاب بتصديقه في رسالته)) اهـ . سَألَ اليهودُ النبيَّ محمدًا ﷺ أن يأتيَهم بكتابٍ سماويٍّ جُملةً واحدة ، كما أتى موسى ﷺ بالتَّوراة جُملةً واحدة . وسؤالهم ليس نابعًا من الحرص على الحق أو التأكُّد مِن صِدْق محمد ﷺ ، بَل هو نابع مِن العِناد والاستكبار ، ومحاولة تَعجيز النبيِّ ﷺ باقتراح الآيات وطلب المعجِزات .

واللهُ يُخفِّف عن النبيِّ ﷺ ، ويُسلِّيه . وإذا استعظمتَ هذا السؤال يا محمد ، وأنكَرته ، فهناك سؤال أعظم مِنه وأشد كُفْرًا وضلالاً ، وأكثر فظاعةً وسُوءًا . فقد سَألَ اليهودُ موسى ﷺ أن يُرِيَهم اللهَ عِيَانًا (مُوَاجَهَةً ومُقَابَلَةً) . وقد ذَكَرَ اللهُ حالَ موسى ﷺ مَع اليهود ، وصبره عليهم، ومُعاناته الشديدة في دَعوتهم ، كي يَتَأسَّى النبيُّ محمد ﷺ بالرُّسل السابقين، ويزداد قُوَّةً وتَحَمُّلاً وإصرارًا ، وتَرتفع مَعنوياته، ولا يَحزن ، ولا يَشعر بالضِّيق والحرَج ، ويزداد ثِقَةً وصُمودًا في وجه التحديات.

والجدير بالذِّكر أن طلب رؤية الله عِيانًا قد صدرت عن آبائهم وأسلافهم ، ومعَ هذا ، فقد أُسْنِدت إليهم ، لأنهم كانوا مُقتدين بهم ، وسائرين على خُطاهم ، ومُعتنقين لطريقتهم . إن اليهود لهم تاريخ راسخ في الكفر والضلال والعناد، واقتراحهم أن تُنَزِّل عليهم كتابًا من السماء يا محمد ليس أول ضلالاتهم، ولا بداية حماقاتهم وجهالاتهم. فلا تَعبأ بهم، ولا تهتم بعنادهم ، ولا تُبالِ بسؤالهم ، فعادتهم العناد والتعنُّت واقتراح الآيات ومُحاولة تَعجيز الرُّسل. وواصِلْ دَعوتك واثقًا باللهِ ، بلا حُزن ولا قلق ولا ضِيق ولا حَرَج . ولكَ في الرُّسل أُسوة حسنة وقُدوة عظيمة .

وكان عقابهم وعذابهم أن جاءتهم نار من السماء، فأهلكتهم بسبب ظُلمهم لأنفسهم باختيار الكفر على الإيمان ، وإيثار المعصية على الطاعة ، واقتراح المعجِزات حَسَب أهوائهم ، والتَّحَكُّم على الأنبياء ، والعِناد والتَّعَنُّت والتَّكَبُّر على الحق . وهذه هي النتيجة العادلة لعنادهم واستكبارهم وغُرورهم وقَسوة قلوبهم .

واللهُ تعالى لا يُرَى في الدنيا . أمَّا رُؤية الله في الآخرة فثابتة عن النبيِّ ﷺ بالخبر المتواتر ، وهي ثابتة شَرْعًا ، وجائزة عقلاً ، بلا تحديد ولا تَكييف ولا تحيُّز .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٨٠٤): ((﴿ يَسأَلُكَ أهلُ الكِتابِ ﴾ هُم اليهود، سألوه ﷺ أن يرقى إلى السماء وهُم يَرَوْنَه فَيُنَزِّل عليهم كتابًا مكتوبًا فِيما يدَّعيه ، يدل على صِدقه ، دَفعةً واحدة ، كما أتى موسى بالتوراة ، تَعَنُّتًا منهم . أبعدهم اللهُ . فأخبره اللهُ عز وجل بأنهم قد سألوا موسى سؤالاً أكبر من هذا السؤال ، ﴿ فقالوا أرِنا اللهَ جَهْرَةً ﴾ ، أي : عِيَانًا . وجهرة نعت لمصدر

محذوف : أي رُؤية جهرة ، وقَوله : ﴿ فَقَدْ سَألوا ﴾ جواب شرط مُقدَّر : أي إن استكبرتَ هذا السؤال مِنهم لك ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك . قَوله : ﴿ فأخَذَتْهُمُ الصاعقةُ ﴾ هي النار التي نزلت عليهم من السماء فأهلكتهم . والباء في قَوله : ﴿ بِظُلْمِهِم ﴾ للسَّببية: أي بسبب ظُلمهم في سُؤالهم الباطل ، لامتناع الرؤية عِيَانًا في هذه الحالة . وذلك لا يستلزم امتناعها يوم القيامة ، فقد جاءت بذلك الأحاديث المتواترة . ومَن استدل بهذه الآية على امتناع الرؤية يوم القيامة فقد غلط غلطًا بَيِّنًا،ثم لَم يكتفوا بهذا السؤال الباطل الذي نشأ منهم بسبب ظُلمهم بعدما رَأَوا المعجزات ، بل ضَمُّوا إليه ما هو أقبح مِنه ، وهو عبادة العِجْل)) اهـ . وقال النَّسفي في تفسيره (١/ ٢٥٨ و٢٥٩) : ((وَلَمَّا قال فِنحاص (اليهودي) وأصحابه للنبيِّ ﷺ : إن كُنتَ نَبِيًّا صادقًا ، فَأتِنَا بكتاب من السماء جُملةً ، كما أتى به موسى عليه السلام ، نزل : ﴿ يَسألُكَ أهلُ الكِتابِ أن تُنَزِّلَ عَلَيهم كِتابًا مِنَ السماءِ ﴾ ، أي : جُمْلةً كما نزلت التَّوراة جُملةً ، وإنما اقترحوا ذلك على سبيل التَّعَنُّت . وقال الحسن: ولو سألوه مُسترشدين لأعطاهم ، لأن إنزال القرآن جُملة مُمكن . ﴿ فَقَدْ سَألوا مُوسى أكبرَ مِن ذلكَ ﴾ ، هذا جواب شَرْط مُقدَّر ، معناه : إن استكبرتَ ما سألوه مِنك ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، وإنما أسندَ السؤالَ إليهم وقد وُجِد مِن آبائهم في أيام موسى _ عليه السلام _ وهُم النُّقباء السبعون ، لأنهم كانوا على مذهبهم ، وراضين بسؤالهم . ﴿ فقالوا أرِنا اللهَ جَهْرَةً ﴾ عِيَانًا ، أي : أَرِنَا نَرَهُ جَهْرَةً ، ﴿ فأخَذَتْهُمُ الصاعقةُ ﴾ العذاب الهائل ، أو النار المحرقة ، ﴿ بِظُلْمِهِم ﴾ على أنفسهم بسؤال شيء في غَير موضعه ، أو بالتحكم على نَبِيِّهم في الآيات ، وتَعَنُّتهم في سؤال الرؤية ، لا بسؤال الرؤية ، لأنها مُمكنة كما نزول القرآن جُملةً . ولو كان ذلك بسبب سؤال الرؤية لكان موسى بذلك أحق ، فإنه قال : ﴿ رَبِّ أرِنِي أنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، وما أخذته الصاعقة ، بل أطمعه وقيَّده بالممكن ، ولا يعلق بالممكن إلا ما هو مُمكن الثبوت)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذْ قالوا اللهُمَّ إن كانَ هذا هُوَ الحقَّ مِنْ عِندِكَ فأمْطِرْ عَلَينا حِجارةً مِنَ السماءِ أوِ ائتِنا بعذابٍ أليم ﴾[الأنفال : ٣٢] [(9)].

---

(٩) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٤٨ و٣٤٩) : ((اختلفوا فِيمَن نزلت على ثلاثة أقوال : أحدها أنها نزلت في النَّضْر بن الحارث ، رواه جماعة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جُبَير ومجاهد وعطاء والسُّدي . والثاني أنها نزلت في أبي جهل ، فهو القائل لهذا ، قاله أنس بن مالك وهو مُخَرَّج في الصحيحين.والثالث أنها نزلت في قُرَيش،قالوا هذا ثم ندموا...وفي المشار إليه بِقَوله:﴿ إن كانَ هذا ﴾ =

قال الكافرون سُخريةً واستهزاءً ، أو عِنادًا واستكبارًا ، أو لِشُبهة سيطرت على قلوبهم : اللهُمَّ إن كان هذا القُرآن حَقًّا مُنْزَلاً مِن عِندك ، فأنزِلْ عَلَينا حجارةً مِن السماء كما أنزلتها على قوم لُوط، عقوبةً لنا على إنكاره وجُحوده ، أو أهْلِكْنا بعذاب شديد مُؤلِم .

وهذه مُبالغةً في التَّهَكُّم والسُّخرية والجحود والإنكار،واستبعاد تام لِكَوْن القُرآن كلام الله الذي أنزله على محمدﷺ وإظهار لليقين الكامل والثقة الأكيدة والجزم الكُلِّي بأن القُرآن باطل ، وليس كلام الله تعالى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٠٢): ((هذا مِن كثرة جَهْلهم وشِدَّة تكذيبهم وعِنادهم وعُتُوِّهم، وهذا مِمَّا عِيبوا به ، وكان الأَوْلَى لهم أن يقولوا : اللهُمَّ إن كان هذا هو الحق مِن عندك، فاهْدِنا له، ووَفِّقْنا لاتِّباعه،ولكن استفتحوا على أنفسهم،واستعجلوا العذاب وتقديم العقوبة)) اهـ.

وهذا يدل على جهلهم وعنادهم وضلالهم وسَفَههم ، وعدم قُدرتهم على وضع الأمور في نِصابها الصحيح . لقد أعمى بصائرَهم الكُفْرُ والحسدُ والحِقدُ والاستهزاءُ والعِنادُ ، فلم يَعودوا قادرين على التَّمييز ، ولا معرفة الصواب ، ولا اختيار الألفاظ الصحيحة . والعاقلُ يَطلب مِن الله الهداية والتَّوفيق ، ولا يَدعو على نفْسه وأهله وماله وولده بالهلاك والعذاب . لكن الكُفر عِناد .

وعن أنس بن مالك ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قال أبو جهل : اللهُمَّ إن كانَ هذا هُوَ الحقَّ مِن عِندِكَ ، فأمْطِرْ عَلَينا حِجارةً مِنَ السماءِ ، أوِ ائتِنا بعذابٍ أليم. فَنَزلت : ﴿ وما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم وأنتَ فِيهِم وما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُم وهُم يَستغفرون ﴾ ... [(10)].

لقد قالَ أبو جهل مقولته الشنيعة سُخريةً واستهزاء ، ومعنى كلامه : اللهُمَّ إن كان القُرآن حقًّا مِن عِندك ، فأنزِلْ عَلَينا حِجارةً من السماء عُقوبةً لنا على كُفرنا بِه ، أو أهْلِكْنا بعذاب مُؤلم .

=ثلاثة أقوال : أحدها أنه القرآن، والثاني كُل ما يَقوله رسول الله ﷺ من الأمر بالتَّوحيد وغَيْره. والثالث أنه إكرام محمد ﷺ بالنُّبوَّة مِن بين قُرَيش)) اهـ . ((وعن معاوية أنه قال لِرَجل مِن سبأ: ما أجهلَ قَوْمَك حِينَ مَلَّكوا عليهم امرأة،قال: أجهل مِن قَومي قَوْمُك،قالوا لرسول اللهﷺحِين دعاهم إلى الحق : "إن كانَ هذا هُوَ الحقَّ مِن عِندِكَ فأمْطِرْ عَلَينا حِجارةً"،ولَم يقولوا:إن كان هذا هو الحق فاهْدِنا له)) [تفسير الكشَّاف للزمخشري (١/ ٤٥٧)، وانظر تفسير النسفي (٢/ ٦٣) ، والبيان والتبيين للجاحظ (١/ ٥٩٢) ، والمستطرَف للأبشيهي(١/١٣٤)] .

(١٠) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٧٠٥) برقم (٤٣٧٢)،ومسلم (٤/ ٢١٥٤)برقم (٢٧٩٦) .

إنه يَدعو على نفْسِه بالعذاب والهلاك جَهلاً مِنهُ وسَفَهًا وسُخريةً واستهزاءً ، وهو يُريد إظهار اليقين التام على كَوْن القُرآن باطلاً، وأن المشركين على حَق. استعجلَ العذابَ بِنَفْسِه ، وأرادَ أن يُدمِّر نَفْسَه بنفْسه، وهذه هي فلسفة المشركين الباطلة . ولو كان أبو جهل خاصَّةً والمشركون عامَّةً أصحاب عُقول لقالوا : اللهمَّ إن كانَ هذا هُوَ الحقَّ مِن عِندِكَ فاهْدِنا له ، أوْ وَفِّقْنا للإيمان بِه .

واللهُ يُمْهِل ولا يُهمِل ، لا تَستفزُّه معصية العُصاة ، ولا يُثيره كُفر الكافرين . لا تَنفعه الطاعةُ ، ولا تَضُرُّه المعصية . وقد بَيَّنَ اللهُ عِلَّةَ عدم تَعذيبهم ، إذْ إنَّ فِيهم أمانَيْن : الأمان الأول _ وُجود النبيِّ ﷺ فِيهم . والأمان الثاني : الاستغفار . وإذا زالَ هذان الأمانان ، فإنَّ العذابَ نازلٌ بِهم . وهذا تَخويفٌ لهم ، وتهديد شديد .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ أتاكُم عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهارًا ماذا يَستعجلُ مِنْهُ المجرمون﴾[يُونُس: ٥٠].

فَضَحَ اللهُ جَهْلَ المشركين الذين يَستعجلون العذابَ ، ويَطلبون العقوبة سَفَهًا وسُخريةً وعِنَادًا.

قُل يا محمد لِمُشركي قَومك : أرأيتُم إن أتاكم عذاب الله لَيْلاً (وَقت نَومكم وراحتكم وسَكِينتكم) أو نهارًا (وقت اشتغالكم بالكسب وطلب المعاش) . ماذا يَستعجل مِن العذاب الكافرون، وهُو نازلٌ بهم ويُعانون مِن شِدَّته ولا يَقْدِرون على دَفْعه؟.والاستفهام للتَّهويل والتعظيم، أي: ما أعظمَ ما يَستعجلون مِن العذاب !. كما أن الاستفهام للإنكار المتضمِّن للنَّهْي . والمعنى : إن العذاب مُؤلِم وشديد ، والقلوب تخاف مِنه ، والنُّفوس تَرفضه، فلماذا تستعجلون العذاب وتَطلبونه وتَتَمَنَّوْنَ وقوعه ؟ . المفروض أن تبتعدوا عن العذاب، وتتجنَّبوا أسبابَه ، ولا يوجد عاقل يُحِب تدميرَ نفْسه، ويتمنَّى تعذيبها. و﴿ المجرمون ﴾ وُضِع مَوضع الضمير، لتأكيد الإنكار والتَّشديد عليه ، والتَّسجيل عليهم بالإجرام . والمجرمُ يَعرِف جرائمه ومَعاصيه وذُنوبه ، والمفروض أن يَهْرُب مِن العقوبة والعَذاب ، ويُحاول تجنُّبه بكل الوسائل ، ولا يَطلبه ولا يتمنَّاه ولا يَستعجله .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٨): ((قَوله تعالى: ﴿ إِنْ أتاكُم عَذَابُهُ بَيَاتًا ﴾ . قال الزَّجاج : البَيَاتُ كُل ما كان بِلَيْل ، وقَوله : ﴿ ماذا ﴾ في مَوضع رَفْع مِن جهتين ، إحداهما : أن يكون " ذا " بمعنى " الذي " ، المعنى : ما الذي يَستعجل منه المجرمون ؟ . ويجوز أن يكون ﴿ ماذا ﴾ اسْمًا واحدًا ، فيكون المعنى : أيُّ شيء يَستعجل مِنه المجرمون ؟ ، والهاء في ﴿ مِنْهُ ﴾ تعود على العذاب... . وذكر بعض المفسِّرين أن المراد بالمجرمين المشركون، وكانوا يقولون : نُكذِّب بالعذاب ونستعجله ، ثُمَّ إذا وقع العذاب آمَنَّا به)) اهـ .

وقال النسفي في تفسيره (٢/ ١٣١و١٣٢) : ((﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ أتاكُم عَذَابُهُ ﴾ الذي تستعجلونه ﴿ بَيَاتًا ﴾ ، نُصِب على الظَّرْف ، أي : وقت بَيَات ، وهو الليل ، وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون ﴿ أَوْ نَهارًا ﴾ وأنتم مُشتغلون بطلب المعاش والكسب.﴿ ماذا يَستعجلُ مِنْهُ المجرمون ﴾ أي : مِن العذاب . والمعنى : أن العذاب كُله مكروه مُوجِب للنُّفور ، فأيُّ شيء تستعجلون منه وليس شيء منه يُوجِب الاستعجال ؟ . والاستفهام في ﴿ ماذا ﴾ يتعلق بِـ ﴿ أَرَأَيْتُم ﴾ ، لأن المعنى: أَخْبِرُوني ﴿ ماذا يَستعجلُ مِنْهُ المجرمون﴾ ، وجواب الشَّرط مَحذوف، وهو: تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه . ولَم يَقُل : ماذا يستعجلون منه ؟ ، لأنه أُرِيدت الدَّلالة على مُوجِب ترك الاستعجال، وهو الإجرام. أو ﴿ ماذا يَستعجلُ مِنْهُ المجرمون﴾ جواب الشرط ، نَحْو : إن أَتَيْتُكَ ماذا تُطْعِمني ؟ ، ثُمَّ تتعلق الجملة بِـ ﴿ أَرَأَيْتُم ﴾)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَثُمَّ إذا ما وَقَعَ آمنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتم بِهِ تستعجلون ﴾[يُونُس : ٥١] .

إذا نَزَلَ بِكم العذابُ ووَقَع عليكم، صدَّقتم بِوَحدانية الله وآمنتم بِه في وقت اليأس والقُنوط ، وبعد فَوات الأوان ، وقد كُنتم بِه تَستعجلون سُخريةً واستهزاءً وعِنادًا وتكذيبًا ؟ .

إذا أتاكم عذابُ الله ، آمنتم بالله بعد وقوع العذاب ؟ . لا فائدة مِن إيمانكم في تلك الحالة ، ولا يَنفعكم ، ولا تَستفيدون مِنه شيئًا . وإيمانكم غَير مَقبول . وإذا حَلَّ بهم العذاب ، انتقلوا إلى عذاب النار في الآخرة . ولا توجد فُرصة للتَّعويض ، لأن عذاب الآخرة دائم وأبديٌّ .

والآيةُ تحمل معاني التَّوبيخ والتَّقريع وبث الحسرة في نفوس الكافرين ، ودَفْعهم إلى النَّدم ، يوم لا يَنفع النَّدم . والقرارُ الصحيح (الإيمان) في الوقت الخطأ (بعد فوات الأوان) ، هو قرار خاطئ ، لا يُعْتَدُّ بِه ، ولا قيمة له .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٥٦٦) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : أهنالك إذا وَقَعَ عذاب الله بكم أيها المشركون ﴿ آمنتُم بِهِ ﴾ ، يقول : صَدَّقْتُم به في حال لا ينفعكم فيها التصديق ، وقِيل لكم حِينئذ : ﴿ آلآنَ ﴾ تُصدِّقون بِه ، ﴿ وَقَدْ كُنتم ﴾ قبل الآن ﴿ بِهِ تستعجلون ﴾ وأنتم بِنُزوله مُكذِّبون ؟ . فذوقوا الآن ما كُنتم بِه تُكذِّبون . ومعنى قَوله : ﴿ أَثُمَّ ﴾ في هذا الموضع : أهنالك ، وليست" ثُمَّ" هذه هاهُنا التي تأتي بمعنى العطف))اهـ. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٥٣): ((ودخول الهمزة الاستفهامية في : ﴿ أَثُمَّ إذا ما وَقَعَ آمنتُم بِهِ ﴾ على " ثُمَّ " كدخولها على الواو والفاء ، وهي لإنكار إيمانهم حيث لا ينفع الإيمان ، وذلك بعد نزول العذاب ، وهو يتضمَّن معنى التَّهويل عليهم، وتفظيع ما فعلوه في غَير وَقته ، معَ تركهم له في وقته الذي يحصل

به النفع والدفع. وهذه الجملة داخلة تحت القَول المأمور به، وجِيء بكلمة " ثُمَّ " التي للتراخي دَلالةً على الاستبعاد، وجِيء بِـ﴿ إذا ﴾ معَ زيادة ﴿ ما ﴾ للتأكيد ، دَلالة على تحقق وقوع الإيمان مِنهم في غَير وَقته ، ليكون في ذلك زيادة استجهال لهم . والمعنى : أبَعْد ما وقع عذاب الله عليكم وحَلَّ بكم سخطه وانتقامه، آمنتم حين لا ينفعكم هذا الإيمان شيئًا ، ولا يدفع عنكم ضُرًّا . وقِيل : إن هذه الجملة ليست داخلة تحت القول المأمور به ، وأنها من قول الملائكة استهزاءً بِهم وإزراءً عليهم . والأول أَوْلَى ... . قَوله : ﴿ آلآنَ وَقَدْ كُنتم بِهِ تستعجلون ﴾ . قيل : هو استئناف بتقدير القَول غَير داخل تحت القول الذي أمر اللهُ رسولَه ﷺ أن يقوله لهم . أي قِيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب : آلآنَ آمنتُم بِه ، ﴿ وَقَدْ كُنتم بِهِ تستعجلون ﴾ . أي : بالعذاب ، تكذيبًا مِنكم واستهزاءً ، لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والاستهزاء. ويكون المقصود بأمره ﷺ أن يقول لهم هذا القَول التَّوبيخ لهم والاستهزاء بهم والإزراء عليهم، وجُملة : ﴿ وَقَدْ كُنتم بِهِ تستعجلون ﴾ في محل نصب على الحال)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ويَستعجلونَكَ بالسَّيئةِ قَبْلَ الحسَنةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ﴾[الرَّعْد: ٦].

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ : يَستعجلك مُشركو قَومك الذين جَحدوا وَحدانيةَ الله وأنكَروا نُبُوَّتَكَ ، بالبلاء والعقوبة والشر ، قبل الرخاء والعافية والخير . والاستعجالُ هو طلب تَعجيل الأمر قبل أوانه . وقد كان مُشركو مكة يَطلبون الشَّر والعقوبة بدلاً مِن الخير والعافية ، سُخريةً وعِنادًا. لقد طَلبوا العذابَ واستعجلوه سُخريةً واستهزاءً وعِنادًا ، وهذا يدل على ضلالهم وجَهلهم وسفاهتهم وإنكارهم وتكذيبهم وقَسوة قلوبهم وإصرارهم على الكفر . ولا يُوجد عاقل يتمنَّى العذابَ ، أو يَطلبه ، أو يَسعى إليه . وقد مضت عقوبة أمثالهم من الكافرين المكذِّبين ، الذينَ رَفضوا أوامرَ الله تعالى ، وعَصَوْا رُسله الكرام ، فَنَزل بهم أشد العذاب ، ووَقَعَت عليهم العقوبة الشديدة،وصاروا أثَرًا إثْر عَيْن،وعِبرةً لِمَن يَعتبر،وعِظَةً لِمَن يتَّعظ.فما لهم لا يَعْتبرون ولا يتَّعظون؟.

يجب عليهم أن يَعْتبروا ويتَّعظوا ، لئلا يُكرِّروا خطأ الأمم المكذِّبة مِن قَبلهم ، فَيُلاقوا نَفْسَ مصيرهم المأساويِّ،ويَنْزِل بهم العذاب الْمُهْلِك. والعاقلُ مَن اتَّعظَ بِغَيْره ، والجاهل مَن اتَّعظَ بنفْسه. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٠٥ و٣٠٦): ((قَوله تعالى: ﴿ ويَستعجلونَكَ بالسَّيئةِ قَبْلَ الحسَنةِ ﴾ . اختلفوا فِيمَن نزلت على ثلاثة أقوال : أحدها أنها نزلت في كُفار مكة ، سألوا رسولَ الله ﷺ أن يأتيَهم بالعذاب استهزاءً مِنهم بذلك، قاله ابن عباس. والثاني في مُشركي العرب، قاله قتادة . والثالث في النَّضْر بن الحارث، حِين قال : اللهُمَّ إن كان هذا هو الحق من

عندك ، قاله مقاتل . وفي السيئة والحسنة قولان : أحدهما بالعذاب قبل العافية ، قاله ابن عباس ومقاتل . والثاني بالشَّر قبل الخير، قاله قتادة . فأمَّا ﴿ الْمَثُلاتُ ﴾ ... في معناها قَولان : أحدهما أنها العقوبات ، قاله ابن عباس. وقال الزَّجاج : المعنى : قد تَقَدَّمَ مِن العذاب ما هو مِثْلُه وما فيه نَكَال لو أنهم اتَّعظوا . وقال ابن الأنباري : الْمَثُلَةُ العُقوبة التي تُبقِي في الْمُعَاقَب شَيْنًا بتغيير بعض خَلْقه ، مِن قَولهم : مَثَّلَ فُلان بِفُلان ، إذا شَانَ خَلْقَه بقطع أنفه ، أو أُذنه ، أو سَمَلَ عَينيه ، أو نَحْو ذلك . والثاني أن الْمَثُلات الأمثال التي ضَرَبَها اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لهم ، قاله مُجاهد وأبو عُبَيدة)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ويَقولُ الذينَ كَفروا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيةٌ مِن رَبِّهِ ﴾[الرَّعْد : ٢٧] .

ويقول كفارُ مكة الذينَ جَحدوا وَحدانيةَ الله ، وأنكَروا نُبُوَّةَ محمد ﷺ : هلاَّ أُنزِل على محمد مُعجِزة مِن رَبِّه ، مِثل عَصا مُوسى ، أو مُعجزة عيسى في إحياء الموتى ، أو ناقة صالح، ونَحْو ذلك. وقد نَزلت الآيةُ في مُشركي مكة ، حِينَ طَلبوا مِن النبيِّ ﷺ مُعجِزة مِثل مُعجِزات الأنبياء . والجديرُ بالذِّكر أن ﴿ الذينَ كَفروا ﴾ للتَّسجيل عليهم بالكفر وإدانتهم وفضح باطلهم .

وقال أبو السعود في تفسيره (٥/ ١٩) : ((وإيثار هذه الطريقة على الإضمار ... ، لِذَمِّهم والتَّسجيل عليهم بالكُفر، فيما حكى عنهم مِن قَولهم : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيةٌ مِن رَبِّهِ ﴾ ، فإن ذلك في أقصى مراتب الْمُكَابَرَة والعِناد ، كأن ما أُنزِل عليه من الآيات العِظام الباهرة ليس بآية حتى اقترحوا ما لا تقتضيه الحِكمة من الآيات المحسوسة ، التي لا يبقى لأحد بعد ذلك طاقة بعدم القَبول)) اهـ .

واقتراحُ الآيات على الأنبياء والتحكم عليهم جَهْلٌ وعِناد وضلال ومُكَابَرَة ، وقد رأى الناسُ آياتٍ كثيرةً تدل على صِدْق محمد وصِحَّة نُبُوَّته ، أعظمها على الإطلاق ، مُعجِزة القُرآن الذي جاء به محمد الأُمِّيُّ الذي لا يَقرأ ولا يَكتب . وقد تَحَدَّى اللهُ بِالقُرآن العربَ ، وهُم أهل الفصاحة والبلاغة والبَيان ، وقد فشلوا أن يأتوا بِسُورةٍ واحدة . وإذا كانوا عاجزين وهو بِلُغتهم ، فَغَيْرهم أعجز . وهذا الأمر يَكفي لإقامة الْحُجَّة عليهم وقطع أعذارهم .

واللهُ لا يُنْزِل الآياتِ حَسَب أهواء الناس وأمزجتهم وآرائهم الشخصية . فاللهُ حكيمٌ في قَوله ، وحكيم في فِعله. يَفعل ما يشاء، ويَهدي مَن يَشاء، ويُضِل مَن يَشاء. والهدايةُ والإضلال بيد الله وَحْدَه ، ولا علاقة لهما بِنُزول الآيات أو عدم نزولها. وقال ابن كثير (٢/ ٦٧٣) : ((يُخبِر تعالى عن قِيل المشركين: ﴿ لَوْلا ﴾ أي : هَلاَّ ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيةٌ مِن رَبِّهِ ﴾ ... ، وإن الله قادر على إجابة ما سألوا. وفي الحديث: [إن الله أوحى إلى رسوله لَمَّا سألوه أن يُحَوِّل لهم الصَّفا ذَهَبًا، وأن

يُجْرِيَ لهم يَنبوعًا ، وأن يُزيح الجبالَ مِن حَوْل مكة ، فيصير مكانَها مُروج وبساتين : إن شِئْتَ يا محمد أَعْطَيْتُهُم ذلك ، فإن كفروا أُعذِّبهم عذابًا لا أُعذِّبه أحدًا مِن العالَمِين ، وإن شِئْتَ فَتحتُ عليهم بابَ التَّوبة والرحمة فقال : بَل تفتح لهم باب التَّوبة والرحمة])) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ أنَّا أهلكناهُم بعذابٍ مِن قَبْلِهِ لَقَالوا رَبَّنا لَوْلا أرسلتَ إلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِن قَبْلِ أن نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾[طه : ١٣٤] .

وَلَوْ أن اللهَ أهلكَ كفارَ مكة الذين يُنكِرون وَحدانيته ، مِن قَبْل نُزولِ القُرآن وبعثةِ محمد ﷺ ، لقالوا يَوم القيامة ، عِندَما يَجمعهم اللهُ لعقابهم وتعذيبهم : يا رَبَّنا هلاَّ أرسلتَ إِلَينا رسولاً يَدعونا إلى تَوحيدك وعبادتك وطاعتك ، حتى نُؤمِن به ، ونتَّبعه ، فنتمسَّك بآياتك وحُجَجك وأدِلَّتك ، ونلتزم بأوامرك، ونَجتنب نَواهيك ، مِن قَبْل أن تُذِلَّنا بتعذيبك لنا ، وتُهيننا بِعقابك،ونَخْزى في نار جهنم ، ويُفْتَضَح أمرُنا أمام الناس ، ونُجَلَّل بالخِزي العار والذُّل والمهانة والفضيحة .

وقد أقامَ اللهُ عليهم الْحُجَّةَ ، وقَطَعَ أعذارهم ، بإرسال النبيِّ محمد ﷺ إليهم ، وإنزال القُرآن عليهم . ولا حُجَّة لأحد على الله بعد إرسال الرُّسل وإنزال الكُتب. أُقيمت الْحُجَّة على الناس ، وانقطعت أعذارهم ، فمن آمنَ وعمل الصالحات فهو خالد في الجنة ، ومَن كفر فهو خالد في النار، وليس له حُجَّة ولا عُذر. وكُل إنسان حُر في اختياره،ويتحمَّل مسؤولية اختياره في الدنيا والآخرة. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٣٦) : ((﴿وَلَوْ أنَّا أهلكناهُم ﴾ يعني: مُشركي مكة ﴿ بعذابٍ مِن قَبْلِهِ ﴾ ، في الهاء قَولان : أحدهما أنها ترجع الى الكتاب ، قاله مقاتل . والثاني إلى الرسول ، قاله الفرَّاء . قَوله تعالى : ﴿ لَقَالوا ﴾ يوم القيامة : ﴿ رَبَّنا لَوْلا ﴾ أي : هلاَّ ﴿ أرسلتَ إلَيْنا رَسُولاً ﴾ يَدْعونا إلى طاعتك ، ﴿ فَنَتَّبِعَ آياتِكَ ﴾ ، أي : نعمل بِمُقتضاها ﴿ مِن قَبْلِ أن نَذِلَّ ﴾ بالعذاب ، ﴿ وَنَخْزَى ﴾ في جهنم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ خُلِقَ الإنسانُ مِن عَجَلٍ سَأُورِيكُم آياتي فلا تَسْتَعْجِلُون ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

كأن الإنسان خُلِق مِن العَجَل نفْسه ، لاستعجاله الأمور وعدم ثباته . وهذه مُبالَغة .

خُلِقَ الإنسان عَجُولاً قليل الصَّبر والتَّحَمُّل ، والعَجَلَةُ موجودة في أصل خِلْقته ، يَستعجل حُدوثَ الأشياء،حتى لو كانت ضارَّة وخطيرة ومُؤذية، وهذا يدل على قِصَر نظره، وعدم تفكُّره في عواقب الأمر. لذلك يَستعجل رَبَّه بالعذاب والعقوبة جهلاً وعِنَادًا وسُخريةً واستهزاءً،ويتمنَّى مجيء العذاب الإلهيِّ بأسرع وقت،وهذا يدل على طَيْشه وسَفاهته وضلاله، ورُبَّ امرئ حَتْفه فِيما تمنَّاه . وبعد نزول العذاب ، يَندم الإنسانُ يوم لا يَنفع الندم ، ويتحسَّر على حاله بعد فوات الأوان.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٤٠) : ((والحِكمة في ذِكْر عَجَلَة الإنسان هاهُنا ، أنه لَمَّا ذَكَرَ المستهزئين بالرسول _ صلوات الله وسلامة عليه _، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم ، واستعجلت ذلك ، فقال الله تعالى : ﴿ خُلِقَ الإنسانُ مِن عَجَلٍ ﴾ ، لأنه تعالى يُمْلِي للظالم ، حتى إذا أخذه لَم يُفْلِتْه ، يُؤجِّل ثُمَّ يُعجِّل ، ويُنظِر ثُمَّ لا يُؤخِّر ، ولهذا قال : ﴿ سَأُورِيكُم آياتي ﴾ ، أي: نِقَمي وحُكْمي واقتداري على مَن عصاني ، ﴿ فلا تَسْتَعْجِلُون ﴾)) اهـ .

واللهُ قادرٌ على إظهار الآيات والمعجِزات ، ولا يُعجِزه شَيء ، ولا يَستفزُّه الكفرُ والضلال والمعاصي مِن خَلْقه ، وهو سُبحانَه يُمْهِل ولا يُهْمِل . يَفعل الشَّيْءَ في الوقت الذي يُريده ، وليس في الوقت الذي يُريده الناس . فاللهُ هو الحكم الحاكم ، ولا أحد يَحْكمه ، ولا أحد يَفرِض عليه شروطه. وسَوْفَ يُريكم عذابَه الأليم وانتقامه الشديد،فلا تَستعجلوا رَبَّكم بتعذيبكم ومُعاقبتكم، ولا تَطلبوا مجيء الأمر قبل أوانه ، فلكل شيء وقت مُحدَّد ، وعذابه نازل بكم لا مَحالة ، وانتقامه سَيُصيبكم بلا شَك ولا رَيْب . ولا يُوجد عاقل يَطلب هلاكَ نفْسه ، ويَسعى إلى تدمير حياته .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/٣٥١ و٣٥٢): ((وهذه الآية نزلت حين استعجلت قُرَيش بالعذاب... . قَوله تعالى: ﴿ سَأُورِيكُم آياتي ﴾ فِيه قَولان:أحدهما ما أصابَ الأمم المتقدِّمة، والمعنى : إنكم تسافرون فَتَرَوْنَ آثارَ الهلاك في الماضين،قاله ابن السائب.والثاني أنها القَتْل بِبَدْر،قاله مقاتل)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أفَبِعَذَابِنا يَسْتَعْجِلُون ﴾ [الشُّعراء : ٢٠٤] .

هذا إنكارٌ شديد على المشركين الذين كانوا يَطلبون العذابَ ويَستعجلون بِه ، جهلاً وضلالاً وعِنادًا وسُخريةً واستهزاءً ، وكانوا يَقولون للنبيِّ ﷺ : أمْطِرْ عَلَينا حجارةً مِن السماء .

ومِن شِدَّة تكذيبهم كانوا يَسألون النبيَّ ﷺ عن مَوعد العذاب . متى سَيَجيء ؟ ، ولماذا لَم يَجِئْ حتى الآن ؟ . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٦٣) : ((وقَوله تعالى : ﴿ أفَبِعَذَابِنا يَسْتَعْجِلُون ﴾ إنكار عليهم ، وتهديد لهم ، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيبًا واستبعادًا : ائْتِنا بعذاب الله)) اهـ. وفي تفسير القرطبي (١٣/ ١٢٧): ((قال مقاتل : قال المشركون للنبيِّ ﷺ : يا محمد، إلى متى تَعِدنا بالعذاب ولا تأتي به ؟! ، فَنَزلت : ﴿ أفَبِعَذَابِنا يَسْتَعْجِلُون ﴾)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أفَرَأيْتَ إن مَتَّعْنَاهُم سِنين ﴾ [الشُّعراء : ٢٠٥] .

الاستفهام للإنكار . والخِطابُ لكل مَن يَصْلُح له : أخْبِرْني إن مَتَّعْنا كُفارَ مكة في الدنيا سنين طويلة في رَغَد العَيش ، وطِيب الحياة ، وأمهلناهم ، وأَمْلَيْنا لهم ، وأعطيناهم الأموالَ والأولاد والصِّحة والعافية ، وطُول الأعمار ، ولَم نُهْلِكْهم ، ولَم نُعذِّبهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ١٤٦) : ((قال عِكرمة : عُمر الدنيا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ جاءَهُم ما كانوا يُوعَدُون ﴾ [الشُّعراء : ٢٠٦] .

ثُمَّ جاءهم ما كانوا يُوعَدون مِن العذاب والهلاك.وقال ابن منظور في لسان العرب(٣٢٨/٨): ((قَوله تعالى:﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَتَّعْنَاهُم سِنين (٢٠٥) ثُمَّ جاءَهُم ما كانوا يُوعَدُون (٢٠٦)﴾ . قال ثعلب:معناه أَطَلْنَا أَعمارَهم،ثُمَّ جاءهم الموت، والماتِعُ الطويل مِن كُل شيء ، ومَتَّعَ الشَّيْءَ طَوَّلَه)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما أغنى عَنْهُم ما كانوا يُمَتَّعُون ﴾ [الشُّعراء : ٢٠٧] .

﴿ ما ﴾ استفهامية . والمعنى : أيُّ شَيء أغنى عَنهم تَمَتُّعهم الطويل في الدُّنيا في دَفْع العذاب أو تخفيفه ؟ . الجواب : لَم يُغنِ شَيْئًا .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ١٧٠) : ((أيُّ شَيء أغنى عنهم كَوْنُهم مُمَتَّعين ذلك التَّمَتُّع الطويل ... . والاستفهام للإنكار التقريري)) اهـ .

مَهما طالَ تَمَتُّعهم في الحياة الدنيا ، واستمتعوا بالشهوات والملذات ، وغرقوا في رَغَد العَيش ونعيم الدنيا وزِينتها ، فإن مصيرهم إلى العذاب ، وإذا نزل بهم العذاب ، لَم يَستفيدوا شيئًا مِن تَمَتُّعهم الدُّنيويِّ ، ولَم يَقْدِر على حمايتهم مِن العقوبة . وبالتالي ،كأنهم لَم يَعيشوا في نعيم الدنيا مِن الأصل ، ولَم يَعرِفوا الرَّغَد والرَّخاء والهناء قَط . وشِدَّة العذاب سَوْفَ تُنسيهم كُل سنوات النعيم الطويلة ، وكأن شيئًا لَم يكن .

وقال النَّسفي في تفسيره (٣/ ١٩٩) : ((إن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غَير كائن ، ولا لاحق بهم ، وأنهم مُمَتَّعون بأعمار طِوال في سلامة وأمن، فقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أفَبِعَذَابِنا يَسْتَعْجِلُون ﴾ أَشَرًا وبَطَرًا واستهزاءً واتِّكالاً على الأمل الطويل ، ثُمَّ قال : هَبْ أن الأمر كما يعتقدون مِن تَمْتيعهم وتَعميرهم ، فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ، ما ينفعهم حينئذ ما مضى مِن طُول أعمارهم وطِيب معايشهم ؟)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ يَستعجلونَكَ بالعذابِ وإنَّ جَهَنَّمَ لَمُحيطةٌ بالكافرين ﴾ [العنكبوت: ٥٤] .

يَستعجلك يا محمد هؤلاء المشركون بمجيء العذاب ، ونزوله بهم ، ووقوع العقوبة عليهم ، والعذابُ واقع بهم لا مَحالة . ومصيرهم إلى عذاب النار الشديد في وقت قريب ، وكُل ما هو آتٍ قريب . والنارُ مُحيطة بِهم مِن كل الجهات . لا يَقْدِرون على الهرب مِنها ، ولا الابتعاد عنها . وإن جهنم جامعة لهم ، لا يَبقى كافرٌ مِنهم إلا دَخَلَها ، وعُذِّبَ فِيها أشد العذاب . واستعجال المشركين للعذاب يدل على جهلهم وضلالهم وعِنادهم ، ولا يُوجد عاقل يَتمنَّى تدمير نفْسه .

وقال أبو السعود في تفسيره (٧ / ٤٤و٤٥) : ((﴿ يَستعجلونَكَ بالعذابِ وإنَّ جَهَنَّمَ لَمُحيطةٌ بالكافرين ﴾ ، استئناف مَسُوق لغاية تجهيلهم ، وركاكة رأيهم . وفيه دَلالة على أن ما استعجلوه عذاب الآخرة ، أي : يستعجلونك بالعذاب ، والحال أن مَحَل العذاب الذي لا عذاب فوقه مُحيط بهم ، كأنه قِيل : يستعجلونك بالعذاب ، وإن العذاب لَمُحيط بهم ، أي سَيُحيط بهم. وإنما جِيء بالجملة الاسمية دَلالة على تحقق الإحاطة واستمرارها، أو تَنْزيلاً لحال السَّبب مَنْزلة حال الْمُسَبَّب، فإن الكفر والمعاصي الموجِبة لدخول جهنم مُحيطة بهم... ولام"الكافرين" للعهد . ووضع الظاهر موضع الْمُضْمَر للإشعار بِعِلَّة الْحُكم أو للجِنس، وهم داخلون فيه دخولاً أوَّلِيًّا)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يَستعجلُ بِها الذينَ لا يُؤمنونَ بِها والذينَ آمَنوا مُشْفِقُونَ مِنها ويَعْلَمُونَ أنها الحقُّ ألا إنَّ الذينَ يُمَارُونَ في الساعةِ لَفِي ضَلالٍ بَعيدٍ ﴾ [الشُّورى : ١٨] .

يَستعجل بالقيامة المشركون الذين لا يُصدِّقون بها ، ولا يُؤمنون بمجيئها ، لاعتقادهم بعدم وجودها ، وأنها غَير آتية ، وللتَّلبيس على العوام والجهَّال . وهؤلاء المشركون يَطرحون الأسئلة حول مَوعد القيامة سُخريةً واستهزاءً. والمؤمنون المصدِّقون بها، والموقنون بمجيئها، خائفون مِن قيامها ، بسبب اتِّهامهم لأنفسهم بالتَّقصير في العبادات والطاعات ، ولأنهم يَعْرِفون أنهم مُحَاسَبُون على أقوالهم وأفعالهم ، ولا يَعرِفون هل مصيرهم إلى الجنة أَم النار .

ويَعْلَمون أنها حَق واقع لا مَحَالة،ويُوقنون بأنها كائنة بلا شَك ولا رَيْب. ألا إن الذين يُجادِلون في أمر القيامة، ويُخاصمون في قِيامها ، ويَشُكُّون في وُقوعها، لَفِي ضلال بعيد عن الحق والصواب، وانحراف عن طريق الهدى والرَّشاد، لإنكارهم عَدْل الله، وجُحودهم لِحُكمته، وتكذيبهم بكلامه وآياته ، وعدم تفكُّرهم في قُدرة اللهِ المطْلقة ، ورَفضهم للوَحْي والنُّبوَّة .

وإن الذين خَلَقَ الإنسانَ مِن تُراب ثُمَّ مِن نُطفة،قادرٌ على أن يَبعثه مِن قَبْره للحساب والجزاء. والقادرُ على الإنشاء مِن العَدَم ، وابتداء الخلق مِن اللاشيء ، قادرٌ على الإعادة والبعث .

وقال ابن كثير في تفسيره(٤/ ١٤٠):((وقَوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَستعجلُ بِها الذينَ لا يُؤمنونَ بِها ﴾ أي : يَقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ ، وإنما يقولون ذلك تكذيبًا واستبعادًا وكُفرًا وعِنادًا. ﴿ والذينَ آمَنوا مُشْفِقُونَ مِنها ﴾ أي: خائفون وَجِلون مِن وُقوعها، ﴿ ويَعْلَمُونَ أنها الحقُّ ﴾ أي: كائنة لا مَحَالة، فهُم مُستعدون لها ، عاملون مِن أجلها ... . وقَوله تعالى : ﴿ ألا إنَّ الذينَ يُمَارُونَ في الساعةِ ﴾ ، أي: يُجادلون في وُجودها ويَدفعون وُقوعها ﴿ لَفِي ضَلالٍ بَعيدٍ ﴾ أي: في جهل بَيِّن، لأن الذي خلق السماوات والأرض، قادر على إحياء الموتى بطريق الأَوْلَى والأحرى)).

٩ــ عداوتهم :

قالَ اللهُ تعالى:﴿لَتَجِدَنَّ أشدَّ الناسِ عَداوةً للذينَ آمَنُوا اليَهُودَ والذينَ أشركوا ﴾[المائدة: ٨٢].

اللام للقَسَم . قَسَمًا لَتَجِدَنَّ يا محمد اليهودَ والمشركين عَبَدَة الأصنام والأوثان ، أشدَّ الناس عَداوةً للمؤمنين الذين أقَرُّوا بِوَحدانية الله وصدَّقوا بِنُبُوَّتك ، وذلك لِقَسوة قلوبهم ، وخُشونة طِباعهم ، وشِدَّة كُفرهم ، وإصرارهم على العِناد والتقليد الأعمى والغرق في الشهوات والملذات.

ولا يَخفى أن اليهود قد ساندوا المشركين في حَرْبهم على الإسلام ، ودَعَمُوهم في حِقْدهم على المؤمنين وحسدهم لهم . واليهود مَعروفون تاريخيًّا بتكذيب الأنبياء وقَتلهم ، ودِين اليهود قائم على الخبث والعِناد والحسد والحِقد والغدر والخيانة والمكر والمؤامرات . لذلك ، هُم أشد الناس عداوةً للمؤمنين . والمشركون يَعبدون الأصنامَ والأوثانَ والآلهة المتعدِّدة، لذلك يُحارِبون ويُعَادُون المؤمنين الذين يُوحِّدون اللهَ ، ويَعبدونه وَحْدَه بلا شريك ولا نِد . والعرب المشركون في الجاهلية ليس لهم أي كتاب دِيني ، فهُم أمةٌ أُمِّية وثنية . لذلك كانوا ألعوبة بيد اليهود، يُحرِّكونهم كَيْفما شاؤوا ، ويبثُّون فيهم عقائدهم الباطلة ، وتعاليم كُتبهم المحرَّفة .

إن العداوة تنبع من القلب المتأجِّج بالحقد والكراهية. واليهودُ(القادة)والمشرِكون (الأتباع) كانت صدورُهم تغلي حِقْدًا على المؤمنين ، وعداوةً لهم بسبب إيمانهم واتِّباعهم لمنهج الحق المضاد لانحرافات اليهود والمشركين، والمهدِّد لمصالحهم.ولَم تقف العداوةُ عند الشعور الداخلي أو السلوك اللفظي، بل تحوَّلت إلى واقع عملي ملموس ، فتمَّت حِياكة المؤامرات الرامية إلى وأد الدعوة الإسلامية ، وقتل رجالها . وهذا يدل على أن عداوة المؤمنين وكراهية الحق رُكنان أساسِيَّان في فلسفة اليهود والمشركين . وبالطبع فإن الذي لا يَملك نورَ الحقيقة ، ولَيست لديه القُدرة على مقارعة الْحُجَّة بالْحُجَّة ، سوف يَلجأ إلى الأساليب القذرة والمؤامرات الخبيثة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١٧) : ((ما ذاكَ إلا لأن كُفر اليهود كُفر عِناد وجُحود ومُباهَتة للحق ، وغَمْط للناس ، وتَنَقُّص بِحَمَلة العِلم . ولهذا قتلوا كثيرًا من الأنبياء ، حتى هَمُّوا بقتل رسول الله ﷺ غَير مَرَّة ، وسَمُّوه ، وسَحَروه ، وأَلَّبوا عليه أشباههم من المشركين ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١١٥٦) : قال رسول الله ﷺ مُخَاطِبًا اليهود : ((هل جعلتُم في هذه الشَّاةِ سُمًّا)) ، قالوا : نَعَم ، قال: ((ما حَمَلَكم على ذلك ؟)) ، قالوا : أردنا إِنْ كُنْتَ كاذبًا نستريح مِنك ، وإِنْ كُنتَ نَبِيًّا لَم يَضُرَّك .

إن اليهود أهلُ مَكر وغَدْر وخِداع، وقد حاولوا قَتْلَ النبيِّ ﷺ بِدَس السُّم له، حيث أهْدُوا له على يَد امرأة شاةً مَسمومة . أرادوا قَتْلَ النبيِّ ﷺ ، والاستراحة مِنه ، وإطفاء نُور الإسلام ، ووأد الدَّعوة المحمدية الإسلامية، وتفريق كلمة المسلمين ، وتَمزيق وَحْدتهم ، وتشتيت جهودهم. وهذا يُشير إلى رُسوخ العداوة في قلوب اليهود لكل المؤمنين بلا تمييز ، وسَعْيهم الدؤوب إلى التشويش على الحق، ومحاولة وَأده قبل ظُهوره . لكن الحق لا يمكن إيقافه ، والشمس لا تُغطَّى بِغِرْبال.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يَرْقُبُونَ في مُؤمِنٍ إلاًّ ولا ذِمَّةً وأُولئكَ هُمُ الْمُعتدون ﴾ [التَّوبة : ١٠] .

هؤلاء الكفار يَكْرَهون المؤمنين، ويَحقِدون عليهم ، ويَسْعَوْنَ جاهدين لتدميرهم ، ولا يَلتزمون بعهد مَع المؤمنين، ولا يَحترِمون حُرمةً ، ولا يُراعون قَرابةً . وأولئك هُم الْمُجاوِزون للحلال إلى الحرام بنقض العهد ، والغارقون في الشر والطغيان ، والبالغون في الفساد والظلم الغايةَ القُصوى .

والمعنى: لا تُبْقُوا عليهم أيها المؤمنون، لأنهم لَن يُبْقُوا عليكم لَو انتصروا. وهُم اليهود أصحاب القلوب القاسية ، وأهل المكر والخديعة ، أو المشركون عَبَدَة الأصنام . والإل هو العَهْد والقرابة . وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٣٢٨) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : لا يتَّقي هؤلاء المشركون الذين أمرتكم أيها المؤمنون بقتلهم حيث وجدتموهم في قَتْل مؤمن لَو قَدِروا عليه﴿ إلاًّ ولا ذِمَّةً ﴾، يقول : فلا تُبْقُوا عليهم أيُّها المؤمنون كما لا يُبْقُون عليكم لو ظَهَروا عليكم ، ﴿ وأُولئكَ هُمُ الْمُعتدون ﴾ . يقول : الْمُتَجَاوِزُون فِيكم إلى ما ليس لهم بالظلم والاعتداء)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّ الشَّيطانَ كانَ للإنسانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾[الإسراء : ٥٣] .

إن الشيطان ظاهر العداوة للإنسان ، يُوَسْوِس له بالذنوب والمعاصي والآثام ، ويُزيِّنها له ، ويُحاول إفساده بشتى الوسائل، وزرع الفِتنة والمشكلات بينه وبين الناس. والعاقلُ يُعادي الشَّيطان بكثرة عبادة الله وطاعته ، ويُحارب وساوس الشَّيطان بامتثال أوامر الله ، واجتناب نَواهيه .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٩٣) : ((إن الشيطان كان لآدم وذُرِّيته عَدُوًّا ، قد أبانَ لهم عداوته ، بِما أظهرَ لآدم من الحسد وغروره إيَّاه ، حتى أخرجه من الجنة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ إن يَثْقَفُوكُم يَكُونوا لكم أعداءً ويَبْسُطُوا إلَيْكُم أيْدِيَهُم وألْسِنَتَهُم بالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُون ﴾ [الْمُمْتَحَنَة : ٢] .

إن يَقْدِرُوا عليكم ، ويتمكَّنوا مِنكُم ، يُظْهِرُوا لكم ما في قلوبهم مِن الحِقد والحسد والعداوة الشديدة لكم، ويَمُدُّوا إلَيكم أيديَهم بالضرب والأسْر والقتل ، وألسنتهم بالشَّتم والسَّب ، وتَمَنَّوْا أن تَكْفروا لِتَكونوا مِثْلَهم. فلا تُناصحوهم، فإنهم لا يُناصحونكم ولا يُحِبُّونكم،ولا يُريدون الخير

لكم . والآيةُ تدل على أن الكافرين قد تَرْجَمُوا عداوتهم للمؤمنين إلى واقع عملي ملموس ، ولَم تكن عداوتهم مُجرَّد مشاعر قلبية أو أحاسيس داخلية . وهذا الأمر في غاية الخطورة . وقال الزمخشري في الكشَّاف (٤/ ٢٩٥) : ((وإنما أورده بِذِكر الماضي ﴿ وَوَدُّوا ﴾ بعد أن ذَكَرَ جواب الشَّرط بلفظ المضارع ﴿ لَوْ تَكْفُرُون ﴾ ، لأنهم أرادوا كُفرهم قبل كُل شيء)) اهـ .

إنهم حريصون أشدَّ الحِرص على مَنع وصول الخير إلَيكم ، ويُريدون الشَّر والفساد لكم ، ولا يوجد أسوأ مِن الكفر ، لذلك تَمَنَّوْا أن ترتدوا عن الإسلام ، وتَرجعوا إلى الكُفْر لِتُصبحوا مِثْلَهم .

وهذا يدل على شِدَّة عداوتهم لكم، وهي عداوة مُتجذرة في قلوبهم، وظاهرة على جوارحهم ، وقد حوَّلوها إلى تطبيق على أرض الواقع . فلا يُعقَل أن تُحِبُّوهم وتُوالوهم . وهذا حَض للمؤمنين على إظهار العداوة لهم ، والحذر مِنهم . ولا فائدة مِن مُداراتهم أو التقرُّب إليهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٢٣٣): ((... ثُمَّ أخبرَ بعداوة الكفار، فقال تعالى : ﴿ إن يَثْقَفُوكُم ﴾ أي : يَظْفَرُوا بِكم ﴿ يَكُونوا لكم أعداءً ﴾ لا مُوالين ، ﴿ ويَبْسُطُوا إلَيْكُم أيْدِيَهُم ﴾ بالضرب والقتل، ﴿ وألْسِنَتَهُم بالسُّوءِ ﴾ وهو الشَّتْم، ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُون ﴾ فترجعون إلى دِينهم. والمعنى أنه لا يَنفعكم التقرُّب إلَيهم بنقل أخبار رسول الله ﷺ)) اهـ .

١٠_ تَخَلِّي المتبوعين عن الأتباع :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إذْ تَبَرَّأَ الذينَ اتُّبِعُوا مِنَ الذينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا العذابَ وتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسبابُ ﴾ [البقرة : ١٦٦].

إن الكفرَ علاقة مصلحية نَفعية بين الأتباع والمتبوعين ، قائمة على أُسس وهمية ، وقواعد غير سليمة ، وسُرعان ما تنهار . وما بُنِيَ على باطل فهو باطل .

في يوم القيامة، يَتَبَرَّأ الزعماءُ والسادة والقادة والرؤساء (المتبوعون) مِمَّن اتَّبعهم على الكفر، وهُم الضعفاء والعوام وحُثالة المجتمع (الأتباع)، ويُنكِرون إضلالهم ، ولا يَعترِفون بهم ، ويقولون : لَيْس لنا علاقة بكفركم وضلالكم وذنوبكم ومعاصيكم.ورَأى الأتباعُ والمتبوعون العذابَ،وتقطَّعت العلاقات بينهم ، وانفصلت الروابط التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا ، كالقرابات والأرحام والصَّداقات، وصارت العلاقة بينهم قائمة على العداوة والكراهية والحِقد والانتقام .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٧١) : ((قَوله تعالى : ﴿ الذينَ اتُّبِعُوا ﴾ فيهم قَولان: أحدهما أنهم القادة والرؤساء ، قاله ابن عباس وأبو العالية وقتادة ومقاتل والزَّجاج. والثاني

أنهم الشياطين، قاله السُّدي. قَوله تعالى: ﴿ وَرَأَوُا العذابَ ﴾ يَشمل الكُل ، ﴿ وتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسبابُ ﴾ أي : عنهم ... . وفي الأسباب أربعة أقوال : أحدها أنها الموَدَّات ، وإلى نَحْوه ذهب ابن عباس ومجاهد وقتادة. والثاني أنها الأعمال، رواه السُّدي عن ابن مسعود وابن عباس، وهو قول أبي صالح وابن زيد. والثالث أنها الأرحام ، رواه أبن جُرَيج عن ابن عباس. والرابع أنها تشمل جميع ذلك . قال ابن قُتَيبة : هي الأسباب التي كانوا يَتواصلون بِها في الدنيا ، فأمَّا تسميتها بالأسباب ، فالسبب في اللغة الحبل ، ثُمَّ قِيل لكل ما يُتَوَصَّل به إلى المقصود سبب)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وقالَ الذينَ اتَّبَعُوا لَوْ أنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُم كَمَا تَبَرَّؤوا مِنَّا كذلكَ يُرِيهِمُ اللهُ أعمالَهُم حَسَراتٍ عَلَيهم وما هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النارِ ﴾[البقرة : ١٦٧] .

وقال الأتباعُ مِن الضعفاء والعوام : لَوْ أن لنا رَجعة إلى الدنيا ، فَنَتَبَرَّأ مِن المتبوعين (القادة والزعماء والرؤساء) ، كما تبرَّؤوا مِنَّا في هذا اليوم (يوم القيامة) . كما أراهم العذابَ الأليمَ ، كذلك يُريهم اللهُ أعمالَهم نداماتٍ شديدة ، يَوم لا يَنفع الندم . والحسرةُ شِدَّة النَّدم وتألُّم القلب .

إن اللهَ يَجعل أعمالهم حَسَرَاتٍ ، ولا يَرَوْنَ أعمالهم ، وإنما يَرَوْنَ حَسَرَاتٍ مكانها . وأعمالُ الكافر لا تَنفعه ولا يَستفيد مِنها . وهذا يدل على سُوء حالهم ، وانهيارهم الشامل ، وندمهم الشديد ، وتقطُّع قلوبهم مِن الألم والحرقة والكَمَد . وهُم أهل النار، يَدخلونها ولا يَخْرُجون مِنها. وهذا دليل على خُلود الكفار في النار. والأصلُ: وما يَخْرُجون مِن النار . ولكن الآية ﴿ وما هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النارِ ﴾ أكثر بلاغةً ، وأعظم تأثيرًا ، لأنها تَحْمل معنى المبالغة في الخلود في النار،واستحالة الخروجِ مِنها، وعدم إمكانية العَودةِ إلى الدنيا.

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٨٠) : ((﴿ وقالَ الذينَ اتَّبَعُوا ﴾ يعني الأتباع : ﴿ لَوْ أنَّ لَنا كَرَّةً ﴾ أي : رَجعة إلى الدنيا ، ﴿ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُم ﴾ ، أي : مِن المتبوعين ﴿ كَمَا تَبَرَّؤوا مِنَّا ﴾ اليوم ، ﴿ كذلكَ ﴾ أي : كما أراهم العذاب ، كذلك ﴿ يُرِيهِمُ اللهُ ﴾ ، وقِيل : كَتَبَرُّؤ بعضهم من بعض يُريهم الله ﴿ أعمالَهُم حَسَراتٍ ﴾ ندامات ﴿ عَلَيهم ﴾ جَمْع حسرة . قِيل: يُرِيهم اللهُ ما ارتكبوا مِن السَّيئات فيتحسَّرون لِمَ عَمِلوا . وقِيل : يُرِيهم ما تركوا من الحسنات فيندمون على تضييعها . وقال ابن كَيسان : إنهم أشركوا بالله الأوثان رجاء أن تُقرِّبهم إلى الله عز وجل ، فلمَّا عُذِّبوا على ما كانوا يَرْجُون ثوابَه تحسَّروا وندموا. قال السُّدي: تُرفَع لهم الجنة فينظرون إليها، وإلى بيوتهم فيها ، لو أطاعوا الله ، فيُقال لهم : تِلك مساكنكم لو أطعتم الله ، ثُمَّ تُقسَم بين المؤمنين ، فذلك حِين يندمون ويتحسَّرون ، ﴿ وما هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النارِ ﴾)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا للهِ جَميعًا فقالَ الضُّعفاءُ للذينَ اسْتَكْبَرُوا إنَّا كُنَّا لكم تَبَعًا فَهَلْ أنتُم مُغنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللهِ مِن شَيْءٍ قالوا لَوْ هَدَانا اللهُ لَهَدَيْنَاكُم سَوَاءٌ عَلَينا أجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِن مَحِيص ﴾ [إبراهيم : ٢١] .

خرج الكافرون مِن قبورهم يوم البعث ، وَظَهروا كُلهم للحساب في مكان لَيس فيه شيء يَستر أحدًا ، ليس بينهم وبين الله فاصل ولا حاجز ، ولا يَسترهم عنه ساتر . والإخبار عن أمر مستقبلي بالفِعل الماضي:﴿وَبَرَزُوا ﴾ للدَّلالة على تحقُّق الوقوع لا مَحَالة،فكأن الحدث وَقَعَ وانتهى.

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير(١٩/ ١٠٧):((ورد بلفظ الماضي ﴿ وَبَرَزُوا ﴾، وإن كان معناه الاستقبال ، لأن كُل ما أخبرَ اللهُ تعالى عنه ، فهو صِدق وحق ، فصار كأنه قد حصل ، ودخل في الوجود)) اهـ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١٤٧) : ((وإنما قال : ﴿ وَبَرَزُوا للهِ ﴾ مَعَ كَوْنه سُبحانَه عَالِمًا بِهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ، برزوا أو لَم يَبْرُزوا ، لأنهم كانوا يستترون عن العيون عند فِعلهم للمعاصي،ويظنون أن ذلك يخفى على الله تعالى،فالكلام خارج على ما يعتقدونه)) اهـ.

فقالَ الأتباعُ (الضُّعفاء والعوام) للمتبوعين (القادة والسَّادة) الذين أضَلُّوهم في الدنيا ، وكانوا يَتكبَّرون عن عبادة الله ، ويَستكبرون عن طاعته ، ويَرفضون التَّسليمَ بآياته واتِّباعَ رُسله ، ويترفَّعون عن الناس بسبب مناصبهم وثرواتهم ونفوذهم وما هُم فِيه من الزعامة والرئاسة : إنَّا كُنَّا أتباعًا لكم في الدنيا ، خاضعين لِحُكْمكم ورأيكم، وسائرين على خُطاكم، نمتثل أوامركم في عبادة الأصنام وجَحْد وَحدانية الله، وتكذيب الرُّسل، وكفرنا بالله تقليدًا لكم والتزامًا بِرَأيكم وأمركم، ومُتابَعةً لكم . فهل أنتم دافعون عَنَّا اليوم مِن عذاب الله شيئًا ، كما كُنتم تَعِدُوننا ؟ . والاستفهام للتَّوبيخ والتقريع .

قال القادةُ والسادة مُعتذرين : لَوْ أرْشَدَنا اللهُ إلى طريق الهدى ، وبيَّن لنا معالم الحق ، ووجَّهنا إلى وَحدانيته وعبادته ، وهدانا إلى الإيمان بِه ، لَهَدَيْناكم إليه . وقِيل : لَوْ هدانا اللهُ إلى طريق الجنة، لَهَدَيْناكم إلَيه. وقِيل: لَو نَجَّانا اللهُ مِن العذاب لنَجَّيْناكم مِنه. ولكننا وَقَعْنا في الضلال فأضللناكم ، وحقَّت كلمة العذاب عَلَينا ، فلا فائدة من اللوم والعتاب. ليس لنا خلاص من العذاب إن جَزِعْنا مِنه أو صَبَرْنا عليه . مُسْتَوِيان عَلَينا الجزَع والصَّبر . وليس لنا مِن مَهْرب ولا مَلْجأ مِن العذاب .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٥٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا للهِ جَميعًا ﴾ لَفْظه لفظ الماضي ، ومعناه المستقبل . والمعنى : خرجوا مِن قُبورهم يوم البعث ، واجتمع التابع والمتبوع، ﴿ فقالَ الضُّعفاءُ ﴾ وهُم الأتباع ﴿ للذينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهُم المتبوعون : ﴿ إنَّا كُنَّا لكم تَبَعًا ﴾ . قال الزَّجاج : ... والمعنى : تَبِعْناكم فِيما دَعوتمونا إليه . قَوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أنتُم مُغنُونَ عَنَّا ﴾ ، أي : دَافعون عنَّا ﴿ مِنْ عَذابِ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ . قال القادة : ﴿ لَوْ هَدَانا اللهُ لَهَدَيْنَاكُم ﴾ أي: لَوْ أرْشَدَنا في الدنيا لأرشدناكم . يُريدون أن الله أضَلَّنا فَدَعَوْناكم إلى الضَّلال ، ﴿ سَوَاءٌ عَلَينا أجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ﴾ . قال ابن زيد : إن أهل النار قال بعضُهم لبعض : تَعَالَوْا نَبْكِ ونَضْرَع، فإنما أدركَ أهلُ الجنةِ الجنةَ ببكائهم وتضرُّعهم ، فَبَكَوْا وتضرَّعوا، فلمَّا رَأَوْا ذلك لا يَنفعهم قالوا: تَعَالَوْا نصبِر ، فإنما أدرك أهلُ الجنةِ الجنةَ بالصبر، فصبروا صبرًا لَم يُرَ مِثْلُه قَط، فلم ينفعهم ذلك، فعندها قالوا : ﴿ سَوَاءٌ عَلَينا أجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِن مَحِيص ﴾ . وروى مالك بن أنس عن زيد بن أسلم قال: جَزِعوا مائة سنة وصبروا مائة سنة. وقال مقاتل: جزعوا خمس مائة عام وصبروا خمس مائة عام)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وإذا رأى الذينَ أشركوا شُركاءَهُم قالوا رَبَّنا هَؤلاءِ شُركاؤُنا الذينَ كُنَّا نَدعو مِن دُونِكَ فألْقَوْا إلَيْهِمُ القَوْلَ إنكم لَكَاذِبُون ﴾[النَّحْل : ٨٦] .

وإذا رأى المشركون يوم القيامة آلهتهم وأصنامهم وأوثانهم التي جَعلوها شريكةً لله في الأُلوهية، وكانوا يَعبدونها مِن دُون الله في الحياة الدنيا،قالوا:رَبَّنا هؤلاء الذين جَعلناهم شُركاء لك، وعبدناهم مِن دُونك . والهدف مِن هذا الإقرار والاعتراف ، هو طلب الرأفة والرحمة وتخفيف العذاب ، والتَّنَصُّل مِن المسؤولية ، ومُحاولة تَحميل الأصنام جُزْءًا من المسؤولية والعذاب .

واللهُ يُنطِق أصنامهم (آلهتهم المزعومة الباطلة)، وتقول : كذبتم أيها المشركون ، لَم نأمركم بعبادتنا،ولَم نطلُب مِنكم أن تَجعلونا شُركاء لله تعالى، ونَحْن لَسْنا آلهة، والله وَحْدَه هو الإله الحق. لقد كذَّبوهم في عبادتهم إيَّاهم ، والأصنامُ جماد لا تضرُّ ولا تَنفع ، ولا تَعرِف عابديها ، فتظهر فضيحة المشركين ، حيث عَبَدُوا مَن يَجْهَل عبادتهم ولا يَعْلمها، فيزداد غَمُّهم وحَسْرتهم وندمهم .

وأخبرَ النبيُّ ﷺ أن اللهَ تعالى يقول يوم القيامة:((مَن كان يَعبد شيئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبع مَن كان يَعبد الشمس الشمس،ويتَّبع مَن كان يَعبد القمر القمر،ويتَّبع مَن كان يَعبد الطواغيت الطواغيت))[11].

---

(١١) متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٧٠٤) برقم (٧٠٠٠)، ومسلم (١/ ١٦٣) برقم (١٨٢) .

وتخصيص ذِكر الشمس والقمر ، معَ دُخولهما فِيمَن عُبِد مِن دُون الله تعالى ، للدَّلالة على عِظَم خَلْقهما ، ورِفْعة شأنهما ، وعَظَمَة قَدْرهما ، والتَّنويه بِذِكْرهما . والطواغيتُ جَمْع طاغوت ، والطواغيت الشَّياطين والأصنام .

وقال الشَّوكاني في تفسيره (٣/ ٢٦٧) : ((﴿ وإذا رأى الذينَ أشركوا شُركاءَهُم ﴾ ، أي : أصنامهم وأوثانهم التي عَبَدُوها ، لِمَا تقرَّر مِن أنهم يُبعَثون مع المشركين لِيُقال لهم : " مَن كان يَعبد شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ " ، كما ثبت في الصحيح مِن قَوله ﷺ . ﴿ قالوا رَبَّنا هَؤلاءِ شُركاؤُنا الذينَ كُنَّا نَدعو مِن دُونِكَ ﴾ ، أي : الذين كُنَّا نَعْبُدهم مِن دُونك . قال أبو مسلم الأصفهاني : مقصود المشركين بهذا القَول إحالة الذنب على تلك الأصنام تَعَلُّلاً بذلك واسْتِرْوَاحًا مَعَ كَوْنهم يَعْلمون أن العذاب واقع بهم لا مَحَالة ، ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه . ﴿ فألْقَوْا إِلَيْهِمُ ﴾ ، أي : ألقى أُولئك الأصنام والأوثان والشياطين ونَحْوهم إلى المشركين ﴿ القَوْلَ إنكم لَكَاذِبُون ﴾ ، أي : قالوا لهم : إنكم أيها المشركون لَكَاذبون فِيما تزعمون من إحالة الذنب علينا ، الذي هو مقصودكم من هذا القول ، فإن قِيل إن المشركين أشاروا إلى الأصنام ونَحْوها أن هؤلاء شُركاؤنا الذين كُنَّا ندعو مِن دُونك ، وقد كانوا صادقين في ذلك ، فكيف كذَّبتهم الأصنام ونَحْوها؟. فالجواب بأن مُرادهم مِن قَولهم : هؤلاء شُركاؤنا ، هؤلاء شُركاء الله في المعبودية ، فكذَّبتهم الأصنام في دَعوى هذه الشِّركة . والأصنامُ والأوثان _ وإن كانت لا تَقْدِر على النُّطق _ فإن الله سُبحانَه يُنطِقها في تلك الحال ، لتخجيل المشركين وتوبيخهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وألْقَوْا إلى اللهِ يَومئذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم ما كانوا يَفْتَرُون ﴾[النَّحْل: ٨٧] .

واستسلمَ المشركون يومئذٍ لله تعالى ، وانقادوا لِعَظَمَته ، وخضعوا لأمره ، وذَلُّوا لِحُكمه ، وانكسروا أمام عذابه،بعد تكبُّرهم وغرورهم وعِنادهم في الحياة الدنيا، ولَم تُغنِ عنهم آلهتهم شيئًا. وذَهَبَ ما كانوا يَعبدونه مِن دُون الله ، وبَطَلَ ما كانوا يَفترونه مِن أن لله شُركاء في أُلوهيته ، واضمحلَّ تزيين الشَّيطان لهم ، وخابَ أملهم في شفاعة آلهتهم الأصنام لهم عِند الله تعالى ، بعد تكذيب آلهتهم الباطلة لهم ، وتَبَرُّئها مِنهم ، ولا ناصر لهم ولا مُعين ولا شفيع .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٨١):((قَوله تعالى:﴿ وألْقَوْا إلى اللهِ يَومئذٍ السَّلَمَ ﴾ المعنى أنهم استسلموا له ، وفي الْمُشار إِلَيهم قَولان : أحدهما أنهم المشركون ، قاله الأكثرون. ثُمَّ في معنى استسلامهم قَولان:أحدهما أنهم استسلموا له بالإقرار بتوحيده وربوبيته،والثاني أنهم استسلموا لعذابه . والثاني أنهم المشركون والأصنام كُلهم . قال الكلبي : والمعنى أنهم استسلموا

لله مُنقادين لِحُكمه . قَوله تعالى : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ما كانوا يَفْتَرُون ﴾ فِيه قَولان : أحدهما بَطَلَ قَوْلُهم أنها تَشفع لهم ، والثاني ذَهَبَ عنهم ما زَيَّنَ لهم الشَّيطانُ أن لله شريكًا وولدًا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وقالَ إنما اتَّخَذْتُم مِن دُونِ اللهِ أَوْثانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُم في الحياةِ الدُّنيا ثُمَّ يَوْمَ القِيامةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ويَلعنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ومَأواكُمُ النارُ وما لكم مِن ناصرين ﴾ [العنكبوت:٢٥].

وقال النبيُّ إبراهيم ﷺ لِقَومه تَوبيخًا وتقريعًا لهم بسبب كُفرهم وضلالهم وعبادتهم للأصنام : إنما جَعلتم هذه الأصنام آلهةً ، وعبدتموها مِن دُون الله ، مِن أجل حصول المحبة والأُلفة بينكم في الدنيا، باجتماعكم على عبادتها ، كما يَجتمع الناسُ ويتَّفقون على دِين أو مِلَّة أو مذهب أو حِزب، ويكون اجتماعهم واتِّفاقهم هو سبب محبتهم وتعاونهم ومُساندتهم لبعضهم البعض .

إن عبادتهم لآلهتهم الأصنام كان بهدف حصول المودة بينهم في الدنيا، دُون أيِّ اعتبار للآخرة. وهذه المودة تزول وتنقطع ولا تنفع في الآخرة. ثُمَّ يوم القيامة، ينقلب الحال ، ويتغيَّر الظَّرْف ، ويتبدَّل الموقف، وتصبح المودةُ والمحبة والأُلفة عداوةً وكراهيةً ونُفورًا، حيث يَقع الجحود والنُّكران والتلاعُن بين الطرفَيْن (العابدين والمعبودين)، وتتبرَّأ الأصنامُ مِن عابديها ، ويتبرَّأ القادةُ مِن الأتباع ، ويَلعن الأتباعُ القادةَ ، لأن الصداقة والمحبة بينهم كانت بسبب مصالح دُنيوية شخصية، ولَم تكن مِن أجل الله تعالى . وما كانَ لله دامَ واتَّصل، وما كان لِغَيره انقطعَ وانفصل.لقد بنى الكافرون علاقاتهم وصداقاتهم في الدنيا على الكفر والضلال ومَتاع الدنيا الزائل، لذلك يَخسَرون كُل شيء في الآخرة ، وتنقطع علاقاتهم ، وتنهار صداقاتهم ، ويُنكِر بعضُهم بعضًا، ولا ينتفعون بعلاقاتهم ولا يَستفيدون مِنها شيئًا ، وتكون وَبَالاً عليهم ، وسببًا لهلاكهم وعذابهم .

أمَّا المؤمنون فقد بَنَوْا علاقاتهم وصداقاتهم في الدنيا وَفْقَ عبادة الله وطاعته ، لذلك تستمر علاقات المؤمنين في الآخرة ، ويَشفع بعضُهم لبعض ، ويَنتفعون بهذه العلاقات وتقودهم إلى نعيم الجنة ، لأنها علاقات مبنية على محبة الله وطاعته . إنها علاقات مِن أجل الله ، وليس مِن أجل الدنيا. ومصيرُ العابدين والمعبودين جميعًا هو عذاب النار الأبديُّ. إن النار هي مَرجعهم ومصيرهم ومَنْزلهم الذي يَأوون إليه، ولا يَخرُجون مِنه،وليس لهم ناصر يُخلِّصهم مِن النار، ولا يُنقِذهم مِنها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٦٧): ((قال المفسِّرون : معنى الكلام : إنما اتَّخذتموها لِتَتَّصل المودة بينكم ، واللقاء والاجتماع عِندها ، وأنتم تعلمون أنها لا تضرُّ ولا تنفع . ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القِيامةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ ، أي: يَتَبَرَّأ القادةُ مِن الأتباع ﴿ ويَلعنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ ، يَلْعن الأتباعُ القادةَ ، لأنهم زيَّنوا لهم الكفر)) اهـ .

١١ــ امتناعهم عن الإيمان لا يَنفعهم :

قالَ اللهُ تعالى:﴿ قُلْ يا قَوْمي اعملوا على مكانتكم إنِّي عاملٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُون ﴾[الزُّمَر: ٣٩].

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ . قُل يا محمد لِمُشركي قَومك الذين يَعبدون الأصنامَ ، ويتَّخذونها آلهةً مِن دُون الله : اعملوا على طريقتكم ومنهجكم القائم على الكفر والضلال والعِناد والمكر والتكذيب . وهذا وعيد أكيد وتهديد شديد . إنِّي عاملٌ على طريقتي ومنهجي القائم على تَوحيد الله والدَّعوة إلى الإسلام. وهذا يدل على أن النبيَّ ﷺ يزداد ثقةً بالله ، وقُوَّةً وتأييدًا مِنه ، لأن اللهَ هو ناصره ومُعينه ومُؤيِّده . فَسَوْفَ تَعْلَمُون نتيجة أفعالكم التي سَتَكون وَبَالاً عليكم .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٨): ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه محمد ﷺ : قُل يا محمد لمشركي قَومك الذين اتَّخذوا الأوثان والأصنام آلهةً يَعبدونها مِن دون الله : اعملوا أيها القوم على تمكنكم من العمل الذي تعملون ومنازلكم ... . ﴿ إنِّي عاملٌ ﴾ كذلك على تَؤُدَة ، على عمل مَن سَلَفَ مِن أنبياء الله قَبْلي، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُون ﴾ إذا جاءكم بأس الله، مَن الْمُحِق مِنَّا مِن الْمُبطِل، والرَّشيد مِن الغَوِيِّ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَن يَأتِيهِ عذابٌ يُخزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عذابٌ مُقيم ﴾[الزُّمَر : ٤٠] .

فَسَوْفَ تَعْلَمون مَن يَأتيه عذاب يُهينه ويُذِلُّه ويَفضحه في الحياة الدنيا ، وذلك بالجوع والأسْر والقتل، ويَنْزِل عليه في الآخرة عذاب دائم مستمر متواصل ، بلا انقطاع ولا نهاية . وهو عذاب النار الشديد . والمعنى : فَسَوْفَ تَعْلَمُون لِمَن تَكون الغَلَبة والنصر ، لِي أَم لكم ؟ ، ومَن سَيَحِلُّ عليه العذاب ، أنا أَم أنتم ؟ . وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، وتَخويف رهيب .

وقد عذَّبهم اللهُ وأخزاهم يوم بَدْر . وإذلالُ الكافرين وهزيمتهم وخِزْيهم دليل على قُدرة الله وتأييده للنبيِّ ﷺ . وقد انتصرَ عليهم النبيُّ ﷺ وغَلَبَهم بفضل الله تعالى . والنبيُّ ﷺ واثق بأنه منصور عليهم في الدنيا والآخرة . وهذا يُشير إلى ثقته المطْلقة بالله تعالى ، وارتفاع معنوياته بتأييد الله له . وقُوَّة النبيِّ ﷺ تزداد بنصر الله تعالى . وإذلالُ الكافرين هو دليل على غَلَبَة النبيِّ ﷺ .

وقال النسفي في تفسيره (٤/ ٥٦):((﴿ إنِّي عاملٌ ﴾ أي : على مكانتي. وحُذف للاختصار، ولِمَا فيه من زيادة الوعيد ، والإيذان بأن حالته تزداد كُل يوم قوة ، لأن الله تعالى ناصره ومُعينه . ألا ترى إلى قَوله:﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُون (٣٩) مَن يَأتِيهِ عذابٌ يُخزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عذابٌ مُقيم (٤٠) ﴾ كيف توعَّدهم بِكَوْنه منصورًا عليهم،غالبًا عليهم في الدنيا والآخرة،لأنهم إذا أتاهم الخِزْي والعذاب فذاك عِزُّه وغَلَبَته،مِن حيث إن الغَلَبَة تتمُّ له بِعِز عزيز مِن أوليائه وبِذُل ذليل

من أعدائه،و﴿يُخزِيهِ﴾ صفة للعذاب كَمُقيم ، أي: عذاب مُخْزٍ له ، وهو يوم بَدْر، وعذاب دائم، وهو عذاب النار)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿فلمَّا رَأَوْا بَأسَنا قالوا آمَنَّا باللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشركين ﴾[غافر: ٨٤]. فلمَّا رأى الكافرون _ الذين جَحدوا وَحدانيةَ الله وكذَّبوا رُسله _ العقوبةَ الشديدة والهلاك الأكيد، وأبْصَرُوا وُقوعَ العذاب الأليم بِهِم، قالوا: صَدَّقْنا بِوَحدانية الله، وأقْرَرْنا بأن لا إله إلا الله، وأنكَرْنا الآلهةَ التي كُنَّا نَعبدها مِن دُون الله ، وجَحَدْنا عبادةَ الأصنام التي جَعلناها شريكةً لله في أُلوهيته وعبادته، وتَبَرَّأْنا مِن الآلهة الباطلة (الأصنام والأوثان). وهذا إقرارُ لا فائدة مِنه ولا نَفْع ، لأنه جاء بعد فَوات الأوان ، وبعد إغلاق باب التَّوبة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١١٤): ((﴿ فلمَّا رَأَوْا بَأسَنا ﴾ ، أي : عَايَنُوا وُقوع العذاب بِهِم ، ﴿ قالوا آمَنَّا باللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشركين ﴾ ، أي : وَحَّدُوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، وكفروا بالطاغوت ، ولكن حيث لا تُقال العَثَرَات ، ولا تنفع المعذرة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فلم يَكُ يَنفعُهم إيمانُهم لَمَّا رَأَوْا بَأسَنا سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِهِ وخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ﴾ [غافر : ٨٥] .

فلم يكن يَنفعهم تَصديقهم بِوَحدانية الله ، ولا إقرارهم بأن لا إله إلا الله ، ولا إنكارهم لعبادة الأصنام وجَحْدها ، حِينَ شَاهَدوا عذاب الله ، وعايَنوا عِقابه ، لأنهم آمنوا حِين لا يَنفع الإيمان ، وتابوا بعد فَوات الأوان ، وإيمانهم عن اضطرار لا اختيار . ووَحْدَه الإيمان الاختياري هو النافع والْمُفيد . والإيمانُ بالغَيْب هو الْمُعْتَبَر شَرْعًا .

وسُنَّة الله ماضية في عباده لا تتبدَّل ولا تتغيَّر، وهي أن الإيمان لا يَنفع عِند رُؤية العذاب . وحُكْمُ اللهِ ثابتٌ في كل زمان ومكان ، وهو أن باب التَّوبة يُغلَق عِند نُزول العذاب ، ولا فائدة عِندئذ مِن التَّوبة ولا الإيمان. وخَسِرَ عند مَجيء عذاب الله الكافرون، الذين جَحدوا وَحدانية الله، وكذَّبوا رُسله . والكافرُ خاسر في كل وقت وحِين ، ولكن خسارته تكون أعظم وأشد عِند مُعايَنة العذاب ، لأنه أضاعَ الدنيا والآخرة ، وخَسِرَهُما مَعًا ، ولا تُوجد أيَّة فرصة للتعويض ولا النجاة.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٣٨ و٢٣٩): ((والبأسُ العذاب . ومعنى : ﴿ سُنَّةَ اللهِ ﴾ أنه سَنَّ هذه السُّنَّة في الأُمم ، أي إن إيمانهم لا يَنفعهم إذا رَأَوا العذاب، ﴿ وخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ﴾ . فإن قِيل: كأنهم لَم يكونوا خاسرين قَبْل ذلك . فعنه جوابان: أحدهما أن ﴿ خَسِرَ ﴾ بمعنى هَلَك، قاله ابن عباس. والثاني أنه إنما بيَّن لهم خُسرانهم عند نزول العذاب، قاله الزَّجاج)).

وقال النسفي في تفسيره (٤/ ٨٢) : ((﴿ فلم يَكُ يَنفعُهم إيمانُهم لَمَّا رَأَوْا بَأسَنا ﴾ ، فلم يَصِح ولَم يستقِم أن يَنفعهم إيمانهم ، ﴿ سُنَّةَ اللهِ ﴾ ، بِمَنْزلة وَعْد الله ونَحْوه من المصادر المؤَكِّدة، ﴿ التي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِهِ ﴾ أن الإيمان عند نزول العذاب لا ينفع ، وأن العذاب نازل بِمُكَذِّبي الرُّسُل ، ﴿ وخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ﴾ . هنالك مكان مُستعار للزمان ، والكافرون خاسرون في كل أوان ، ولكن يتبيَّن خُسرانهم إذا عايَنوا العذاب)) اهـ .

١٢_ مُتابَعة الكفر :

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَن ترضى عَنكَ اليهودُ ولا النصارى حتى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُم قُلْ إنَّ هُدى اللهِ هُوَ الْهُدى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أهواءَهُم بَعْدَ الذي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ ولا نصير﴾[البقرة: ١٢٠].

أهلُ الكتاب لا يُمكن أن يَرضوا عن النبيِّ ﷺ ، ولو جاءهم بكل الآيات والأدلة النقلية والبراهين العقلية، فهُم يطمحون إلى أن يترك النبيُّ ﷺ الإسلامَ (الدين الحق)، ويتَّبع مِلَّتهم الباطلة. وهذا مُحال بسبب عِصمة الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ .

ومهما فَعل النبيُّ ﷺ فلن يرضى عنه اليهود ولا النصارى ، لأنهم يَحملون في عقولهم أفكارًا مُسبقة لا يُريدون تغييرها سواءٌ ظهر لهم الحق أم لَم يَظهر . كما أن إرضاء الناس غاية لا تُدرَك . فلا فائدة من ملاحقة أهواء الناس المتضاربة ، وآرائهم المتعارضة ، ومواقفهم المختلفة .

والحالةُ الوحيدة التي سيرضى فيها اليهودُ والنصارى عن النبيِّ ﷺ، هي أن يتَّبع مِلَّتهم. وهذا مُحال . فاللهُ تعالى يُثبِّت أنبياءه على الحق ، فلا يَحيدون عن المنهج السماويِّ ، ولا يَنحرفون عن الطريق الإلهيِّ . وأيضًا اليهودية والنصرانية دِينان مُتضادان مُتناقضان ، فالْمُثْبَت في الأول مَنفيٌّ في الثاني ، والمنفيُّ في الأول مُثْبَت في الثاني . وهذه الأوهام المتصادمة لا يمكن أن تجتمع في شخص واحد،فكلُّ إنسان يَدين بِدِين واحد فقط ، وليس " خَلْطة " عقائد متضاربة وأديان مُتباينة .

وعلى المرء أن يَجعل رضا الله أكبر هَمِّه ، ولا يَلتفت إلى رضا الناس أو سخطهم . فالمؤمنُ يتحرك وَفْق الشريعة الإلهية ، وليس وَفْق أمزجة الناس وأحكامهم القاصرة ومصالحهم الشخصية .

ومَن رَسم حياته وَفْق أحكام الآخرين فلا بُد أن يَسقط في فَخ التناقض والتشويش بسبب اختلاف الناس ، وتفاوُت عقولهم وقُدراتهم . أمَّا مَن رَسم مسارَه الحياتي حَسَبَ تعاليم الوَحْي الإلهيِّ (القرآن والسُّنة) فَسَوْفَ يصل إلى الحق بلا تشويش ، وسيكون مَعصومًا مِن الوقوع في مَتاهات الضلال والتضارب والتعارض والتناقض .

وفي الآية السابقة دليلٌ على أن الكفر مِلَّةٌ واحدة لأن الله تعالى ذكر المِلَّة بالمفرَد:﴿ مِلَّتهم ﴾، مع أن اليهود والنصارى فريقان . وهذه القضية في غاية الأهمية . فالكفرُ كُله مَجالٌ واحد ، لأنه ظُلمات مُتشعِّبة تَدور في حَلْقة مُفرَغة ، ومَحصورة في الوهم والأبعاد الخرافية . وكُلُّ الأديان سِوى الإسلام هي أديان أرضية وَضْعية لا تاريخ لها غير الأساطير والخرافات والخزعبلات .

ومَن تفكَّرَ في الظلمات وَجد أنها ذات مرجعيات مختلفة ، ونقطة تجميع واحدة ، أي إنها تنطلق من نقاط بداية متباينة ، لكنها تنتهي إلى نقطة واحدة . لذلك كانت الظلمات سياقًا واحدًا مهما اختلفت الأسماء والأشكال . فالكفرُ هو وجهٌ دميم واحد تتعدَّد أقنعته . وعلى الرغم مِن تعدُّد هذه الأقنعة سيظل الوجهُ واحدًا ومعروفًا لدى الجميع . والشمسُ لا يُمكن تغطيتها بِغِربال . والباطل مَهْما علا ضجيجه سيظل صُراخًا في وادٍ ، وجَعْجَعة بلا طَحْن . وما ضجيجُه إلا مُحاولة يائسة لإخفاء ضَعْفه الفكري ، وغياب المرجعية المتماسكة ، واختفاء المنهج العِلميِّ .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٥٦٥) : ((وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عَنكَ أبدًا ، فَدَعْ طلبَ ما يُرضيهم ويُوافقهم ، وأقْبِلْ على طلب رضا الله في دُعائهم إلى ما بعثك اللهُ به من الحق ، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الأُلفة والدِّين القيِّم ، ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع مِلَّتهم ، لأن اليهودية ضد النصرانية ، والنصرانية ضد اليهودية، ولا تجتمع النصرانية واليهودية في شخص واحد في حال واحدة، واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك إلا أن تكون يهوديًّا نصرانيًّا ، وذلك مِمَّا لا يكون مِنك أبدًا لأنك شخص واحد ، ولن يَجتمع فيك دِينان مُتضادان في حال واحدة ، وإذا لَم يكن إلى اجتماعهما فِيك في وقت واحد سبيل ، لَم يكن لك إلى إرضاء الفريقين سبيل ، وإذا لَم يكن لك إلى ذلك سبيل ، فالزَمْ هُدى الله الذي لجميع الخلق إلى الأُلفة عليه سبيل.وأمَّا المِلَّة فإنها الدِّين، وجَمْعها المِلَل)).

وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي (١/ ٢٧٢) : ((عن ابن عباس أن يهود المدينة ونصارى نَجْران كانوا يَرْجُون أن يُصَلِّيَ النبيُّ ﷺ إلى قِبلتهم ، فلمَّا صَرف اللهُ القِبلةَ إلى الكعبة شَقَّ ذلك عليهم وأَيِسُوا مِنه أن يُوافقهم على دِينهم،فأنزل اللهُ: ﴿ ولن ترضى عنكَ اليهودُ ولا النصارى ﴾ الآية)).

إن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) يَقترحون الآيات ، ويَطلبون المعجزات ، ليس بحثًا عن الحق ، أو مِن أجل التأكُّد مِن صِحَّة نُبُوَّة محمد ﷺ ، وإنما يَفعلون ذلك عِنادًا وإضاعةً للوقت ، وتشكيكًا في الدَّعوة الإسلامية ، وطَعْنًا في نُبُوَّة محمد ﷺ ، وهُم يَهدفون إلى إخراج النبيِّ ﷺ مِن الإسلام ، واتِّباع مِلَّتهم ، كَي يُصبح مِثْلَهم وواحدًا مِنهم ، ويُصَلِّيَ إلى قِبْلتهم .

والآيةُ تدل على قَسوة قلوب أهل الكتاب ، وإصرارهم على الكفر ، وعِنادهم الشديد ، فهُم مُتمسِّكون بالباطل حتى النهاية . وفي هذا إقناط مِنهم للنبيِّ ﷺ عن اعتناق الإسلام والدخول فيه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٣): ((﴿ وَلَن ترضى عَنكَ اليهودُ ولا النصارى حتى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُم ﴾ ، مُبالَغة في إقناط الرسول ﷺ مِن إسلامهم، فإنهم إذا لَم يَرْضَوْا عنه حتى يتَّبع مِلَّتهم، فكيف يتَّبعون مِلَّته ؟ . ولعلهم قالوا مِثْلَ ذلك فحكى اللهُ عنهم)) اهـ .

إن اليهود والنصارى يتحركون بدافع الأهواء المتضاربة ، والتحايل على الحقيقة ، والالتفاف على الحق . وهُم يَنظرون إلى أنفسهم على أنهم صَفوة الله من الخلق ، ويعتقدون أنهم على الحق المطْلق ، وغَيرهم على الباطل المطْلق . وهذه الأوهام نابعة من ثقافة " احتكار الحقيقة " المستقاة من التوراة والإنجيل اللذين أصابهما التحريف. كما أن اليهود والنصارى ينطلقون من موقف استعلائي رافض للحق ، ويَنظرون إلى الآخرين على أنهم أتباع وعوام وجُهَّال. فهُم يَعتبرون أنفسهم الأصلَ، وغَيرهم الفَرْع أو الصورة . وهكذا يتجلى البُعدُ الأسطوري الخرافي عند أهل الكتاب . وللأسف فإن أوهامهم مصبوغة بالدِّين، وأهواءهم مُختلطة بالعقائد. وهذا يَجعلهم غارقين في ضلالهم ، غَير مُستعدين نفسيًّا لتقبُّل الحق ، أو احتضان الحقيقة ، والناسُ أعداءُ ما يَجهلون . والْحُكْم على الشَّيء فَرْع عن تصوُّره .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٣٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلَن ترضى عَنكَ اليهودُ ولا النصارى ﴾ . في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها أن يهود المدينة ونصارى نَجْران كانوا يَرْجُون أن يُصَلِّيَ النبيُّ ﷺ إلى قِبلتهم ، فلمَّا صُرِفَ إلى الكعبة يَئِسوا مِنه ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس . والثاني أنهم دَعَوْهُ إلى دِينهم ، فَنَزلت ، قاله مُقاتل . والثالث أنهم كانوا يَسألونه الهدنة ويُطْمِعُونه في أنه إن هادنهم وافقوه، فَنَزلت، ذَكَرَ معناه الزَّجاج. قال الزَّجاج: والمِلَّة في اللغة السُّنَّة والطريقة)) اهـ .

﴿ قُلْ إنَّ هُدى اللهِ هُوَ الْهُدى ﴾ . قُل يا محمد لليهود والنصارى : إن الإسلام هو طريق الحق والهدى ، وهو الطريق المستقيم ، ولَيس ما تَدْعُون إِلَيه . وفي هذا تكذيبٌ لأهل الكتاب ، وفضح لباطلهم ، وكشف لضلالهم وانحرافهم ، ورَد على عقائدهم المنحرفة وأهوائهم المتناقضة .

وقال أبو السعود في تفسيره (١/ ١٥٣) : ((قُل رَدًّا عليهم: إن هُدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى بالحق ، والذي يَحِق ويَصِح أن يُسمَّى هُدى ، وهو الهدى كُله ، ليس وراءه هدى ، وما تَدْعُون إليه ليس بهدى ، بل هو هوى)) اهـ .

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أهواءَهُم بَعْدَ الذي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ ﴾ . الخطابُ للنبيِّ ﷺ ، والمراد أُمَّته ، فهو مَعصوم مِن الكفر والضلال واتِّباع أهواء الكافرين . وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، وتحذير مِن اتِّباع أهواء أهل الكتاب (اليهود والنصارى)، لأن أهواءهم قائمة على الكفر والضَّلال والتلاعب بالنصوص الشرعية . وأهواؤهم هي مُرادهم وما يُرضيهم . ولَئِن اتَّبعتَ أهواءَ أهل الكتاب التي يَدْعُونك إِلَيها ، بعد الذي جاءكَ يا محمد مِن الوَحْي الإلهيِّ والدِّين الكامل الصحيح (الإسلام) المؤيَّد بالأدلة النقلية والْحُجَج العقلية.وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٣٨) : ((وفي الذي جاءه مِن العِلْم أربعة أقوال : أحدها أنه التَّحَوُّل إلى الكعبة ، قاله ابن عباس . والثاني أنه البيان بأن دِين الله الإسلام ، والثالث أنه القرآن ، والرابع العِلم بِضَلالة القَوم)) اهـ .

﴿ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ ولا نصير ﴾ . ليس لَكَ يا محمد مِن وَلِيٍّ يَنفعك ، ولا يَقوم بأمرك ، ولا نَصير يَحميك مِن عُقوبة الله وعذابه . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٣) : ((﴿ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ ولا نصير ﴾ ، يَدفع عَنك عِقابَه ، وهو جواب ﴿ لَئِنِ ﴾)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إن تُطيعوا فَرِيقًا مِن الذينَ أُوتُوا الكتابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إيمانِكُم كافرين ﴾ [آل عِمران : ١٠٠] .

يا أيها الذين أقررتم بِوَحدانية الله، وصدَّقتم بِنُبُوَّة محمد ﷺ ، إن تُطيعوا طائفةً مِن أهل الكتاب، الذين يَكرَهون المؤمنين ويَحسُدونهم ، يُخرِجوكم مِن الإسلام ، ويَجعلوكم كُفَّارًا بعد أن هداكم اللهُ للإيمان ، وأرشدكم إلى تَوحيده وعبادته وطاعته .

والآيةُ تُحذِّر المؤمنين من طاعة أهل الكتاب وتقليدهم والسَّير على خُطاهم ، لأن هذه الطاعة تُؤدِّي إلى خُروج المؤمنين مِن دِينهم (الإسلام)، والرجوعِ إلى الكفر والضلال والذنوب والمعاصي.

وقد خاطبَ اللهُ المؤمنين بنفْسه ، تعظيمًا لِقَدْرهم ، وتشريفًا لمكانتهم ، فهُم المستحقون لِنَيل شرف مُخاطبة الله لهم، وهُم أَهْلٌ لذلك، والأحِقَّاء بأن يُكلِّمهم اللهُ تعالى. والخطاب في الآية للأوس والخزرج. وقد تضايقَ اليهودُ بسبب محبة المؤمنين (الأوس والخزرج) وأُلفتهم واجتماع كلمتهم ، وغاظهم ذلك. وذكَّرهم اليهودُ بما كانوا بينهم في الجاهلية مِن الفِتَن والحروب والعصبية والاقتتال، فتشاجروا ، وكادوا يَقتتلون . ولفظ الآية عام،والعِبرة بِعُموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٣١):((سبب نزولها أن الأوس والخزرج كان بينهما حرب في الجاهلية، فلمَّا جاء النبيُّ ﷺ أطفأَ تلك الحرب بالإسلام ، فبينما رَجلان أَوْسي وخَزْرجي يتحدَّثان ومعهما يهودي ، جَعل اليهودي يُذكِّرهما أيامهما والعداوة التي كانت بينهما حتى اقتتلا،

فنادى كُل واحد منهما بِقَومه،فخرجوا بالسلاح، فجاء النبيُّ ﷺ، فأصلحَ بينهم، فَنَزلت هذه الآية، قاله مجاهد وعِكرمة والجماعة. قال المفسِّرون: والخطاب بهذه الآية للأوس والخزرج.قال زيد ابن أسلم:وعَنى بذلك الفريق شأس بن قيس اليهودي وأصحابه.قال الزَّجاج:معنى طاعتهم تقليدهم)).

وقالَ اللهُ تعالى:﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إن تُطيعوا الذينَ كَفروا يَرُدُّوكُم على أعقابِكُم فَتنقلبوا خاسرين ﴾ [آل عِمران : ١٤٩] .

يا أيها الذين أقررتم بِوَحدانية الله، وصدَّقتم بِنُبُوَّة محمد ﷺ، والتزمتم بأوامر الله، واجتنبتم نَواهيه ، إن تُطيعوا الكفارَ الذين كذَّبوا بآيات الله ، وأنكَروا نُبُوَّةَ محمد ﷺ ، فِيما يأمرونكم بِه ، ويَدْعونكم إليه، يُخرِجوكم مِن الإسلام ، ويُعيدوكم إلى الكفر والضلال والآثام ، فترجعوا عن الإسلام دِينكم الحق الذي هداكم اللهُ له ، هالكين خاسرين ، خسرتم الدنيا والآخرة معًا ، وهذا مُنتهى الْخُسران . ولا توجد حالة أسوأ مِن اختيار الكفر على الإيمان .

والآيةُ تُحذِّر المؤمنين مِن طاعة الكفار ، ومُوافقتهم ، وتقليدهم ، والأخذ بآرائهم المنحرفة ، واتِّباع أهوائهم الفاسدة ، فإن هذا هو طريق الهلاك في الدنيا ، والعذاب في الآخرة . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٧٤): ((قال ابن عباس : نَزلت في قول ابن أُبَي للمسلمين لَمَّا رَجعوا مِن أُحُد : لَوْ كان نبيًّا ما أصابه الذي أصابه . وفي ﴿ الذينَ كَفروا ﴾ هاهُنا ثلاثة أقوال: أحدها أنهم المنافقون، على قَول ابن عباس ومقاتل.والثاني أنهم اليهود والنصارى ، قاله ابن جُرَيج. والثالث أنهم عَبَدَة الأوثان، قاله السُّدي. قالوا: وكانوا قد أَمَرُوا المسلمين بالرجوع عن دِينهم.ومعنى ﴿ يَرُدُّوكُم على أعقابِكُم ﴾ يَصْرِفُوكم إلى الشِّرك ، ﴿ فَتنقلبوا خاسرين ﴾ بالعقوبة)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ قُلْ يا أهلَ الكتابِ لا تَغلُوا في دِينِكُم غَيْرَ الحقِّ ولا تَتَّبِعُوا أهواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وأضلوا كَثيرًا وضَلُّوا عَن سَواءِ السَّبيل ﴾[المائدة : ٧٧] .

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ . قُل يا محمد لأهل الكتاب: لا تتجاوزوا الحدَّ في دِينكم ، ولا تُفرِّطوا في أقوالكم وعقائدكم ، ولا تُعظِّموا المسيحَ إلى درجة اتِّخاذه إِلَهًا أو ابن إله . وهذا هو غُلُوُّ النصارى ، أمَّا غُلُوُّ اليهود فيتَّضح في اعتبار المسيح ابن زنا ، ومريم زانية . إن المسيح عبد الله ورسوله ، وليس إِلَهًا ولا ابن إله ، فاللهُ لَم يَلِدْ ولَم يُولَدْ ، واللهُ وَحْدَه هو الإله المعبود بحق .

إن الله يأمر أهلَ الكتاب بعدم الغُلُوِّ في الدِّين، أي عدم مُجاوزة الحد، والتطرف ، والانحراف عن الطريق المستقيم . فالغُلُوُّ طريقُ الضلال ، والابتعادُ عن جَادَّة الصواب، وله تأثيرات سلبية على الحياة والأفكار والإنسان والمجتمع .

وقد غَلا اليهودُ في السَّيد المسيح ﷺ حتى قذفوا أُمَّه السيدةَ مريم _ عليها السلام _ ، فَرَمَوْهَا بالزِّنا . قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِم وَقَوْلِهِم عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ [النِّساء : ١٥٦].

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٦٢) : ((قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني أنهم رَمَوْهَا بالزِّنا ، وكذلك قال السُّدي وجبير ومحمد بن إسحاق وغير واحد، وهو ظاهر من الآية أنهم رَمَوْها وابنها بالعظائم وجعلوها زانية ، وقد حَمَلَتْ بولدها من ذلك ، زاد بعضهم وهي حائض ، فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة)) اهـ .

أمَّا النصارى فقد غرقوا في التطرف والغُلُوِّ عكس اتجاه اليهود ، فقد اعتبروا المسيح ﷺ إلَهًا وابن إله . وكِلا الأمْرَيْن تطرُّف وغُلُو مِن جهتَيْن متعاكستَيْن. والفضيلةُ هي المنْزلة الوسط بين خُلُقَيْن ذميمَيْن . وصدقَ القائل :

ولا تَغْلُ في شَيْءٍ مِن الأمرِ وَاقْتَصِدْ كِلا طَرَفَي قَصْدِ الأمورِ ذَمِيمُ

﴿ ولا تَتَّبِعُوا أهواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ ﴾ . الأهواء جَمْع هَوى، وهو ما تَدعو إليه شَهوة النَّفْس، وسُمِّيَ هَوى لأنه يَهْوي بصاحبه في النار.لا تتَّبعوا آباءكم وأسلافكم وشُيوخكم وأئمتكم الذين كانوا ضَالِّين قبل بعثة النبيِّ محمد ﷺ. وبعبارة أخرى ، لا تسيروا على خُطى أئمة الكفر الماضين ورؤساء الضلالة السابقين مِن اليهود والنصارى . والخطابُ لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين كانوا في عصر النبيِّ محمد ﷺ. لقد نهاهم اللهُ عن اتِّباع أسلافهم وساداتهم وزعمائهم فيما اخترعوه مِن العقائد الكُفرية الباطلة ، وفِيما ابتدعوه بأهوائهم دُون دليل نقلي ولا بُرهان عقلي .

﴿ وأضلوا كَثيرًا ﴾ . وأضَلُّوا كثيرًا مِن الناس بأهوائهم وإغوائهم لهم ، وابتداع العقائد الباطلة التي ما أنزلَ اللهُ بها مِن سُلطان .

﴿ وضَلُّوا عَن سَواءِ السَّبيل ﴾ . وانحرفوا عن قَصْد السَّبيل (الإسلام) ، وخرجوا عن طريق الحق والاعتدال إلى طريق الباطل والتطرُّف .إنهم ضَالُّون في أنفسهم ، ومُضِلُّون لِغَيرهم . لقد ضَلُّوا وأَضَلُّوا مَن اتَّبعهم . وهذا مُنتهى الضلال والإضلال . وقِيل : الأول إشارة إلى ضلالهم عن مُقتضى العقل ، والثاني إشارة إلى ضلالهم عمَّا جاء بِه الشَّرْع .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٢٣٦) : ((وتكرير ﴿ ضَلُّوا ﴾ على معنى أنهم ضَلُّوا مِن قَبْل، وضَلُّوا مِن بَعْد. والمراد الأسلاف الذي سَنُّوا الضلالةَ، وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى)).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤٠٥): ((قَوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أهلَ الكتابِ ﴾ ، قال مقاتل : هُم نصارى نَجْران ، والمعنى : ﴿ لا تَغلُوا في دِينِكُم ﴾ فتقولوا ﴿ غَيْرَ الحقِّ ﴾ في عيسى . قَوله تعالى : ﴿ ولا تَتَّبِعُوا أهواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ ﴾ . قال أبو سليمان : مِن قَبْل أن تَضِلُّوا ، وفِيهم قَولان : أحدهما أنهم رُؤساء الضلالة من اليهود . والثاني : رُؤساء اليهود والنصارى. والآية خطاب للذين كانوا في عصر نَبِيِّنا ﷺ ، نُهُوا أن يتَّبعوا أسلافهم فِيما ابتدعوه بأهوائهم)) اهـ .

١٣ ـ صَدُّهم عن سبيل الله :

قالَ اللهُ تعالى:﴿الذينَ يَصُدُّونَ عَن سَبيلِ اللهِ ويَبغونها عِوَجًا وهُم بالآخرةِ هُم كافرون﴾[هُود:١٩].

يَمنعون الناسَ مِن اتِّباع الحق ، ويُغلِقون أمامهم طريق الهدى ، ويُبعدونهم عن الإسلام ، ويَرُدُّونهم عن الطريق المستقيم الذي يُوصِل إلى رضا الله وجنَّته ، ويَصِفون سبيل الله (الإسلام) بالاعوجاج والانحراف ، حتى لا يَعتنقه أحد ولا يتَّبعه . وهو الدِّين الحق ، والطريق المستقيم . أو يُريدون أن يرتد الناسُ عنه ، ويَتركوه . وهذا يدل على قَسوة قلوبهم ، وكراهيتهم لظهور الحق . وهُم مُنكِرون لليوم الآخر ، وجاحدون بالبعث والنُّشور .

إنهم ضَالُّون في أنفسهم ، ومُضِلُّون لِغَيرهم ، ومُكذِّبون بالبعث والآخرةِ ، ومَعَ هذا يَعتقدون أنهم على الطريق المستقيم ، وأن الإسلام دِين باطل . وهذا مُنتهى الضلال . وتكرير الضَّمير في ﴿ وهُم بالآخرةِ هُم كافرون ﴾ ، لتأكيد كفرهم واختصاصهم به .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٢٣) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ألا لعنة الله على الظالمين الذين يَصُدُّون الناسَ عن الإيمان به ، والإقرار له بالعُبودة ، وإخلاص العبادة له دُون الآلهة والأنداد مِن مُشركي قُرَيش ، وهُم الذين كانوا يَفْتِنون عن الإسلام مَن دَخل فيه ، ﴿ ويَبغونها عِوَجًا ﴾ . يقول: ويَلتمسون سبيل الله ، وهو الإسلام الذي دعا الناسَ إليه محمد . يقول : زَيْغًا ومَيْلاً عن الاستقامة، ﴿ وهُم بالآخرةِ هُم كافرون ﴾ . يقول: وهُم بالبعث بعد الممات معَ صَدِّهم عن سبيل الله وبَغيهم إيَّاها عِوَجًا ﴿ كافرون ﴾ . يقول : هُم جاحدون ذلك مُنكِرون)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ الذينَ يَسْتَحِبُّونَ الحياةَ الدُّنيا على الآخرةِ ويَصُدُّونَ عَن سَبيلِ اللهِ ويَبغونها عِوَجًا أُولئكَ في ضَلالٍ بعيد ﴾[إبراهيم : ٣] .

يُوضِّح اللهُ صفات الكافرين الضَّالين . إنهم يُفضِّلون الدنيا على الآخرة ، ويُؤثِرون مَتاع الدنيا الفاني على نعيم الآخرة الباقي، ويَعملون للدنيا، ولا يَعْملون للآخرة، ويَختارون المعاصي والذنوب والشهوات، ويَرْفضون العبادة والطاعة والقُرُبَات، ويَمنعون الناسَ مِن اعتناق الإسلام، ويُبعِدونهم عنه، ويُحِبُّون ويَطْلُبون أن تكون سبيل الله (الإسلام) مائلةً ومُنحرِفةً ومُعْوَجَّةً ، لتوافق أهواءهم ومصالحهم الشخصية وأهدافهم الدنيئة،وكَي يَطْعنوا في الإسلام،ويُشكِّكوا فيه، ويُنفِّروا الناسَ مِنه.

والإسلامُ هو دِين الله ، وهو الطريق المستقيم الواضح ، لا لَبْسَ فيه ولا انحراف ولا اعوجاج .

وهؤلاء الكافرون المتَّصفون بهذه الصفات السَّيئة ، في جهل وضلال بعيد عن الحق ، ولا فائدة تُرجَى مِنهم ، ولا خَير فيهم ، ولا أمل في إرشادهم وصلاحهم وهدايتهم .

والبُعد في الحقيقة مِن صفة الضال ، فالضال هو الذي يبتعد عن طريق الحق والهدى . ووصفُ الضلال بالبُعد مِن الإسناد المجازي لِقَصد الْمُبالَغة ، فهؤلاء الكافرون في قاع الكفر والضلال . وحالتهم هي أسوأ الحالات ، ولا يوجد أسوأ مِنها . ولا أمل فيهم ، ولا فائدة مِنهم .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٤١٥): ((يَعني جَلَّ ثناؤه بِقَوله : ﴿ الذينَ يَسْتَحِبُّونَ الحياةَ الدُّنيا على الآخرةِ ﴾ ، الذين يَختارون الحياة الدنيا ومَتاعها ومعاصي الله فيها ، على طاعة الله وما يُقرِّبهم إلى رِضاه من الأعمال النافعة في الآخرة ، ﴿ ويَصُدُّونَ عَن سَبيلِ اللهِ ﴾ . يقول: ويَمنعون مَن أراد الإيمانَ بالله واتِّباع رسوله على ما جاء بِه مِن عند الله من الإيمان به واتِّباعه ﴿ ويَبغونها ﴾ . يقول : ويَلْتَمسون سبيل الله وهي دِينه الذي ابتعث به رسولَه ﴿ عِوَجًا ﴾ تَحْرِيفًا وتبديلاً بالكذب والزُّور ... . يقول اللهُ عَزَّ ذِكْرُه : ﴿ أُولئكَ في ضَلالٍ بعيد ﴾ . يعني هؤلاء الكافرين الذين يَستحبون الحياة الدنيا على الآخرة . يقول : هُم في ذهاب عن الحق بعيد، وأخذ على غير هُدى ، وجَوْر عن قَصْد السبيل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ كَفروا وصَدُّوا عَن سَبيلِ اللهِ أضلَّ أعمالَهُم ﴾ [مُحَمَّد : ١].

الذينَ أنكَروا وَحدانيةَ الله، وكذَّبوا بآياته، وجحدوا نُبُوَّةَ محمدﷺ، وعبدوا الأصنامَ والأوثانَ ، وأعرَضوا عن الإسلام ، ومَنعوا الناسَ مِن اعتناقه ، وأبعدوهم عنه ، أبطلَ اللهُ أعمالهم ولَم يَقْبَلها ، وجَعلها هَباءً مَنثورًا ، وضائعةً لا وَزْنَ لها ولا قيمة ، وأحبَطَها ، ولَم يَجعل لها ثوابًا ولا أجْرًا ، لأنها لَم تكن خالصةً لوجه الله تعالى ، وهذا سبب بُطلانها وضياعها .

والمقصود : أعمالهم الفاضلة كَصِلة الأرحام ، وإكرام الأضياف ، وفَك الأُسَارى ، وحِفظ الجِوار . وهذه الأعمالُ باطلة مِن الأصل ، ولكن معنى الآية أن الله قَد حَكَمَ بِبُطلانها وضياعها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٩٦):((قَوله تعالى: ﴿ الذينَ كَفروا ﴾ أي: بتوحيد الله، وصَدُّوا الناسَ عن الإيمان بِه، وهُم مُشركو قُرَيش ، ﴿ أضلَّ أعمالَهُم ﴾ أي : أبطَلَها ولَم يَجعل لها ثوابًا ، فكأنها لَم تكن . وقد كانوا يُطْعِمون الطعام ، ويَصِلون الأرحام ، ويتصدَّقون ، ويَفْعلون ما يَعتقدونه قُربةً)) اهـ . وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ في قَوْله عَزَّ وَجَلَّ ــ : ــ ﴿ الذينَ كَفروا وصَدُّوا عَن سَبيلِ اللهِ أضلَّ أعمالَهُم ﴾ . قال : ((مِنهم أهل مكة)) [12].

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ إنَّ الذينَ كَفروا وصَدُّوا عَن سَبيلِ اللهِ ثُمَّ ماتوا وهُم كُفَّارٌ فَلَن يَغفِرَ اللهُ لهم﴾ [مُحَمَّد : ٣٤].

إن الذين أنكَروا تَوحيدَ الله ، وكذَّبوا بآياته ، وجَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ ، ومَنعوا الناسَ مِن اعتناق الإسلام، وأغلَقوا طريقَ الحق والهدى أمامهم ، ثُمَّ ماتوا على الكفر ، فَلَن يَعْفُوَ اللهُ عنهم ، ولَن يَغفَر لهم . وسَوْفَ يُعذِّبهم أشد العذاب ، مَعَ الخِزي والعار والذل والألم والفضيحة .

والآيةُ دليل على أن مَن مات كافرًا ، فهو خالد في النار ، ولا تُوجد فرصة لنجاته . والآيةُ تُقيِّد استحالة المغفرة بالموت ، لأن باب التَّوبة مَفتوح أثناء الحياة . ويُفهَم مِن الآية أن الله قَد يَغفِر ذُنوبَ العبد إذا ماتَ على الإسلام ، ولَم يَمُت على الكفر . وحُكم الآية عام .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٣٢٦) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : إن الذين أنكَروا توحيد الله، وصَدُّوا مَن أرادَ الإيمانَ بالله وبرسوله عَن ذلك، ففتنوهم عنه ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا مِن ذلك ﴿ ثُمَّ ماتوا وهُم كُفَّارٌ ﴾ . يقول: ثُمَّ ماتوا وهُم على ذلك مِن كُفرهم، ﴿ فَلَن يَغفِرَ اللهُ لهم ﴾ يقول: فلن يَعْفُوَ اللهُ عمَّا صَنع مِن ذلك، ولكنه يُعاقبه عليه، ويَفضحه به على رؤوس الأشهاد)) .

١٤ــ تَحَدِّي الكفار :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإن كُنتم في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا على عَبْدِنا فَأتُوا بِسُورةٍ مِن مِثْلِهِ وادْعُوا شُهداءَكُم مِن دُونِ اللهِ إن كُنتم صادقين ﴾[البقرة : ٢٣] [13].

---

(١٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٩٦) برقم (٣٧٠٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٩) : ((سبب نزولها أن اليهود قالوا : هذا الذي يأتينا به محمد لا يُشبه الوَحْيَ ، وإنَّا لفي شَك مِنه ، فَنَزلت هذه الآية، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس ومقاتل . ﴿ وإن ﴾ هاهُنا ، لِغَير شَك ، لأنَّ الله تعالى عَلِمَ أنهم مُرتابون ، ولكن هذا عادة العرب ، يَقول الرَّجل لابنه : إنْ كُنتَ ابني فأطعني . وقيل : إنها هاهُنا ، بمعنى إذْ)) اهـ .

هذا التَّحدي للمشركين الطاعنين في القرآن الكريم أن يأتوا بِسُورة مِن مِثْلِه في حُسن النَّظْم ، والفصاحةِ اللغوية ، والبيانِ الباهر ، ويستعينوا على هذا الأمر بأعوانهم وفُصحائهم وآلهتهم من دون الله تعالى . ولوْ كان المشركون الطاعنون في القرآن صادقين في دعواهم لقدَّموا براهينهم التي تَدحض حُجَّةَ القرآن الباهرة .

وبما أنهم لَم يَفعلوا ولن يَفعلوا ، فهذا مؤشر على عجزهم ، وانكسارهم أمام البُرهان القرآني الساطع ، وما عليهم إلا التسليم بأن مصدر القرآن هو السماء ، لَوْ كانوا يُريدون الحق بلا أهواء شخصية . ولا يخفى أن العرب هُم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان والتبحُّر في اللغة العربية وأسرارها، فإن عجزوا عن تحدِّي القرآن وهو بِلُغتهم، فَغَيْرُهم _ بالتأكيد_ سيكون أكثر عَجْزًا . وإذا فشل القويُّ في عملٍ ما ، فلن ينجح فيه الضعيف .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٢٠٠) : ((وإن كنتم أيها المشركون من العرب والكفار من أهل الكتابَيْن في شَك _ وهو الرَّيْب _، مِمَّا نَزَّلْنا على عبدنا محمد ﷺ مِنَ النُّور والبرهان وآيات الفُرقان أنه مِن عندي ، وأني الذي أنزلته إليه ، فلم تؤمنوا به ، ولَم تصدِّقوه فيما يقول ، فأتوا بِحُجَّة تَدفع حُجَّته ، لأنكم تعلمون أن حُجَّةَ كُلِّ ذِي نُبُوَّة على صِدْقه في دَعواه النُّبُوَّة ، أن يأتيَ بِبُرهان يَعجز عن أن يأتِيَ بِمِثْلِه جَميعُ الخلق. ومِن حُجَّة محمد ﷺ على صِدقه، وبُرهانه على حقيقة نُبُوَّته وأن ما جاء به من عندي ، عجز جميعكم وجميع مَن تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم عن أن تأتوا بسورة مِن مِثْلِه ، وإذا عجزتم عن ذلك وأنتم أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة والذَّرابة _ حِدَّة اللسان _ فقد علمتم أن غَيْرَكم عمَّا عجزتم عنه من ذلك أعجز)) اهـ .

﴿ وإن كُنتم في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا على عَبْدِنا فَأتُوا بِسُورةٍ مِن مِثْلِهِ ﴾ . لقد رَفض المشركون الاعترافَ بأنَّ القُرآنَ وَحْيٌ إلهيٌّ ، وسيطرَ عليهم الشكُّ : هل القُرآن مِن عِند الله أم لا . وعَلِمَ اللهُ أنهم شَاكُّون في القُرآن، فَتَحَدَّاهم اللهُ بالْحُجَّة والبُرهان والمنطق: إنْ كُنتم أيها المشركون في شَكٍّ مِنَ القُرآنِ الذي نَزَّلْناه على محمد مُفَرَّقًا ، فأتوا بِسُورة مُماثِلة لِسُوَرِ القُرآن في البلاغة والفصاحة والبيان وقوة التأثير . وهذا أمر تعجيزيٌّ .

ولأنَّ العبادة أشرف الأوصاف ، سَمَّى اللهُ رَسولَه محمدًا ﷺ عبدًا. واللهُ أضافَ العبدَ إلى نفْسه، فقال : ﴿ عَبْدِنا ﴾ لِرَفْع ذِكْر محمد ﷺ ، والتَّنويه بِفَضْله ، والإشادة بمكانته الجليلة .

وقال القرطبي في تفسيره(١/ ٢٧٤) : ((﴿ على عَبْدِنا ﴾ يعني محمدًا ﷺ . والعبد مأخوذ من التَّعَبُّد، وهو التَّذلُّل، فَسُمِّيَ المملوك_ مِن جِنس ما يَفعله_ عَبْدًا لِتَذَلُّلِهِ لِمَولاه)) اهـ .

والسُّورةُ قطعة من القُرآن ، لها أوَّل وآخِر ، أقلُّها ثلاث آيات . وسُمِّيت السُّورة بهذا الاسم لِشَرَفِها ومَجْدِها . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٧٢): ((والسُّورة قطعة من القرآن معلومة الأول والآخِر... وقِيل : السُّورة اسم للمَنْزلة الرفيعة. ومِنه سُور البناء لارتفاعه . سُمِّيت سُورة ، لأن القارئ يَنال بقراءتها مَنْزلةً رفيعة ، حتى يَستكمِل المنازلَ باستكماله سُوَر القرآن)) اهـ .

﴿ فَأتُوا بِسُورةٍ مِن مِثْلِهِ ﴾ . تَحَدَّاهم اللهُ جميعًا أن يأتوا بِسُورة مِن مِثْل هذا القُرآن حَقًّا لا باطل فِيه. والتَّحدي عام وشامل . تَحَدَّاهم أن يأتوا بِسُورة مِن مِثْلِه في الفصاحة والبيان وحُسن النَّظْم والإخبار بالغَيبيَّات. وإذا عَجِزوا عَن ذلك ، فهذا دليلٌ واضح على صِحَّة نُبُوَّة محمد ﷺ . وقد عَجِزوا . تَحَدَّى اللهُ أفصحَ الأمم في اللغة العربية أن يأتوا بِسُورة بِلُغتهم تَقْدِر على مُواجَهة القُرآن ، وقد عَجِزوا معَ شِدَّة عداوتهم للإسلام ، وكراهتهم للدَّعوة المحمَّدية الإسلامية، وحِرْصِهم على اجتثاث هذه الدَّعوة بكل الوسائل. والجديرُ بالذِّكْر أنَّ اللهَ تَحَدَّاهم في مكة والمدينة عِدَّةَ مَرَّات ، وفَشِلوا ، وهُم أكثر الناس حِرْصًا على إنهاء أمر الإسلام ، ومُواجَهة النبيِّ ﷺ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٩١) : ((﴿ فَأتُوا بِسُورةٍ مِن مِثْلِهِ ﴾ . يعني : مِن مِثْلِ القرآن، قاله مجاهد وقَتادة ، واختاره ابن جرير الطبري والزمخشري والرازي ، ونقله عن عمر وابن مسعود وابن عباس والحسن البصري وأكثر المحقِّقين ، ورَجَّحَ ذلك بوجوه مِن أحسنها أنه تحدَّاهم كُلَّهم مُتفرِّقين ومُجتمعين ، سواءٌ في ذلك أُمِّيُّهم وكِتابِيُّهم ، وذلك أكمل من التحدي وأشمل مِن أن يتحدَّى آحادَهم الأُمِّيين مِمَّن لا يَكتب ولا يُعاني شيئًا من العلوم)) اهـ .

﴿ وادْعُوا شُهداءَكُم مِن دُونِ اللهِ إن كُنتم صادقين ﴾ . واستعينوا أيها المشركون بأنصاركم وعُلمائكم وحُكمائكم ، وآلهتكم التي تَعبدونها مِن دُون اللهِ ، مِن أجل الإتيان بِسُورة مِن مِثْلِه ، إن كُنتم صادقين في زَعْمِكم أنَّ محمدًا جاء بالقُرآنِ مِن عِنده ، أوْ إن كُنتم صادقين في زَعْمكم أنكم قادرون على مُعارَضة القُرآن .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٠) : ((فِيه قَولان : أحدهما أنَّ معناه : استعينوا ، مِن الْمَعُونة ، قاله السُّدي والفرَّاء. والثاني: استغيثوا، مِنَ الاستغاثة...وهذا قول ابن قُتَيبة)) اهـ .

وفي تفسير القرطبي (١/ ٢٧٤) : ((وقال ابنُ كَيْسان : فإنْ قِيل : كيف ذَكَر الشُّهداء ، هاهُنا ، وإنما يكون الشهداء لِيَشهدوا أمْرًا ، أو لِيُخبِروا بأمر شَهِدوه ، وإنما قِيل لهم : ﴿ فَأتُوا بِسُورةٍ مِن مِثْلِهِ ﴾ ، فالجواب أنَّ المعنى : استعينوا بِمَن وجدتموه مِن عُلمائكم ، وأحضِروهم لِيُشاهِدوا ما تأتون بِه ، فيكون الرَّدُّ على الجميع أوْكَدَ في الْحُجَّة عليهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإن لم تَفعلوا وَلَن تَفْعَلوا فاتَّقُوا النارَ التي وَقُودُها الناسُ والحِجارةُ أُعِدَّتْ للكافرين ﴾ [البقرة : ٢٤] .

فإنْ لَم تأتوا بِسُورةٍ مِن مِثْلِه ، أنتم وأنصارُكم وآلهتُكُم ، فقد ثَبَتَ عَجْزُكم ، واتَّضحَ باطلُكُم، وظَهَرَ الدليلُ أنَّ القُرآنَ وَحْيٌ إلهيٌّ . ولَن تَستطيعوا الإتيانَ بِسُورةٍ مِن مِثْلِه أبدًا . وهذا يَكشف إعجازَ القُرآنِ الذي لا يَزول ولا يَنتهي ، ويدل على أنَّ القُرآنَ مُعجِزةُ النبيِّ ﷺ الخالدة ، وأنَّهم عاجزون في الماضي والحاضر والمستقبَل .

﴿ وَلَن تَفْعَلوا ﴾ تَنفي المستقبَلَ . وهذه مُعجِزة بحدِّ ذاتها لأنها إخبار بأمرٍ غَيْبِيٍّ . وَلَم يَذكر التاريخُ أنَّ أحدًا عَارَضَ القُرآن ، ولوْ حَدَثَ ذلك لانتشرَ الأمرُ، وشاعَ بين الناس ، وتناقلوه جِيلاً بعد جِيل . وفي هذا دليلٌ واضح على صِدْق النبيِّ محمد ﷺ . وكانَ الأمرُ كما أخبرَ اللهُ ، وَلَو استطاعَ المشركون تكذيبَ القُرآن لَمَا قَصَّروا في ذلك .

إذن ، إنَّ عَجْزَهم دليلٌ واضح على صِحَّة نُبُوَّة محمد ﷺ. وهذا التَّحدي المشتمِل على أمرٍ غَيبيٍّ في المستقبَل، لا يَصْدُر إلا عَن عالِمٍ بما يَقول ، قاطعٍ بِما يُخبِر ، عارفٍ بالغُيوب ، مُسيطِرٍ على حركة الزمان والمكان .

وقال الثعالبي في تفسيره (١/ ٣٩) : ((﴿ وَلَن تَفْعَلوا ﴾ إثارة لِهِمَمهم ، وتحريك لنفوسهم ، ليكون عجزُهم بعد ذلك أبدعَ ، وهو أيضًا مِنَ الغُيوب التي أخبرَ بها القرآنُ)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٩١) : ((﴿ وَلَن ﴾ لِنَفْي التأبيد في المستقبل، أي : وَلَن تفعلوا ذلك أبدًا . وهذه أيضًا مُعجِزة أخرى ، وهو أنه أخبرَ خَبَرًا جازمًا قاطعًا غَير خائف ولا مُشفِق أنَّ هذا القرآن لا يُعارَض بِمِثْلِه أبدَ الآبدين ، وَدَهْر الداهرين ، وكذلك وَقَعَ الأمرُ ، لَم يُعارَض من لَدُنهُ إلى زماننا هذا ، ولا يمكن ، وأنَّى يتأتَّى ذلك لأحد ، والقرآنُ كلام الله خالق كل شيء ، وكيف يُشبِه كلامُ الخالق كلامَ المخلوقين ؟! ، وَمَن تَدَبَّرَ القرآنَ ، وَجد فيه مِن وُجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخَفِيَّة ، مِن حيث اللفظ ، ومِن جِهة المعنى)) اهـ .

﴿ فاتَّقُوا النارَ التي وَقُودُها الناسُ والحِجارةُ أُعِدَّتْ للكافرين ﴾ . والمعنى : فإذا عَجِزْتُم عَن مُعارَضة القُرآنِ ، فهذا دليلٌ على أنَّهُ كلامُ اللهِ ، فابتعِدوا عن العِناد والْمُكابَرة ، واتَّقوا النارَ ، وذلك بالإيمان باللهِ وكُتبه ورُسله ، والتزامِ أوامره ، واجتنابِ نواهيه .

وَوَصْفُ النارِ لِبَيان عَظَمَتها وشِدَّتها، والتحذيرِ مِنها . فهي تتَّقد بالناسِ والحجارةِ ، ولَيْسَتْ كنار الدُّنيا تتَّقد بالحطب . وهذا يُشير إلى حرارتها الهائلة .

وفي تفسير الثعالبي (١/ ٣٩) : ((قال الفخر : وَلَمَّا ظَهر عَجْزُهم عَن الْمُعارَضة صَحَّ عِندَهم صِدْقُ النبيِّ ﷺ ، وإذا صَحَّ ذلك ثُمَّ لَزِموا العِنادَ اسْتَوْجَبوا العِقابَ بالنار. واتِّقاءُ النار يُوجب تركَ العِناد ، فأُقيم قَوْلُه : ﴿ فاتَّقُوا النارَ ﴾ مَقام قَوْلِه : واتركوا العِناد . ووَصْفُ النار بأنها تَتَّقد بالناس والحجارةِ، وذلك يدل على قُوَّتها _ نَجَّانا اللهُ مِنها برحمته الواسعة _ ، وقَرَنَ اللهُ سُبحانه الناسَ بالحجارة ، لأنهم اتَّخذوها في الدنيا أصناماً يَعبدونها)) اهـ .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ قال : ((إنَّ الحِجارةَ التي سَمَّى اللهُ في القرآن : ﴿ وَقُودُها الناسُ والحِجارةُ ﴾ ، حِجارة مِن كِبريت ، خَلَقَها اللهُ تعالى عِندَه كَيْفَ شاءَ ، أو كما شاء)) [14] . وحِجارةُ الكِبريت هي أشدُّ الأشياء حرارةً إذا أُحْمِيَت ، وهُم يُعذَّبون بها .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم يَقولونَ افتراهُ قُلْ فأتُوا بِسُورةٍ مِثْلِهِ وادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللهِ إن كُنتم صادِقِين ﴾ [يُونُس : ٣٨] [15].

أَيَقُولُ المشركون إنَّ محمدًا اختلقَ القُرآنَ ، وجاءَ بِه مِن عِند نفْسه ؟. والاستفهام للإنكار معَ إلزامهم بالْحُجَّة وتقرير ثُبوتها. ومعنى الاستفهام التَّوبيخ والتَّقريع. وهنا يَبْرز التَّحدي الذي يُظهِر بُطلانَ زَعْمِهم : إنْ كانَ الأمر كما تقولون ، فَأْتُوا بِسُورةٍ شَبيهة بالقُرآن في الفصاحة والبلاغة وحُسن البيان والنَّظْم ، وجَمالِ اللفظ ، وقُوة المعنى .

والقُرآنُ نَزَلَ بِلُغتهم، وهُم أهل الفصاحة والبلاغة والشِّعر والْخَطابة، ويَعرفون أسرارَ اللغة العربية أكثر مِمَّا يَعرفها محمد . واستعينوا أيها المشركون بآلهتكم وأعوانِكم مِنَ الكَهنة والشُّعراء والفُصحاء وَبِمَن أمكَنَكم أن تستعينوا بِه ، إن كُنتم صادقين في زَعْمِكم أنَّ محمدًا افْتَرَى القُرآنَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٤٩): ((أي إن ادَّعَيْتُم وافتريتُم وشككتُم في أنَّ هذا مِن عِند الله ، وقُلتم كَذِبًا ومَيْنًا : إنَّ هذا مِن عِند محمد ، فمحمد بَشَرٌ مِثْلُكم، وقد جاء فِيما زعمتُم بهذا القرآن ، فَأْتُوا أنتم بِسُورةٍ مِثْلِه، أي مِن جِنس هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بكل مَن قَدِرْتُم عَلَيْهِ مِن إنسٍ وَجَان ... هذا وقد كانت الفصاحة مِن سَجاياهم ، وأشعارهم ومُعَلَّقاتهم إليها المنتهَى في هذا الباب . ولكنْ جاءهم مِنَ الله ما لا قِبَلَ لأحدٍ بِه، ولهذا آمَنَ مَن آمَنَ مِنهم بما

---

(١٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٨٧) برقم (٣٠٣٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٥) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٢) : ((قَوْله تعالى : ﴿ أَم يَقولونَ افتراهُ ﴾ . في ﴿ أَم ﴾ قَولان : أحدهما أنها بمعنى الواو ، قاله أبو عبيدة . والثاني : بمعنى بَل ، قاله الزَّجاج)) .

عَرف مِن بلاغة هذا الكلام وحَلاوته وجَزالته وطَلاوته وإفادته وبَراعته ، فكانوا أعلمَ الناس بِه، وأفهمَهم له ، وأتبعَهم له ، وأشَدَّهم له انقيادًا ، كَما عَرف السَّحَرةُ لِعِلْمهم بفنون السِّحْر أنَّ هذا الذي فَعَلَه موسى _ عليه السلام _ لا يَصدر إلا عَن مُؤيَّد مُسَدَّد مُرْسَل مِنَ الله ، وأنَّ هذا لا يُستطاع لبشرٍ إلا بإذن الله ، وكذلك عيسى _ عليه السلام _ بُعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يُبْرِئ الأكمهَ والأبرصَ ، ويُحيي الموتى بإذن الله ، ومِثْل هذا لا مَدخل للعلاج والدواء فيه ، فَعَرَفَ مَن عَرَفَ مِنهم أنَّهُ عَبْدُ اللهِ ورَسولُه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أَم يَقولونَ افتراهُ قُلْ فَأتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللهِ إن كُنتم صادقين ﴾ [هُود : ١٣] .

يُوضِّح اللهُ إعجازَ القُرآنِ ، وعَجْزَ الإنس والجِنِّ عن مُعارَضته . وكلامُ اللهِ الخالق لا يُشبِه كلامَ المخلوقين . والقُرآنُ هو الْمُعجِزةُ العُظمى ، وأعظمُ دليلٍ على صِحَّة نُبُوَّة محمد ﷺ .

ولَمَّا عَجِزَ المشركون عَن مُعارَضة القُرآن ، لَجَؤوا إلى الكذب وإلقاء التُّهم بلا دليل . وهذه حُجَّةُ العاجزِ في كل زمان ومكان . وزَعموا أنَّ محمدًا قامَ بتأليف القُرآن .

والاستفهام في الآية لِتَوبيخهم . إنْ كُنتم تقولون إنَّ محمدًا افترى القُرآنَ ، فَأْتُوا بِعَشْر سُوَرٍ مُخْتَلَقَاتٍ مِن عِندِ أنفسكم ما دَامَ محمد _حَسَبَ زَعْمكم _ قد اختلقَ القُرآنَ. وهذا أمر تعجيز .

ومحمدٌ عربيٌّ ، وأنتُم عَرَبٌ أهلُ الفصاحة والبلاغة وتَعرفون الشِّعْرَ والكِهانةَ والقَصَصَ ، واستعينوا بِمَن شِئتُم مِنَ آلهتكم وأعوانكم. وإنْ كانَ سلاحُ محمد هو تأليف القُرآن_وَفْقَ قَولكم_ فَوَاجِهُوه بنفْسِ سلاحه ونفْسِ لُغته التي هي لغتكم .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ تَحَدِّي اللهِ للمُشركين جاءَ على مراحل . المرحلة الأُولَى _ أن يَأتوا بِمِثْلِ القُرآنِ . فقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل لَئِنِ اجتمعتِ الإنسُ والجِنُّ على أن يَأتوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يَأتونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهيرًا ﴾ . المرحلة الثانية _ أن يأتوا بِعَشْرِ سُوَر ، فقال اللهُ تعالى : ﴿ أَم يَقولونَ افتراهُ قُلْ فَأتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللهِ إن كُنتم صادقين ﴾ . المرحلة الثالثة _ أن يأتوا بِسُورةٍ واحدة ، فقال اللهُ تعالى: ﴿ أَم يَقولونَ افتراهُ قُلْ فأتُوا بِسُورةٍ مِثْلِهِ وادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللهِ إن كُنتم صادِقِين ﴾ .

سَهَّلَ اللهُ عليهم الأمر ، وتَحَدَّاهم بِسُورةٍ واحدة . وقد فَشِلُوا ، وأُفْحِمُوا ، وشَهِدوا على أنفسهم بالعَجْز التام . لقد كانوا شديدي الحرص على إبطال الدَّعوة المحمَّدية الإسلامية . وَلَو استطاعوا مُعارَضة القُرآن لاغتنموا هذه الفرصة ، وما قصَّروا في ذلك ، وذلك من أجل شَرْعنة

مشروعهم الوثنيِّ . لكنهم لَم يَقدِروا على ذلك. وإذا كانَ فُصحاءُ العرب عاجزين عن مُعارَضة القُرآن ، وهو بِلُغتهم، فَغَيْرُهم أكثر عَجْزًا . وقال القرطبي في تفسيره (١/ ١٠٥) : ((فبلاغةُ القرآن في أعلى طبقات الإحسان ، وأرفع درجات الإيجاز والبيان ، بَل تجاوزتْ حَدَّ الإحسان والإجادة ، إلى حَيِّز الإرباء والزيادة ، هذا رسول الله ﷺ معَ ما أُوتِيَ مِن جَوامع الكَلِم ، واخْتُصَّ بِهِ مِن غرائب الحِكَم ، إذا تأمَّلْتَ قَوْلَه ﷺ في صِفة الجِنان _ وإنْ كان في نهاية الإحسان _ وَجَدْتَهُ مُنْحَطًّا عن رُتبة القرآن ، ولَكَ في قَوْله _ عليه السلام _: " فِيها ما لا عَيْنٌ رَأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بَشَرٍ " [صحيح مسلم (٤/ ٢١٧٥)] ، فأينَ ذلك مِن قَوْلِه _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وَفِيها ما تَشتهيه الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعْيُنُ ﴾ [الزُّخْرُف: ٧١]، وقَوْلِه : ﴿ فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أعْيُنٍ ﴾ [السَّجدة : ١٧] . هذا أعدلُ وَزْنًا ، وأحسنُ تركيبًا ، وأعذبُ لَفظًا ، وأقلُّ حُروفًا)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ قُل لَئِنِ اجتمعتِ الإنسُ والجِنُّ على أن يَأتوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يَأتونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] [16].

لَو اجتمعَ الإنسُ والجِنُّ وتعاوَنوا معًا ، من أجل تأليفِ كتاب كالقُرآنِ الْمُعْجِز الموصوفِ بالفَصاحة والبلاغة ، وجَزالة اللفظ ، وكمال المعنى ، وكشف الأمور الغَيبيَّة ، لَفَشِلوا في ذلك ، ولوْ كان بعضُهم لبعض عَوْنًا ونصيرًا ، لأنَّ القُرآنَ فوق قُدرات المخلوقين .

واللهُ تعالى لَم يَقُل: لا يَأتون بِه، وإنما قال: ﴿ لا يَأتونَ بِمِثْلِهِ ﴾ ،وهذا أقوى في التعبير، لأنه يَعني أنهم عاجزون عَن الوصول إلى أيِّ صِفة مِن صِفات القُرآن ، ولا يَستطيعون الوصول إلى أيِّ وَجْه مِن وُجوه إعجاز القُرآن .

ومَن كانَ عاجزًا عن الإتيان بالجزء ، فهو أكثر عَجزًا عَن الإتيان بالكُلِّ . إنهم عاجزون عن الاقتراب مِنَ مُستوى القُرآن ، فكيفَ يَصِلُون إلى مُستواه ؟ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٦٥) : ((﴿ لا يَأتونَ بِمِثْلِهِ ﴾ وفِيهم العرب العَرباء ، وأرباب البَيان،وأهل التحقيق... ﴿ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهيرًا ﴾ ولوْ تظاهَروا على الإتيان بِه .

---

(١٦) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٨٤) : ((قال المفسّرون : هذا تكذيب للنَّضْر بن الحارث حين قال : لَوْ شِئنا لَقُلنا مِثْلَ هذا ، والْمِثْلُ الذي طُلب مِنهم كلام ، له نَظْم كَنَظْم القرآن ، في أعلى طبقات البلاغة)) اهـ .

ولعلَّه لَم يَذكر الملائكة لأنَّ إتيانَهم بِمِثْلِه لا يُخرجه عَن كَونه مُعْجِزًا ، ولأنهم كانوا وسائط في إتيانه)) اهـ . وقال السُّيوطي في لُباب النُّقول (١/ ١٣٥) : ((أخرجَ ابنُ إسحاق وابنُ جرير من طريق سعيد أو عِكْرِمة عن ابن عباس قال:"أتى النبيَّ ﷺ ابْنُ مِشْكَم في عَامَّةٍ مِنَ اليهود ـ سَمَّاهم ـ، فقالوا : كيف نتَّبعك وقد تركتَ قِبْلَتنا ؟ [17] . وإنَّ هذا الذي جِئْتَ بِه لا نَراهُ مُتناسِقًا كما تناسقُ

---

(١٧) عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: ((أول ما نُسِخَ مِن القرآن فيما ذُكر لنا شأن القِبلة، قال الله:﴿ ولله المشرقُ والمغرب فأينما تُوَلُّوا فثمَّ وجهُ الله ﴾ [البقرة: ١١٥].فاستقبل رسولُ الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس ، وترك البيتَ العتيق ، فقال الله تعالى : ﴿ سيقول السُّفهاءُ من الناس ما ولاهم عن قِبلتهم التي كانوا عليها ﴾ [البقرة: ١٤٢]. يَعْنُون بيت المقدس، فَنَسَخَتْهَا، وصَرَفه الله إلى البيت العتيق ، فقال الله تعالى :﴿ ومِن حيثُ خرجتَ فَوَلِّ وجهكَ شَطْرَ المسجد الحرام وحيثُ ما كنتم فَوَلُّوا وجوهَكم شَطْرَه ﴾ [البقرة : ١٥٠])) [رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٩٤) برقم (٣٠٦٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي].وحادثةُ تحويل القِبلة ثابتةٌ في القرآن الكريم بحيث إن منكرها يَكْفر لتكذيبه كلام الله تعالى، أي تكذيب نَص قطعي الثبوت وقطعي الدَّلالة . فقد تم تحويل القِبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام لِحِكَم إلهية عديدة وجليلة. منها أن اللهَ تعالى أراد تحقيق رغبة نبيِّه ﷺ في التوجه إلى البيت الحرام . واللهُ تعالى قادر على جعل البيت الحرام القِبلة الأولى دون عملية تحويل ، لكنه أراد الربط بين المسجد الأقصى والمسجد الحرام بحيث لا ينفصلان في عقيدة المؤمن ، كما أن حادثة تحويل القِبلة كانت اختبارًا حقيقيًّا لعقائد الناس ، بحيث أظهرت الثابتين على الإسلام، وأظهرت أصحاب العقيدة المضطربة الضعيفة ، وأبرزت ما في قلوب أعداء الأمَّة الذين يريدون أية حادثة لكي يُزعزعوا عقائد المؤمنين ، ويُشكِّكوا فيها ، في محاولة يائسة منهم لصرف الناس عن الإسلام . ولا يَخفى أن الامتحان هو الكاشف عن عقائد الناس، وسلوكهم ، وصمودهم أو انهيارهم . قال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٤٤):((أعلمَ اللهُ تعالى أنهم سيقولون في تحويل المؤمنين من الشام إلى الكعبة : ﴿ ما ولاهم ﴾ . وسيقول بمعنى قال. جعل المستقبَلَ موضع الماضي دَلالة على استدامة ذلك، وأنهم يستمرون على ذلك القول . وخَصَّ بِقَوله : ﴿ من الناس ﴾ لأن السَّفَه يكون في جمادات وحيوانات. والمراد من السفهاء جميع مَن قال:﴿ما ولاهم﴾ ، والسُّفهاء جمع. واحده سفيه،وهو الخفيف العقل))اهـ . والردُّ القرآني يجيء حاسمًا لكل المسائل ، وقاطعًا لكيد أعداء الإسلام ، وفاضحًا لهم. إذ إن ترك المنحرفين ينشرون باطلَهم دون إيقافهم عند حَدِّهم من شأنه تدمير المجتمع الإنساني ، وسيادة الفسقة والكافرين على الناس، وقيادتهم للأمور الحياتية، وهذا سيؤدي إلى =

التَّوراةِ، فأنزِلْ عَلَينا كتابًا نَعْرِفُه وإلا جِئناكَ بِمِثْلِ ما تَأتي بِه ، فأنزل اللهُ : ﴿ قُل لَئِنِ اجتمعتِ الإنسُ والجِنُّ على أن يَأتوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يَأتونَ بِمِثْلِهِ ﴾ _ الآية _ ")) اهـ . إنَّ اليهودَ يُجادِلون بالباطل ، فقد جَعلوا سببَ كُفرهم أنَّ النبيَّ ﷺ تركَ التَّوَجُّهَ في صلاته إلى بَيْتِ المقدس ، وصارَ يتوجَّه إلى الكعبة ، وهذه حُجَّةٌ داحضة ، لأنَّ اليهودَ لَم يُؤمنوا بالنبيِّ ﷺ أثناءَ تَوَجُّهه إلى بيت المقدس ، وأيضًا بَيت المقدس قِبْلةُ المؤمنين لا قِبلة اليهود الكافرين .

أمَّا زَعْمُ اليهود أن القُرآن يَفتقد إلى التناسق ، فهذا زَعْمٌ باطل ، لأنَّ العربَ أهلُ الفصاحة والبلاغة والشِّعر اعترَفوا بتناسق القُرآن وعَظَمَتِه، ولم يَقْدِروا على الإتيان بِمِثْلِه وهو بِلُغتهم، وذلك بسبب إعجازه. وكُلُّ الكُتب السماوية مُتناسِقة ، والتَّوراةُ كِتابُ اللهِ الذي أنزلَه على مُوسى ﷺ مُتناسِق ، أمَّا الكتاب الذي بين اليهود فهو التَّوراة الْمُحرَّفة ، وهي كلامٌ بشريٌّ غير مُتناسِق . ولوْ كانَ اليهودُ حريصين على التَّوراة لَمَا حرَّفوها،ولَمَا كَفروا بالقُرآن. وكُلُّ الكُتب السماوية مَصْدرها واحد. ولوْ كانوا صادقين في انتسابهم إلى مُوسى ﷺ لَمَا كَفروا بمحمد ﷺ ، لأنَّ دِينَ الأنبياء واحدٌ، وهو الإسلام (الدِّين الوحيد المقبول عِند اللهِ).﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عِمران: ١٩].

أمَّا قَوْلُ اليهود: " فأنزِلْ عَلَينا كتابًا نَعْرِفُه وإلا جِئناكَ بِمِثْلِ ما تَأتي بِه ". فهذه دَعوى عريضة، ومُجرَّد كلام . فَمَن يَعْلَم حُجَّةٌ على مَن لا يَعْلَم ، والجاهلُ لا يَحكم على العالِم . واليهودُ كَفروا بالتَّوراةِ الأصلية والإنجيلِ والقُرآنِ .

وقد كان عُلماءُ اليهود يَعْرِفون الحقَّ. وفي كُتبهم وَصْفُ النبيِّ محمد ﷺ الذي كانوا يَعْرِفُونه حقَّ المعرفة،ويتوقَّعون ظُهورَه في أيِّ وَقْت. فلماذا كَفروا بالقُرآنِ ومحمدٍ ﷺ الموجود في التَّوراة ؟.

أمَّا قَوْلُهم :" وإلا جِئناكَ بِمِثْلِ ما تَأتي بِه ". فالقُرآنُ هُوَ الْمُعجِزة الخالدة التي تَحَدَّتْ فُصحاءَ العرب، ولوْ كان اليهودُ صادقين لأَلَّفوا كتابًا مِثْلَ القُرآنِ أو يتفوَّق على القُرآن، وهذا لَم يَحْدُث، لأنهم بَيَّاعو كلامٍ. وكما قِيل: أسمعُ جَعْجَعةً (صَوْت الرَّحى) ، ولا أرى طَحْنًا .

=اجتثاث الخير ، وتفشِّي الشر . فالقرآنُ يُؤسِّس منهجَ الرد على المخالِفين ، وفضح انحرافهم ، وإقامة الْحُجَّة عليهم ، ورَد كَيدهم في نحورهم .والمراد بالسفهاء هم اليهود. [قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٧١): ((واختلف في المراد بالسفهاء. فقال البراء ... وابن عباس ومجاهد : هم اليهود . وأخرج ذلك الطبري عنهم بأسانيد صحيحة))].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بكتابٍ مِنْ عِندِ اللهِ هُوَ أهْدَى مِنْهُما أتَّبِعْهُ إن كُنتم صادِقِين ﴾ [القَصَص : ٤٩] .

هذا الأمرُ للتَّعجيز . قُل يا مُحمَّد للكافرين الذي قالوا إنَّ التَّوراةَ والقُرآنَ سِحْرانِ تظاهرا : فَأْتوا بكتابٍ سماويٍّ هو أفضلُ مِن التَّوراة والقُرآن وأهدى مِنهما لطريق الإيمان والحقِّ أتَّبِعْه ، وَلِيَكون ذلك عُذرًا لكم في الكُفر ، إن كُنتم صادقين في وَصْفكم التَّوراة والقُرآن بأنهما سِحْران .

وبالتأكيد،إنَّ وصف التوراة والقُرآن بأنهما سِحْران يعني بالضرورة أنَّ موسى ومحمد ساحران، لأنَّ السِّحْرَ لا يَأتي بِه إلا الساحر . وقد بَيَّنَ اللهُ بُطلانَ قَوْلهم .

وقال البيضاوي في تفسيره(١/ ٢٩٦): ((﴿ أتَّبِعْهُ إن كُنتم صادِقِين ﴾ ... وهذا من الشروط التي يُراد بها الإلزام والتَّبكيت، ولعل مجيء حرف الشَّك (﴿ إن ﴾) للتَّهكم بهم)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٠): ((وقد عُلم بالضرورة لِذَوي الألباب أنَّ الله تعالى لَم يُنْزِلْ كتابًا من السماء فيما أُنزِل مِنَ الكُتب المتعدِّدة على أنبيائه، أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف، مِنَ الكتاب الذي أُنزِل على محمد ﷺ وهو القرآن. وبَعْدَه في الشرف والعَظَمة، الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام وهو الكتاب الذي قال الله فيه: ﴿ إنَّا أَنزَلْنا التَّوْراةَ فيها هُدًى ونور ﴾ [المائدة : ٤٤] . والإنجيل إنما أُنزِل مُتَمِّمًا للتوراة ، وَمُحِلاًّ لِبَعض ما حُرِّم على بني إسرائيل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم يَقولونَ تَقَوَّلَهُ بَل لا يُؤمِنون ﴾ [الطُّور : ٣٣] .

يَقول المشركون إنَّ محمدًا اختلقَ القُرآنَ ، وجاءَ بِه مِن عِند نفْسِه . وليس الأمر كما زعموا . إنهم يَكفرون بالقُرآن استكبارًا وعِنادًا ، ويتَّهمون النبيَّ ﷺ بهذه التُّهمة الباطلة لِكُفرهم بالوَحْي والنُّبُوَّةِ . لقد حَمَلَهم كُفْرُهم وعِنادُهم وغُرورُهم على هذه المقولة الشنيعة . ولوْ كانوا صادقين في زَعْمهم ، فَلْيُقَدِّموا دليلاً على صِحَّة كلامهم . لقد ألْقَوْا التُّهمَ والأكاذيبَ لِعَجْزهم عن تقديم الدليل . وهذا هو أسلوب العاجز في كل زمان ومكان . وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٦٥) : ((وَالتَّقَوُّل تَكَلُّف القَوْل ، وإنما يُسْتَعْمَل في الكذب في غالب الأمر، ويُقال: قَوَّلْتَني ما لَم أقُلْ !، ... أي ادَّعَيْتَهُ عَلَيَّ. وتَقَوَّلَ عَلَيه، أي كَذَبَ عَلَيه)) .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨/ ١٥٠) : ((فَلِكُفْرِهم وعِنادِهم ، يَرْمُون بهذه الأباطيل التي لا يَخفى على أحد بُطلانها كيف لا ، وما رسول الله ﷺ إلا واحد من العرب ، فكيف أتى بما عَجِزَ عنه كافة الأمم مِنَ العَرب والعَجَم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَلْيَأتوا بِحَديثٍ مِثْلِهِ إن كانوا صَادِقين ﴾ [الطُّور : ٣٤] .

ألزمَ اللهُ المشركين بالْحُجَّة ، وأظهرَ عَجْزَهم ، وفَضح باطلَهم . ويَبرز في الآيةِ الأسلوبُ القُرآنِيُّ الراقي في الْمُحَاجَجة ، وتقديم البُرهان والدليل ، وإقامةِ الْحُجَّةِ ، بِدُون جَعْجعة ولا زَخرفة كلامية ولا شتائم ولا صُراخ . إنْ كانَ المشركون صادقين في زَعْمِهم أنَّ محمدًا قد ألَّفَ القُرآنَ ، فليأتوا بِقُرآن يُشْبِهُ قُرآنَ محمد في حُسْنِ نَظْمِه، وَرُقِيِّ لُغته ، وفصاحته العالية ، وبَلاغته السَّامية ، وبيانه الواضح ، وأسلوبه البديع . معَ العِلْم أنَّهم أهلُ الفصاحة والبلاغة والخطابة والأشعار . وهذا تَعجيزٌ وتَوبيخٌ لهم . وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٤٩٥) : ((يقول جَلَّ ثناؤه : فَلْيَأتِ قائلو ذلك له مِن المشركين بِقُرآن مِثْلِه ، فإنهم من أهل لسان محمد ﷺ ، وَلَن يَتَعَذَّرَ عليهم أن يَأتوا مِن ذلك بِمِثْلِ الذي أتى به محمد ﷺ ، إن كانوا صادقين في أنَّ محمدًا ﷺ تَقَوَّله وتَخَلَّقه)) اهـ .

١٥ــ النَّهْي عن مُوالاتهم :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يَتَّخِذِ المؤمنونَ الكافرينَ أولياءَ مِن دُونِ المؤمنينَ وَمَن يَفْعَلْ ذلكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ في شَيْءٍ إلا أن تَتَّقُوا مِنْهُم تُقَاةً ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وإلى اللهِ المصير﴾[آل عِمران:٢٨][18].

---

(١٨) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٧١) : ((في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها أن عُبادة ابن الصامت كان له حُلفاء من اليهود، فقال يوم الأحزاب:يا رسول الله، إن معي خمسمائة من اليهود، وقد رأيتُ أن أستظهر بهم على العدو، فَنَزلت هذه الآية.رواه الضَّحاك عن ابن عباس.والثاني أنها نزلت في عبد الله بن أُبَي وأصحابه من المنافقين، كانوا يَتَوَلَّوْنَ اليهود ويأتونهم بالأخبار ، يَرْجون لهم الظَّفَر مِن النبيِّ ﷺ ، فنهى اللهُ المؤمنين عن مِثْل فِعلهم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث أن قَوْمًا مِن اليهود كانوا يُباطنون نَفَرًا مِن الأنصار لِيَفتنوهم عن دِينهم، فنهاهم قوم من المسلمين عن ذلك، وقالوا: اجتنبوا هؤلاء اليهود ، فَأَبَوْا ، فَنَزلت هذه الآية . رُوِيَ عن ابن عباس أيضًا . والرابع أنها نزلت في حاطب بن أبي بَلتعة وغَيره ، كانوا يُظهِرون المودة لكفار مكة، فنهاهم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عن ذلك . هذا قَول الْمُقَاتِلَيْن ابن سليمان وابن حَيَّان . فأمَّا التفسير ، فقال الزَّجاج : معنى قَوله تعالى : ﴿ مِن دُونِ المؤمنينَ ﴾ ، أي : لا يَجعل المؤمن وَلايته لِمَن هو غَير مؤمن ، أي : لا يتناول الوَلاية مِن مكان دُون مكان المؤمنين. وهذا كلام جرى على المثَل في المكان ، كما تقول : زَيد دُونَك ، ولستَ تُريد المكان، ولكنك جَعلتَ الشرف بِمَنْزلة الارتفاع في المكان ، والخِسَّة كالاستفال في المكان)) .

هذا نَهْيٌ إلهيٌّ عن اتخاذ الكافرين أحبابًا وأعوانًا وأنصارًا . لا تُوالُوا أيها المؤمنون الكفارَ ، بسبب قرابة ، أو صَداقة ، أو أي سبب آخر . ويجب عليكم مُوالاة المؤمنين (أولياء الله) ، وعدم مُوالاة الكفار (أعداء الله) . ولا يَجتمع في قلب عبد مؤمن محبةُ الله ومحبة أعدائه . فالنقيضان لا يَجتمعان ، والضِّدان لا يَلْتقيان . والمؤمن أحق وأَوْلَى بِمُوالاة المؤمن ومحبته ونُصرته وإعانته ، ومُوالاةُ الكفار تؤدي إلى ضعف الإيمان ، وانهيار اليقين ، وغياب الطمأنينة ، وكثرة الشُّكوك والوساوس ، لذلك شُدِّدَ في النَّهْي عنها ، وتحذير المؤمنين مِنها . فنهايتها أليمة ، وعاقبتها وخيمة . وقال البَيضاوي في تفسيره (١ / ٢٥): ((نُهُوا عَن مُوالاتهم لِقَرابة وصداقة جاهلية ونَحْوهما، حتى لا يكون حُبُّهم وبُغضهم إلا في الله، أو: عن الاستعانة بهم في الغَزْو وسائر الأمور الدينية ﴿ مِن دُونِ المؤمنينَ ﴾ إشارة إلى أنهم الأحقاء بالْمُوالاة ، وأن في مُوالاتهم مَندوحة عن مُوالاة الكفرة)) .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ في شَيْءٍ ﴾ . ومَن يتَّخذ الكفارَ أولياءَ ، فقد بَرِئَ مِن الله ، وبَرِئَ اللهُ مِنه ، وليس مِن أولياء الله في شيء. وهذا الفِعل ليس مِن دِين الله في شيء . ومَن ارتكبَ هذا الإثم العظيم ، فلن يتولى اللهُ نُصرته ، ولَن يُحيطه بمحبته ورعايته وعنايته ، وليس له نصيب مِن رِضاه وجنَّته . والجمعُ بين مُوالاة الله ومُوالاة أعدائه غَير معقول ولا مَقبول .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٢٢٧) : ((يعني بذلك : فقد بَرِئَ مِن الله ، وبَرِئَ اللهُ منه ، بارتداده عن دِينه ، ودخوله في الكفر)) اهـ .

﴿ إلا أن تَتَّقُوا مِنْهُم تُقَاةً ﴾ . إلا أن تَكونوا تحت سُلطان الكفار ، وخاضعين لِقُوَّتهم ونفوذهم، وتخافوا مِن شَرِّهم وأذاهم ، فلَكُم أن تُوالوهم باللسان دُون القلب . أي : يَجوز أن تتَّقوهم بالظاهر دُون الباطن ، وتُداروهم بألسنتكم ، وقلوبكم مُطمئنة بالإيمان ، حمايةً لأرواحكم وأموالكم وأعراضكم. والتَّقِيَّةُ رُخصة لا عَزيمة. يَجوز الأخذ بها في حالة الخوف من القتل أو الإيذاء الشديد، والأفضلُ تركها وعدم الأخذ بها. ومَن أُكْرِه على الكفر ، فالأفضل له أن يتمسَّك بالإسلام ، ولا يتلفَّظ بكلمة الكفر، حتى لو قُتِل. ومعَ هذا، يَجوز له التلفُّظ بكلمة الكفر ، وقلبه مطمئن بالإيمان.

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٥) : ((ثُمَّ استثنى فقال : ﴿ إلا أن تَتَّقُوا مِنْهُم تُقَاةً ﴾ ، يعني: إلا أن تَخافوا منهم مَخافةً... . ومعنى الآية: إن الله تعالى نهى المؤمنين عن مُوالاة الكفار ومُداهنتهم ومُباطنتهم ، إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين ، أو يكون المؤمن في قوم كفار

يَخافهم فيُداريهم باللسان ، وقلبه مطمئن بالإيمان ، دَفْعًا عن نفْسه ، مِن غَير أن يستحل دَمًا حرامًا ، أو مالاً حرامًا ، أو يُظهِر الكفار على عَورة المسلمين . والتَّقِيَّةُ لا تكون إلا مَعَ خوف القتل وسلامة النِّية. قال الله تعالى : ﴿ إلا مَن أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ﴾ [النَّحْل : ١٠٦] . ثُمَّ هذا رُخصة . فلو صَبَرَ حتى قُتِل ، فله أجر عظيم . وأنكرَ قَوْمٌ التَّقِيَّةَ اليوم . قال معاذ بن جبل ومجاهد: كانت التَّقِيَّةُ في بُدُوِّ الإسلام _ يعني بداية ظُهوره _ ، قبل استحكام الدِّين ، وقوة المسلمين . وأمَّا اليوم فقد أعزَّ اللهُ الإسلامَ ، فليس ينبغي لأهل الإسلام أن يتَّقوا مِن عدوهم . وقال يحيى البَكَّاء : قلت لسعيد ابن جُبَير في أيام الحجَّاج : إن الحسن كان يقول : لكم التَّقِيَّة باللسان والقلب مُطمئن بالإيمان ؟. فقال سعيد : ليس في الإسلام تقية ، إنما التقية في أهل الحرب)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٧٢) : ((والتَّقِيَّةُ رُخصة وليست بعزيمة. قال الإمام أحمد : وقد قِيل: إن عُرِضْتَ على السَّيف تُجيب ؟ _ والمقصود فِتنة خَلْق القُرآن _ ، قال : لا. وقال : إذا أجاب العالِم تَقِيَّة ، والجاهل بجهل ، فمتى يتبيَّن الحق ؟)) اهـ .

﴿ ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ . ويُخوِّفكم اللهُ مِن عذابه الأليم ، ويُحذِّركم مِن عُقوبته الشديدة . وخصَّص اللهُ العذابَ بنفْسه، تَخْوِيفًا مِن العذاب،وتعظيمًا له،فهو عذاب رهيب لا طاقة لأحد به.

وهذا تهديد شديد للعباد، وتحذير لهم مِن التَّعَرُّض لعذاب الله وعقوبته بِمُوالاة الكفار (أعداء الله). وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٧٦): ((أي : يُحذِّركم نِقمته في مُخالفته وسَطْوته وعذابه، لِمَن والى أعداءه ، وعادى أولياءه)) اهـ . ﴿ وإلى اللهِ المصير ﴾ . وإلى الله المرجع والمنقلَب ، حيث يُجازي المحسِن بإحسانه ، والمسيء بإساءته . والآيةُ دليل على البعث . وقال النسفي في تفسيره (١/ ١٤٩): ((﴿ ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ . أي: ذاته،فلا تتعرَّضوا لِسَخطه بِمُوالاة أعدائه. وهذا وعيد شديد. ﴿ وإلى اللهِ المصير ﴾، أي : مصيركم إليه، والعذاب مُعَد لَدَيه ، وهو وعيد آخر)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ الذينَ يَتَّخِذُونَ الكافرينَ أولياءَ مِن دُونِ المؤمنينَ أيَبْتَغونَ عِندَهُمُ العِزَّةَ فإنَّ العِزَّةَ للهِ جَميعًا ﴾ [النِّساء : ١٣٩] .

يُوضِّح اللهُ صِفة المنافقين وحالهم. إنهم يُوالون الكافرين ، ويتَّخذونهم أحبابًا وأنصارًا وأعوانًا ، مِن غَير المؤمنين . إن المنافقين يتمسَّكون بِوَلاية الكافرين ، ويَعتبرونهم أصحاب القوة والمكانة ، ويَتركون وَلاية المؤمنين . وقد كان المنافقون يُوالون اليهود ، ويتوهَّمون أنهم الغالبون المنصورون ، وأن لهم العِزَّة والقوة والغَلَبَة والمنَعة ، وأنهم سينتصرون على النبيِّ ﷺ ، وتَعلو كلمتهم على كلمته، فخيَّب اللهُ رَجاءهم ، وأهانهم ، وأذَلَّهم ، وجلَّلهم بالخِزي والعار .

أيَطْلُبون عِند الكافرين العِزَّة والقُوَّة والغَلَبة ؟ . والمعنى : أيتعزَّزون بِمُوالاة الكافرين ؟ .

والاستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار ، فإن الكافرين أذِلاء ضُعفاء لا شَرَف لهم ولا قُوَّة، فكيفَ تُطلَب العِزَّة مِنهم ؟!. إن فاقد الشيء لا يُعطيه ، وإنَّكَ لا تَجْني مِن الشَّوْكِ العنبَ ! .

إن العِزَّة والقوة والغَلَبَة والقُدْرة _ في الدنيا والآخرة_ لله وَحْدَه لا شريك له . واللهُ يُؤيِّد أولياءه بالعِزَّة والقوة . ومَن أعَزَّه اللهُ فهو العزيز ، ومَن أذَلَّه اللهُ فهو الذليل .

وقال أبو السعود في تفسيره (٢/ ٢٤٤) : ((أي : يتَّخذون الكَفَرَةَ أنصارًا مُتجاوزين وَلاية المؤمنين . وكانوا يُوالونهم ، ويقول بعضُهم لبعض: لا يَتِم أمر محمد، فَتَوَلَّوا اليهودَ. ﴿ أَيَبْتَغونَ عِندَهُمُ العِزَّةَ ﴾ ، إنكار لرأيهم ، وإبطال له ، وبيان لِخَيبة رجائهم ، وقطع لأطماعهم الفارغة ، والجملة مُعترِضة مُقرِّرة لِمَا قَبْلها ، أي : أيَطْلُبون بِمُوالاة الكَفَرَةِ القوةَ والغَلَبة . قال الواحدي : أصل العِزَّة الشِّدة، ومِنه قِيل للأرض الشديدة الصَّلبة: عَزَاز. وقَوله تعالى: ﴿ فإنَّ العِزَّةَ للهِ جَميعًا ﴾ تعليل لِمَا يُفيده الاستفهام الإنكاري مِن بُطلان رَأيهم ، وخَيبة رجائهم ، فإن انحصار جميع أفراد العِزَّة في جَنَابه عَزَّ وعلا ، بحيث لا ينالها إلا أولياؤه ، الذين كَتب لهم العِزَّةَ والغَلَبَة . قال تعالى : ﴿ ولله العِزَّة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ ، يَقضي بِبُطلان التَّعَزُّز بِغَيره سُبحانَه وتعالى، واستحالة الانتفاع به . وقِيل : هو جواب شَرْط محذوف ، كأنه قِيل : إن يَبتغوا عِندهم العِزَّة، فإن العِزَّة لله)) اهـ .

ولا تعارُض بين الآيتين : ﴿ فإنَّ العِزَّةَ للهِ جَميعًا ﴾ و ﴿ ولله العِزَّة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [المنافقون: ٨]. فاللهُ هو العزيزُ الأعَزُّ، أعَزَّ النبيَّ والمؤمنين. وعِزَّتُهم باللهِ تعالى، ولا عِزَّةَ إلا بالله ، إذن ، فالعِزَّةُ كُلُّها للهِ تعالى. والعبدُ لا يَكون عزيزًا إلا إذا أعَزَّه اللهُ ، وقد كَتَبَ اللهُ العِزَّةَ لأوليائه.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنما وَلِيُّكُمُ اللهُ ورَسُولُهُ والذينَ آمَنُوا الذينَ يُقيمونَ الصلاةَ ويُؤتونَ الزكاةَ وهُم رَاكِعُون ﴾ [المائدة : ٥٥] .

ليس أهلُ الكتاب (اليهود والنصارى) أولياءكم ولا أنصاركم ولا أحبابكم ولا أعوانكم ، إن بعضهم أولياء بعضهم ، فلا تتَّخذوهم أولياء .

إنما وَلِيُّكم اللهُ ورسوله والمؤمنون ، الذي يتَّصفون بالصفات الحميدة مِن إقام الصلاة (عمود الدِّين وأعظم أركان الإسلام العملية وأعظم العبادات البدنية) ، وإيتاء الزكاة (أعظم العبادات المالية) ، وهُم خاشعون خاضعون مُتواضعون لله تعالى ، لا يتكبَّرون ، ولا يغترُّون . فلا تُوالوا إلا المؤمنين ، فهُم وَحْدَهم أنصاركم وأحبابكم وأعوانكم .

والآيةُ عامة وشاملة لجميع المؤمنين ، والعِبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

والجديرُ بالذِّكر أن الله قالَ : ﴿ وَلِيُّكُمُ ﴾ بالْمُفرَد ، ولَم يقل : أولياؤكم . وذلك لأن أصل الوَلاية لله وَحْدَه ، أمَّا وَلاية الرسول ﷺ والمؤمنين فهي تابعة لِوَلاية الله ، ولَيست مُستقلة بذاتها .

وقال النَّسَفي في تفسيره (١/ ٢٨٨): ((﴿ إنما وَلِيُّكُمُ اللهُ ورَسُولُهُ والذينَ آمَنُوا ﴾ .و﴿ إنما ﴾ يُفيد اختصاصهم بالْمُوالاة، ولَم يُجمَع الوَلِيُّ، وإن كان المذكور جماعةً، تنبيهًا على أن الوَلاية لله أصل،ولِغَيره تَبَع. ولو قِيل:إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا،لَم يكن في الكلام أصل وتَبَع)).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٨٢ و٣٨٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنما وَلِيُّكُمُ اللهُ ورَسُولُهُ ﴾ . اختلفوا فِيمَن نزلت على أربعة أقوال : أحدها أن عبد الله بن سلام وأصحابه جاؤوا إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا : إن قَوْمًا قد أظهروا لنا العداوة ، ولا نستطيع أن نُجالس أصحابك لِبُعد المنازل . فَنَزلت هذه الآية . فقالوا : رَضِينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين . وأذَّنَ بلال بالصلاة ، فخرجَ رسول الله ﷺ، فإذا مِسكين يَسأل الناسَ، فقال رسول الله ﷺ: " هل أعطاكَ أحد شَيْئًا ؟ ". قال : نعم ، قال : " ماذا ؟ " . قال : خاتَم فضة ، قال : " مَن أعطاكه ؟ "، قال: ذاك القائم ، _ فإذا هو علي بن أبي طالب _ ، أعطانيه وهو راكع . فقرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبِه قال مقاتل . وقال مجاهد: نزلت في عليِّ بن أبي طالب ، تَصَدَّقَ وهو راكع . والثاني أن عُبادة بن الصَّامت لَمَّا تَبَرَّأَ مِن حُلفائه اليهود ، نزلت هذه الآية في حَقِّه ، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثالث أنها نزلت في أبي بكر الصِّديق ، قاله عِكرمة . والرابع أنها نزلت فِيمَن مضى من المسلمين، ومَن بَقِيَ مِنهم، قاله الحسن. قَوله تعالى:﴿ ويُؤتونَ الزكاةَ وهُم رَاكِعُون﴾ فِيه قَولان: أحدهما أنهم فعلوا ذلك في رُكوعهم ، وهو تصدُّق عليٍّ عليه السلام بِخَاتَمه في رُكوعه، والثاني أن مِن شأنهم إيتاء الزكاة وفِعل الرُّكوع . وفي المراد بالرُّكوع ثلاثة أقوال : أحدها أنه نفْس الرُّكوع ، على ما روى أبو صالح عن ابن عباس. وقِيل : إن الآية نزلت وهُم في الرُّكوع . والثاني أنه صلاة التَّطَوُّع بالليل والنهار، وإنما أُفرِد الرُّكوع بالذِّكر تشريفًا له ، وهذا مَرويٌّ عن ابن عباس أيضًا . والثالث أنه الخضوع والخشوع ، وأنشدوا : لا تُذِلَّ الفقيرَ عَلَّكَ أن تركع يَوْمًا والدَّهْرُ قَد رَفَعَه ... ، ذَكَرَه الماوردي)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤمنونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَن حَادَّ اللهَ ورسولَهُ وَلَوْ كانوا آباءَهُم أوْ أبناءَهُم أوْ إخوانَهُم أوْ عَشِيرَتَهُم ﴾ [الْمُجَادِلة : ٢٢] .

لا تجد يا محمد جماعةً يُصدِّقون بِوحَدانية الله ، ويُقِرُّون بالبعث واليوم الآخر ، يُحِبُّون أعداءَ اللهِ ورسولِه ، ويُوالونهم ويُناصرونهم .

ولا يُعقَـل أن يجتمـع فـي قلـب إنسـان محبـة الله ومحبـة أعدائـه ، فالضِّـدانُ لا يَجتمعـان، والنَّقيضان لا يَلْتقيان . والحبُّ الحقيقيُّ للهِ تعالى يتجلى في مُوالاة مَن وَالاه ، ومُعاداة مَن عاداه .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٩/٢٧٦): ((المعنى أنه لا يجتمع الإيمان مع حُب أعداء الله ، وذلك لأن مَن أحب أحدًا امتنعَ أن يُحب عَدُوَّه، لأنهما لا يَجتمعان في القلب ، فإذا حصل في القلب مودة أعداء الله ، لَم يَحصل فيه الإيمان)) اهـ .

ولو كانَ أعداءُ اللهِ ورسولِه مِن أقرب الناس إليهم،كآبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، فرابطةُ الدِّين أقوى من رابطة الدم . والإيمان بالله يستلزم مُعاداة أعداء الله وبُغضهم ومُحاربتهم .

ومَن أحبَّ أولياءَ اللهِ وناصرهم وعاونهم ووالاهم ، فقد أحبَّ اللهَ وأطاعه ، ومَن أحبَّ أعداءَ الله وناصرهم وعاونهم ووالاهم، فقد أبغضَ الله وحاربه . ومُوالاة الكافرين تُفسِد الإيمانَ . والمؤمنُ يتبرَّأ مِن أعداء الله ، ولا يُوالي الكافرين ، ولو كانوا مِن أقرب المقرَّبين إلَيه .

والآيةُ تنهى عن مُوالاة الكافرين ومحبتهم ومُعاونتهم ، وتُحذِّر مِن هذا الإثم العظيم ، الذي يُؤدِّي إلى الكفر والضلال والمعاصي.كما تُوضِّح الآيةُ أن المؤمن لا يُوالي الكافرَ مهما كان قريبًا منه. ويجب على المؤمن الابتعاد عن أعداء الله ، والحذر مِن مُخالطتهم ، ومُعاملتهم كأعداء .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ١٩٩): ((وهذه الآية قد بيَّنت أن مودة الكفار تَقْدَح في صِحَّة الإيمان، وأن مَن كان مؤمنًا لَم يُوالِ كافرًا، وإن كان أباه أو ابنه أو أحدًا مِن عشيرته)) اهـ . وقال أبو حيَّان في البحر المحيط (٨/ ٢٣٩): ((بدأ بالآباء، لأن طاعتهم واجبة على الأولاد، ثم بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب،ثم بالإخوان لأن بهم التعاضد،ثم بالعشيرة لأن بهم التناصر والمقاتلة والتغلب على الأعداء ، كما قال القائل :

لا يَسألونَ أخاهم حِينَ يَندُبُهم في النائباتِ على ما قالَ بُرهانا)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٢١) : ((وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغَيره : أُنزِلت هذه الآية : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤمنونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ﴾ إلى آخرها، في أبي عُبَيدة عامر بن عبد الله بن الجرَّاح ، حِين قَتَلَ أباه يوم بَدْر ، ولهذا قال عمر بن الخطاب ــ رضي اللهُ عنه ــ حِين جَعل الأمر شُورى بَعْده في أُولئك السِّتة ــ رضي اللهُ عنهم ــ: ولو كان أبو عبيدة حيًّا لاستخلفته. وقِيل في قَوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كانوا آباءَهُم ﴾ ، نزلت في أبي عُبَيدة ، قَتَلَ أباه يوم بَدْر ، ﴿ أوْ أبناءَهُم ﴾

في الصِّديق، هَمَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ، ﴿ أوْ إخوانَهُم ﴾ في مُصعَب بن عُمَير ، قَتَلَ أخاه عُبَيد بن عُمَير يومئذ ، ﴿ أوْ عَشِيرَتَهُم ﴾ في عُمر ، قَتَلَ قريبًا له يومئذ أيضًا . وفي حمزة وعلي وعُبَيدة بن الحارث ، قَتَلوا عُتْبة وشَيْبة والوليد بن عُتْبة يومئذ ، فالله أعلم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُم أولياءَ تُلْقُونَ إلَيْهِم بالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفروا بِمَا جَاءَكُم مِنَ الحق ﴾ [الْمُمْتَحَنَة : ١] .

يا أيُّها الذين صَدَّقْتُم بِوَحدانية الله ، وأقررتم بِنُبُوَّة محمد ﷺ ، لا تتَّخذوا الكفارَ (أعداء الله وأعداءكم) أنصارًا وأحبابًا وأعوانًا . تُحِبُّونهم وتُوَادُّونهم وتُصادقونهم ، وهُم أعداء لكم ، وخطر عليكم.وقد كذَّبوا بآيات الله،وجَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ. أي إنهم رَفضوا الإسلام، وأنكَروا القُرآن .

والآيةُ تنهى عَن مُوالاة الكفار . لذلك يجب على المسلم ألا يتَّخذ أعداءَ اللهِ أصدقاء وأحبابًا، يُحِبُّهم ، ويَكشف أسرارَ المسلمين لهم .

ولا شَكَّ أن كراهية أعداء الله وبُغضهم مُؤشِّر واضح على الإيمان . أمَّا محبتهم وصداقتهم فدليل على الضَّلال والانحراف .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٢٣٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ تُلْقُونَ إلَيْهِم بالْمَوَدَّةِ ﴾ ، وفِيه قَولان : أحدهما أن الباء زائدة ، والمعنى: تُلْقُون إليهم المودةَ ... ، هذا قول الفرَّاء وأبي عُبَيدة وابن قُتَيبة والجمهور. والثاني تُلْقُون إليهم أخبارَ النبيِّ ﷺ وسِرَّه بالمودة التي بينكم وبينهم ، قاله الزَّجاج)) اهـ .

وعن عليٍّ ــ رضي الله عنه ــ قال : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزُّبير والمِقداد، فقال: ((انطلقوا حتى تأتوا رَوْضة خاخ، فإن بها ظَعينةً معها كتاب فخذوه منها)). قال : فانطلقنا تَعادى بنا خَيْلُنا، حتى أتَيْنا الرَّوضة ، فإذا نحن بالظعينة ، قُلنا لها : أخرجي الكتاب . قالت : ما معي كتاب.فقُلنا : لَتُخْرِجِنَّ الكتابَ أو لِنُلْقِيَنَّ الثيابَ. قال: فأخْرَجَتْهُ من عِقاصها ــيعني خُصَلات شَعْرها الملتوية ــ. فأتَيْنا رسولَ الله ﷺ ، فإذا فيه مِن حَاطب بن أبي بَلتعة إلى ناس بمكة من المشركين ، يُخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : ((يا حاطب ، ما هذا ؟)) . قال : يا رسول الله ، لا تَعْجَلْ عليَّ ، إني كُنتُ امرءًا مُلْصَقًا في قُرَيْش . يقول : كُنتُ حَليفًا ولَم أكن من أنفُسِها . وكان مَن معك من المهاجرين مَن لهم قَرابات يَحمونَ أهليهم وأموالهم، فأحببتُ إذ فاتني ذلك مِن النَّسَب فيهم ، أن أتخذَ عندهم يَدًا يَحمونَ قَرابتي . ولَم أفْعَلْه ارتدادًا عَن دِيني ، ولا رِضا بالكُفرِ بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ : ((أمَا إنه قد صَدَقَكم)). فقال عُمر : يا رسول الله ، دَعْني

أضْرِبْ عُنُقَ هذا المنافق. فقال: ((إنه قد شَهِدَ بَدْرًا ، وما يُدريك لعل اللهَ قد اطَّلَعَ على مَن شَهِدَ بَدْرًا ، فقال : اعملوا ما شِئتم فقد غفرتُ لكم)) . فأنزل الله السُّورة : ﴿ يا أيها الذينَ آمَنوا لا تتَّخذوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُم أولياءَ تُلقونَ إليهم بالمودَّةِ ... ﴾ [19].

هناك دُروس عديدة مُستفادة من هذه القصة :

١ــ إن النبيَّ ﷺ مُؤيَّد بالوَحْي، والوَحْيُ قد أخبرَه بهذا الأمر الغَيْبي (وجود المرأة في منطقة "روضة خاخ" وهي بين مكة والمدينة) . وهذا دليلٌ على نُبُوَّة محمد ﷺ .

٢ــ استجابةُ الصحابةِ السريعةُ لأمر النبيِّ ﷺ ، والانطلاق على الخيول التي تَعدو بِشِدَّة من أجل اللحاق بهذه الظعينة (المرأة التي تَحمل الرسالة) .

٣ــ التَّشديد على هذه المرأة الْمُدانة ، والتعامل معها بِحَزْم وقوة . فإمَّا أن تُخرج الكتابَ ، أو تتم تعريتها للحصول على هذا الكتاب . وهنا تبرز مشروعية اتخاذ أي قرار من شأنه حماية الإسلام والمسلمين من الأخطار ، وهذا الأمر يُقَدَّر بِقَدْره ، ويُوضَع في ميزان المنفعة والمفسدة .

٤ــ مَن أرشدَ العَدُوَّ إلى عَوْرات المسلمين وأسرارهم ، لا يُحْكَم عليه بالكُفر إذا كان مُتأوِّلاً وصاحبَ عُذْر ، وفِعْلُه من أجل مَنفعة دُنيوية مع سلامة قَلبه مِن الرِّدة والخيانة . وهذا يدل على أن مَن أتى بمعصية كبيرة أو صغيرة ، وجاءَ بِعُذْر ، وقدَّم ما يَحتمل التأويل ، فإن كلامَه يُعْتَمَد ، وإن كان غالبُ الظن خِلافَه [20].

---

(١٩) متفق عليه. البخاري(٤/ ١٥٥٧)برقم(٤٠٢٥)،ومسلم (٤/ ١٩٤١) برقم (٢٤٩٤).

(٢٠) قال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٤٦) : ((إذا قُلنا لا يَكون بذلك كافرًا . فهل يُقتَل بذلك حَدًّا أم لا؟.اختلف الناس فيه.فقال مالك وابن القاسم وأشهب:يَجتهد في ذلك الإمام.وقال عبد الملك: إذا كانت عادته قُتل لأنه جاسوس. وقد قال مالك بِقَتل الجاسوس، وهو الصحيح ، لإضراره بالمسلمين وسَعيه بالفساد في الأرض، ولعل ابن الماجُشُون إنما اتخذ التكرار في هذا، لأن حاطبًا أُخِذَ في أول فِعْله . والله أعلم ... فإن كان الجاسوس كافرًا، فقال الأوزاعي : يكون نقضًا لعَهده. وقال أصْبَغ : الجاسوس الحربي يُقتَل، والجاسوس المسلم والذِّمي يُعاقَبان، إلا إن تظاهرا على الإسلام فَيُقتَلان)) اهـ . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٥٥) : ((ومذهب الشافعي وطائفة أن الجاسوس المسلم يُعزَّر ، ولا يَجوز قَتْله . وقال بعض المالكية : يُقتَل إلا أن يتوب . وبعضهم : يُقتَل وإن تاب . وقال مالك : يَجتهد فيه الإمام)) اهـ .

وفي كثير من الدُّوَل تَكون الخِيانة العُظمى عُقوبتها الإعدام . وهذه الدُّوَلُ تَفعل ذلك لحماية وجودها ومصالحها وشعوبها . لذلك تَقوم بإعدام الجواسيس والخوَنة ومَن يقوم بإفشاء الأسرار الحسَّاسة ، التي تُشكِّل خطرًا على وجود الدَّولة ومصالحها العُليا . وكُل الدول والأنظمة السياسية تضع تشريعات لحفظ كياناتها ووجودها ومصالحها.وهذا أمرٌ مُنتشر في كل العالَم ، وليس غريبًا .

وعن فُرات بن حَيَّان _ رضي الله عنه_: أن رسول الله ﷺ أمرَ بِقَتْله، وكان عَيْنًا لأبي سُفيان، فَمَرَّ بمجلس الأنصار ، فقال : إني مُسْلِم . فذهبوا به إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : إنه يَزْعُم أنه مسلم . فقال : ((إنَّ مِنكم رِجالاً نَكِلُهم إلى إيمانهم ، مِنهم فُرات بن حَيَّان)) [(21)].

إن النبيَّ ﷺ لَم يَقتل فُرات بن حَيَّان معَ أنه كانَ عَيْنًا (جاسوسًا) لأبي سُفيان ، يَنقل أخبارَ المسلمين وأسرارَهم. وقد حَكَمَ النبيُّ ﷺ عليه وَفْق الظاهر، واعتبرَ فُراتًا مُسْلِمًا لأنه قال إنه مُسلِم، فتمَّ إجراء الْحُكْم على الظاهر ، وَوَكَلَهُ النبيُّ ﷺ إلى إيمانه . واللهُ أعلمُ بالظاهرِ والباطنِ .

والجديرُ بالذِّكر أن الآية نزلت عِتابًا لحاطب بن أبي بَلْتعة وتَوبيخًا له ، وتحذيرًا للمؤمنين مِن القيام بِفِعْله. ومعَ هذا، فالآيةُ تَحْمِل تشريفًا له ، وتكريمًا ما بَعْده تكريم ، لأن الله شَهِدَ له بالإيمان في قَوله : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا ﴾ ، ولَم يَحكم عليه بالكفر ولا النِّفاق.وَشَهادةُ الله صادقة لا تُرَد.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يَنهاكم اللهُ عَنِ الذينَ لم يُقاتِلُوكم في الدِّينِ ولم يُخرِجُوكم مِن دِيارِكُم أن تَبَرُّوهُم وتُقسِطوا إليهم ﴾[الْمُمْتَحَنة : ٨] [(22)].

---

(٢١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ١٢٦) برقم (٢٥٤٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٢٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٢٣٦ و٢٣٧): ((اختلَفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال : أحدها أنها في أسماء بنت أبي بكر ، وذلك أن أمها قُتَيلة بنت عبد العُزَّى قَدِمَتْ عليها المدينة بهدايا فلم تَقبل هداياها،ولَم تُدخلها مَنْزلها، فسألتْ لها عائشة رسولَ الله ﷺ، فَنَزلت هذه الآية.فأمرها رسول الله ﷺ أن تُدخلها مَنْزلها ، وتَقبل هديتها وتُكرِمها وتُحسِن إليها ، قاله عبد الله بن الزبير . والثاني أنها نزلت في خُزاعة وبني مُدْلِج، وكانوا صالحوا رسولَ الله ﷺ على أن لا يُقاتلوه ولا يُعينوا عليه أحدًا، قاله ابن عباس . ورُوِيَ عن الحسن البصري أنها نزلت في خُزاعة وبني الحارث بن عبد مَناف،وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فداموا على الوفاء به. والثالث نزلت في قوم من بني هاشم منهم العباس قاله عطية العَوفي . والرابع أنها عامة في جميع الكفار وهي مَنسوخة بقَوْله تعالى:﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التَّوبة: ٥]، قاله قتادة.والخامس نزلتْ في النساء والصِّبيان، حكاه الزَّجاج)) .

لا يَنهاكم اللهُ عن الإحسان إلى الكفار الذين لَم يُقاتلوكم لأجل دِينكم ، ولَم يُخرجوكم من دِياركم . لا يَمنعكم اللهُ من إكرامهم ، والإحسان إليهم ، ومُعاملتهم بالعدل والاحترام ، ما داموا لَم يُحاربوكم ، ولَم يُؤذوكم ، خصوصًا إذا كانوا مِن أقاربكم وأرحامكم . وهذه الآيةُ الكريمة رُخصة في صِلة الكفار غير المحارِبين ، والإحسان إليهم ، رغمَ انقطاع الْمُوالاة منهم .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٦٢) : ((يقول تعالى ذِكْرُه: ﴿ لا يَنهاكم اللهُ عَنِ الذينَ لم يُقاتِلُوكم في الدِّينِ ﴾ مِن أهل مكة ، ﴿ ولم يُخرِجُوكم مِن دِيارِكُم أن تَبَرُّوهُم وتُقسِطوا إليهم ﴾ . يقول : تعدلوا فيهم بإحسانكم إليهم ، وبِرِّكم بهم)) اهـ .

وعن عبد الله بن الزُّبير ــ رضي الله عنه ــ قال : قَدِمَتْ قُتَيلة بنت عبد العُزَّى بنت أسعد من بني مالك بن حِسْل على ابنتها أسماء بنت أبي بكر الصِّديق ــ رضي الله عنهما ــ، وكان أبو بكر طَلَّقها في الجاهلية ، فَقَدِمَتْ على ابنتها بهدايا : ضِبابًا وسَمْنًا وأَقِطًا [23]، فأبَتْ أسماءُ أن تأخذَ مِنها وتَقبلَ مِنها وتُدْخِلَها مَنْزِلَها ، حتى أرسلتْ إلى عائشة أن سَلِي عن هذا رسولَ الله ﷺ ، فأخبرَتْهُ ، فأمرَها أن تَقبلَ هداياها ، وتُدْخِلَها مَنْزِلَها . فأنزل الله ــ عز وجل ــ : ﴿ لا يَنهاكم اللهُ عَنِ الذينَ لم يُقاتِلُوكم في الدِّينِ ولم يُخرِجُوكم مِن دِيارِكُم أن تَبَرُّوهُم ﴾ [24].

لقد قَدَّمت أسماءُ بنت أبي بكر رابطةَ الدِّين على رابطة الدَّم ، فَرَفضت إكرامَ أُمِّها الكافرة رغم ما بينهما من القَرابة ، خَوْفًا أن يَكون هذا الفِعْل طَعْنًا في الدِّين . وهذا يُشير إلى تقواها. ومِن تقواها كذلك أنها حَرِصَت على سؤال النبيِّ ﷺ ، وأخذِ فَتوى نبوية بخصوص هذا الأمر . وما كانَ مِن النبيِّ ﷺ إلا أن أمرَها بالإحسان إلى أُمِّها والبِر بها . وهذا يُشير إلى الأخلاق الإسلامية الرفيعة.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنما يَنهاكم اللهُ عَنِ الذينَ قاتلوكُم في الدِّينِ وأخرَجُوكُم مِن دِيارِكُم وظَاهَرُوا على إخراجِكُم أن تَوَلَّوْهُم ومَن يَتولَّهُم فأُولئكَ هُمُ الظالمون ﴾ [الْمُمْتَحَنة : ٩] .

إنما يَنهاكم اللهُ عن مُوالاة ومحبة الكفار المحارِبين الذينَ قاتلوكم لأجل دِينكم ، وأخرَجُوكم مِن دياركم، وأعانوا أعداءكم على إخراجكم مِن دياركم ، أن تَتَوَلَّوْهُم وتتَّخذوهم أنصارًا وأحبابًا وأعوانًا . ومَن يتَّخذ أعداءَ الله أولياءَ ويحبهم ويُناصرهم ويُعينهم ، فأُولئك هُم الظالمون لأنفسهم ،

---

(٢٣) الضِّباب (جَمْع ضَب) . والأَقِط هو لبن مُجفَّف يابس يُطبَخ بِه .

(٢٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٢٧) برقم (٣٨٠٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

لأنهم عرَّضوها لعذاب الله وعقوبته، وذلك بسبب وَضْعهم الوَلاية في غَير مَوْضعها ، واتخاذِ أعداء الله أولياء. ولا يخفى أن هذا الأمر يَطعن في العقيدة،ويُشكِّل خطرًا حقيقيًّا على الإسلام والمسلمين. يَمنعكم اللهُ مِن مُوالاتهم ومودتهم واتخاذهم أحبابًا وأنصارًا . وهؤلاء لَيس لهم إلا السَّيف ، وتجب عداوتهم ومُحارَبتهم . ومَن يتولَّهم فهو غارق في الإثم الكبير ، والمعصية العظيمة ، والخيانة الكُبرى . وقد ظَلَمَ نَفْسَه أشدَّ الظلم ، لأنه تَوَلَّى أعداءَ الله ، وقاد نَفْسَه إلى الهلاك والعذاب. وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٦٣): ((يقول تعالى ذِكْرُه: ﴿ إنما يَنهاكم اللهُ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ عَنِ الذينَ قاتلوكُم في الدِّينِ ﴾ مِن كُفار أهل مكة ، ﴿ وأخرَجُوكُم مِن دِيارِكُم وظَاهَرُوا على إخراجِكُم أن تَوَلَّوْهُم ﴾ . يقول : وَعَاوَنوا مَن أخرجكم مِن دياركم على إخراجكم ، أن تَوَلَّوْهُم ، فتكونوا لهم أولياء ونُصَراء . ﴿ ومَن يَتولَّهُم ﴾ . يقول : ومَن يَجعلهم مِنكم أو مِن غَيركم أولياء ، ﴿ فأُولئكَ هُمُ الظالمون ﴾ . يقول : فأُولئك هُم الذين تَوَلَّوْا غَير الذي يَجوز لهم أن يَتَوَلَّوْهُم ، ووضعوا وَلايتهم في غَير مَوضعها ، وخالفوا أمرَ الله في ذلك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيهِم ﴾[الْمُمْتَحَنَة : ١٣].

يا أيها الذين صَدَّقْتُم بِوَحدانية الله ، وأقررتم بِنُبُوَّة محمد ﷺ ، لا تُوالوا الكفارَ أعداء الله ، ولا تُحِبُّوهم ، ولا تُصادقوهم ، ولا تُعاونوهم ، ولا تُناصروهم . فهُم قَوْمٌ مَلْعُونون ومَغضوب عليهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/٢٤٧):((وذلك أن ناسًا مِن فقراء المسلمين كانوا يُخبرون اليهود أخبار المسلمين، يتقرَّبون إليهم بذلك لِيُصيبوا مِن ثمارهم وطعامهم، فَنَزلت هذه الآية)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٥٧) : ((يَنهى تبارك وتعالى عن مُوالاة الكافرين في آخِر هذه السُّورة، كما نهى عنها في أوَّلها، فقال تعالى: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيهِم ﴾ . يعني: اليهود والنصارى وسائر الكُفار ، مِمَّن غضب اللهُ عليه ولعنه ، واستحق من الله الطرد والإبعاد ، فكيف تُوالونهم وتتَّخذونهم أصدقاء وأخِلاء، وقد يَئِسوا مِن الآخرة ، أي : مِن ثواب الآخرة ونعيمها ، في حُكم الله عَزَّ وَجَلَّ)) اهـ .

١٦_ النَّهْي عن نصرهم :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا للكافرين ﴾[القَصَص : ٨٦] .

الخطابُ للنبيِّ ﷺ ، والمراد أُمَّته ، لأن النبيَّ ﷺ مَعصوم . لا تَكُن يا محمد عَوْنًا للكافرين على نشر دِينهم ، ولا نصيرًا لهم في باطلهم ، ولا مُساعدًا لهم في ضلالهم ، بِمُداراتهم

ومُجاملتهم ، والخضوع لآرائهم ، والاستجابة لرغباتهم ، واتِّباع أهوائهم .ولكن فَارِقْهم وخَالِفْهم ، واكْشِفْ باطلهم وضلالهم، وحَذِّر الناسَ مِنهم ، وواصِل نشر الدعوة المحمدية الإسلامية بكل إصرار وثبات.وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٥١):((﴿ فلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا للكافرين ﴾ ، أي : عَوْنًا لهم على دِينهم ، وذلك أنهم دَعَوْهُ إلى دِين آبائه ، فَأُمِرَ بالاحتراز مِنهم ، والخطاب بهذا وأمثاله له ، والمراد أهل دِينه ، لِئَلا يُظَاهِرُوا الكفارَ ، ولا يُوافقوهم)) .

١٧_ وجوب الإعراض عنهم :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فلا تُطِعِ الكافرينَ وجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾[الفُرقان : ٥٢] .

الْتَزِمْ بأوامر اللهِ يا محمد ، وارْفُض كلامَ الكافرين حِينَ يَدعونك إلى الشِّرك وعبادة آلهتهم الباطلة. أطِع اللهَ الذي يأمر بالتَّوحيد ومكارم الأخلاق، ولا تُطِع الكافرين الذين يتَّبعون أهواءهم، ويَعبدون الأوثان، ويَدعونك إلى مُوافقتهم ومُداهنتهم، واتِّباع دِين آبائهم، فتخسر الدنيا والآخرة، وتُورِد نَفْسَكَ المهالِك ، وتَقُودها إلى العذاب ، واجتهِدْ في الدَّعوة إلى تَوحيد اللهِ تعالى ، وكُن ثابتًا عَلَيها ، وواثقًا باللهِ تعالى . وجَاهِدْهُم بالقُرآنِ جِهادًا شديدًا ، لا يُخالِطه شَك ولا ضَعْف . اقْرَأ عَلَيهم القُرآنَ وما فِيه من الأحكام والشَّرائع والأوامر والنَّواهي والترغيب والترهيب والوعد والوعيد، حتى يَخضعوا للحق ، ويَتركوا عبادةَ الأوثان ، ويُؤمنوا بِتَوحيد اللهِ تعالى .

وقد قِيل : جاهدهم بالسَّيف . وهذا مَعنى بَعيد ، لأنَّ هذه السُّورة مكية ، نَزلت قبل الأمر بالقتال . فالأمرُ بالقتال إنما كان بعد الهجرة . إذن ، فالجهادُ المقصود في الآية هو التَّبليغ والدَّعوة وتقديم الْحُجَج والبراهين ، وليس الجهاد بالسَّيف والقوة العسكرية .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٢٤) : ((﴿ فلا تُطِعِ الكافرينَ ﴾ فِيما يُريدونك عَلَيه ، وهو تَهييج له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين . ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ ﴾ بالقُرآن، أو بترك طاعتهم ، الذي يَدل عليه : ﴿ فلا تُطِعِ ﴾ ، والمعنى : إنهم يَجتهدون في إبطال حَقِّك ، فَقَابِلْهُم بالاجتهاد في مُخالفتهم وإزاحة باطلهم . ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ لأنَّ مُجاهَدة السُّفهاء بالْحُجَج أكبر مِن مُجاهَدة الأعداء بالسَّيف ، أو : لأنَّ مُخالَفتهم ومُعاداتهم فِيما بين أظْهُرِهم مَعَ عُتُوِّهم وظُهورهم ، أو : لأنه جِهاد مَعَ كُلِّ الكَفَرة ، لأنه مبعوث إلى كافة القُرى)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ولا يَسْتَخِفَّنَّكَ الذينَ لا يُوقِنُون ﴾[الرُّوم : ٦٠] .

فَاصْبِرْ يا محمد على تكذيب قَومك لَك، وبَلِّغ الوَحْيَ الإلهيَّ بلا كَسَل ولا مَلَل ، فإنَّ وَعْدَ اللهِ لَكَ بالنصر والتمكين وإظهار دِينك رَغم أنوف المشركين، واقعٌ لا مَحالة ، وكائنٌ لا شَكَّ فِيه .

ولا يَحْمِلَنَّكَ المشركون الضَّالون على الخِفَّة والطَّيْش والجهل،ولا تترك الصبر بسبب كُفرهم وضلالهم. وقال النَّسفي في تفسيره (٣/ ٢٧٩) : ((فَاصْبِرْ على أذاهم أو عداوتهم . ﴿ إنَّ وَعْدَ اللهِ ﴾ بِنُصرتك على أعدائك ، وإظهار دين الإسلام على كُلِّ دِين ﴿ حَقٌّ ﴾ لا بُدَّ مِن إنجازه والوفاء به . ﴿ ولا يَسْتَخِفَّنَّكَ الذينَ لا يُوقِنُون ﴾ أي : لا يَحْمِلَنَّكَ هؤلاء الذين لا يُوقنون بالآخِرة على الخِفَّة والعَجَلة في الدُّعاء عليهم بالعذاب، أو لا يَحْمِلَنَّكَ على الخِفَّة والقلق جَزَعًا مِمَّا يَقولون ويَفعلون، فإنهم ضُلاَّل شَاكُّون ، لا يُسْتَبْدَع مِنهم ذلك)) اهـ .

وعن أبي يحيى قال : نادى رَجُلٌ مِن الغالين عَلِيًّا ، وهو في الصلاةِ صلاةِ الفجر ، فقال : ﴿ ولقدْ أُوحيَ إلَيْكَ وإلى الذينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أشركتَ لَيَحْبَطَنَّ عملُك وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين﴾[الزُّمَر: ٦٥].فأجابه عليٌّ وهو في الصلاة:﴿فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ولا يَسْتَخِفَّنَّكَ الذينَ لا يُوقِنُون﴾ [25]. هذا الحديثُ باطلٌ . ومعناه أنَّ رَجلاً مِنَ الخوارج نادى عَلِيًّا وهو في صلاة الفجر . والخوارجُ يُكفِّرون عَلِيًّا ــ رضي اللهُ عنه ــ ، ويَعتبرونه كافرًا خالدًا في جهنم ، لأنَّه لَم يَحكم بما أنزلَ اللهُ ــ حَسَبَ زعمهم وافترائهم ــ . وهذه تُهمة باطلة تُشير إلى غُلُوِّ الخوارج ومُروقهم مِن الدِّين . لذلكَ قَرأ هذا الرَّجل من الخوارج هذه الآية ، لأنه يَعتبر عَلِيًّا كافرًا ، وبالتالي فعبادتُه فاسدة . وقد فَهِمَ عليٌّ مقصود الرَّجل ، فردَّ عليه بهذه الآية .

وبُطلان الحديث واضحٌ ، لأنَّ مَن فَعل هذا في صلاته يُريد الجواب، فصلاتُه باطلة، لأنه أدخلَ في الصلاة عَمَلاً خارجًا عنها . وعليُّ بن أبي طالب ــرضي اللهُ عنه ــ هو الإمام الفقيه العالِم الكبير ، لا يَقع في مُبطِلات الصلاة عَن جَهْلٍ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُم ﴾[الشُّورى : ١٥] .

ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الكافرين الذين بَنَوا دِينهم على التناقض والشُّكوك والأكاذيب ، فغابَ عنهم اليقين ، وغرقوا في مُستنقع الشُّكوك والأهواء . وارفض دعوتهم لِتَرك دِين التَّوحيد . ولا تَعْبأ بِخِلافهم ، ولا تَتأثَّر بِعَداوتهم ، ولا تَلتفِتْ إلى طَعْنهم في الحق ، فأهواؤهم باطلة ، وأمزجتهم فاسدة ، وأحكامهم جائرة ، وعقائدهم مُنحرِفة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٧٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُم ﴾ يعني أهل الكتاب لأنهم دَعَوْهُ إلى دِينهم)) .

---

(٢٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ١٥٨) برقم (٤٧٠٤)، وحذفه الذهبي لِضَعفه .

١٨ــ التَّشَدُّد معهم :

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وقَاتِلُوهُم حتى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ويَكُونَ الدِّينُ للهِ فإنِ انتَهَوْا فلا عُدوانَ إلا على الظالمين ﴾ [البقرة : ١٩٣] .

قَاتِلُوا المشركين حتى لا يَكون شِرْك، أي : حتى يُسْلِمُوا. والوثنيُّ خائنٌ خِيانة عُظمى ، لا يُقبَل مِنه إلا الإسلام أو القتل ، ولا تُقبَل مِنه جِزية . ويكون الدِّين خالصًا لله ، ويَخْلُص له التَّوحيد ، وتَكون العبادة والطاعة لله وَحْدَه،لا شريك له، فإن انتهى المشركون عن الكفر، واعتنقوا الإسلام، فلا تَقْتلوهم ، لأنهم صاروا إخوانكم في الدِّين. ولا عُدوان إلا على المشركين الذين ظَلموا أنفسهم باختيار الكفر على الإيمان ، وتعريض أنفسهم لعذاب الله وعقوبته . وهذا أسوأ أنواع الظلم ، حيث يَظلم الإنسانُ نَفْسَه ، ويقودها إلى الهلاك الأكيد والعذاب الشديد .

والمقصودُ بالعُدوان هو الظلم . والعُدوان على الظالمين هو جزاء الظالمين . وقد سَمَّى جَزَاءَ الظالمين ظُلْمًا للمُشَاكَلَة (الْمُمَاثَلَة) . وهي ذِكْرُ الشيء بغَيْر لفظه ، لوقوعه في صُحبته .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٢٠٠) : ((حتى لا تكون فِتنة ، يعني حتى لا يكون شِرك بالله، وحتى لا يُعبَد دُونَه أحد، وتضمحل عبادة الأوثان الآلهة والأنداد ، وتكون العبادة والطاعة لله وَحْدَه ، دُون غَيره مِن الأصنام والأوثان)) اهـ .

إن الأمر بالقتال في هذه الآية له هدفٌ واضح ، وهو حتى لا تكون فِتنة ، وهي الشِّرك ، ويكون الدِّين للهِ خالصًا دُون شُركاء وانحرافات عَقَدية . وهذا مُنتهى الحزم معَ الذين يُحاولون فِتنة الناس عن دِينهم ، وإعادتهم إلى الكفر والغِواية.وإذا قاموا بالامتناع عن شِركهم، وأفعالهم الحربية ، فيتم الكف عن قتالهم ، ولا يُقَاتَل إلا المعتدون ، الذين رفضوا إنهاء أفعالهم الحربية ، وجرائمهم بحق المسلمين بكافة أشكالها . وإذا انتهى المشركون عن شِركهم ، وكَفُّوا عن قتال المسلمين ، فينبغي الكفُّ عن قتالهم ، وعدم الاعتداء عليهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٠٠) : ((قال ابن عباس والحسن ومجاهد وقَتادة في آخرين : الفِتنة هاهُنا الشِّرك . قَوله تعالى : ﴿ ويَكُونَ الدِّينُ للهِ ﴾ . قال ابن عباس: أي يَخْلُص له التَّوحيد. والعُدوان الظلم، وأُرِيد به هاهُنا الجزاء،فَسُمِّيَ الجزاء عُدوانًا مُقابَلة للشيء بِمِثْله ... . والظالمون هاهُنا المشركون ، قاله عِكرمة وقَتادة في آخرين)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٥٩٨) : عن سعيد بن جُبَير قال : خَرَجَ عَلَينا عبد الله بن عُمر، فَرَجَوْنا أن يُحدِّثنا حديثًا حسنًا . قال : فَبَادَرَنا إليه رَجل ، فقال: يا أبا عبد الرحمن، حَدِّثْنا

عن القتال في الفِتنة، واللهُ يقول: ﴿ وقَاتِلُوهُم حتى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ . فقال: ((هل تَدْري ما الفِتنة ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ؟، إنما كان محمد ﷺ يُقاتِل المشركين ، وكان الدخول في دِينهم فِتنة ، وليس كقتالهم على الْمُلْك))اهـ. إن النبيَّ ﷺ كان يُقاتل المشركين حتى يكون التَّوحيدُ خالصًا لله وَحْدَه ، بلا شريك ولا نِد ، ولا يُعبَد إلا الله ، ولا يُفتَن مؤمن عن دِينه ، ولَم يكن ﷺ يُقاتِل على الدنيا وجَمْع حُطامها الفاني ، والحصول على الْمُلْك ، ونَيل الجاه والحظوة والأموال والمناصب .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يا أيُّها النبيُّ جَاهِدِ الكُفارَ والمنافقينَ واغْلُظْ عَلَيهم ومَأوَاهُم جَهَنَّمُ وبِئْسَ المصير ﴾ [التَّوبة : ٧٣] .

الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ ، وأُمَّته داخلة فيه . يا أيها النبيُّ ، جاهِد الكفارَ بالسَّيف والسِّلاح ، وجَاهِد المنافقين باللسان وإلزام الْحُجَّة وإقامة الحدود عليهم، وشَدِّدْ عليهم فيما تُجاهدهم بِه ، وكُن صَلْبًا خَشِنًا في التعامل معهم ، ولا تُجاملهم ، ولا تُداهنهم ، ولا تأخذك بهم رأفة ولا رحمة . وهذا من أجل إظهار عَظَمَة الإسلام ورِفعة شأنه ، وعُلُوِّ مكانته ، وعِزَّة المسلمين ومَجْدهم. ومصيرُ الكفار والمنافقين في الآخرة إلى عذاب جهنم ، وبِئس المرجع الذي يرجعون إليه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/ ٤٦٩و٤٧٠): ((قَوله تعالى: ﴿ جَاهِدِ الكُفارَ والمنافقينَ ﴾ أمَّا جهاد الكفار فبالسَّيف ، وفي جهاد المنافقين قَولان : أحدهما أنه باللسان ، قاله ابن عباس والحسن والضَّحاك والربيع بن أنس . والثاني جهادهم بإقامة الحدود عليهم ، رُوِيَ عن الحسن وقَتادة . فإن قِيل : إذا كان رسول الله ﷺ قد أُمِرَ بجهادهم وهو يَعْلم أعيانهم ، فكيف تركهم بين أظْهُر أصحابه فلم يَقْتلهم ؟ . فالجواب أنه إنما أُمِرَ بقتال مَن أظهرَ كلمةَ الكفر ، وأقام عليها ، فأمَّا مَن إذا أُطْلِعَ على كُفره أنكرَ وحَلَف، وقال إني مسلم، فإنه أُمِرَ أن يأخذه بظاهر أمره، ولا يبحث عن سِرِّه . قَوله تعالى : ﴿ واغْلُظْ عَلَيهم ﴾ . قال ابن عباس: يُريد شِدَّة الانتهار لهم والنظر بالبِغضة (شدة البُغض) والْمَقْت . وفي الهاء والميم مِن ﴿ عَلَيهم ﴾ قَولان : أحدهما أنه يرجع إلى الفريقين ، قاله ابن عباس . والثاني إلى المنافقين ، قاله مُقاتل)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى:﴿ فإذا لقيتُم الذين كفروا فَضَرْبَ الرِّقاب حتى إذا أَثْخَنتموهم فَشُدُّوا الوَثَاقَ فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِداءً حتى تضع الحربُ أوْزَارَهَا ﴾[مُحَمَّد : ٤] .

الخطابُ الإلهيُّ للمؤمنين المصدِّقين بِوَحدانية الله ونُبُوَّةِ محمد ﷺ ، لتعليمهم وإرشادهم إلى كيفية التعامل في حُروبهم معَ المشركين ، فإذا أدركتم وواجهتم الذين أنكَروا وَحدانيةَ اللهِ ، وجَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ، فاقتلوهم ، واحصدوهم حَصْدًا بالسُّيوف .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٢١):((والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وَقْعة بَدْر ، فإن الله _ سُبحانه وتعالى _ عاتبَ المؤمنين على الاستكثار من الأُسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفِداء ، والتقليل من القتل يومئذ)) اهـ .

وخُصَّ الرِّقاب بالذِّكر ، لأن القتل أكثر ما يكون بقطعها . حتى إذا غلبتموهم وهزمتموهم وأهلكتموهم قَتْلاً ، وبالغتم في حصادهم ، وانهارت قوتهم وعزيمتهم ، وصاروا عاجزين عن المقاومة ، فَأسِرُوا مَن بَقِيَ على قَيْد الحياة ، واحفظوهم ، لكيلا يَقتلوكم أو يُفْلِتوا مِنكم . والوَثَاقُ ما يُوثَق بِه الأسرى ويُربَطون بِه ، كالحبل وغَيره . والأسْرُ إنما يكون بعد المبالغة في القتل .

وفي تفسير القرطبي (١٦/ ١٩٢): ((قال الزَّجاج : أي : فاضربوا الرِّقاب ضَرْبًا ، وخُصَّ الرِّقاب بالذِّكر، لأن القتل أكثر ما يكون بها . وقِيل : نُصِب على الإغراء . قال أبو عُبَيدة : هو كَقَولك: يا نفس صَبْرًا ، وقِيل: التقدير: اقصدوا ضَرْبَ الرِّقاب . وقال : ﴿ فَضَرْبَ الرِّقاب ﴾ ولَم يَقُل : فاقتلوهم ، لأن في العبارة بِضَرْب الرِّقاب مِن الغِلظة والشِّدة ما ليس في لفظ القتل ، لِمَا فيه من تصوير القتل بأشنع صورة ، وهو حَز العُنق وإطارة العُضو الذي هو رأس البدن وعُلُوُّه وأوجه أعضائه)) اهـ . ﴿ فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِداءً ﴾ . إن المؤمنين مُخيَّرون بعد أسْر الكفار ، إمَّا أن تَمَنُّوا عليهم بإطلاق سراحهم بِغَير عِوَض ولا فِدية ولا مال ، يعني مَجَّانًا ، وإمَّا أن تأخذوا مِنهم مالاً مُقابل إطلاق سراحهم ، أو تُفادوهم بأسرى مسلمين ، ولكن بعد أن هَزمتموهم وكسرتم شَوْكتهم ، وأهلكتموهم بكثرة القتل والجراح ، وبالغتم في ذلك . والْمَنُّ : الإطلاق بغير عِوَض . والفِدَاء : ما يَفْدي به الأسير نَفْسَه مِن الأسر ، ولَم يتم ذِكْر القتل هُنا اكتفاءً بما تَقَدَّمَ .

﴿ حتى تضع الحربُ أوزارها ﴾ . حتى تنقضيَ أحداثُ الحرب ، وتضع أثقالها وأحمالها وآلاتها ، ويُلْقِيَ أهلُ الحربِ السلاحَ ، وتنتهيَ الحربُ بانتصار المسلمين وعُلُوِّ كلمتهم ، وهزيمة الكفار وانكسار كلمتهم . وهذا يعني ظُهور الإسلام على الشِّرك ، وارتفاع راية التَّوحيد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٩٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَضَرْبَ الرِّقاب ﴾ إغراء ، والمعنى : فاقتلوهم ، لأن الأغلب في مَوضع القتل ضَرْب العُنق ، ﴿ حتى إذا أَثْخَنتموهم ﴾ أي : أكثرتم فِيهم القتلَ ، ﴿ فَشُدُّوا الوَثَاقَ ﴾ يعني : في الأَسْر ، وإنما يكون الأَسْر بعد الْمُبالَغة في القتل. والوَثَاقُ اسم مِن الإيثاق، تَقول: أوْثَقته إيثاقًا ووَثَاقًا، إذا شَدَدت أَسْرَه لئلا يُفلِت ، ﴿ فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِداءً ﴾ . قال أبو عُبَيدة: إما أن تَمُنُّوا، وإمَّا أن تُفَادُوا... . وقال الزَّجاج: إمَّا مَنَنْتُم عليهم بعد أن تأسروهم مَنًّا ، وإمَّا أطلقتموهم بِفِداء . فصل : وهذه الآية مُحكَمة عند عامة العلماء ،

ومِمَّن ذهب إلى أن حُكم الْمَنِّ والفِداء باقٍ لَم يُنسَخ، ابن عمر ومجاهد والحسن وابن سيرين وأحمد والشافعي . وذهب قوم إلى نسخ الْمَنِّ والفِداء بِقَوله : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التَّوبة : ٥] . ومِمَّن ذهب إلى هذا ابن جُرَيج والسُّدي وأبو حنيفة . قَوله تعالى : ﴿ حتى تضع الحربُ أوزارها ﴾ . قال ابن عباس : حتى لا يبقى أحد من المشركين . وقال مجاهد: حتى لا يكون دِين إلا دِين الإسلام . وقال سعيد بن جُبَير: حتى يَخرج المسيح. وقال الفرَّاء: حتى لا يبقى إلا مُسلِم أو مُسالِم . وفي معنى الكلام قَولان : أحدهما حتى يضع أهلُ الحرب سلاحهم. قال الأعشى: وأعددتُ للحربِ أوزارَها... رِمَاحًا طِوَالاً وخَيْلاً ذُكورا. وأصل الوِزْر ما حَمَلْتَه ، فَسُمِّيَ السِّلاح أوزارًا ، لأنه يُحمَل ، هذا قول ابن قُتَيبة . والثاني حتى تضع حربُكم وقتالُكم أوزارَ المشركين وقبائحَ أعمالهم بأن يُسلِموا ، ولا يَعبدوا إلا الله ، ذَكَرَه الواحدي)) اهـ .

لقد دَعَت الآيةُ إلى ضرب رقاب الأعداء واستئصالهم بكل قوة،وهذا تعبير أقوى من تعبير القتل . فالصورةُ التي تُوضِّحها الآيةُ تُشير إلى حصاد الرؤوس. وهؤلاء هُم كفارٌ مُحارِبون يرفعون السلاحَ، فلا مجال للرحمة في مواجهتهم . كما أن المسلمين لَم يعتدوا عليهم أو يظلموهم، ولا يمكن الحوار مع الأعداء المحارِبين رافعي الأسلحة أو تقديم الورود لهم ، فلا بُد من قتلهم كَي يَرتدع الآخرون ، وتستقيم حالُ الأرض . وبعد إهلاكهم بالقتل ، ينبغي أسْر مَن بَقِيَ على قَيْد الحياة. والمؤمنون مُخيَّرون بين إطلاق سراحهم بدون مُقابل، أو أخذ الأموال منهم لقاء إطلاقهم ، حتى تنتهيَ الحربُ بنصر الإيمان وجنوده ، وهزيمةِ الكُفر وجنوده . والجديرُ بالذِّكر أن الْمَنَّ قُدِّمَ على الفِداء ، لأنه مِن مكارم الأخلاق ، وكانت العرب تفتخر بِه في أشعارها وتاريخها [26] .

---

(٢٦) قال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٩٢) : ((رُوِيَ عن بعضهم أنه قال : كنتُ واقفًا على رأس الحجَّاج حين أُتِيَ بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث ، وهم أربعة آلاف وثمانمائة ، فَقَتل منهم نحو من ثلاثة آلاف ، حتى قَدِمَ إليه رَجل من كِندة، فقال : يا حَجَّاج، لا جازاك اللهُ عن السُّنة والكرم خَيْرًا ! ، قال : وَلِمَ ذلك ؟ ، قال : لأن الله تعالى قال : ﴿ فإذا لقيتُم الذين كفروا فَضَرْبَ الرِّقاب حتى إذا أَثْخَنتموهم فَشُدُّوا الوَثَاقَ فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِداءً ﴾ في حق الذين كفروا، فواللهِ ما مَنَنْتَ ولا فَدَيْتَ ! ، وقد قال شاعركم فيما وَصف به قَوْمَه من مكارم الأخلاق : ولا نقتل الأسرى ولكن نفكُّهم ... إذا أثقلَ الأعناقَ حَمْلُ المغارِم .فقال الحجاج : أُفٍّ لهذه الجِيَف ! ، أمَا كان فيهم مَن يُحسن مِثلَ هذا الكلام ؟! ، خَلُّوا سَبيلَ من بَقِيَ ، فَخُلِّيَ يومئذ عن بقية الأسرى ، وهم زُهاء ألفَيْن بِقَوْل ذلك الرَّجل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلى الأرضِ مِنَ الكافرينَ دَيَّارًا ﴾ [نُوح : ٢٦] .

هذا دُعاء النبيِّ نُوح ﷺ بعدما أَيِسَ مِن إيمانهم ، وأدركَ أن الكفر مُسيطر على قلوبهم ، وقد أعلمه اللهُ وأوحى إِلَيه بعدم وُجود مؤمنين جُدُد ، ولَن يُؤمِن مِن قَوم نُوح إلا مَن قد آمنَ .

رَبِّ ، لا تترك أحدًا على وجه الأرض من الكافرين . والدَّيَّارُ هو مَن يَسكن الدِّيار . وهو الذي يَدُور في الأرض فيذهب ويجيء . ودُعاء الأنبياء مُستجاب . وقد استجابَ اللهُ له ، فأهلكَ جميع الكافرين على وجه الأرض ، وأغرقَ أُمَّته .

وقال ابن جُزَي في التَّسهيل (٤/ ١٥١): ((و" دَيَّار" مِن الأسماء المستعملة في النَّفْي العام، يُقال : ما في الدار دَيَّار ، أي : ما فيها أحد)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُم يُضِلُّوا عِبَادَكَ ولا يَلِدُوا إلا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نُوح : ٢٧] .

هذا توضيح مِن النبيِّ نُوح ﷺ لسبب الدعاء ، وتعليل له . إنَّكَ يا رَب ، إن تترك الكافرين على وَجه الأرض بلا عذاب،يُضِلُّوا عبادك عن طريق الحق،ويُبعدوهم عَن سبيل الهدى ، ويَدعوهم إلى الضلال، ولا يَخْرُج مِن أصلابهم إلا كُل فاجر وكافر .وقد أخبره اللهُ أنهم لا يَلِدُون مؤمنًا .

أدركَ النبيُّ نُوح ﷺ بسبب خِبرته الطويلة في التعامل معَ قَومه ، ومعرفة صفاتهم وطِباعهم، ومُكوثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، أن الكفر مُسيطر على قلوبهم ، وأن اللهَ إذا تَرَكَهم أحياءً على وَجْه الأرض بدون عذاب، وأبقى مِنهم أحدًا ، أضَلُّوا العبادَ (الأجيال القادمة) ، وقادوهم إلى الكفر والضلال ، ولَن يَلِدُوا إلا فاجرًا في الأعمال ، تاركًا للعبادة والطاعة ، كافرَ القلب، جاحدًا للوَحْي والنُّبُوَّة ، كَفَّارًا للنِّعَم الإلهية ، وغَير مُعترِف بفضل الله وكَرَمه ورِزْقه .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير: ((فإن قِيل: كيف عرف نُوح ذلك ؟، قُلنا بالاستقراء، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فعرفَ طِباعهم وجرَّبهم . وكان الرَّجل ينطلق بابنه إليه ويقول : يا بُنَيَّ، احذر هذا، فإنه كذَّاب ، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير ، وينشأ الصغير على ذلك ، فلذلك قال : ﴿ ولا يَلِدُوا إلا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾)) اهـ .

١٩_ التَّهَكُّم بالكُفار :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم لهم نصيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فإذًا لا يُؤتُونَ الناسَ نَقِيرًا ﴾[النِّساء : ٥٣] .

أَم لهم حَظ مِن الْمُلْك ؟ . وهذا استفهام إنكاري . ليس لهم مِن الْمُلْك شَيء . ولو كان لهم نصيب مِن الْمُلْك،فإذًا لا يُعْطُون أحدًا مِقدار نَقِير، مِن شِدَّة بُخْلهم وحِرْصهم وشُحِّهم وحسدهم.

والنَّقِيرُ يُضرَب مَثَلاً للشَّيء القليل التافه الحقير . وهو النُّقطة التي تكون في ظَهْر النُّواة .

إن اللهَ هو خالقهم ، وأعلم بِهم مِن أنفسهم ، ويَعْلَم سُبحانَه أنهم شديدو البُخل ، يَمنعون الحقوقَ ، ولا يُساعدون أحدًا مهما كانت المساعدة صغيرة ، ولا يَبْذُلون المال مهما كان قليلاً . وقد فضحهم اللهُ ، وأهانهم ، وجلَّلهم بالخِزي والعار إلى الأبد . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٨٣) : ((يقول تعالى : ﴿ أَم لهم نصيبٌ مِنَ الْمُلْكِ ﴾ ، وهذا استفهام إنكاري،أي: ليس لهم نصيب مِن الْمُلْك، ثُمَّ وَصَفَهم بالبُخْل،فقال: ﴿ فإذًا لا يُؤتُونَ الناسَ نَقِيرًا ﴾ . أي : لأنهم لو كان لهم نصيب في الْمُلْك والتَّصَرُّف لَمَا أَعْطَوْا أحدًا مِن الناس، ولا سِيَّما محمدًاﷺشيئًا ولا ما يملأ النَّقير،وهو النُّقطة التي في النُّواة،في قول ابن عباس والأكثرين)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٠٢):((﴿ أَم لهم نصيبٌ مِنَ الْمُلْكِ ﴾ ، ﴿ أَم ﴾ منقطعة ، ومعنى الهمزة إنكار أن يكون لهم نصيب مِن الْمُلْك ، وجَحْد لِمَا زَعمت اليهود ، مِن أن الْمُلْك سيصير إليهم ، ﴿ فإذًا لا يُؤتُونَ الناسَ نَقِيرًا ﴾ ، أي : لَوْ كان لهم نصيب مِن الْمُلْك ، ﴿ فإذًا لا يُؤتُونَ ﴾ أحدًا ما يُوازي ﴿ نَقِيرًا ﴾ ، وهو النُّقرة في ظَهْر النُّواة.وهذا هو الإغراق في بيان شُحِّهم ، فإنهم إن بَخِلوا بالنَّقير وهُم ملوك ، فما ظَنُّكَ بِهم إن كانوا فقراء أذِلاء مُتفاقرين ؟!)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِم أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُون ﴾ [الصَّافَّات : ١٤٩] .

اسأل يا محمد كفارَ مكة(مُشركي قَومك مِن قُرَيش)ـعلى سبيل الإنكار عليهم والتَّوبيخ لهمـ كيف زعموا أن الملائكة بنات الله ، ونسبوا البنات إليه سُبحانَه ، واختصُّوا بالذُّكور ؟ . كيفَ نسبوا الصِّنف الأدنى الذي يَكرهونه (البنات) إلى الله ، واستأثروا بالصِّنف الأعلى الذي يُحِبُّونه (الذكور) ؟ . وهذا وَفْقَ تقسيمات المشركين ، حيث كانوا يَكْرَهون البنات ، ويُحِبُّون الذكور .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٨) : ((أمرَ باستفتائهم عن وجه القِسْمة حيث جعلوا لله البنات ، ولأنفسهم البنين في قَولهم : الملائكة بنات الله . وهؤلاء زادوا الشِّرك ضلالات أُخَر ، التجسيم وتجويز الفناء على الله تعالى ، فإن الولادة مخصوصة بالأجسام الكائنة الفاسدة ، وتفضيل أنفسهم عليه ، حيث جعلوا أوْضَع الجنسين له ، وأرفعهما لهم ، واستهانتهم بالملائكة ، حيث أنَّثوهم ، ولذلك كرَّر اللهُ تعالى إنكارَ ذلك وإبطاله في كتابه مِرَارًا)) اهـ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٥٨٨) : ((لَمَّا كانت قُرَيش وقبائل من العرب يَزعُمون أن الملائكة بنات الله ، أمرَ اللهُ سُبحانه رسوله ﷺ باستفتائهم على طريقة التقريع والتوبيخ ، فقال : ﴿ فَاسْتَفْتِهِم ﴾ يا محمد، أي اسْتَخْبِرْهُم ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُون ﴾ ، أي : كيف يجعلون لله

على تقدير صِدْق ما زعموه من الكذب ، أدنى الجِنسين وأوضعهما وهو الإناث ، ولهم أعلاهما وأرفعهما وهم الذكور،وهل هذا إلا حَيْف في القِسمة لِضَعف عقولهم وسُوء إدراكهم ؟!)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم خَلَقْنا الملائكةَ إناثًا وَهُم شَاهِدُون ﴾ [الصَّافَّات : ١٥٠] .

تَوبيخٌ آخر لهم ، وتَهَكُّم بِهم . كيف جَعلوا الملائكةَ إناثًا ، وهُم لَم يَشْهَدوا خَلْقَهم ؟ .

إن المشركين الذين يَزعُمون أن الملائكة بنات الله ، لَم يَحضُروا عِند خَلْق الله للملائكة ، فَمِن أين جاؤوا بهذا الْحُكْم ؟ . إن هذا لا يُعلَم إلا عِند الْمُشاهَدة والْمُعايَنة ، أو إذا جاء دليل نقلي أو بُرهان عقلي، وهذا الشَّيء لا يُدرَك بالعقل المجرَّد ، وإنما يحتاج إلى دليل ، ولا دليل على ذلك . وهذا يدل على جهلهم وضلالهم واتِّباعهم لأهوائهم الشخصية، واحتكامهم إلى آرائهم وأمزجتهم.

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٩) : ((وإنما خُصَّ عِلم الْمُشَاهَدَة ، لأن أمثال ذلك لا تُعلَم إلا بِها ، فإن الأنوثة ليست من لوازم ذاتهم ، لتمكُّن معرفته بالعقل الصِّرف (البَحْت) ، مَعَ ما فيه من الاستهزاء ، والإشعار بأنهم لِفَرْط جَهْلهم يَبُتُّون به كأنهم قد شاهدوا خَلْقَهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وأصْفَاكُم بالبَنِين ﴾ [الزُّخْرُف : ١٦] .

هذا استفهام للإنكار على المشركين وتوبيخهم وتقريعهم، حيث يَزعُمون أن الملائكة بنات الله. هَل اتَّخَذَ اللهُ مِمَّا يَخلُق بناتٍ ، وأنتم تَكرهونهنَّ ، ولا تَرضونهنَّ لأنفسكم ، ولا تَقْبَلُون بهنَّ ، واختصَّكم بالذكور وأخلصكم بِهم ، وجعلهم لكم ؟. وهذا إنكار شديد للغاية ، وتعجيب مِن حالهم وضلالهم . هل اختارَ اللهُ لنفْسه المرتبة الدُّنيا (البنات) وأعطاكم المرتبة العُليا (الذكور)؟. كيف تَقْبَلون لله ما لا تَقْبَلونه لأنفسكم أيها المشركون الضَّالون الجاهلون ؟ . والأسلوبُ التَّهَكُّمي في الآية لتوبيخ المشركين ، وتقريعهم ، والإنكار عليهم ، وبيان جهلهم .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٤١) : ((معنى الهمزة في ﴿ أَمِ ﴾ للإنكار والتَّعَجُّب مِن شأنهم ، حيث لَم يقتنعوا بأن جَعلوا له جُزْءًا ، حتى جَعلوا له مِن مَخلوقاته أجزاء أخس مِمَّا اختير لهم ، وأبغض الأشياء إليهم ، بحيث إذا بُشِّرَ أحدهم بِها اشتدَّ غَمُّه بِه _ يعني البنات _)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم تَسألُهُم أجْرًا فَهُم مِن مَغْرَمٍ مُثْقَلُون ﴾ [الطُّور : ٤٠] .

أتسألُ يا محمد هؤلاء المشركين أجْرًا على تَبليغ الرسالة ، وإيصال الدَّعوة ، فَهُم مُثْعَبُون ومُجْهَدُون بسبب الأجر الثقيل ، لذلك لا يَستجيبون لك ، ولا يُؤمنون بما جِئْتَ بِه ؟ .

وهذا تَوبيخٌ لهم ، وسُخريةٌ مِنهم ، واستهزاء بِهم . ومعروفٌ أنَّ الأنبياء لا يَأخذون أجْرًا من الناس على تَبليغ رسالاتِ رَبِّهم ، والدَّعوة إلى تَوحيده .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٤٩٧):((أتسألُ هؤلاء المشركين الذين أرسلناك إليهم يا محمد على ما تَدعوهم إلَيه مِن تَوحيد الله وطاعته ثوابًا ، وَعِوَضًا مِن أموالهم ، فَهُم مِن ثِقْل ما حَمَّلْتَهم مِنَ الغُرْم ، لا يَقدرون على إجابتك إلى ما تَدعوهم إليه ؟)) اهـ .

والعادةُ أنَّ الإنسانَ يَتثاقل ويَتهرَّب إذا فُرِضَت عليه أُجْرة ، أو أُلْزِم بِدَفْع مالٍ مُقابل شيء ما. فهل سَألتَ يا محمد هؤلاء المشركين أجْرًا على الدَّعوة ، فأثقلتَ عَلَيهم ، فلا يَقْدِرون أن يُسْلِموا بسبب التكاليف المادية المرتفعة ؟ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم عِندَهُمُ الغَيْبُ فَهُم يَكْتُبُون ﴾ [الطُّور : ٤١] .

أَعِندَهم عِلْمُ الغَيب ، فَيَكتبون ذلك للناس ، ويُخبرونهم بالأمور الغَيْبِيَّة ؟. أوْ : أَعِندَهم عِلْمُ الغَيبِ حتى عَلِموا أنَّ أمرَ القيامةِ والبَعْثِ باطلٌ. وبالتالي ، يُمكنهم مُنازَعةُ النبيِّ ﷺ ومُجادَلَتُه بالْحُجَّة والبُرهان . لَيس الأمر كذلك ، فإنَّ اللهَ وَحْدَهُ يَعلم الغَيْبَ ، ولا أحدَ يُنازِعه في عِلْمِه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٥٧) : ((والمعنى: أعِندَهم الغَيْبُ. وفِيه قَولان : أحدهما أنَّه اللوحُ المحفوظُ ، فَهُم يَكتبون ما فِيه ، ويُخبرون الناسَ . قاله ابن عباس. والثاني أعِندَهم عِلْمُ الغَيب، فَيَعلمون أنَّ محمدًا يَموت قَبْلهم، فهم يَكتبون، أي يَحْكُمون، فَيَقولون: سَنَقْهَرُك. والكتاب الْحُكْم ... وإلى هذا المعنى ذهب ابن قُتَيبة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم لكم كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُون ﴾ [القَلَم : ٣٧] .

الخطابُ الإلهيُّ لِمُشركي قُرَيش لتوبيخهم وتقريعهم . هل عِندكم كتاب مِن السماء تقرؤونه وتدرسونه ، وتجدون فيه أن المطيع كالعاصي ؟ . وهذا استهزاء بهم ، وسُخرية مِنهم .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ١٩٦) : ((يقول تعالى ذِكْرُه للمُشركين به مِن قُرَيش : ألكم أيها القوم بتسويتكم بين المسلمين والمجرمين في كرامة الله كتابٌ نزل من عند الله ، أتاكم به رسول من رُسله ، بأن لكم ما تَخَيَّرُون ، فأنتم تدرسون فيه ما تقولون ؟)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ لكم فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُون ﴾ [القَلَم : ٣٨] .

هل تَدْرُسون في هذا الكتاب أن لكم ما تَشتهون وتَطْلبون وتختارون ؟. ليس لكم ذلك . وهذا توبيخٌ آخر للمشركين ، وتقريع لهم. وفي صَفوة التفاسير (١٩/ ٢٠) : ((وهذا توبيخ آخر للمُشركين فيما كانوا يَزعمونه مِن الباطل، حيث قالوا: إن كان ثَمَّة بعث وجزاء، فَسَنُعْطَى خيرًا من المؤمنين ، كما أُعْطِينا في الدنيا))اهـ . وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ١٩٦) : ((توبيخ لهؤلاء، وتقريع لهم ، فيما كانوا يقولون من الباطل ، ويَتَمَنَّوْنَ من الأماني الكاذبة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ أَم لكم أيمانٌ عَلَينا بالغةٌ إلى يَوْمِ القِيامةِ إنَّ لكم لَمَا تَحْكُمُون﴾[القَلَم: ٣٩].

هل مَعَكُم عهود على الله ومواثيق مُؤَكَّدة مِنه ، وثابتة لا تَنقطع إلى يوم القيامة ، تُفيد أنه سيحصل لكم ما تُريدون وتَطْلبون وتشتهون؟.وكسر همزة ﴿ إنَّ ﴾ في الآية لدخول اللام في خبرها.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٣٩): ((أي : أَلَكُم عُهود على الله تعالى، حَلَفَ لكم على ما تَدَّعُون بأيمان بالغة ، أي مُؤَكَّدة ، وكُل شَيء مُتناهٍ في الْجَوْدة والصِّحة فهو بالغ، ويجوز أن يكون معنى ﴿ بالغةٌ إلى يَوْمِ القِيامةِ ﴾، أي تَبْلُغ تلك الأيمان إلى يوم القيامة في لزومها وتوكيدها . ﴿ إنَّ لكم لَمَا تَحْكُمُون ﴾ لأنفسكم بِه مِن الخير والكرامة عند الله تعالى)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ سَلْهُم أيُّهُم بذلكَ زَعيم ﴾ [القَلَم : ٤٠] . قُلْ يا محمد لِمُشركي قَومك المكابِرين المعانِدين:مَن هو الكفيل بهذا الذي يَزْعُمون والضامن له؟. وهُم يَزعمون أن لهم في الآخرة ما للمسلمين فيها مِن الخير والنعيم والكرامة . وهذا استهزاء بهم ، وسُخرية مِنهم ، وتوبيخٌ وتقريع لهم . فهُم يُصدِرون أحكامًا غير معقولة ولا منطقية، خاضعة لأهوائهم الذاتية وآرائهم الشخصية، دُون دليل نقلي ولا بُرهان عقلي . وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢١٦): ((قَوله تعالى: ﴿ سَلْهُم أيُّهُم بذلكَ زَعيم ﴾ ، أي: سَلْ يا محمد هؤلاء الْمُتَقَوِّلين عليَّ، أيُّهم كفيل بما تَقَدَّمَ ذِكْرُه ، وهو أن لهم مِن الخير ما للمسلمين. والزعيم : الكفيل والضمين، قاله ابن عباس وقتادة. وقال ابن كَيسان:الزعيم هنا القائم بالْحُجَّة والدَّعوى)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَمْ لهم شُرَكَاءُ فَلْيَأتوا بِشُرَكائِهِم إن كانوا صادقين ﴾ [القَلَم : ٤١] . هل لهم آلهة (أصنام) وشُركاء لله تضمن أن لهم ما للمسلمين مِن الخير في الآخرة، وتَكفل لهم ذلك ؟. فَلْيُحْضِروا آلهتهم وشُركاءهم إن كانوا صادقين في دَعْواهم وزَعْمهم . وبعبارة أخرى، إذا كان لهم آلهة قادرة على فِعل الأشياء ، فَلْيُحْضِرُوها كي تتولى شُؤونهم، وتُدبِّر أُمورهم. وهذا تعجيزٌ للكفار، وسُخرية مِنهم . إذ إن آلهتهم باطلة ، ولَن يأتيَ أحد لمساعدة أحد.وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٨/ ٣٤٠): ((قَوله تعالى: ﴿ أَمْ لهم شُرَكَاءُ ﴾ يعني الأصنام التي جعلوها شُركاء لله تعالى . والمعنى : أَلَهُم أرباب يفعلون بهم هذا الذي زعموا. وقِيل: يَشْهَدون لهم بِصِدق ما ادَّعَوْا ، ﴿ فَلْيَأتوا بِشُرَكائِهِم إن كانوا صادقين ﴾ في أنها شُركاء الله . وإنما أُضِيف الشُّركاء إليهم، لادِّعائهم أنهم شُركاء الله)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَالِ الذينَ كَفروا قِبَلَكَ مُهْطِعِين ﴾ [الْمَعَارِج : ٣٦] .

ما شأنُ هؤلاء المشركين، يُسرِعون نَحْوَك يا محمد، ويَمُدُّون أعناقهم إليك، ويُقبِلون بأبصارهم عليك، ويَجلسون حَوْلك ، ولا يَعْمَلون بما تأمرهم؟. ما بالهم يَستهزئون بِك ، ويُكذِّبونك؟. وقد

كان المشركون يَجلسون حول النبيِّ ﷺ ، يَسمعون كلامه ، ولا يَعْملون بِه ، ولا يُؤثِّر فيهم . وكان يَسخرون مِن النبيِّ ﷺ ، ويستهزئون بِه وبأصحابه ، ويُكذِّبونه ، ويقولون سُخريةً واستهزاءً: إن دخل محمد وأصحابه الجنة ، فَلَنَدْخُلَنَّهَا قبلهم . وهذا سبب نزول الآية .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٢٥) : ((﴿ قِبَلَكَ مُهْطِعِين ﴾ مُسرعين ، مُقبلين إليك ، مَادِّي أعناقهم ، ومُدِيمي النظر إليك ، مُتطلعين نَحْوك . نزلت في جماعة من الكفار، كانوا يجتمعون حول النبيِّ ﷺ ، يستمعون كلامه ، ويستهزئون به ، ويُكذِّبونه ، فقال اللهُ تعالى : ما لهم ينظرون إليك ، ويَجلسون عندك ، وهُم لا ينتفعون بما يستمعون)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٦٤) : ((قال الزَّجاج : والْمُهْطِع الْمُقْبِل ببصره على الشَّيء ، لا يُزايله . وكانوا ينظرون إلى النبيِّ نظر عداوة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِين ﴾ [الْمَعَارِج : ٣٧] .

أي: جالسين عن يمين النبيِّ ﷺ وعن شِماله حِلَقًا وجماعاتٍ مُتفرِّقة ، يَسخرون مِن النبيِّ ﷺ ، ويستهزئون بكلامه ؟. وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١١٣٤): ((﴿ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ ﴾ عن جوانبك ﴿ عِزِين ﴾ جماعات ، حِلَقًا حِلَقًا ، وذلك أنهم كانوا يَجتمعون عنده ، ويستهزئون به وبأصحابه ، ويقولون : لَئِن دَخل هؤلاء الجنةَ ، فَلَنَدْخُلَنَّهَا قَبْلَهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُم أن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيم ﴾ [الْمَعَارِج : ٣٨] .

الاستفهام إنكاري لتوبيخ المشركين وتقريعهم. أيطمع هؤلاء المشركون الذين يُنكِرون وَحدانية الله ، ويَجحدون نُبُوَّةَ محمد ﷺ أن يُدخِلهم اللهُ جَنَّاتِ النعيم وهُم غارقون في الكفر والضلال ؟ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٥٥) : ((قال المفسِّرون : كان المشركون يَجتمعون حول النبيِّ ﷺ ، ويَستمعون كلامه ، فَيُكذِّبونه ، ويَكْذبون عليه ، ويستهزئون بأصحابه، ويقولون : لَئِن دَخل هؤلاء الجنةَ لَنَدْخُلَنَّهَا قَبْلهم ، ولَئِن أُعْطُوا مِنها شيئًا لَنُعْطَيَنَّ أكثر مِنه ، فَنَزلت : ﴿ أيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُم أن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيم ﴾)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٢٥) : ((قال ابن عباس : معناه: أيطمعُ كُل رَجل منهم أن يَدخل جَنَّتي كما يَدخلها المسلمون ويتنعَّم فيها وقد كَذَّبَ نَبِيِّي ؟)) اهـ .

وعن بُسْر بن جحَاش القُرَشِيِّ قال : تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية : ﴿ فَمَالِ الذينَ كَفروا قِبَلَكَ مُهْطِعِين (٣٦) عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِين (٣٧) أيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُم أن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيم (٣٨) كَلاَّ إنَّا خَلَقْنَاهُم مِمَّا يَعْلَمُون (٣٩) ﴾ . ثُمَّ بَزَقَ رسولُ الله ﷺ على كَفِّه فقال : ((يقول

اللهُ : يا ابنَ آدم ، أنَّى تُعجِزني ، وقد خَلقتك مِن مِثْل هذه ، حتى إذا سَوَّيْتُكَ ، وعَدَلْتُكَ ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْن ، وللأرض مِنك وَئِيد _ يعني شَكوى _ ، فَجَمَعْتَ ، ومَنَعْتَ ، حتى إذا بَلَغت التَّراقيَ، قُلْتَ : أتصدَّق . وأنَّى أوانُ الصَّدقة)) [27].

ينبغي على الفرد أن يُبادر إلى عمل الخير قبل وصول الرُّوح إلى التراقي (عِظام الحلق) ، يعني: قبل بُلوغ النَّفْس أعالي الصدر.وعندئذ تنتهي حياةُ المرء،ويدخل في عالم الموتى دون فرصة للعودة أو التعويض . والخيرُ الحقيقي هو أن تملك ثم تتخلى طواعيةً في ذِروة صحتك وعنفوانك، أمَّا الاحتضار فهو تركٌ قَسري للحياة الدنيا بكل مَتاعها وزُخرفها، وفي هذه الحالة كُلُّ الناس يُصبحون كِرَامًا أسخياء. وينبغي أن تكون الدنيا في اليد، وليس في القلب . وهكذا يصبح الفردُ مَالِكًا للمال _ على وجه التحقيق _ ، فلا يَملكه المالُ ، ولا تلعب به الدنيا . وقال الحافظ في الفتح (٥/ ٣٧٤): ((قال بعض السلف عن بعض أهل التَّرَف: يَعصون اللهَ في أموالهم مرتين ، يَخلون بها وهي في أيديهم _ يعني في الحياة _، ويُسرفون فيها إذا خرجت عن أيديهم _ يعني عند الموت_)).

٢٠ _ عَمَلُهم لا يَنفعهم يوم القيامة :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ في هَذِهِ الحياةِ الدُّنيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أصابتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلموا أنفُسَهُم فأهْلَكَتْهُ ﴾[آل عِمران : ١١٧] .

إن اللهَ يَمحق أعمال الكافرين ، ويَجعلها هَباءً منثورًا ، ولا يُثيبهم عليها . ونفقاتُ الكافرين وصدقاتهم التي بَذلوها في الدنيا لِنَيل المديح والسُّمعة والحصول على الشُّهرة والجاه ، باطلةٌ وذاهبةٌ بلا نفع ولا فائدة .

ومَثَلُ نفقاتهم وصدقاتهم كَمَثَل ريح عاصفة فيها بَرْدٌ شديد . أصابت هذه الريحُ المدمِّرة الْمُهلِكة زَرْعَ قَوم ظلموا أنفسهم بالكفر والضلال والمعاصي والذنوب ومنع حقوق الله، فأهلكته وأفسدته وقَضَتْ عليه، عقوبةً لهم ، وجعلته أثرًا إثر عَيْن ، فلم يستفيدوا مِنه، ولَم ينتفعوا به .

وكذلك نفقاتهم باطلة وذاهبة لا ينتفعون بها . وضررُ نفقاتهم عليهم كضرر هذه الرِّيح المدمِّرة على هذا الزرع. لقد شبَّه اللهُ ما كان يُنفقه الكافرون رِياءً وسُمعةً ، بالزرع الذي أصابته الريح الشديدة الباردة ، فأهلكته ودمَّرته .

---

(٢٧) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٤٥) برقم (٣٨٥٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٧٤) : ((ومعنى الآية: مَثَل نفقة الكافرين في بُطلانها وذهابها وعدم مَنفعتها ، كَمَثَل زَرْع أصابه رِيح باردة ، أو نار ، فأحرقته وأهلكته ، فلم ينتفع أصحابه بشيء ، بعدما كانوا يَرْجُون فائدته ونفعه)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٤٥): ((قَوله تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الحياةِ الدُّنيا ﴾ .اختلفوا فيمن أُنزِلت على أربعة أقوال : أحدها أنها في نفقات الكفار وصَدقاتهم ، قاله مجاهد. والثاني في نفقة سِفْلة اليهود على عُلمائهم، قاله مقاتل . والثالث في نفقة المشركين يوم بَدْر. والرابع في نفقة المنافقين إذا خَرجوا مع المسلمين لحرب المشركين ، ذَكَر هذين القَوْلين أبو الحسن الماوردي. وقال السُّدي: إنما ضرب الإنفاق مثلاً لأعمالهم في شِرْكهم ، وفي الصِّر ثلاثة أقوال : أحدها أنه البَرْد، قاله الأكثرون. والثاني أنه النار، قاله ابن عباس. وقال ابن الأنباري: وإنما وُصِفت النار بأنها صِر، لتصويتها عند الالتهاب.والثالث أن الصِّر التَّصويت والحركة من الحصى والحجارة، ومِنه صَرير النَّعْل، ذَكَره ابن الأنباري. والحرث الزرع. وفي معنى: ﴿ ظَلموا أنفُسَهُم ﴾ قَولان : أحدهما ظلموها بالكفر والمعاصي ومَنع حق الله تعالى . والثاني بأن زَرعوا في غَير وقت الزرع)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى:﴿ إنَّ الذينَ كَفروا يُنفِقُونَ أموالَهُم لِيَصُدُّوا عَن سَبيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيهم حَسْرَةً ثُمَّ يُغلَبُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٦] .

إن الذين أنكَروا وَحدانيةَ الله ، وجَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ ، يَصرفون أموالهم ، ويَبذلون الغالي والنَّفيس،لمنع الناس مِن اعتناق الإسلام، والصَّد عن طريق الحق والهدى، بقتال النبيِّ ﷺ ومُحاربته، ومُحاولة اجتثاث دَعوته ، وتفريق أصحابه . فسيُنفقون هذه الأموال ، ثُمَّ تصير ندامةً عليهم ، لأن أموالهم تَذهب بدون تحقيق أيِّ هدف لهم . ستصيرُ عاقبة نفقتهم ندامةً وحسرةً لأنهم لَم يَظْفروا ، ولَم يُحقِّقوا مُرادهم في إعلاء كلمة الكفر على كلمة الله، وهزيمة الإسلام والمسلمين . إن اللهَ أعلى كلمته ، ورفع راية الإسلام ، ولا تُوجد قُوَّة تستطيع إطفاء نُور الإسلام . ومَن يُحاول إطفاء نُور الإسلام كمن يُحاول إطفاء نُور الشمس. ثُمَّ يُهزَم المشركون ويُغلَبون في الدنيا . وهذا إخبار بأمرٍ غَيْبِيٍّ، فنهايتهم هي الهزيمة والانكسار والاندحار. وهذا يدل على صِدق النبيِّ ﷺ، وأن القُرآن مِن عِند الله تعالى ، فقد أخبرَ اللهُ عن هذا الأمر قبل وُقوعه ، فكانَ كما أخبرَ . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٠٦) : ((قال محمد بن إسحاق : حَدَّثني الزُّهري ومحمد ابن يحيى بن حِبَّان وعاصم بن عُمر بن قَتادة والْحُصَين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعيد بن مُعاذ قالوا : لَمَّا أُصِيبت قُرَيش يوم بَدْر ، ورجع فلُّهم إلى مكة ، ورجع أبو سُفيان بِعِيره ، مشى

عبد الله ابن أبي ربيعة وعِكرمة بن أبي جهل وصَفوان بن أُمَيَّة في رجال مِن قُرَيش، أُصِيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببَدْر، فكلَّموا أبا سُفيان بن حرب ، ومَن كانت له في تلك العِير مِن قُرَيش تجارة، فقالوا: يا مَعشَر قُرَيش ، إن محمدًا قد وَتَرَكم ، وقَتل خِياركم ، فأعينونا بهذا المال على حَرْبه ، لَعَلَّنا أن نُدرِك مِنه ثأرًا بِمَن أُصِيب مِنَّا ، ففعلوا . قال: فَفِيهم كما ذُكِر عن ابن عباس أَنزلَ اللهُ عز وجل : ﴿ إنَّ الذينَ كَفروا يُنفِقُونَ أموالَهُم لِيَصُدُّوا عَن سَبيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيهم حَسْرَةً ثُمَّ يُغلَبُونَ... ﴾ ، وكذا رُوِيَ عن مجاهد وسعيد بن جُبَير والحكم بن عُيَينة وقتادة والسُّدي وابن أبزى أنها نزلت في أبي سُفيان ونفقته الأموال في أُحُد، لقتال رسول الله ﷺ. وقال الضَّحاك : نزلت في أهل بَدْر . وعلى كُل تقدير ، فهي عامة ، وإن كان سبب نزولها خاصًّا ، فقد أخبرَ تعالى أن الكفار يُنفِقون أموالهم لِيَصُدُّوا عن اتِّباع طريق الحق ، فسيفعلون ذلك ، ثُمَّ تذهب أموالهم ، ثُمَّ تكون عليهم حَسْرة ، أي ندامة ، حيث لَم تُجْدِ شيئًا ، لأنهم أرادوا إطفاء نور الله ، وظُهور كلمتهم على كلمة الحق ، واللهُ مُتِمُّ نُوره ولو كَرِهَ الكافرون ، وناصر دِينه ، ومُعلِن كلمته ، ومُظهِر دِينه على كُل دِين ، فهذا الخِزي لهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب النار ، فَمَن عاش مِنهم رأى بِعَينه ، وسمع بأُذنه ما يَسوؤه ، ومَن قُتِل مِنهم أو مات ، فإلى الخِزي الأبدي والعذاب السرمدي)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ مَثَلُ الذينَ كَفروا بِرَبِّهِم أعمالُهُم كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ في يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعيد ﴾ [إبراهيم : ١٨] .

إن الكفار أنكروا وَحدانيةَ الله ، وعبدوا مَعه غَيره ، وكذَّبوا بآياته ، وجَحدوا نُبوَّةَ محمد ﷺ ، وهُم يقومون بأعمال في الدنيا ، ظاهرها الخير والصلاح ، كالصَّدقة ، وصِلة الرَّحِم ، ومُساعدة الضعيف ، وإكرام الضَّيف . وهُم لا يَطْلُبون بهذه الأعمال وَجْهَ الله ، وإنما يَفعلونها طلبًا للسُّمعة والمديح والثناء الحسن وخُلود الذِّكر. وقد أبطلَ اللهُ أعمالهم لأنها مبنية على عقيدة الشِّرك لا التَّوحيد ، وما بُنِيَ على باطل فهو باطل . وهناك شَرْطان لِقَبول الأعمال : الإخلاص لله تعالى ، واتِّباع سُنَّة النبيِّ ﷺ . أعمالُ الكفار التي قاموا بها في حياتهم الدنيا ، مِثْل رماد عَصَفَت به الريح ، في يوم شديد هُبوب الريح ، فجعلته هَبَاءً مَنثورًا .

لا يَستطيع الكفارُ نَيْلَ الثواب والأجر على أعمال الخير التي عملوها في الدنيا ، لأن الكُفر مُحْبِط للعمل ومُفسِد له ، كما لا يستطيع الإنسانُ الحصولَ على شيء من الرماد الذي ذَرَّته الريح وأبعدته وذَهَبَتْ بِه . أي : لا يجد الكفارُ ثوابَ أعمالهم في الآخرة. لا أجر لهم ولا ثواب ، وهُم مَعَ ضلالهم يَحسَبون أنهم صالحون ومُحسِنون . ذلك هو الْخُسران الكبير والهلاك العظيم .

إن كُل أعمال البِر والخير التي تقرَّبَ بها الكافر إلى الله تعالى ، فاسدة وضائعة ، ولا يُستفاد منها ، ولا يُنْتَفَع بِها ، لأنها قائمة على الشِّرك وعبادة غَير الله تعالى ،كالرماد الذي ذرَّته الريحُ ، وصارَ هباءً منثورًا ، بلا فائدة ولا نفع . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٩٤) : ((هذا مَثَل ضَرَبَه اللهُ تعالى لأعمال الكفار الذين عَبَدوا معه غَيْرَه ، وكذَّبوا رُسله ، وبَنَوْا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت ، وعدموها أحوج ما كانوا إليها ، فقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الذينَ كَفروا بِرَبِّهِم أعمالُهُم ﴾ . أي : مَثَل أعمالهم يوم القيامة إذا طَلبوا ثوابها من الله تعالى ، لأنهم كانوا يَحسَبون أنهم كانوا على شَيء ، فلم يَجدوا شيئًا،ولا أَلْفَوْا حاصلاً إلا كما يتحصَّل من الرماد إذا اشتدَّت به الريح العاصفة ﴿ في يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي:ذِي رِيح شديدة عاصفة قوية، فلم يَقْدِروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا، إلا كما يَقْدِرون على جَمْع هذا الرَّماد في هذا اليوم... . وقَوله في هذه الآية: ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعيد ﴾ أي: سَعْيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ الذينَ ضَلَّ سَعْيُهُم في الحياةِ الدُّنيا وَهُم يَحْسَبُونَ أنهم يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكَهْف : ١٠٤] .

بَطَلَ عملُهم في الحياة الدنيا، وضاع اجتهادهم فيها ، وليس له فائدة ولا نفع ، لأن الكُفر مُبطِل للعمل ومُفسِد له ، ولا تَنفع مع الكفر طاعة ، وما بُنِيَ على باطل فهو باطل .

وهُم يَظُنُّون أنهم صالحون ومُصلِحون، ومُحسِنون بأفعالهم، وأن أعمالهم مَقبولة، يَنتفعون بها ، ويَستفيدون مِنها ، وأنهم على الحق والهدى ، وأن نهايتهم النعيم والسعادة . وهذا وَهْمٌ قاتل ، وغرور مُدمِّر.والوهمُ والغرور يُسبِّبان العمى للإنسان،فيفقد القدرة على التمييز بين النُّور والظلام.

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٢٩٣) : ((يقول : هُم الذين لَم يكن عملهم الذي عملوه في حياتهم الدنيا على هُدى واستقامة ، بل كان على جَوْر وضَلالة ، وذلك أنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به، بل على كُفر منهم به، ﴿ وَهُم يَحْسَبُونَ أنهم يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ . يقول: وهم يَظُنُّون أنهم بِفِعلهم ذلك لله مُطيعون ، وفِيما نَدَبَ عبادَه إليه مُجتهدون)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أُولئكَ الذينَ كَفروا بآياتِ رَبِّهِم ولِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أعمالُهُم فلا نُقِيمُ لهم يَوْمَ القِيامةِ وَزْنًا ﴾ [الكَهْف : ١٠٥] .

أُولئك الذين جَحدوا آياتِ الله ، وأعرَضوا عن حُجَجه وأدلته وبراهينه التي تُثبِت التَّوحيدَ والوَحْيَ والنُّبوَّةَ، وأنكَروا القُرآن، وكفروا به ، وبالبعث والنُّشور والثواب والعقاب والجنة والنار،

فَبَطَلَت أعمالهم، وضاعت ، بسبب كفرهم ، وليس لأعمالهم نفع ولا فائدة ، ولا يُثابون عليها ، وإنما لهم عذاب أليم . إنهم لا يَمْلكون حسناتٍ تُثقِّل موازينهم يوم القيامة ، لذلك فمصيرهم إلى عذاب النار الذي يُهينهم ويُذِلُّهم ، ويُحطِّم غُرورهم واستكبارهم . وليس لهم عِند الله قيمة ولا قَدْر ولا أهمية ولا مَنْزلة ، ولا يُعبَأ بهم . وهُم مُجلَّلون بالخِزي والعار .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ١٩٧و١٩٨):((قَوله تعالى: ﴿ الذينَ ضَلَّ سَعْيُهُم ﴾ أي : بَطَلَ عملُهم واجتهادهم في الدنيا ، وهم يَظُنُّون أنهم مُحسنون بأفعالهم ، فرؤساؤهم يَعْلمون الصحيح ، ويُؤثِرون الباطل لبقاء رئاستهم ، وأتباعهم مُقلِّدون بغير دليل . ﴿ أُولئكَ الذينَ كَفروا بآياتِ رَبِّهِم ﴾ . جَحدوا دلائل توحيده، وكفروا بالبعث والجزاء، وذلك أنهم بِكُفرهم برسول الله ﷺ والقرآن ، صاروا كافرين بهذه الأشياء ، ﴿ فَحَبِطَتْ أعمالُهُم ﴾ ، أي : بَطَلَ اجتهادهم ، لأنه خَلا عن الإيمان ، ﴿ فلا نُقِيمُ لهم يَوْمَ القِيامةِ وَزْنًا ﴾ . وفي معناه ثلاثة أقوال : أحدهما أنه إنما يَثقُل الميزان بالطاعة ، وإنما تُوزَن الحسنات والسَّيئات ، والكافر لا طاعة له . والثاني إن المعنى لا نُقِيم لهم قَدْرًا . قال ابن الأعرابي في تفسير هذه الآية : يُقال : ما لِفُلان عندنا وَزْن ، أي قَدْر ، لِخِسَّته ، فالمعنى أنهم لا يُعْتَد بهم ، ولا يكون لهم عِند الله قَدْر ولا مَنْزلة ... . والثالث أنه قال : ﴿ فلا نُقِيمُ لهم ﴾ ، لأن الوزن عليهم لا لهم ، ذَكَره ابن الأنباري)) اهـ .

وعن أبي هريرة ــ رضي اللهُ عنه ــ عن رسول الله ﷺ قال : ((إنه لَيَأتي الرَّجلُ العظيم السمين يَوْمَ القيامة ، لا يَزِنُ عِند الله جَناحَ بَعوضة)) . وقال : ((اقرؤوا إن شِئتم : ﴿ فلا نُقِيمُ لهم يَوْمَ القِيامةِ وَزْنًا ﴾)) [28].

هذه صفة الكافر، فهو ضخم في جِسمه ، وكبير في حَجمه ، لكنَّ قلبه مليء بالكفر والضلال، وخالٍ مِن الإيمان، لذلك يكون الكافرُ في يوم القيامة بلا أهمية ، ولا قَدْر له ولا قيمة . ولا يُعبَأ بِه، ولا أحد يهتم لشأنه ، ومصيره هو الخِزي والعار في عذاب النار الأبدي .

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٣٨) : ((ونَقل القرطبي عن بعض العلماء أنه قال : الكافر لا ثواب له ، وعمله مُقَابَل بالعذاب ، فلا حسنة له تُوزَن في موازين القيامة ، ومَن لا حسنة له فهو في النار . واستدل بقوله تعالى : ﴿ فلا نُقِيمُ لهم يَوْمَ القِيامةِ وَزْنًا ﴾ ، وبحديث أبي هريرة، وهو في الصحيح في الكافر لا يَزِن عند الله جناح بعوضة . وتُعُقِّبَ أنه مَجَاز عن حَقارة قَدْره، ولا يلزم منه

(٢٨) متفق عليه.البخاري(٤/ ١٧٥٩) برقم (٤٤٥٢)،ومسلم (٤/ ٢١٤٧) برقم (٢٧٨٥).

عدم الوزن . وحكى القرطبي في صفة وزن عمل الكافر وجهين: أحدهما أن كُفره يُوضَع في الكَفَّة ولا يجد له حسنة يضعها في الأخرى فتطيش التي لا شيء فيها... . ثانيهما:قد يقع منه العِتق والبِر والصِّلة وسائر أنواع الخير المالية ، مِمَّا لو فعلها المسلم لكانت له حسنات، فمن كانت له حسنات جُمِعت ووُضِعت ، غَير أن الكفر إذا قابلها رَجَحَ بها)) اهـ .

وعن مُصعَب بن سعد بن أبي وقاص قال: قلتُ لأبي: ﴿ هَل نُنَبِّئكُم بالأخسرينَ أعمالاً (١٠٣) الذينَ ضَلَّ سَعْيُهُم في الحياةِ الدُّنيا وَهُم يَحْسَبُونَ أنهم يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾. الْحَرُورِيَّةُ هُم؟.قال:((لا،ولكنهم أصحاب الصوامع،والحرورية قَوم زاغوا،فأزاغَ اللهُ قلوبهم)) [29].

وفي رواية أخرى أن سعد بن أبي وقاص قال : ((هُم المجتهدون من النصارى)) [30] . والصوابُ أن المراد بالآية كفار أهل مكة ، بدليل قَوله تعالى: ﴿ أُولئكَ الذينَ كَفروا بآياتِ رَبِّهِم ولِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أعمالُهُم ﴾،واليهود والنصارى والخوارج كُلهم يُؤمنون بالله والبعث والنُّشور واليوم الآخر.والكفرُ بالله ولقائه صِفة لمشركي مكة عَبَدَة الأصنام، وقد ذَكَرَ سعد قَوْمًا أخذوا بنصيبهم من هذه الآية . وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ والذينَ كَفروا أعمالُهُم كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حتى إذا جَاءَهُ لَم يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ واللهُ سَرِيعُ الحِساب ﴾[النُّور : ٣٩] .

هذا مَثَلٌ إلهيٌّ عظيم ومُؤثِّر ، ضَرَبَه اللهُ لأعمال الكافرين التي ظاهرها الصلاح مِثل : الصَّدقة، وصِلة الرَّحِم ، وإكرام الضَّيف ، وإغاثة الملهوف ، وفَك الأسير ، وعِمارة البَيت الحرام ، وسِقاية الحاج ، ونَحْو ذلك. والذينَ أنكروا تَوحيدَ الله، وكذَّبوا بآياته ، وجَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ ، أعمالُهم

---

(٢٩) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٠١) برقم (٣٤٠٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .
الحرورية فِرْقة من الخوارج (خرجوا على جماعة المسلمين) نُسِبت إلى حَرُوراء، وهي قرية قُرْب الكوفة، كان أول اجتماعهم بها، وتعمَّقوا في الدِّين حتى خرجوا مِنه . وكانوا يُوجبون قضاءَ الصلاة على الحائض مُخالفين بذلك إجماع المسلمين. وقال الحافظ في الفتح (١٢/ ٢٨٦):[في مسند عليٍّ من تهذيب الآثار من طريق بكير بن عبد الله بن الأشج أنه سأل نافعًا:كيف كان رأي ابن عمر في الحرورية؟،قال: ((كان يراهم شِرار خلق الله، انطلقوا إلى آيات الكفار ، فجعلوها في المؤمنين))، قلتُ ــ أي ابن حجر ــ: وسنده صحيح] اهـ.وقال الحافظ في الفتح(١٢/ ٢٨٦):[وعند البزَّار من طريق الشَّعبي عن مسروق عن عائشة قالت:ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ الخوارج، فقال:((هُم شِرار أُمَّتي، يَقتلهم خِيار أُمتي))، وسنده حسن].
(٣٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٠٢) برقم (٣٤٠١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

كسرابٍ في قاع (الأرض المنبسطة المستوية الخالية من النبات) . والسَّرابُ ما يُرى في الصحاري عِند شِدَّة الحر كأنه ماء ، وسُمِّيَ سَرَابًا لأنه يَسْرُب، أي: يَجْري كالماء. يتوهَّم العطشآنُ السرابَ ماءً، حتى إذا جاء ما توهَّمه ماءً ، لَم يَجِده كما حَسِبَه وتوهَّمه ، ولَم يجده شيئًا مِمَّا ظَنَّه، وهذا يدل على الخيبة الشَّديدة عِند الحاجة الماسَّة . لقد خَابَ ظَنُّه ، ووقع تحت تأثير الصَّدمة والمفاجأة القاسية . كذلك الكافر يَحسَب أن أعماله صالحة ونافعة له عند الله ، ثم يجدها باطلةً ولاغيةً ، لا نفع لها ، ولا فائدة منها. وَوَجَدَ اللهَ بالمِرصاد، ووَجَدَ عِقابَه وعذابَه ، فوفَّاه اللهُ جَزاءَ عمله، وجازاه بإساءته، واللهُ لا يَشغله حساب عن حساب ، ولا يَحتاج إلى عَد وإحصاء وملفات وبيانات ، وحسابُه قريب ، لأن كُل ما هو آتٍ قريب .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٣٣٣) : ((فكذلك الكافرون بالله مِن أعمالهم التي عملوها في غُرور ، يَحسَبون أنها مُنَجِّيتهم عند الله من عذابه ، كما حَسِبَ الظمآنُ الذي رأى السراب ، فَظَنَّه ماءً يَرويه مِن ظَمئه ، حتى إذا هلك وصار إلى الحاجة إلى عمله الذي كان يرى أنه نافعه عند الله ، لَم يجده ينفعه شيئًا ، لأنه كان عمله على كُفر بالله ، ووجد اللهَ هذا الكافرُ عِند هلاكه بالمِرصاد ، فَوَفَّاه يوم القيامة حِساب أعماله ، التي عملها في الدنيا ، وجازاه بها جَزاءه الذي يستحقه عليها مِنه ... . واللهُ سريعٌ حسابه ، لأنه تعالى ذِكْرُه لا يحتاج إلى عَقْد أصابع ، ولا حفظ بقلب ، ولكنه عالِم بذلك كُلِّه قبل أن يَعمله العبد ، ومِن بَعد ما عَمِلَه)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٢٥٩) : ((قال مُقاتل : نزلت في شَيْبة بن ربيعة بن عبد شمس ، كان يترهَّب مُتَلَمِّسًا للدِّين ، فلما خَرج ﷺ كفر . أبو سهل : في أهل الكتاب. الضَّحاك : في أعمال الخير للكافر كصِلة الرَّحِم ونفع الجيران... . ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ﴾ أي:العَطْشان ﴿ مَاءً ﴾ ، أي : يَحسَب السرابَ ماءً ﴿ حتى إذا جَاءَهُ لَم يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ مِمَّا قَدَّره ، ووَجد أرضًا لا ماء فيها. وهذا مَثَل ضَرَبه اللهُ تعالى للكفار ، يُعوِّلون على ثواب أعمالهم ، فإذا قَدِموا على الله تعالى، وَجدوا ثوابَ أعمالهم مُحْبَطَة بالكفر ، أي لَم يَجدوا شيئًا ، كما لَم يَجِد صاحبُ السراب إلا أرضًا لا ماء فيها ، فهو يهلك أو يموت)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغشاهُ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إذا أخرجَ يَدَهُ لَم يَكَدْ يَرَاها وَمَن لَم يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فما لَهُ مِن نُور ﴾ [النُّور : ٤٠] .

هذا مَثَل آخر ضَرَبه اللهُ لأعمال الكافرين القائمة على الضلال والفساد والأهواء والمصالح .

الأعمالُ السَّيئة للكافرين الذين أنكَروا وَحدانيةَ الله، وكذَّبوا بآياته ، وجَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ ، مِثْل ظُلمات في بحر عميق ، بعيد القَعْر ، كثير الماء، يَعْلوه مَوج (ما ارتفعَ من الماء) ، مِن فَوقه مَوج متراكم بعضه فوق بعض ، مِن فَوق الموج الثاني غَيْم حَجَبَ أنوارَ النجوم ، وغطَّى عليها .

وهذه كُلها مَخاوف وظُلمات ، خَوْف البحر وظُلمته ، وخَوف الموج وظُلمته ، وخَوف الغَيْم وظُلمته . إذا أخرجَ الناظرُ يده بين هذه الظلمات ، لَم يَرَها لِشِدَّة الظُّلْمة . ومَن لَم يَهده اللهُ إلى الإسلام ، لَم يَهتدِ ، ولن يُرشده أحد . وهو كافر ضَال هالك خالد في عذاب النار لا مَحَالة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٥٠ و٥١) : ((قَوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ ﴾ في هذا المثَل قَولان : أحدهما أنه لعمل الكافر، قاله الجمهور، واختاره الزَّجاج . والثاني أنه مَثَل لقلب الكافر في أنه لا يَعقِل ولا يُبصِر، قاله الفرَّاء.فأمَّا اللجِّيُّ فهو العظيم اللجَّة، وهو العميق . ﴿ يَغشاهُ ﴾ أي: يَعْلو ذلك البحر ﴿ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ أي : مِن فَوق الموج مَوج، والمعنى : يتبع الموجَ مَوْجٌ حتى كان بعضُه فوق بعض ﴿ مِن فَوْقِهِ ﴾ ، أي:مِن فَوق ذلك الموج ﴿ سَحَابٌ ﴾. ثُمَّ ابتدأ ، فقال : ﴿ ظُلُمَاتٌ ﴾ ، يَعني : ظُلمة البحر ، وظُلمة الموج الأول ، وظُلمة الموج الذي فوق الموج ، وظُلمة السحاب . ﴿ إذا أخرجَ يَدَهُ ﴾ ، يعني : إذا أخرجها مُخْرِج ﴿ لَم يَكَدْ يَرَاها ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنه لَم يَرَهَا ، قاله الحسن ، واختاره الزَّجاج . قال : لأن في دون هذه الظلمات لا يُرى الكَف ، وكذلك قال ابن الأنباري ، معناه : لَم يَرَها البَتَّة ، لأنه قد قام الدليل عند وصف تكاثُف الظلمات على أن الرؤية مَعدومة ، فبان بهذا الكلام أن ﴿ يَكَدْ ﴾ زائدة للتوكيد بمنْزلة " ما " . والثاني أنه لَم يَرَها إلا بعد الْجَهْد ، قاله الْمُبَرِّد . قال الفرَّاء : وهذا كما تقول : ما كِدْتُ أبلغ إليك ، وقد بَلغتَ . قال الفرَّاء : وهذا وجه العربية . فصل . فأمَّا وجه المثَل ، فقال المفسرون : لَمَّا ضَرَبَ اللهُ للمؤمن مَثَلاً بالنُّور ، ضَرَبَ للكافر هذا المثَل بالظلمات. والمعنى أن الكافر في حَيرة لا يَهتدي لِرُشد . وقِيل : الظلمات ظُلمة الشِّرك ، وظُلمة المعاصي. وقال بعضُهم:ضَرَبَ الظلمات مَثَلاً لعمله ، والبحر اللجي لقلبه ، والموج لِمَا يَغشى قَلْبَه مِن الشِّرك والجهل والْحَيرة. والسَّحاب للرَّيْن (الطبع) والختم على قلبه، فكلامه ظُلمة، وعمله ظُلمة ، ومَدخله ظُلمة ، ومَخرجه ظُلمة ، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة . قَوله تعالى : ﴿ وَمَن لَم يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا ﴾ ، فيه قَولان : أحدهما دِينًا وإيمانًا، قاله ابن عباس والسُّدي. والثاني هداية، قاله الزَّجاج))اهـ . وعن أُبَي ابن كعب ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : ((﴿ والذينَ كَفروا أعمالُهُم كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حتى إذا جَاءَهُ لَم يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ واللهُ سَرِيعُ

الحِساب﴾ . وكذلك الكافر يجيء يوم القيامة ، وهو يَحسَب أن له عند الله خَيْرًا يَجِده ، ويُدخِله اللهُ النارَ . وضَرَبَ مَثَلاً آخر للكافر ، فقال : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغشاهُ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إذا أخرجَ يَدَهُ لَم يَكَدْ يَرَاها وَمَن لَم يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فما لَهُ مِن نُور ﴾ ، فهو يَنقله في خَمْسٍ مِن الظُّلَم ، فكلامه ظُلمة ، وعمله ظُلمة ، ومَدخَله ظُلمة ، ومَخرَجه ظُلمة ، ومصيره إلى الظلمات إلى النار يوم القيامة)) [31].

في يوم القيامة ، يُصدَم الكافر ، ويُصعَق مِن هَوْل المفاجأة ، فقد كان يظن أن أعماله في الدنيا ستنفعه وتُفيده وتَشفع له عند الله ، فيجد أعمالَه هباءً منثورًا، لا يَنتفع بها، ولا يَستفيد مِنها ، ومصيره هو الخلود في عذاب النار . وبما أنه اختارَ الكفر على الإيمان ، والضَّلال على الهدى ، فإن حياته ظُلمات، وأعماله ظُلمات، ومَوته ظُلمات،وهو ينتقل مِن ظُلمة إلى ظُلمة،حتى ينتهيَ إلى ظُلمات النار يوم القيامة، وبِئس المصير والمرجع . ولا تُوجد فرصة للتَّعويض ولا تدارُك ما فات .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَقَدِمْنا إلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنثُورًا ﴾[الفُرقان : ٢٣] .

أبطلَ اللهُ أعمالَ الكافرين التي عملوها في الدنيا ، وظاهرها الصلاح والبِر، لأنها قائمة على الكفر ، والكُفر مُفسِد للعمل ، ومُحبِط له . ولَم تُعمَل خالصةً لوجه الله تعالى . والآيةُ تشتمل على وعيد شديد وتهديد أكيد . وفيها تنبيه على عَظَمَة يوم القيامة ، وصعوبة الموقف فيه .

وَقَصَدْنا وعَمَدْنا إلى ما عَمِلَ هؤلاء الكفار الضَّالون مِن أعمال ظاهرها الخير ، كالصدقة ، وصِلة الرَّحِم ، وإكرام الضَّيف ، وإطعام الطعام ، وفَك الأسير ، وإغاثة الملهوف ، وأمثالها ، فأبطلناها ، وأفسدناها ، وألغيناها، وليس لها قيمة ولا أهمية. ووجودها كعدمه. ولا ثواب للكافرين عليها ، لأنهم عملوها للشَّيطان ، وطلبًا للسُّمعة والصِّيت والثناء ، ولَم يَعملوها لوجه الله تعالى . والأعمالُ لا تُقبَل مَع الشِّرك . وقد جَعل اللهُ أعمالَهم مِثل الغبار المتفرِّق الذي لا يُنْتَفَع بِه ، ولا يُمكن جَمْعه . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٣) : ((أي : وعَمَدْنا إلى ما عَمِلوا في كُفرهم مِن المكارم ، كَقِرى الضَّيف ، وصِلة الرَّحِم ، وإغاثة الملهوف ، فأحبطناه ، لفقد ما هو شرط اعتباره.وهو تشبيه حالهم وأعمالهم بحال قوم اسْتَعْصَوْا على سُلطانهم ، فَقَدِمَ إلى أشيائهم ، فمزَّقها وأبطلها، ولَم يُبْقِ لها أثرًا... . شبَّه عملهم الْمُحْبَط بالهباء في حقارته وعدم نفعه، ثُمَّ بالمنثور منه في انتشاره بحيث لا يمكن نظمه)) اهـ .

---

(٣١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٣٤) برقم (٣٥١٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٨٣) : ((وفي الْهَبَاء خمسة أقوال : أحدها أنه ما رَأيته يتطاير في الشمس التي تدخل مِن الكُوَّة (النافذة) مِثل الغبار ، قاله علي عليه السلام والحسن ومجاهد وسعيد بن جُبَير وعِكرمة واللغويون . والمعنى : إن الله أحبطَ أعمالهم ، حتى صارت بمنْزلة الهباء . والثاني أنه الماء الْمُهْرَاق ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث أنه ما تنسفه الرياح وتُذرِّيه من التراب وحُطام الشجر ، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس . والرابع أنه الشَّرَر الذي يطير من النار إذا أُضْرِمت ، فإذا وقع لَم يكن شيئًا ، رواه عطية عن ابن عباس . والخامس أنه ما يسطع من حوافر الدواب ، قاله مقاتل . والمنثور المتفرِّق)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ كَفروا فَتَعْسًا لهم وأضلَّ أعمالَهُم ﴾ [مُحَمَّد : ٨] .

والذينَ أنكَروا وَحدانيةَ الله ، وكذَّبوا بآياته ، وجَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ ، فَخِزْيًا بِهم ، وهلاكًا لهم، وهو دُعاء عليهم بالهلاك والشقاء. وأبطلَ اللهُ أعمالهم وأفسدها لأنها كانت في طاعة الشَّيطان. وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٩٨) : ((﴿ فَتَعْسًا لهم ﴾ كأنه قال : أُتعِسَ الذين كفروا. وتَعْسًا لهم ، نُصِب على المصدر بسبيل الدُّعاء ، قاله الفرَّاء ... . وفيه عشرة أقوال : الأول بُعْدًا لهم، قاله ابن عباس وابن جُرَيج. الثاني : حُزْنًا لهم ، قاله السُّدي. الثالث : شقاءً لهم، قاله ابن زيد. الرابع: شَتْمًا لهم من الله، قاله الحسن. الخامس : هلاكًا لهم، قاله ثعلب.السادس: خَيْبَةً لهم، قاله الضَّحاك وابن زيد . السابع : قُبْحًا لهم ، حكاه النَّقاش. الثامن : رَغْمًا لهم ، قاله الضَّحاك أيضًا. التاسع: شَرًّا لهم ، قاله ثعلب أيضًا. العاشر : شِقْوَةً لهم ، قاله أبو العالية . وقيل : إن التَّعْسَ الانحطاط والعِثَار. قال ابن السِّكِّيت: التَّعْس أن يَخِرَّ على وجهه ، والنَّكْسُ أن يَخِرَّ على رأسه)) اهـ. وقالَ اللهُ تعالى:﴿ ذَلِكَ بأنهم كَرِهُوا ما أَنزلَ اللهُ فأحبطَ أعمالَهُم ﴾ [مُحَمَّد: ٩].

ما فعله اللهُ بهم مِن إتعاسهم وإضلال أعمالهم ، بسبب كراهيتهم للقُرآن الذي أنزله اللهُ على محمد ﷺ ، وما فيه مِن الآيات والأحكام والتكاليف والشَّرائع والأدلة والْحُجَج والبراهين ، التي تُثبِت وَحدانية الله ، وتَدْعو إلى تَوحيده ، وتَنْزيهه عن الشَّريك والنِّد .

لقد تعوَّدوا على التَّقليد الأعمى ، واتِّباع الأهواء الذاتية والمصالح الشخصية ، والغرق في الشهوات والملذات، فصارَ صَعْبًا عليهم الالتزام بآيات القُرآن . لقد كَرِهوا القُرآن ورَفضوه جُمْلةً وتفصيلاً، ولَم يُريدوه ، ولَم يُحِبُّوه . فأبطلَ اللهُ أعمالهم ، وأفسدها ، لأنها قائمة على الكفر والضلال ، والكُفر مُبطِل للعمل ، والإيمانُ شرط لِقَبول العمل. والآيةُ صريحة وواضحة في بيان أن إضلال أعمالهم بسبب كفرهم بالقُرآن وكراهيتهم له .

وقال سيِّد قطب في الظِّلال (٢٥/ ٦٠) : ((وإحباط الأعمال تعبير تصويري على طريقة القُرآن في التصوير، فالْحُبُوطُ انتفاخ بطون الماشية ، عند أكلها نَوْعًا من المرعى أو النبات السام، ينتهي بها إلى الهلاك والموت ، وكذلك هؤلاء الكفار ، انتفخت أعمالهم ووَرِمَت ثم انتهت إلى الهلاك والضياع . إنها صورة وحركة مُطابقة لحال مَن كَرهوا ما أنزلَ اللهُ ، ثم تباهوا بالأعمال الضِّخام المنتفخة كبطون الأنعام ، حين ترعى ذلك النبت السام)) .

٢١ _ إلقاء الرُّعب في قلوبهم :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ سَنُلْقِي في قُلوبِ الذينَ كَفروا الرُّعْبَ بِما أشْرَكُوا باللهِ مَا لَم يُنَزِّلْ بِهِ سُلطانًا ومَأوَاهُمُ النارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظالمين ﴾[آل عِمران : ١٥١] .

هذه بِشارة إلهية للمؤمنين بإلقاء الرعب في قلوب الأعداء . وقد وَعَدَ اللهُ المؤمنين بالنصر على الكافرين . ووعدُ الله واقع لا مَحَالة ، وكائن لا يَتخلَّف ولا يتغيَّر .

سَيقذف اللهُ أيها المؤمنون في قلوب الكافرين الذين أنكروا وَحدانيته وجَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ وحاربوكم في أُحُد ، الخوفَ والهلعَ والفزعَ، بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم للأصنام والأوثان بدون دليل ولا حُجَّة ولا بُرهان. ونُونُ العَظَمَة في ﴿ سَنُلْقِي ﴾ لتعظيم الله، وتثبيت عَظَمَته وكبريائه وتقديسه في النُّفوس . وقد كان سبب إلقاء الرعب في قلوب الكافرين هو إشراكهم بالله تعالى.

ومرجعهم الذي يَرجعون إليه يوم القيامة النار ، وبِئس مُقام الكافرين نار جهنم . وهُم في الدنيا خائفون مرعوبون ، وفي الآخرة هالكون مُعذَّبون . لقد جَعَلَ اللهُ النارَ مأوى الكافرين . والمأوى هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان . وجَعلها مَثْوى الكافرين أيضًا ، والْمَثْوَى هو المكان الذي يُقام فيه ، ويدل على البقاء . وفي هذا دَلالة على خُلودهم في عذاب النار الأبديِّ ، واستحالة خروجهم مِنها . والجديرُ بالذِّكر أن الله لَم يقل : وبِئس مَثْواهم ، وإنما قال : ﴿ وَبِئْسَ مَثْوَى الظالمين ﴾ . ووضعُ الظاهر موضع الْمُضمَر للتَّسجيل عليهم بالظلم ، وإدانتهم ، وفضحهم ، وتغليظ عقوبتهم. والظالمون في الآية هُم الكافرون ، لأنهم وَضعوا العبادةَ في غَير مَوضعها ، وظَلموا أنفسهم باختيار الكفر على الإيمان ، فأهلكوا أنفسهم وقادوها إلى عذاب النار الأبدي . وهذا أسوأ أنواع الظلم . وعن أبي ذَر _ رضي اللهُ عنه _ أن النبيَّ ﷺ قال : ((... ، ونُصِرْتُ بالرُّعْب ، فَيَرْعَب العَدُوُّ وهو على مسيرة شَهْر)) [32].

(٣٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٦٠) برقم (٣٥٨٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

هذه خاصية تفرَّدَ بِها النبيُّ محمد ﷺ ، وهي تُميِّزه عن باقي الأنبياء عليهم الصلاة و السلام. وهي : نَصْرُه بالرُّعب مسيرةَ شَهْر. أي إن اللهَ تعالى يُلقي في قلوب الأعداء الخوفَ ، فَيَسْقطون ، وتنهار رُوحهم المعنويةُ، وينتصر النبيُّ ﷺ عَلَيهم. وليس الرُّعبُ مَقصودًا لِذَاته، بَل أيضًا يَنتصر النبيُّ ﷺ ، ويَكسِر شَوْكَتهم . و" مسيرةُ شَهر " يَعني : بَيْنَه وبَيْنَهم مسيرة شهر .

وقال الحافظ في الفتح (١/ ٤٣٧) : ((قَوْله : " مسيرة شهر " مفهومه أنه لَم يُوجَد لِغَيره النَّصر بالرُّعب في هذه المدة ، ولا في أكثر منها ، أمَّا ما دُونَها فلا ... وإنما جَعل الغاية شهرًا ، لأنه لَم يكن بين بلده وبين أحد من أعدائه أكثر منه ، وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق ، حتى لَوْ كان وَحْدَه بِغَير عَسْكَر ، وهل هي حاصلة لأُمَّته مِن بَعْدِه ؟ ، فيه احتمال)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٧٤) : ((قال السُّدي: لَمَّا ارتحل المشركون يوم أُحُد نَحْو مكة ، ندموا في بعض الطريق ، وقالوا : قتلتموهم ، حتى إذا لَم يَبْقَ الا الشِّرذمة تركتموهم، ارجعوا فاستأصلوهم ، فقذفَ اللهُ في قلوبهم الرُّعب ، ونزلت هذه الآية. والإلقاء القَذْف، والرُّعب الخوف ... . والسُّلطان هاهُنا الْحُجَّة في قول الجماعة ، والمأوى المكان الذي يُؤوَى إليه ، والْمَثْوى الْمُقام ، والثَّوى الإقامة . قال ابن عباس : والظالمون هاهُنا الكافرون)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إلى الملائكةِ أنِّي مَعَكُم فَثَبِّتُوا الذينَ آمَنُوا سَأُلْقِي في قُلوبِ الذينَ كَفروا الرُّعْبَ فاضْرِبوا فَوْقَ الأعناقِ واضْرِبُوا مِنْهُم كُلَّ بَنَان ﴾ [الأنفال : ١٢] .

يُذكِّر اللهُ المؤمنين بنعمته عليهم ، كي يَشكروه، ويَعترفوا بفضله وكَرَمه. يُوحِي اللهُ إلى الملائكة أنِّي معكم بالنصر والمعونة والغَلَبَة ، فَثَبِّتُوا المؤمنين ، وارفعوا معنوياتهم ، وامنحوهم القُوَّة ، وقَوُّوا قلوبهم، وبَشِّرُوهم بالنصر ، كَي يَصمدوا أمام الأعداء وينتصروا عليهم .

سَيُلْقي اللهُ في قلوب الذين أنكَروا وَحدانيته ، وكذَّبوا بآياته ، وجَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ ، الخوفَ والهلعَ والفزعَ ، كي يَنهزموا ويَندحروا ، فاضربوهم على الأعناق ، واضربوهم على أطراف الأصابع . جاءَ الأمرُ الإلهيُّ للملائكة يوم بَدْر ، بأن يُثبِّتوا المؤمنين على القتال، ويُكثِّروا سَوادَهم، ويَشُدُّوا من عزيمتهم.واللهُ سَيُلقي الخوفَ والتردد والارتباك في قلوب الكافرين، فتنهار معنوياتهم ، وتنكسر عزيمتهم . وقد أمر اللهُ الملائكةَ أن يَضربوا على أعناق الكافرين ، وعلى أطرافِ الأصابع، حتى تَسقط السيوفُ. فالمقاتِل إذا خَسر أصابعَه توقَّف عن القتال وخَسِرَ حياته، إمَّا قَتْلاً أو أَسْرًا . فالأطراف هي العنصر الأساسي في الأداء القتالي في كل المعارك، فإذا زالت زال خطر العدو ، وانكسر جيشُه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٢٩ و٣٣٠): ((قال ابن عباس: وهذا الوَحْي إلهام. قَوله تعالى : ﴿ إلى الملائكةِ ﴾ ، وهُم الذين أمدَّ بهم المسلمين ، ﴿ أنِّي مَعَكُم ﴾ بالعَون والنُّصرة ، ﴿ فَثَبِّتُوا الذينَ آمَنُوا ﴾ ، فيه أربعة اقوال : أحدها قَاتِلوا معهم ، قاله الحسن . والثاني بَشِّرُوهم بالنَّصر ، فكان الْمَلَكُ يَسير أمام الصف في صورة الرَّجل ، ويقول : أَبْشِرُوا، فإن الله ناصركم ، قاله مقاتل . والثالث ثَبِّتوهم بأشياء تُلقونها في قلوبهم تَقوَى بها ، ذَكَرَه الزَّجاج . والرابع صَحِّحوا عزائمهم ونِيَّاتهم على الجهاد ، ذَكَرَه الثعلبي. فأمَّا الرُّعب فهو الخوف. قال السائب بن يسار : كُنَّا إذا سألنا يزيد بن عامر السُّوائي عن الرُّعب الذي ألقاه الله في قُلوب المشركين ، كيف كان ؟ . يَأخذ الحصى فيرمي به الطَّسْت فَيَطِن، فيقول: كُنَّا نجد في أجوافنا مِثل هذا. قَوله تعالى: ﴿ فاضْرِبوا فَوْقَ الأعناقِ ﴾ ، في الْمُخَاطَب بهذا قَولان : أحدهما أنهم الملائكة . قال ابن الأنباري : لَم تَعْلم الملائكةُ أين تقصد بالضَّرب مِن الناس ، فعلَّمهم اللهُ تعالى ذلك . والثاني أنهم المؤمنون ، ذَكَرَه جماعة من المفسِّرين . وفي معنى الكلام قَولان : أحدهما فاضربوا الأعناق ، و﴿ فَوْقَ ﴾ صِلة، وهذا قول عطية والضَّحاك والأخفش وابن قُتَيبة. وقال أبو عبيدة : ﴿ فَوْقَ ﴾ بمعنى على . تقول: ضربته فوق الرأس، وضربته على الرأس . والثاني اضربوا الرؤوس ، لأنها فوق الأعناق، وبِه قال عِكرمة . وفي المراد بالبَنَان ثلاثة أقوال : أحدها أنه الأطراف، قاله ابن عباس والضَّحاك. وقال الفرَّاء: عَلَّمَهم مواضع الضَّرْب، فقال: اضربوا الرؤوس والأيدي والأرجل. وقال أبو عُبَيدة وابن قُتَيبة: البَنَان أطراف الأصابع . قال ابن الأنباري : واكتفى بهذا مِن جُملة اليد والرِّجْل . والثاني أنه كل مَفْصِل، قاله عطية والسُّدي . والثالث أنه الأصابع وغَيرها من جميع الأعضاء ، والمعنى أنه أباحهم قَتْلَهم بكل نوع ، هذا قول الزَّجاج)) اهـ .

وعن أبي أيوب الأنصاريِّ ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة : ((إني أُخْبِرْتُ عن عِير أبي سُفيان أنها مُقبِلة ، فهل لكم أن نَخرج قِبَلَ هذا العِير ؟ ، لعل الله يغنمناها))، فقُلنا : نعم ، فخرج وخرجنا ، فلمَّا سِرْنا يَوْمًا أو يومين قال لنا : ((ما تَرَوْنَ في القَوم فإنهم قد أُخبروا بمخرجكم ؟)) ، فقلنا : لا والله ، ما لنا طاقة بقتال العدو ، ولكن أردنا العِير . ثم قال : ((ما تَرَوْنَ في قتال القَوم ؟)) ، فقُلنا مِثل ذلك . فقال المِقداد بن عمرو : إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى:﴿ فاذهبْ أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنَّا هَهُنا قاعدون ﴾ [المائدة : ٢٤] . قال : فتمنَّيْنا مَعْشَرَ الأنصار لو أنَّا قُلنا كما قال المِقداد ، أَحب إلَينا من أن يكون لنا مال عظيم ... ثم أنزل الله ــ عز وجل ــ :﴿ أنِّي معكم فثبِّتوا الذين آمنوا سأُلقي في قلوب الذين كفروا

الرُّعْبَ فاضْرِبوا فَوْق الأعناق واضْرِبوا مِنهم كلَّ بَنان ﴾ [33]. إن إرادةَ الصحابة_رضي اللهُ عنهم_ الخاضعة لإرادة النبيِّ ﷺ ، لا تلين ولا تنكسر أمام المغريات المادية . وقد تداركَ الأنصارُ أمرَهم حينما سمعوا الردَّ الباهر من المِقداد ، حيث أعلنَ عدم التخلي عن النبيِّ ﷺ ، ومُساندته حتى اللحظة الأخيرة ، دُون تخاذل أو فِرار . لذلك فإن هذا الجيل استحق النصرَ الإلهيَّ، والتأييدَ الرَّبَّانِيَّ بإرسال الملائكة، وأمرهم بتثبيت المؤمنين على الحق والجهاد. وعند الشدائد يظهر معدنُ الرجال الحقيقي ، لأن الأزمات هي الحاكمة على مستوى إخلاص الأفراد والجماعات .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣) : عن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ قال : بينما رَجل من المسلمين يومئذ يَشتدُّ في أثر رَجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضَربةً بالسَّوْط فوقه ... فنظر إلى المشرك أمامه فَخَرَّ مُستلقيًا ، فنظرَ إليه فإذا هو قد خُطِمَ أنفُه ، وشُقَّ وَجْهُه كَضَرْبة السَّوْط ... فجاء الأنصاريُّ،فحدَّث بذلك رسولَ الله ﷺ، فقال : ((صَدقتَ ، ذلك مَدَدُ السَّماءِ الثالثة)).

مِن خلال هذا الحديث تتجلى بعضُ تفاصيل قتال الملائكة مع المؤمنين ، وتأثيرهم البالغ في سَير المعركة عَبر استئصالهم لِشَوكة الكافرين . فهذا المشركُ الذي سقط صريعًا قد خُطِمَ أنفُه ، أي صارت علامة على أنفه إذلالاً له ، ووجهُه قد شُقَّ كضَربة السَّوط ، كَي يذوق جَزاء أعماله الشريرة . ولَم يسقط المشرك صريعًا فَحَسْب ، بل صارت هناك علامة على أنفه كي يموت ذليلاً كسيرًا. والأنفُ عند العرب هو رمز الشُّموخ ، وحدوث علامة عليه يُعتبَر إهانةً عظيمة للشخص . وهذا المشرك قد مات مُهَانًا وضيعًا حقيرًا بسبب العقيدة الباطلة التي يعتنقها . وعن الربيع بن أنس _ رضي الله عنه _ قال : ((كان الناس يوم بَدْر يعرفون قتلى الملائكة عليهم السلام ، مِمَّن قتلوهم بِضَرْب على الأعناق وعلى البَنَان ،مِثل سِمَةِ النار قد أُحرِق به))[34]. إن المؤمنين الصادقين الذين يدافعون عن شرف الدعوة الإسلامية، والمنجزاتِ الحضارية المنبثقة عن عقيدتهم، لا بد أن ينصرهم اللهُ تعالى ، ويُثبِّتهم في المواطن الشديدة ، لأنه سُبحانَه لا يترك حملةَ دعوته المخلِصين ، ولا يترك رسالته تضيع بِفِعل جُحود الكافرين وشِدَّةِ بأسهم . فالنصرُ قادم لا مَحَالة في الوقت الذي يَختاره اللهُ تعالى . ﴿ وكان حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الرُّوم :٤٧] .

---

(٣٣) رواه الطبراني(٤/ ١٧٤) برقم (٤٠٥٦).وحسَّنه الهيثمي في المجمع(٦/ ٩٤) برقم (٩٩٥٠) .
(عِير أبي سُفيان) : هي الإبل والدَّواب التي تَحمل الطعام وغَيره مِن التجارات .
(٣٤)الدُّر المنثور للسُّيوطي(٤/٣٥).وتفسير ابن كثير(٢/٣٨٦)،وفتح الباري لابن حجر(٧/ ٣١٢).

٢٢ ـ وعيدهم :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ ورَسُولَهُ فإنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَاب ﴾[الأنفال : ١٣] .

ومَن يَرفض أوامرَ اللهِ ورسولِه ﷺ ، ويَعصيهما، ويصير في شِق (جانب) غَير شِق أوليائه، فإنَّ اللهَ سَيُعاقِبه بعذابٍ شديدٍ لا طاقةَ له بِه ، في الدنيا والآخرة معًا . وعذابُ الدنيا يتجلى في المصائب والكوارث، وغياب النِّعَم ، وكثرةِ النِّقَم. وعذابُ الآخِرة هو الخلود في نار جهنم .

وهذا تخويفٌ رهيبٌ ، وتهديد أكيد ، ووعيدٌ شديدٌ لهم بما أعدَّ لهم في الآخرة مِن العقوبة الْمُهْلِكة والعذاب المؤلِم ، بعد ما أصابهم مِن الخِزي والعار والمصائب في الدنيا .

والآيةُ ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ ورَسُولَهُ ﴾ إظهار في مَوضِع الإضمار لتعظيمِ اللهِ، واحترامِ رسوله ﷺ، وضرورةِ تقديس أوامرهما والالتزام بها، وبيانِ قُبح الجريمة التي أقدَمَ عليها المشركون ، وهي مُعادَاة الله ورسوله ﷺ ، ومُخالفتهما ، ومُعارَضة أوامرهما .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٨٦) : ((أي : هو الطالب الغالب لِمَن خالفه وناوأه ، لا يَفُوته شيء ، ولا يقوم لغضبه شيء ، تبارك وتعالى ، لا إله ولا رَب سِواه)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يُؤذُونَ اللهَ ورَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ وأعَدَّ لهم عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٧] .

إن الذين يُؤذون اللهَ بالكفر والشِّرك والمعاصي والذنوب، ونِسبة الصاحبة والولد والشريك إليه، ووصفه بصفات الذم والنقص ، كقول اليهود إن يد الله مَغلولة ، وهُم يَقصدون أنه سُبحانَه بخيل ، وقَول النصارى إن المسيح هو ابن الله ، وإله مَعَ الله ، وقَول المشركين : الملائكة بنات الله ، والأصنام آلهة معَ الله وشَريكة له. ويُؤذون النبيَّ ﷺ بالطعن فيه،وتَكذيبه، واتهامه بالسِّحر والجنون، ورَفض شريعته ، والسُّخرية مِن دَعوته ، والاستهزاء بِمُعجزاته . طَرَدَهم اللهُ مِن رحمته في الدنيا والآخرة، وغضب عليهم في الدنيا بأن أخزاهم، وضيَّق عليهم، وأرسلَ عليهم المصائب والكوارث،وفي الآخرة بالخلود في عذاب النار، وهيَّأ لهم عذابًا مُؤلِمًا وشَديدًا ، يُهينهم، ويُذِلُّهم ، ويُخزيهم . وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٢٩) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبيِّ ﷺ قال: ((قال اللهُ : كَذَّبني ابنُ آدم، ولَم يكن له ذلك، وشَتَمني، ولَم يكن له ذلك، فأمَّا تكذيبه إيَّايَ، فزعمَ أني لا أَقْدِر أن أُعيده كما كان ، وأمَّا شَتْمُه إيَّايَ ، فَقَوله : لي ولد ، فَسُبْحاني أن أتَّخِذَ صاحبةً أو ولدًا)) .

والمقصود بالشَّتْم هو وصف الله تعالى بما لا يَليق بِه . ونِسبة الولد إلى الله هو انتقاص مِن عَظَمَة الله ومجده ، وإهانة له ، وإسناد صِفة نقص إلى ذاته العَلِيَّة . تعالى اللهُ عُلُوًّا كبيرًا .

وعن ابن عُيَيْنة قال : كان أهلُ الجاهلية يقولون: إن الدَّهر هو الذي يُهلِكنا، هو الذي يُميتنا ويُحيينا، فردَّ اللهُ عليهم قولهم. قال الزُّهري: عن سعيد بن المسيِّب عن أبي هريرة عن رسول اللهﷺ قال : ((يقول اللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : يُؤذيني ابنُ آدم ، يَسُبُّ الدَّهْرَ ، و أنا الدهر ، أُقلِّب لَيْلَه ونهارَه ، فإذا شئتُ قبضتُهما)) . وتلا سفيان _ ابن عيينة _ هذه الآية : ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : ٢٤] [35].

إن أهل الجاهلية قد اعتبروا الدهرَ هو الفاعل في هذا الكون،والذي بيده الحياة والموت ، فلم يَنظروا إلى عَظَمَة الله تعالى وقُدرته . وإنما حَصروا تفكيرهم في إطار مادي زمني محدود، ونَسبوا إليه القدرةَ على التصرف بالخلائق إحياءً وإماتة. لكنَّ الله تعالى رَدَّ عليهم ، وكشف لهم زَيغَ دَعواهم ، واعتقادهم الباطل .

وفي تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٢) : ((قال الشافعي وأبو عُبَيدة وغَيرهما من الأئمة ... : كانت العرب في جاهليتهم إذا أصابهم شِدَّة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خَيْبة الدهر ، فينسبون تلك الأفعال إلى الدهر ويَسُبُّونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى ، فكأنهم إنما سَبُّوا اللهَ _ عز وجل _ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهى عن سَبِّ الدهر بهذا الاعتبار ، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ، ويُسندون إليه تلك الأفعال)) اهـ .

وفي الحديث: جاء رَجل من أهل الشَّام، فَسَبَّ عَلِيًّا عند ابن عباس، فَحَصَبَه ابن عباس، فقال: ((يا عَدُوَّ الله ، آذيتَ رسولَ الله ﷺ ، ﴿ إنَّ الذينَ يُؤذُونَ اللهَ ورَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ وأعَدَّ لهم عَذَابًا مُهِينًا ﴾ . لَوْ كان رسولُ الله ﷺ حَيًّا لآذَيْتَه)) [36].

هذا الرَّجل مِن أهل الشَّام ناصبي ، يُناصِب أهل البَيت العَداءَ ، وقد شَتَمَ الصحابِيَّ الجليلَ عليَّ بن أبي طالب _ رضي اللهُ عنه_، وهو ابن عَم النبيِّ ﷺ، وزَوج ابنته. وهو الإمام الكبير ،

---

(٣٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٩١) برقم (٣٦٩٠) وصحَّحه، ووافقه الذهبي. وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٩٢) : ((وقد غلط ابنُ حزم ومن نحا نَحْوه من الظاهرية في عَدِّهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذًا مِن هذا الحديث)) .

(٣٦) رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ١٣١) برقم (٤٦١٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وأمير المؤمنين ، وفارس الإسلام ، المشهود له بالجنة . لذلك ، مَن يَشتمه فكأنه شَتَمَ النبيَّ ﷺ ، وطَعَنَ فيه.وقَد رَمى ابن عباس رضي اللهُ عنهما هذا الناصبيَّ بالحصباء، ورَد عليه رَدًّا مُحْكَمًا بليغًا.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٢٠):((قَوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذينَ يُؤذُونَ اللهَ ورَسُولَهُ ﴾ اختلفوا فِيمَن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها في الذين طَعنوا على رسول الله ﷺ، حِينَ اتَّخَذَ صَفِيَّة بنت حُيَي، قاله ابن عباس . والثاني نزلت في المصوِّرين، قاله عِكرمة. والثالث في المشركين واليهود والنصارى ، وَصفوا الله بالولد ، وكذَّبوا رسوله ، وشَجُّوا وَجْهَه ، وكسروا رَبَاعِيَتَه ، وقالوا : مجنون شاعر ساحر كذاب . ومعنى أذى الله وَصْفه بما هو مُنَزَّه عنه ، وعِصيانه . ولعنهم في الدنيا بالقتل والجلاء ، وفي الآخرة بالنار)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ والذينَ يُؤذُونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ بِغَيْرِ ما اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وإِثْمًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

والذينَ يُؤذون أهلَ الإيمان الْمُقِرِّين بِوَحدانية الله ، والْمُصَدِّقين بِنُبُوَّةِ محمد ﷺ ، بأيِّ شكل من أشكال الأذى ، قَولاً أو فِعلاً ، بِغَير ذَنب ارتكبوه ، ولا جريمة اقترفوها، ولا جِناية فَعَلوها ، فقد ظَلموا أنفسهم ظُلْمًا كبيرًا ، وحَمَّلوها كَذِبًا عظيمًا ، وإِثْمًا ظاهرًا . والجديرُ بالذِّكر أن الله أطلقَ إيذاء الله ورسوله ﷺ ، وقيَّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات : ﴿ بِغَيْرِ ما اكْتَسَبُوا ﴾ ، لأن إيذاء الله ورسوله باطل وبِدُون وجه حق دائمًا وأبدًا، أمَّا إيذاء المؤمنين والمؤمنات،فمِنه حق كالحد والتَّعزير، ومِنه باطل .وذلك لأن المؤمنين والمؤمنات غير معصومين ولا كاملين . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٤٣٠) : ((ثُمَّ لَمَا فَرَغَ مِن الذم لِمَن آذى اللهَ ورسوله ، ذَكَرَ الأذية لصالحي عباده فقال : ﴿ والذينَ يُؤذُونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ ﴾ بوجه من وجوه الأذى ، مِن قَول أو فعل ، ومعنى : ﴿ بِغَيْرِ ما اكْتَسَبُوا ﴾ أنه لَم يكن ذلك لسبب فعلوه ، يُوجِب عليهم الأذِيَّة ، ويستحقونها به . فأمَّا الأذِيَّة للمؤمن والمؤمنة بما كَسَبَه، مِمَّا يُوجِب عليه حَدًّا أو تعزيرًا أو نَحْوهما ، فذلك حَق أثبته الشرع ، وأمرنا اللهُ به ونَدَبَنا إليه ، وهكذا إذا وقع من المؤمنين والمؤمنات الابتداء بشتم لمؤمن أو مؤمنة أو ضُر ، فإن القِصاص من الفاعل ليس مِن الأذِيَّة المحرَّمة على أي وجه كان ، ما لَم يُجاوز ما شَرَعَه اللهُ ، ثُمَّ أخبر عمَّا لهؤلاء الذين يُؤذون المؤمنين والمؤمنات بِغَير ما اكتسبوا ، فقال : ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وإِثْمًا مُبِينًا ﴾ ، أي : ظاهرًا واضحًا لا شَك في كَوْنه مِن البُهتان والإثم)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٨٣) : ((وقَوله تعالى: ﴿ والذينَ يُؤذُونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ بِغَيْرِ ما اكْتَسَبُوا ﴾ ، أي : يَنسُبون إليهم ما هُم بُرآء منه لَم يعملوه ولَم يفعلوه ، ﴿ فَقَدِ

احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وإِثْمًا مُبِينًا ﴾ . وهذا هو البَهْت الكبير أن يُحكَى أو يُنقَل عن المؤمنين والمؤمنات ، ما لَم يفعلوه على سبيل العَيب والتَّنَقُّص لهم ، ومِن أكثر مَن يَدخل في هذا الوعيد الكَفَرَة بالله ورسوله ، ثُمَّ الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ، ويعيبونهم بما قد برَّأهم اللهُ منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبرَ الله عنهم ، فإن الله عز وجل قد أخبر أنه قد رَضِيَ عن المهاجرين والأنصار ومَدَحَهم، وهؤلاء الجهَلة الأغبياء يَسُبُّونهم ويَنتقصونهم،ويَذْكرون عنهم ما لَم يكن ولا فعلوه أبدًا ، فهُم في الحقيقة مُنَكَّسُو القلوب ، يَذُمُّون الممدوحين ، ويَمْدحون المذمومين))اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٢١) : ((قَوله تعالى : ﴿ والذينَ يُؤذُونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها أن عمر بن الخطاب رأى جارية مُتبرِّجة، فَضَرَبها، وكَفَّ ما رأى مِن زينتها،فذهبت إلى أهلها تشكو،فخرجوا إليه فآذَوْه،فَنَزلت هذه الآية،رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني أنها نزلت في الزُّناة الذين كانوا يمشون في طُرق المدينة يتبعون النساء إذا بَرَزْنَ بالليل لقضاء حوائجهن، فَيَرَوْنَ المرأة فَيَدْنون مِنها فيغمزونها،وإنما كانوا يُؤذون الإماءَ غَير أنه لَم تكن الأمَة تُعرَف مِن الحرَّة فَشَكَوْنَ ذلك إلى أزواجهنَّ،فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ،فنزلت هذه الآية، قاله السُّدي. والثالث أنها نزلت فِيمَن تكلمَ في عائشة وصفوان بن الْمُعَطِّل بالإفك،قاله الضَّحاك. والرابع أن ناسًا مِن المنافقين آذَوْا عليَّ بن أبي طالب،فنزلت هذه الآية،قاله مقاتل.قال المفسِّرون:ومعنى الآية:يَرْمُونهم بما ليس فيهم)).

وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : ((تَدْرُونَ أزنى الزِّنا عند الله ؟)) ، قالوا : اللهُ ورسوله أعلم،قال:((فإن أزنى الزنا عند الله استحلال عِرْض امرئ مسلم))،ثُمَّ قرأ:((﴿ والذينَ يُؤذُونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ بِغَيْرِ ما اكْتَسَبُوا ﴾)) [37].

إن أسوأ أنواع الزِّنا وأشَدَّها ذَنْبًا وإثمًا وقُبْحًا ، اعتقاد أن عِرْض امرئ مسلم حلال مُباح . والمقصود مِن الحديث هو الخوض في عِرْض المسلم ، والتكلم فِيه دُون وَجه حق . والمتكلِّم في عِرْض المسلم كأنه مُسْتَحِل لَه. لذلك تَمَّ إطلاق لفظ الاستحلال عليه.وهذا قَذْف واضح وصريح.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ والذينَ يُحَاجُّونَ في اللهِ مِن بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُم دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِم وَعَلَيْهِم غَضَبٌ ولهم عَذَابٌ شَدِيد ﴾[الشُّورى : ١٦]. والذين يُخاصمون في دِين الله (الإسلام) لمنع الناس من اعتناقه ، وإبعادهم عنه ، ويُجادلون المؤمنين الذين أقَرُّوا بِوَحدانية الله وصدَّقوا

(٣٧)رواه أبو يعلى في مسنده(٨/١٤٥).قال الهيثمي في المجمع(٨/١٧٤):((رجاله رجال الصحيح)).

بِنُبُوَّة محمد ﷺ ، كَي يَصُدُّوهم عن طريق الحق والهدى، مِن بَعد ما استجابَ الناسُ للإسلام ، ودخلوا فيه ، واعتنقوه قَولاً وفِعلاً ، وهو الدِّين السماوي الوحيد الذي اختاره لعباده وارتضاه لهم . حُجَّتهم باطلة عِند الله لا ثبات لها ، وخُصومتهم واهية لا أساس لها، لأنهم يُخاصمون الحق الواضح ، ويَرفضون المعجِزات الظاهرة التي تدل على صِدق النبيِّ ﷺ . والكفارُ يظنُّون أنهم على الحق ، وأن كلامهم قائم على أساس متين ، وأن لهم حُجَّة واضحة وثابتة . وفي حقيقة الأمر إن عقائدهم وهمية ، وكلامهم مبني على الأهواء الذاتية والمصالح الشخصية ، وهُم غارقون في الشَّهوات والشُّبهات ، ولا يَملكون أدلة نقلية ولا براهين عقلية . لكنَّ الغرور قاتل ، والكُفر عِناد . وقال النَّسفي في تفسيره (٤/ ٩٩) : ((وسَمَّاها حُجَّة ، وإن كانت شُبهة ، لزعمهم أنها حُجَّة عند ربهم)) اهـ . وعليهم غضب عظيم في الدنيا لمجادلتهم بالباطل، ومُخاصمتهم بالهوى، وعِنادهم، ومُكابرتهم ، وتقليدهم الأعمى لآبائهم . ولهم عذاب أليم في الآخرة على كفرهم وضلالهم ، وهو عذاب النار الأبدي . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٧٩ و٢٨٠) : ((قَوله تعالى: ﴿ والذينَ يُحَاجُّونَ في اللهِ ﴾ . أي: يُخاصِمون في دِينه. قال قَتادة: هُم اليهود، قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونَبِيُّنا قبل نَبِيِّكم، فنحن خَير مِنكم. وعلى قول مجاهد هُم المشركون، طَمِعوا أن تعود الجاهلية. قَوله تعالى: ﴿ مِن بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ ﴾ ، أي: مِن بعد إجابة الناس إلى الإسلام . ﴿ حُجَّتُهُم دَاحِضَةٌ ﴾ ، أي : خُصومتهم باطلة)) .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ يُحَادُّونَ اللهَ ورَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الذينَ مِن قَبْلِهِم وَقَدْ أنزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وللكافرينَ عَذابٌ مُهِين ﴾[الْمُجَادِلة : ٥] .

إن الذين يُعادون اللهَ ورسوله ﷺ ، ويخالفون أوامرهما ، ويَرفضون الشريعةَ الإلهية ، خُذلوا وأُهينوا ولُعِنوا وأُخْزُوا وأُهْلِكُوا ، كما فُعِل بأشباههم مِن المنافقين والكفار ، الذين حَادُّوا اللهَ ورسولَه مِن الأمم الماضية والأقوام الغابرين. وقد أنزلَ اللهُ آياتٍ واضحات ، تشتمل على الأحكام والشرائع، والفرائض، والحلال والحرام، والترغيب والترهيب،والوعد والوعيد،والبراهين التي تدل على وَحدانية الله تعالى، وصِدق محمد ﷺ، وصِحَّة ما جاء به. وهذه الآياتُ الواضحات الباهرات، لا يَرفضها إلا كافر، ولا يُعاندها إلا ضَال. وللكافرين الذين أنكَروا وَحدانيةَ الله ، وكذَّبوا بآياته ، وجَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ ، عذابٌ شديد يُخزيهم ويُهينهم ويُذِلُّهم ويُحطِّم غرورهم واستكبارهم .

وقد أخزاهم اللهُ يوم الخندق بالهزيمة والانكسار والاندحار ، كما أخزى مَن قبلهم مِن كفار الأمم الماضية . وقال الصاوي في حاشيته على الجلالَيْن (٤/ ١٨١) : ((وقد نزلت هذه الآية

في كفار مكة يوم الأحزاب ، حِين أرادوا التَّحَزُّبَ على رسول الله ﷺ ، والمقصودُ بها تسلية رسول الله ﷺ ، وبشارته مع المؤمنين ، بأن أعداءهم المتحزِّبين سَيُذَلون ، ويُخذَلون ، ويُفرَّق جمعهم ، فلا تَخْشَوْا بأسهم))اهـ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٢٦٢): ((لَمَّا ذَكَرَ سُبحانَه المؤمنين الواقفين عند حُدوده ، ذَكَرَ الْمُحَادِّين . والْمُحَادَّةُ الْمُشَاقَّة والْمُعادَاة والْمُخالَفة ، ومِثْله قَولـه : ﴿ إنَّ الـذينَ يُحَـادُّونَ اللهَ ورَسُـولَهُ ﴾ . قـال الزَّجـاج : الْمُحَـادَّة أن تكـون فـي حَـد يُخـالف صاحبك . وأصلها الْمُمَانَعَة ، ومِنه الحديد ، ومِنه الحدَّاد للبَوَّاب ، ﴿ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الذينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ ، أي: أُذِلُّوا وأُخْزُوا. يُقال: كَبَتَ اللهُ فُلانًا، إذا أذَلَّه.والمردود بالذُّل يُقال له مَكبوت. قال الْمُقَاتِلان: أُخْزُوا كما أُخْزِيَ الذين مِن قَبلهم من أهل الشِّرك، وكذا قال قَتادة.وقال أبو عُبَيدة والأخفش : أُهْلِكُوا.وقال ابن زَيد: عُذِّبُوا. وقال السُّدي: لُعنوا. وقال الفرَّاء: أُغِيظوا. والمراد بمن قبلهم: كفار الأمم الماضية المعادين لرسل الله . وعبَّر عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهًا على تحقُّق وقوعه. وقِيل: المعنى:على الماضي، وذلك ما وقع للمشركين يوم بَدْر، فإن الله كَبَتهم بالقتل والأسر والقهر ، وجملة ﴿ وَقَدْ أنزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ ﴾ في محل نصب على الحال مِن الواو في ﴿ كُبِتُوا ﴾ أي: والحال أنَّا قد أنزلنا آياتٍ واضحات فِيمَن حَادَّ اللهَ ورُسله من الأمم المتقدِّمة. وقيل: المراد الفرائض التي أنزلها الله سُبحانَه.وقِيل:هي المعجزات.﴿وللكافرينَ عَذابٌ مُهِين﴾أي:للكافرين بكل ما يجب الإيمان به فتدخل الآيات المذكورة هنا دُخولاً أوَّلِيًّا. والعذاب الْمُهين : الذي يُهين صاحبه ويُذِله ويَذهب بِعِزِّه)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِما عَمِلُوا أحصاهُ اللهُ ونَسُوهُ واللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهيد ﴾ [الْمُجَادِلة : ٦] .

اذْكُرْ ذلك اليوم العظيم، حيث يُخرِجهم اللهُ من قبورهم ، ويَجمعهم كُلَّهم في موقف القيامة ، فيُخبِرهم بما ارتكبوا في الدنيا مِن ذنوب وآثام وجرائم ، على رؤوس الأشهاد ، لفضحهم ، وتوبيخهم ، وإقامة الْحُجَّة عليهم ، وقطع أعذارهم . حَفِظَه اللهُ كاملاً غَير منقوص ، وسجَّله في صحائف أعمالهم ليكون حُجَّةً عليهم ، بينما هُم أهملوه ونَسُوه ، لاعتقادهم بعدم وجود حساب ولا عقاب ، واللهُ مُطَّلع على كل شيء ، ولا يَنسى شيئًا ، ولا تخفى عليه خافية .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ١٨٧): ((قَوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا ﴾ ، أي : مِن قُبورهم ، ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِما عَمِلُوا ﴾ مِن مَعاصيه وتضييع فرائضه ، ﴿ أحصاهُ اللهُ ﴾ ، أي : حَفِظَه اللهُ عليهم ﴿ونَسُوهُ ﴾ ، ﴿واللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن أعمالهم في السِّر والعلانية ﴿شَهيد ﴾)).

٢٣ _ ندمهم :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ويَوْمَ يَعَضُّ الظالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقولُ يا لَيْتني اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسولِ سَبيلاً ﴾ [الفُرقان : ٢٧] .

يُخبِر اللهُ عن نَدَمَ المشرك الذي ظَلَمَ نفْسه باختيار الكفر على الإيمان ، وقادها إلى الهلاك الأكيد والعذاب الأبدي . والمشرك هو أظلم الظالمين ، لأنه وضع العبادةَ في غَير مَوضعها ، وأهلكَ نفْسه بنفْسه ، وقادها إلى الخلود في عذاب النار . وهذا أسوأ أنواع الظلم .

في يوم القيامة ، يَندم هذا الظالم (المشرك) يوم لا يَنفع الندم ، ويَعَضُّ على يَدَيه غَيْظًا وحَسرةً وندمًا وأسفًا على اختيار الكفر والضلال ، والغرق في الذنوب والمعاصي والشُّبهات والشهوات ، ويقول بكل حسرة وندم : يا لَيْتني اتَّبَعْتُ النبيَّ محمدًا في الدنيا ، وآمنتُ بالإسلام، واتَّخذتُ معه طريقًا إلى الحق والهدى، كَي أنجوَ مِن عذاب الله، وأفوز بِجَنَّته. والآيةُ عامة في كل ظالم وشاملة له .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٨٥):((قَوله تعالى: ﴿ ويَوْمَ يَعَضُّ الظالِمُ عَلى يَدَيْهِ ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها أن أُبَي بن خلف كان يَحضر عند رسول الله ﷺ ، ويُجالسه مِن غَير أن يُؤمن به ، فزجره عُقبة بن أبي مُعَيط عن ذلك ، فَنَزلت هذه الآية. رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس . والثاني أن عُقبة دعا قومًا فيهم رسول الله ﷺ لطعام ، فأكلوا ، وأبى رسولُ الله ﷺ أن يأكل ، وقال : " لا آكلُ حتى تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنِّي رسول الله " ، فشهد بذلك عُقبة ، فبلغ ذلك أُبَي بن خلف ، وكان خليلاً له ، فقال : صَبَوْتَ يا عُقبة ، فقال: لا والله ، ولكنه أبى أن يأكل حتى قُلْتُ ذلك ، وليس مِن نفْسي ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله مجاهد . والثالث أن عُقبة كان خَليلاً لأُمَيَّة بن خلف ، فأسلمَ عُقبة ، فقال أُمَيَّة : وجهي من وجهك حرام ، إن تابعتَ محمدًا ، فكفرَ وارتدَّ لرضى أُمَيَّة ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله الشَّعبي . فأمَّا الظالم المذكور هاهُنا فهو الكافر، وفيه قَولان : أحدهما أنه أُبَي بن خلف ، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثاني عُقبة بن أبي مُعَيط ، قاله مجاهد وسعيد بن جُبَير وقتادة . قال عطاء : يَأكل يديه حتى تذهبا إلى المرفقين ، ثم تنبتان ، فلا يزال هكذا ، كُلما نبتت يدُه أكلها ندامةً على ما فعل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا وَيْلَتَى لَيْتَني لَم أتَّخِذْ فُلانًا خَليلاً ﴾ [الفُرقان : ٢٨] .

لَم يتم ذِكر اسم ﴿ فُلانًا ﴾، لتبقى الآية عامة وشاملة، وغَير مَحصورة في اسم مُعيَّن. و "فُلان" كِناية عن الأعلام .

هذا المشرك الظالم لنفْسه ، يَدعو على نفْسه بالوَيل والثُبور والهلاك ، ويتمنَّى لَو لَم يتَّخذ فُلانًا صديقًا وحبيبًا وخليلاً ، لأنه أضَلَّه ، وأبعده عن طريق الحق والهدى ، وقاده إلى الضياع والعذاب.وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٨٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ لَيْتَني لَم أتَّخِذْ فُلانًا ﴾ في الْمُشار إليه أربعة أقوال: أحدها أنه عنى أُبَي بن خلف ، قاله ابن عباس. والثاني عُقبة بن أبي مُعَيط، قاله أبو مالك . والثالث الشَّيطان ، قاله مجاهد . والرابع أُمَيَّة بن خلف ، قاله السُّدي . فإن قِيل : إنما يُكنِّي مَن يَخاف الْمُبادأة ، أو يحتاج إلى الْمُداجاة (الْمُداراة والْمُجاملة)، فما وجه الكِناية ؟. فالجواب أنه أراد بالظالم كُل ظالم ، وأراد بِفُلان كُل مَن أُطِيع في معصية ، وأُرْضِيَ بِسَخَط الله ، وإن كانت الآية نزلت في شخص ، قاله ابن قُتَيبة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَقَدْ أضَلَّني عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إذْ جاءني وكانَ الشَّيطانُ للإنسانِ خَذُولاً ﴾ [الفُرقان : ٢٩] . يقول هذا المشرك النادم على تفريطه ، واختيارِ الكفر: واللهِ لقد أضَلَّني مَن اتَّخذته في الدنيا صديقًا وحبيبًا وخليلاً عن القُرآن والإيمان بِه، والتصديق بآياته، بعد بُلوغ القُرآن إلَيَّ، ومعرفتي بِه. وهذا اعتراف بالذنب بعد فَوات الأوان ، وإظهار للندم لا يَنفع الندم .

وكان الشَّيطان للكافر تاركًا ، يُبعِده عن طريق الحق والهدى ، ويَدعوه إلى الكفر والضلال والمعاصي في الدنيا ، ويَتركه لمصيره في الآخرة، ويتبرَّأ مِنه عِند البلاء ، ولا يُنقذه ، ولا يُساعده، ولا يَنصره ، ولا يُنجِّيه . والْخَذْلُ هو ترك الإعانةِ والإغاثةِ والنُّصرةِ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٨١) : ((﴿ لَقَدْ أضَلَّني عَنِ الذِّكْرِ ﴾ عن الإيمان والقرآن ، ﴿ بَعْدَ إذْ جاءني ﴾ ، يعني : الذِّكْر مع الرسول.﴿وكانَ الشَّيطانُ﴾ وهو كُل مُتمرِّد عَاتٍ مِن الإنس والجن،وكُل مَن صَدَّ عن سبيل الله فهو شَيطان ﴿ للإنسانِ خَذُولاً ﴾ ، أي: تاركًا يتركه، ويتبرَّأ مِنه عند نزول البلاء والعذاب.وحُكم هذه الآية عام في حَق كُل مُتَحَابَّيْن اجتمعا على معصية الله)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إذِ المجرمونَ ناكِسُو رُؤوسِهِم عِندَ رَبِّهِم رَبَّنا أبْصَرْنا وسَمِعْنا فارْجِعْنا نَعْمَلْ صَالِحًا إنَّا مُوقِنُون ﴾ [السَّجدة : ١٢] .

يُبيِّن اللهُ حال الكافرين الضَّالين يوم القيامة ، فهُم مُجلَّلون بالخِزي والعار والذُّل والهوان . والآيةُ تَعجيب للنبيِّ ﷺ وأُمَّته مِن حال الكافرين المجرمين يوم القيامة .

ولو ترى يا محمد إذ الكافرون الذين أنكَروا البعثَ، مُطَأطِئُو رؤوسهم أمام الله حياءً وندمًا وخجلاً ، بسبب كفرهم وضلالهم ومعاصيهم في الدنيا ، لَرَأيْتَ أمرًا عجيبًا في غاية الفظاعة . وحُذِفَ جواب ﴿ لَوْ ﴾ للتَّهويل . تقديره : لَرَأيْتَ أمرًا عجيبًا فظيعًا مَهُولاً .

يقولون : رَبَّنا أبْصَرْنا ما أنكَرْنا مِن البعث ، ورَأيْنا صِدق وَعيدك أمام أعيننا ، وَسَمِعْنا تصديق رُسلك فيما كذَّبناهم فيه . لقد آمنوا بعد فَوات الأوان ، ونَدِمُوا يوم لا يَنفع النَّدم ، لأن الآخرة دار جزاء لا دار عمل . فارْدُدْنا إلى الدنيا كَي نُوحِّدك ونعبدك ونُطيعك. لقد كُنَّا جُهَّالاً وضَالِّين، والآن زالت شُكوكنا وشُبهاتنا ، وصَدَّقْنا أن البعث حَق ، والحساب حَق ، وأدْرَكْنا أن لا إله إلا أنت ، وأنكَ قادر على بعث الناس مِن قبورهم ، وأيْقَنَّا بِصِدق محمد ﷺ . وهذا لا يَنفعهم ولا يُفيدهم . وقد وَصفوا أنفسهم بالإيقان طمعًا في عَودتهم إلى الدنيا . ولكن لا أحد يَعود إلى الدنيا ، وحَقَّ عليهم العذاب. واللهُ يَعلم أنهم لو عادوا إلى الدنيا ، لَعَادوا إلى الكفر والضلال ، وتكذيب الوَحْي والنُّبوَّة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٨٧): ((قَوله تعالى: ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمونَ ناكِسُو رُؤوسِهِم عِندَ رَبِّهِم ﴾ ابتداء وخَبَر . قال الزَّجاج : والْمُخَاطَبَة للنبيِّ ﷺ مُخَاطَبَة لأُمَّته . والمعنى : ولو ترى يا محمد مُنكِري البعث يوم القيامة، لَرَأيتَ العَجَب . ومذهب أبي العباس غَير هذا وأن يكون المعنى: يا محمد ، قُل للمجرم : ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم لَنَدِمْتَ على ما كان مِنك. ﴿ ناكِسُو رُؤوسِهِم ﴾ ، أي : مِن النَّدم والخِزي والحزن والذل والغَم ﴿ عِندَ رَبِّهِم ﴾ أي : عِند مُحاسبة ربهم وجزاء أعمالهم ، ﴿ رَبَّنا ﴾ أي : يَقولون : رَبَّنا ﴿ أبْصَرْنا ﴾ أي : أبْصَرْنا ما كُنَّا نُكذِّب ، ﴿ وسَمِعْنا ﴾ ما كُنَّا نُنكِر . وقِيل : أبْصَرْنا صِدْقَ وعيدك ، وسَمِعْنا تصديقَ رُسلك. أبصَروا حِين لا ينفعهم البصر ، وسَمِعوا حين لا ينفعهم السمع ، ﴿ فارْجِعْنا ﴾ أي: إلى الدنيا ، ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا إنَّا مُوقِنُون ﴾ ، أي: مُصدِّقون بالبعث، قاله النَّقاش.وقِيل: مُصدِّقون بالذي جاء به محمد ﷺ أنه حق ، قاله يحيى بن سلام . قال سُفيان الثوري : فأكْذَبَهم اللهُ تعالى ، فقال: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وإنهم لَكَاذبون ﴾ [الأنعام : ٢٨] . وقيل : معنى : ﴿ إنَّا مُوقِنُون ﴾ ، أي: قد زالت عنَّا الشُّكوك الآن. وكانوا يَسمعون ويُبصرون في الدنيا، ولكن لَم يكونوا يتدبَّرون ، وكانوا كَمَن لا يُبصِر ولا يَسمع ، فلمَّا تنبَّهوا في الآخرة ، صاروا حينئذ كأنهم سَمِعوا وأبصروا . وقِيل : أي : رَبَّنا لكَ الْحُجَّة ، فقد أبْصَرْنا رُسلك وعجائب خَلْقك في الدنيا ، وسَمِعْنا كلامهم ، فلا حُجَّة لنا ، فهذا اعتراف مِنهم ، ثُمَّ طَلَبوا أن يُرَدُّوا إلى الدنيا لِيُؤمنوا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُم في النارِ يَقولونَ يا لَيْتَنا أطَعْنا اللهَ وأطَعْنا الرَّسُولا ﴾ [الأحزاب : ٦٦] .

يُوضِّح اللهُ حالَ الكافرين السَّيئة يوم القيامة ، وهُم يُعذَّبون في النار ، ولا مُعين لهم ولا ناصر .

يُسْحَبُون في النار على وجوههم ، وتتقلب وجوههم مِن جهة إلى جهة كاللحم يُشوَى بالنار. والوجهُ هو أشرف أعضاء الإنسان ، وهو مجمع البهاء والجمال . وحَرْقُه بالنار يدل على مُنتهى الإهانة والخِزي والعار والذُّل . يقولون بكل حسرة وندم على كفرهم وضلالهم وتقصيرهم: يا لَيْتنا آمَنَّا بالله وعبدناه وأطعناه،وصدَّقنا بِنُبُوَّة محمد ﷺ واتَّبَعْناه، فننجو مِن هذا العذاب الأليم الْمُهِين ، ونَدخل الجنة مَعَ المؤمنين .

وهذا التَّمَنِّي القائم على الحسرة والندم ، لا نفع له ، ولا فائدة مِنه ، لأن الآخرة دار جزاء ، لا دار عمل . لقد تَمَنَّوْا أنهم أطاعوا اللهَ والرسولَ ، وصدَّقوا بما جاء بِه ، كَي يَنجوا مِن العذاب الشديد كما نجا المؤمنون، ولكن بعد فوات الأوان، ويوم لا يَنفع التَّمَنِّي، ولا يُفيد الندم والحسرة .

وقال أبو السعود في تفسيره (٧ / ١١٦) : ((أي : يَوْم تُصرَف وُجوههم فيها من جهة إلى جهة ، كلحم يُشوَى في النار ، أو يُطبَخ في القِدْر ، فيدور به الغليان مِن جهة إلى جهة ، أو مِن حال إلى حال ، أو يُطرَحون فيها مَقلوبين مَنكوسين ... . وتخصيص الوجوه بالذِّكر لِمَا أنها أكرم الأعضاء ، ففيه مزيد تفظيع للأمر ، وتهويل للخَطْب . ويَجوز أن تكون عبارة عن كل الجسد ، فَقَوله تعالى : ﴿ يَقولونَ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ مِن حكاية حالهم الفظيعة ، كأنه قِيل : فماذا يصنعون عند ذلك ؟ ، فَقِيل : يَقولون مُتحسِّرين على ما فاتهم: ﴿ يا لَيْتَنا أطَعْنا اللهَ وأطَعْنا الرَّسُولا ﴾ ، فلا نُبْتَلَى بهذا العذاب)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿يا أيُّها الذينَ كَفروا لا تَعْتَذِرُوا اليَوْمَ إنما تُجْزَوْنَ ما كُنتم تَعْمَلُون﴾[التَّحريم: ٧].

يا أيها الذينَ أنكَروا وَحدانيةَ الله ، وجَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ ، لا تعتذروا عن كفركم وضلالكم ومعاصيكم وذُنوبكم ، ولا تَطلبوا العَفْوَ والْمُسَامَحَة ، فإن الْحُجَّةَ قد أُقِيمت عليكم ، وانقطعت أعذاركم ، ولا يُقبَل منكم اعتذار ، ولا أمل في العَفْو عنكم . وهذا النَّهْيُ الإلهيُّ لبث اليأس والقُنوط في نُفوس الكافرين ، وقطع أطماعهم . فلا تُوجد أيَّة فُرصة لِتَدارُك ما فات.إنما تَحْصُلون على نتيجة أعمالكم ، ولا تُظْلَمُون شيئًا. وتنالون جزاء كُفركم وجرائمكم ومعاصيكم وذُنوبكم في الدنيا ، بعدما أُمِرْتُم بالعبادة والطاعة، ونُهيتُم عن الكفر والمعصية، فلا عُذْر لكم ولا حُجَّة . وقد أعذرَ مَن أنذرَ . ما زَرعتموه في الدنيا ، حَصدتموه في الآخرة . فلا تَلُوموا إلا أنفسَكم .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٥٧) : ((﴿ يا أيُّها الذينَ كَفروا لا تَعْتَذِرُوا اليَوْمَ إنما تُجْزَوْنَ ما كُنتم تَعْمَلُون ﴾ ، أي: يُقال لهم ذلك عند دخولهم النار. والنَّهْي عن الاعتذار، لأنه لا عُذر لهم ، أو العُذر لا يَنفعهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّا أنذَرْناكُم عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ويَقولُ الكافرُ يا لَيْتني كُنتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ : ٤٠] .

الخطابُ لكفار قُرَيش الذين يُنكِرون وَحدانيةَ الله، ويُكذِّبون بآياته، ويَجحدون نُبوَّةَ محمد ﷺ، ويَعبدون الأصنام والأوثان ، ولا يُصدِّقون بالبعث واليومِ الآخر : إنَّا حذَّرناكم وخوَّفناكم عذابًا قد اقتربَ موعده، ودَنا وقت وُقوعه، وهو عذاب الآخرة الآتي لا مَحَالة، وكُل ما هو آتٍ قريب .

يَوْمَ يَرى كُلُّ إنسان أعماله الحسنة أو السَّيئة في صحيفته ، ويُشاهد ما قدَّمه مِن خَير أو شَر . ويودُّ الكافر لو كان ترابًا في الدنيا، ولَم يكن إنسانًا مُكَلَّفًا ، ولَم يُخلَق أصلاً ، ولَم يُبعَث مِن الموت، وذلك حِين يرى عذاب الله في الآخرة ، ويُعايِن عُقوبته الشديدة . وقِيل : تُحشَر البهائم للاقتصاص والْحُكم بينها، ثُمَّ يَجعلها اللهُ تُرابًا، فَيَوَدُّ الكافرُ لو كان ترابًا مِثْلَها، لِكَيلا يُحَاسَب،ولا يُعَاقَب، ولا يُعَذَّب.وهذا يدل على حاله السَّيئ، ومكانته الحقيرة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ١٣) : ((... ثُمَّ خَوَّفَ اللهُ كفارَ مكة ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا أنذَرْناكُم عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ ، وهو عذاب الآخرة ، وكُل آتٍ قريب، ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي: يَرى عمله مُثبتًا في صحيفته، خَيْرًا كان أو شَرًّا،﴿ ويَقولُ الكافرُ يا لَيْتني كُنتُ تُرَابًا ﴾. يا لَيْتني لَم أُبعَث. وحكى الثعلبي عن بعض أشياخه أنه رأى في بعض التفاسير أن الكافر هاهُنا إبليس ، وذلك أنه عابَ آدم لأنه خُلِق مِن التراب، فتمنَّى يوم القيامة أنه كان بمكان آدم ، فقال : يا لَيْتني كُنْتُ ترابًا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَقولُ يا لَيْتني قَدَّمْتُ لِحَياتي ﴾[الفَجْر : ٢٤] .

يقول الإنسانُ يوم القيامة نادمًا مُتَحَسِّرًا على ما فاته من العبادات والطاعات: يا لَيْتني قَدَّمْتُ الخيرَ والعملَ الصالح في الدنيا ،كَي يَنفعني في الآخرة لحياتي الباقية . فالآخرةُ هي الحياة الحقيقية لأنها دائمة بلا انقطاع ولا زوال ، ولا مَوْت فيها . أمَّا الحياة الدنيا فهي مُؤقَّتة وزائلة وفانية .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٥٧) : ((يعني : يَندم على ما كان سَلَفَ مِنه ، مِن المعاصي إن كان عاصيًا ، ويودُّ لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعًا)) اهـ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٩٠) : ((﴿ يَقولُ يا لَيْتني قَدَّمْتُ لِحَياتي ﴾ ، أي : لِحَياتي هذه ، أو وقت حياتي في الدنيا أعمالاً صالحة . وليس في هذا التَّمَنِّي دَلالة على استقلال العبد بِفِعله ، فإن المحجور عن شَيء قد يتمنَّى أن كان مُمَكَّنًا مِنه)) اهـ .

٢٤ _ نتيجة عملهم :

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وما كانَ صَلاتُهُم عِندَ البَيْتِ إلا مُكَاءً وتَصْدِيَةً فَذُوقُوا العذابَ بِما كُنتم تكفرون ﴾ [الأنفال : ٣٥] .

فَضَحَ اللهُ المشركين ، وكشفَ خُرافاتهم وجهالاتهم وحماقاتهم التي تتجلى في عباداتهم المشوَّشة، وطاعاتهم الوهمية . ومِن جُملة أفعالهم السَّيئة صلاتُهم عند البَيت الحرام (الكعبة) .

وما كانت عبادة المشركين وصلاتهم عند البيت الحرام إلا صَفِيرًا وتصفيقًا . وكانوا يَفعلونهما للتَّشويش على صلاة النبيِّ ﷺ وصحابته، ولِيَخلطوا عليهم صلاتهم، ويَسلبونهم الخشوعَ والتركيز.

وقد كانت قُرَيش تطوف بالبَيت عُراةً ، يُصفِّرون ويُصفِّقون،وكانت هذه بنظرهم صلاة وعبادة . لقد وَضعوا الصفيرَ والتَّصفيق مكانَ الصلاة والطاعة والعبادة والتَّقَرُّب إلى الله تعالى . أي: إنهم جَعلوا الصَّفيرَ والتَّصفيق مَوضع صلاتهم التي أُمِرُوا بِها ، وصارَ تقرُّبهم إلى الله هو الصَّفير والتَّصفيق واللعب والعبث. وهذا مُنتهى الضلال والجهل . وفِعلهم هذا بلا دليل نقلي ولا بُرهان عقلي ، وإنما هو خاضع لأهوائهم وآرائهم وأمزجتهم ومصالحهم . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٤٤٥) : ((ومعنى الآية : إن المشركين كانوا يُصفِّرون ويُصفِّقون عِند البَيت ، الذي هو مَوضع للصلاة والعبادة ، فوضعوا ذلك مَوضع الصلاة ، قاصدين به أن يُشغِلوا المصلِّين مِن المسلمين عن الصلاة)) اهـ . إن علاقةَ أهل الجاهلية بالبَيْت (الكعبة) مُشوَّشةٌ إلى أبعد حَد، فطقوسُهم التَّعبُّدية كانت نابعةً من أهوائهم الشخصية، وعقولِهم القاصرة . وهذا الأمرُ يتجلى في طريقة صلاتهم عند البَيْت . لقد كانت صلاتهم بعيدةً كلَّ البُعد عن الإيمان والخشوع، فهي صلاةٌ عبثيةٌ لها رُكْنان : الْمُكاء (الصَّفير) ، والتَّصْدية (التَّصفيق). وقد جَعلوا هذا العبثَ صلاةً لهم ، يتقرَّبون بها إلى الله تعالى.

وفي واقع الأمر ، لَم يَكونوا يُصَلُّون ، وإنما كانوا يُصفِّرون، ويُصفِّقون ، ويَلْعبون ، ويَعْبثون . وهُم يَفْعلون ذلك لِيُشَوِّشوا على صلاةِ النبيِّ ﷺ وصلاةِ المؤمنين. وأيضًا ، للاستهزاء بالمؤمنين ، ونشرِ اللهو والعبث .

وفي الدُّر المنثور (٤/ ٦٢) : ((عن عِكرمة _ رضي اللهُ عنه _ قال: كان المشركون يَطُوفون بالبَيْت على الشِّمال ، وهو قَوْله : ﴿ وما كان صلاتهم عِند البَيْت إلا مُكاء وتَصْدية ﴾ ، فالْمُكاء مِثل نفخ البُوق ، والتَّصدية طَوافهم على الشِّمال)) اهـ .

وقال الثعالبي في تفسيره (٢/ ٩٦و٩٧) : ((وذهب أكثر المفسرين إلى أن الْمُكاء والتَّصدية إنما أحدثهما الكفار عند مَبعَث النبيِّ ﷺ، لتقطع عليه وعلى المؤمنين قراءتهم وصلاتهم، وتخلط عليهم ، فلمَّا نفى اللهُ تعالى وَلايتهم للبَيت ، أمكنَ أن يعترض منهم مُعترِض بأن يقول: وكيف لا نكون أولياءه ونحن نسكنه ونُصلِّي عنده ؟ ، فقطعَ سُبحانَه هذا الاعتراض ، بأن قال : ﴿ وما كانَ صَلاتُهُم عِندَ البَيْتِ إلا مُكَاءً وتَصْدِيَةً ﴾)) اهـ .

﴿ فَذُوقُوا العذابَ بِما كُنتم تكفرون ﴾ . الالتفات في الآية إلى مُخاطَبة الكفار مُباشرةً ، لتهديدهم ، وتَخويفهم ، وبث الرُّعب في قلوبهم . فَذُوقوا عذابَ القتلِ والأسْر يوم بَدْر بسبب كُفركم وضلالكم ومعاصيكم . وما ينتظرهم في الآخرة مِن العذاب أشدُّ ، وأكثر إيلامًا .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٥٢و ٣٥٣ و٣٥٤) : ((قَوله تعالى: ﴿ وما كانَ صَلاتُهُم عِندَ البَيْتِ ﴾ . سبب نزولها أنهم كانوا يَطُوفون بالبَيت ، ويُصفِّقون، ويُصفِّرون، ويضعون خُدودهم بالأرض، فَنَزلت هذه الآية . قاله ابن عمر. فأمَّا الْمُكَاء فَفِيه قَولان : أحدهما أنه الصَّفير، قاله ابن عمر وابن عباس وابن جُبَير وقَتادة وأبو عُبَيدة والزَّجاج وابن قُتَيبة ... والثاني أنه إدخال أصابعهم في أفواههم، يَخلطون به وبالتَّصدية على محمد ﷺ صَلاتَه ، قاله مجاهد. قال ابن الأنباري: أهل اللغة يُنكِرون أن يكون الْمُكَاء إدخال الأصابع في الأفواه ، وقالوا : لا يكون إلا الصَّفير. وفي التَّصدية قَولان : أحدهما أنها التَّصفيق، قاله ابن عمر وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والجمهور ... . والثاني أن التَّصدية صَدُّهم الناس عن البَيت الحرام، قاله سعيد بن جُبَير. وقال ابن زيد : هو صَدُّهم عن سبيل الله ودِينه. وزَعَمَ مُقاتل أن النبيَّ ﷺ كان إذا صلى في المسجد الحرام، قام رَجلان من المشركين من بني عبد الدار عن يَمينه فيُصفِّران ، ورَجلان عن يساره فيُصفِّقان ، فتختلط على النبيِّ ﷺ صلاته وقراءته ، فقتلهم اللهُ ببدر ، فذلك قَوله: ﴿ فَذُوقُوا العذابَ بِما كُنتم تكفرون ﴾ بتوحيد الله . فإن قِيل: كيف سَمَّى الْمُكَاء والتَّصدية صلاة، فعنه جوابان ذَكَرَهما ابن الأنباري ، أحدهما أنهم جعلوا ذلك مكان الصلاة، ومشهور في كلام العرب أن يقول الرَّجل: زُرْتُ عبد الله فَجَعل جَفَائي صِلَتي، أي أقامَ الجفاءَ مَقام الصِّلة... والثاني أن مَن كان الْمُكاء والتَّصدية صلاته فلا صلاة له، كما تقول العرب: ما لِفُلان عَيب إلا السَّخاء، يُريدون مَن السَّخاء عَيْبه فلا عَيب له)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وما مَنَعَهُم أن تُقْبَلَ مِنْهُم نَفَقَاتُهُم إلا أنهم كَفروا باللهِ وبِرَسُولِهِ ولا يَأتونَ الصلاةَ إلا وهُم كُسَالى ولا يُنفِقُونَ إلا وهُم كَارِهُون ﴾[التَّوبة : ٥٤] .

إن السبب الذي يَمنع قَبول نفقاتهم وصدقاتهم هو كُفرهم بالله وبرسوله ﷺ . والكفرُ مُحبِط للعمل ، ومُفسِد له . والإيمانُ هو شرط قَبول الأعمال . ولا يَأتونَ الصلاةَ إلا وهُم مُتثاقلون ، لأنهم لا يَرجون بأدائها ثوابًا ، ولا يَخافون على تركها عِقابًا . وإنما يُصَلُّون أمامَ المؤمنين ، خَوْفًا على أنفسهم،ومِن أجل الحصول على الأمن والأمان.وهذا يدل على فساد نِيَّتهم،وبُطلان قَصْدهم، وغياب الإرادة والرَّغبة والهِمَّة التي تَبعث على العبادة والطاعة . والمنافقون يُصَلُّون بِحُكم العادة، وليس إقامةً للعبادة ، لأنهم يَكْرَهون الصلاةَ ، ويَعتبرونها مَضيعةً للوقت ، بلا أجر ولا ثواب .

وقال البغوي في تفسيره(١/٥٨):((فإن قِيل:كيف ذَمَّ الكسل في الصلاة ولا صلاة لهم أصلاً ؟. قِيل: الذَّم واقع على الكفر الذي يَبعث على الكسل، فإن الكفر مُكسِّل، والإيمان مُنشِّط)) اهـ.

وهُم يَعتبرون النفقةَ مَغرَمًا وخسارةً وَضياعًا للمال بلا نفع ولا فائدة ، ويَعتبرون مَنع النفقة مَغنَمًا ومَكْسَبًا ورِبْحًا . لذلك لا يُنفِقون إلا وهُم مُكْرَهُون ، وواقعون تحت الضغط ، دون وازع إيماني، أو دافع داخلي . وهؤلاء المنافقون الضَّالون لا يُريدون بصلاتهم ونفقتهم وَجْهَ الله ، وإنما يُريدون بهما تحقيق مصالح شخصية ، ومكاسب دُنيوية . وقال القرطبي في تفسيره (٨ / ١٤٨): ((وما منعهم مِن أن تُقبَل مِنهم نفقاتهم إلا كُفرهم... قَوله تعالى : ﴿ ولا يَأتونَ الصلاةَ إلا وهُم كُسَالى ﴾. قال ابن عباس : إن كان في جماعة صلى ، وإن انفردَ لَم يُصَلِّ ، وهو الذي لا يرجو على الصلاة ثوابًا ، ولا يَخشى في تركها عقابًا . فالنِّفاق يُورث الكسل في العبادة لا مَحَالة ... . قَوله تعالى : ﴿ ولا يُنفِقُونَ إلا وهُم كَارِهُون ﴾ ، لأنهم يَعُدُّونها مَغرَمًا، ومَنعها مَغنَمًا، وإذا كان الأمر كذلك فهي غير مُتقَّبلة، ولا مُثاب عليها)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى:﴿ذَلِكَ بأنهم اتَّبَعُوا ما أسخطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فأحبطَ أعمالَهُم﴾[مُحَمَّد: ٢٨]. ذلك العذاب بسبب كفرهم وضلالهم ومَعاصيهم ، وكرهوا ما يُرْضِي اللهَ مِن الإيمان والتَّوحيد والجهاد والعبادة والطاعة،فأبطلَ اللهُ أعمالهم التي ظاهرها الصلاح كالصدقة وصِلة الرَّحِم وغَيرهما، وأذهبَ ثوابها، لأنها لَم تُعمَل لوجه الله، فَبَطَلَت وفَسَدَت، ولَم تنفع فاعلها ، ولَم يستفد مِنها شيئًا. والمقصود بِـ ﴿ أعمالَهُم ﴾ الأعمال التي قاموا بها ، وصُورتها الطاعة ، وظاهرها الصلاح ، لأن الكافر لا عمل له ، وعمله باطل وفاسد ، فالكفرُ مُبطِل للعمل ، ومُفسِد له . والإيمانُ هو شرط قَبول الأعمال . وقد يكون المقصود هو ما عَمِلُوه مِن خَير وبِر أثناء إيمانهم (قبل الرِّدة) . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨/ ١٠٠):((وعن ابن عباس رضي اللهُ عنهما : لا يُتَوَفَّى أحد على معصية إلا يَضرب الملائكةُ وَجْهَه ودُبُرَه ، ﴿ ذَلِكَ ﴾ التَّوَفِّي الهائل ﴿ بأنهم ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ اتَّبَعُوا ما أسخطَ اللهَ ﴾ مِن الكفر والمعاصي ،

﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ أي : ما يَرْضاه مِن الإيمان والطاعة ، حيث كفروا بعد الإيمان ، وخرجوا عن الطاعة ، بِما صَنعوا من المعاملة مع اليهود ﴿ فأحبطَ أعمالَهُم ﴾ ، فأحبطَ لأجل ذلك أعمالَهم التي عَمِلوها حال إيمانهم مِن الطاعات، أو بعد ذلك من أعمال البِر التي لو عَمِلوها حال الإيمان لانتفعوا بِها)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى:﴿ إنَّ الذينَ كَفروا وصَدُّوا عَن سَبيلِ اللهِ وشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أعمالَهُم ﴾ [مُحَمَّد : ٣٢] (38).

إن الذين أنكروا وَحدانيةَ الله ، وكذَّبوا بآياته ، وجَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ ، ومَنعوا الناسَ مِن الدخول في الإسلام ، وصَدُّوهم عَن اتِّباع الرسول محمد ﷺ ، وخالفوا محمدًا ﷺ الْمُرْسَل بالوَحْي والنُّبوَّة ، وحاربوه ، وعَادَوْه ، وعَصَوْه ، مِن بعد ما ظَهَرَ لهم صِدْقُه، وصِحَّة رسالته،وأنه رسول الله حقًّا وصِدْقًا، بالآيات والأدلة والبراهين والمعجِزات، وقامت عليهم الْحُجَّة،وانقطعت أعذارهم. لَن يَضُرُّوا اللهَ بكفرهم وضلالهم وتكذيبهم شيئًا مِن الضَّرَر ، مهما كان بسيطًا ، وهذا تحقير لهم .

وإنما يضرُّون أنفسهم،ويَقودونها إلى الهلاك الأبدي والخلود في عذاب النار.وسَيُبْطِلُ اللهُ أعمالَهم التي ظاهرها الصلاح كالصدقة وصِلة الرَّحِم وغَيرهما ، فلا يَجِدون لها يوم القيامة أجرًا ولا ثوابًا.وأعمالُ الكافرين باطلة من الأصل، لأن الكفر مُبطِل للعمل، والإيمان هو شرط لِقَبول العمل.

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٣٢٥): ((وقَوله: ﴿ إنَّ الذينَ كَفروا وصَدُّوا عَن سَبيلِ اللهِ ﴾ يقول تعالى ذِكْرُه : إن الذين جَحدوا توحيدَ الله ، وصَدُّوا الناسَ عن دِينه الذي ابتعثَ بِه رُسله ، ﴿ وشَاقُّوا الرَّسُولَ ﴾. يقول:وخالفوا رسوله محمدًا ﷺ، فحاربوه، وآذَوْه ﴿ مِن بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى ﴾ ، عَلِموا أنه نبيٌّ مَبعوث، ورسول مُرسَل، وعَرفوا الطريق الواضح بمعرفته ، وأنه لله رسول . وقَوله : ﴿ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا ﴾ ، لأن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله ، ومُظهِره على مَن عاداه وخالفه ، ﴿ وَسَيُحْبِطُ أعمالَهُم ﴾ . يقول : وسَيُذْهِب أعمالَهم التي عَمِلوها في الدنيا ، فلا يُنفِعهم بِها في الدنيا ولا الآخرة ، ويُبطِلها مِمَّا يضرُّهم)) اهـ .

---

(٣٨) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٤١٢): ((قَوله تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ كَفروا ﴾ الآية ، اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال : أحدها أنها في الْمُطْعِمين يوم بَدْر، قاله ابن عباس. والثاني أنها نزلت في الحارث بن سُوَيد ووَحْوَح الأنصاري، أسلما ثُمَّ ارتدَّا، فتاب الحارث ورَجع إلى رسول الله ﷺ، وأبى صاحبه أن يَرجع حتى مات ، قاله السُّدي . والثالث أنها في اليهود ، قاله مُقَاتل. والرابع أنها في قُرَيظة والنَّضير ، ذَكَرَه الواحدي)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٩٦) : ((﴿ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا ﴾ بِكُفرهم وصَدِّهم ، أو: لَن يَضُرُّوا رسولَ الله ﷺ بِمُشاقته.وحُذِف الْمُضاف لتعظيمه وتفظيع مُشاقته﴿ وَسَيُحْبِطُ أعمالَهُم ﴾ ثوابَ حسنات أعمالهم بذلك، أو مَكايدهم التي نَصَبوها في مُشاقته، فلا يَصِلون بِها إلى مقاصدهم، ولا تُثمِر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم)) اهـ .

٢٥ _ جزاء مَكْرهم :

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنا في كُلِّ قَريةٍ أكابِرَ مُجْرِميها لِيَمْكُرُوا فِيها وما يَمْكُرُونَ إلا بأنفُسِهِم وما يَشْعُرُون ﴾ [الأنعام : ١٢٣] .

جَعَلَ اللهُ في كُل قريةٍ عُظماءَ مُجرميها ، وزُعماءَ الفسادِ والإجرام . وهؤلاء هُم الأقدر على التخطيط والمكر والفساد وقيادة الناس وتجميع الأتباع بسبب امتلاكهم للقوة والمال والنفوذ. لذلك خُصُّوا بالذِّكْر . ولا شَكَّ أن زُعماء كل قرية هُم الأقرب إلى الكفر والضلال بما لَدَيْهم من الرِّئاسة والزعامة . وكلُّ أفعالهم السَّيئة ستكون وَبالاً عليهم، لأنها سَتَقودهم إلى الخِزْي في الدنيا ، والعذابِ في الآخرة . ولكنهم لا يَشعرون بذلك بسبب غُرورهم وجَهْلهم وتجبُّرهم واستكبارهم .

وكما جَعَلْنا في مكة عُظَمَاءَ مُجرميها(المشركين عَبَدَة الأصنام الغارقين في الذنوب والمعاصي)، لِيُفسدوا فيها ، كذلك جَعَلْنا في كُل قرية عظماءَ مُجرميها لِيُفسدوا فيها. والتاريخُ يُعيد نَفْسَه ، وما يَحِيق مَكْرُهم السَّيئ إلا بأنفسهم ، وكُل مُخططاتهم الدنيئة سَتَرْتَدُّ عليهم ، وتعود عليهم بالخسارة والخِزي والعار والهلاك والعذاب ، وينقلب السِّحر على الساحر، لأن الله لهم بالمِرصاد ، ولكنهم لا يَشعرون بذلك ولا يُدرِكونه، ولا يَدْرُون أن العذاب الأليم ينتظرهم في الدنيا والآخرة. وهُم غافلون عن هذا بسبب جهلهم وعنادهم وغُرور القوة القاتل ، لذلك يَغرَقون أكثر فأكثر في الكفر والضلال . وأوهامُهم سَتُدَمِّرهم ، وتَقْضي عليهم . واللهُ يَستدرجهم إلى حَتْفهم وهلاكهم .

وكما ابْتُلِيتَ يا محمد بِقَومك المشركين الذين أنكَروا وَحدانيةَ الله ، وكذَّبوا بآياته ، وجَحدوا نُبُوَّتَك ، وارتكبوا الجرائمَ والذنوب والمعاصي، كذلك ابْتُلِيَ الرُّسل مِن قَبلك، وعانوا أشدَّ الْمُعاناة مع رؤساء الكفر والضلال وعُتاة المجرمين في أقوامهم ، ثُمَّ كان للرُّسل النصر والغَلَبة والتمكين ، فلا تقلق يا محمد ، ولا تَنْزَعِج ، ولا تتضايق . فالعاقبةُ للحق وأهله . ودَولة الباطل ساعة ، ودَولة الحق إلى قِيام الساعة . ومَن يَضحك أخيرًا يَضحك كثيرًا ، والعِبرة بالخواتيم .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٨٥) : ((كما أن فُسَّاقَ مكة أكابرُها ، كذلك جَعَلْنا فُسَّاقَ كل قرية أكابرها ، أي : عُظماءها ... وذلك سُنَّة الله تعالى أنه جَعل في كل قرية أتباع الرُّسل

ضُعفاءهم ... وجعلَ فُسَّاقهم أكابرَهم ﴿ لِيَمْكُروا فيها ﴾ ، وذلك أنهم أجْلَسوا على كل طريق من طُرق مكة أربعة نفَر لِيَصْرِفُوا الناسَ عن الإيمان بمحمد ﷺ ، يَقولون لكل مَن يَقْدُم : إيَّاكَ وهذا الرَّجل ، فإنه كاهن ساحر كذاب)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١١٧ و١١٨): ((قَوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنا في كُلِّ قَريةٍ ﴾ ، أي : وكما زَيَّنَّا للكافرين عملهم ، فكذلك جَعَلْنا في كل قرية أكابر مُجرميها. وقِيل : معناه : وكما جَعَلْنا فُسَّاق مكة أكابرها، فكذلك جَعَلْنا فُسَّاق كُل قرية أكابرها، وإنما جعل الأكابر فُسَّاق كل قرية لأنهم أقرب إلى الكفر، بِما أُعْطُوا مِن الرِّياسة والسَّعَة.وقال ابن قُتَيبة : تقدير الآية : وكذلك جَعَلْنا في كُل قرية مُجرميها أكابر ، وأكابر لا ينصرف، وهم العُظَماء . قَوله تعالى : ﴿ لِيَمْكُرُوا فِيها ﴾ . قال أبو عُبَيدة : المكر والخديعة والحِيلة والفُجور والغدر والخِلاف . قال ابن عباس : لِيَقولوا فيها الكذب)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذينَ كَفروا لِيُثْبِتُوكَ أوْ يَقْتُلُوكَ أوْ يُخْرِجُوكَ ويَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكِرين ﴾[الأنفال : ٣٠] .

إنَّ نِعَمَ اللهِ على النبيِّ ﷺ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى. واللهُ يُذكِّر النبيَّ ﷺ في هذه الآية بِنعمةٍ خاصَّةٍ وجليلة ، وهي إنقاذُه مِن قُرَيش ، بعد أن خَطَّطوا للتخلص مِنه ، وإنهاءِ دَعوته إلى الأبد .

اذْكُر يا محمد وَقْتَ مكر الكافرين بِك، لِيَحْبِسُوك ، أو يَقتلوك بالسَّيف ضَربة رَجل واحد كَي يَتفرَّق دَمُكَ بين القبائل ، أو يُخْرِجُوك مِن مكة. والجديرُ بالذِّكر أنَّ سُورة الأنفال مدنية ، ومَكْرُ قُرَيش كان في مكة.واللهُ يُذكِّرهم بِنعمه العظيمة في المدينة كَي يَظلوا ذاكرين لِنعم اللهِ، شاكرين له.

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٠٣) : ((﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذينَ كَفروا ﴾ تَذْكار لَمَّا مَكَرَت قُرَيش بِه حِينَ كان بمكة، لِيَشكر نِعمةَ الله في خَلاصه مِن مَكْرهم واستيلائه عليهم. والمعنى: واذْكُر إذْ يَمْكُرون بِك ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ بالوَثاق ، أو الحبس ، أو الإثخان بالجراح ، مِن قَوْلهم:ضَرَبَه حتى أثْبَتَه لا حَراك بِه ولا بَراح ﴿ أوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ بِسُيوفهم ﴿ أوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ مِن مكة)).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٤٦و٣٤٧) : ((قال أهل التفسير : لَمَّا بُويع رسولُ الله ﷺ لَيْلَةَ العَقَبة ، وأمرَ أصحابَه أن يَلْحَقوا بالمدينة ، أشفقت قُرَيش أن يَعْلُوَ أمرُه ، وقالوا : واللهِ لكأنكم بِه قَد كَرَّ عَلَيكم بالرِّجال ، فاجتمع جماعة مِن أشرافهم لِيَدخلوا دارَ النَّدْوة فيتشاوروا في أمرِه ، فاعترضهم إبليس في صورة شَيخ كبير ، فقالوا : مَن أنتَ ؟ ، قال : أنا شيخٌ من أهل نَجْد، سَمعتُ ما اجتمعتم له ، فأردتُ أن أَحْضُرَكم ، وَلَن تَعْدَمُوا مِن رأيي نُصْحًا ، فقالوا : ادخل ، فدخل معهم ، فقالوا : انظُروا في أمر هذا الرَّجل ، فقال بعضُهم : احْبِسُوه في وَثَاق ، وتَرَبَّصوا بِه

رَيْبَ الْمَنُون ، فقال إبليس : ما هذا برأي ، يُوشِك أن يَثِبَ أصحابُه فَيَأخذوه مِن أيديكم ، فقال قائل: أخْرِجوه مِن بَين أظْهُرِكم ، فقال : ما هذا برأي ، يُوشِك أن يَجمع عليكم ، ثُمَّ يَسير إِلَيكم، فقال أبو جَهْل : نأخذ مِن كُلِّ قَبيلة غُلامًا ، ثُمَّ نُعطي كُلَّ غلام سَيْفًا ، فَيَضْرِبُونه به ضَربة رَجل واحد ، فيتفرَّق دَمُه في القبائل ، فما أظنُّ هذا الحيَّ مِن قُرَيش (يعني بني هاشم) يَقْوَى على ضَرْب قُرَيش كُلِّها ، فَيَقْبَلون العَقْلَ (الدِّيَة) ونستريح، فقال إبليس: هذا واللهِ الرَّأي ، فَتَفَرَّقوا عن ذلك . وأتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ ، فأمَرَه أن لا يَبيت في مَضْجَعه ، وأخبَرَه بِمَكر القَوم ، فلم يَبِتْ في مَضْجَعه تلك الليلة، وأمَرَ عَلِيًّا ، فباتَ في مكانه ، وبات المشركون يَحْرُسُونه . فلمَّا أصبحَ رسولُ الله ﷺ ، أَذِنَ له اللهُ في الخروج إلى المدينة، وجاء المشركون لَمَّا أصْبَحوا، فَرَأَوْا عَلِيًّا، فقالوا: أينَ صاحبُك ؟، قال : لا أدري ، فاقْتَصُّوا أثَرَه ، حتى بَلَغوا الجبلَ ، فَمَرُّوا بالغار ، فَرَأَوْا نَسْجَ العنكبوت ، فقالوا : لَوْ دَخَلَه لَم يَكُن عَلَيه نَسْجُ العنكبوت)) اهـ .

إنَّ عداوة قُرَيش للنبيِّ ﷺ ليست ارتجاليةً أو عفوية . إنها عداوة راسخة تستند إلى الحِقد الدفين، والحسد المتجذِّر ، والمكر ، والخديعة . إنها عداوة عن سَبْق الإصرار والتَّرصد . لذلك كان أشراف قُرَيش حريصين أشدَّ الحِرص على التخلص من النبيِّ ﷺ ، ووأدِ دَعوته ، وذلك بالتخطيط الخبيث، ووَضْع الاحتمالات المتعددة ودراستها ، مِن أجل تطبيق الاحتمال الأكثر إجرامًا وخُبثًا على أرض الواقع . وقد أبطلَ اللهُ كَيْدَهم ، وأرسلَ جِبريلَ ـ عليه السلام ـ لإعلام النبيِّ ﷺ بِخُطة قُرَيش.وأخذَ النبيُّ ﷺ بالأسباب ، فَلَم يَنَمْ في مَضْجَعه ، وأمرَ عليًّا أن ينام مكانه ، وهذا يَدل على ثِقَة النبيِّ ﷺ المطْلقة بعليٍّ ـ رضي اللهُ عنه ـ ، والعلاقة الخاصة التي تجمع بين النبيِّ ﷺ وابن عَمِّه عليٍّ. وباتَ عليٌّ مكانَه بلا تردُّد ولا خَوْف ، وهذا يدل على ثبات قَلْبه في الشدائد ، وشَجاعته العظيمة.فحياةُ عليٍّ مُعرَّضة للخطر الحقيقيِّ ، وقد يَفقد حياتَه في أيَّة لحظة ، ومعَ هذا نامَ مكانَ النبيِّ ﷺ ، وعرَّض حياتَه للخطر امتثالاً لأمر النبيِّ ﷺ ، وحمايةً للدَّعوة الإسلامية . ورَدَّ اللهُ كَيْدَ المشركين في نُحورهم ، وجَلَّلهم بالخِزْي والعار ، فانتقَلوا مِن فَشل إلى فَشل. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في قَوْله: ﴿ وإذ يَمْكر بِكَ الذين كفروا لِيُثْبِتوك ﴾ ، قال : ((تشاورت قُرَيش لَيلةً بمكة ، فقال بعضُهم : إذا أصبحَ فَأَثْبِتُوه بالوَثَاق، يُريدون النبيَّ ﷺ ، وقال بعضُهم : بل اقتلوه، وقال بعضُهم : بل أخرِجوه ، فأطلعَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نَبِيَّه على ذلك ، فباتَ عليٌّ على فِراش النبيِّ ﷺ تِلكَ الليلة ، وخرجَ النبيُّ ﷺ حتى لَحِقَ بالغار، وباتَ المشركون يَحْرُسُون عَلِيًّا يَحْسَبُونه النبيَّ ﷺ، فلمَّا أصبحوا ثاروا إِلَيه ، فلمَّا رَأَوْا عَلِيًّا رَدَّ اللهُ مَكْرَهم، فقالوا : أينَ

صاحبُك هذا ؟، قال: لا أدري ، فاقْتَصُّوا أثَرَه ، فلمَّا بَلَغوا الجبلَ خُلِّطَ عَلَيهم ، فصعدوا في الجبل، فَمَرُّوا بالغار ، فَرَأَوْا على بابه نَسْجَ العنكبوت ، فقالوا : لَوْ دَخل ها هُنا لَم يَكُن نَسْجُ العنكبوت على بابه ، فَمَكث فيه ثلاثَ ليال)) [39] .

﴿ ويَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكِرين ﴾ [40].

يتآمر عَلَيك كفار قُرَيش يا محمد، ويُخطِّطون للتخلص مِنكَ، ويَكيدون لَكَ.واللهُ لهم بالمِرْصَاد، يَرعاك ، ويَحفظك ، ويُدبِّر لَكَ ما يَفضح أمْرَهم، ويَكشف باطلَهم، ويُبْطِل مَكْرَهم، ويَرُد كَيْدَهم في نُحورهم. واللهُ يُجازيهم على مَكْرِهم ، وَيَقُودهم إلى هلاكهم وعذابهم .

وتدبيرُ اللهِ أعظمُ مِن تدبير المشركين . إذْ إن تدبيرَه سُبحانَه يُبطِل تَدبيرَهم ، ويَجعله تَدميرًا عَلَيهم . واللهُ أعظم الْمُجازِين بالسَّيئة العقوبة ، فقد أهلكَ هؤلاء الذين كانوا يَكيدون للنبيِّ ﷺ ، وأراحه مِنهم . وسَمَّى هذه الْمُجازاة مَكْرًا مُشَاكَلَةً . والْمُكْرُ هو التدبيرُ خُفيةً . واللهُ يُخفِي ما أعدَّ للكافرين مِن الهلاك حتى يأتيَهم بَغتةً . فهو سُبحانَه الأقوى مَكْرًا ، والأقدرُ على إيصال العذاب والهلاك مِن حَيث لا يَشعر الكافرون ، ولا يَحْتَسِبون .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٠٣) : ((﴿ ويَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ اللهُ ﴾ بِرَدِّ مَكْرهم عَلَيهم ، أو بِمُجازاتهم عَلَيه ، أو بِمُعاملة الماكرين مَعَهم ، بأن أخرجهم إلى بَدْر ، وقَلَّلَ المسلمين في

---

(٣٩)رواه أحمد في مسنده (١/ ٣٤٨) برقم (٣٢٥١) . وحسَّنه ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٨١) ، ووافقه الحافظ في الفتح (٧/ ٢٣٦) .

(٤٠) لا يَجوز القول إن اللهَ ماكرٌ يَمْكر بعباده ، ويُريد إضلالَهم أو خِداعَهم. فالمكرُ مِن الله هو استدراجُ العبد ، وأخذُه بَغتةً مِن حَيْثُ لا يَدري. وفي تفسير القرطبي (٤/ ٩٩): ((وقال الزَّجاج: مَكْرُ الله مُجازاته على مَكْرهم ، فَسَمَّى الجزاءَ باسم الابتداء)) اهـ .

وكما في قَوْل الشاعر : ألا لا يَجْهَلَنَّ أحدٌ عَلَيْنا فَنَجهلَ فَوْقَ جَهلِ الجاهلينا

وهنا تَبرز الْمُشَاكَلةُ اللفظيةُ. فالمعروفُ أن التصدي للجهل ليس جَهلاً ، وإنما هو عَيْن الْحَزم . كما أنَّ العاقل لا يَفتخر بالجهل . وما وجودُ هذه الألفاظ في كلام الشاعر إلا مِن باب الْمُشَاكَلَة . وقال القرطبي في تفسيره (١/ ٢٥٣) : ((فَسَمَّى انتصاره جَهلاً ، والجهلُ لا يَفتخر به ذو عقل ، وإنما قاله لِيَزْدَوِجَ الكلامُ فيكون أخفَّ على اللسان مِن الْمُخالَفة بينهما . وكانت العربُ إذا وَضعوا لفظًا بإزاء لفظ جوابًا له وجَزاءً ، ذَكَروه بِمِثل لفظه ، وإن كان مُخَالِفًا له في معناه)) اهـ .

أعينهم حتى حَمَلُوا عليهم فَقُتلوا . ﴿ واللهُ خَيْرُ الماكِرِين ﴾ إذ لا يُؤْبَه بِمَكْرهم دُون مَكْرِه ، وإسناد أمثال هذا ما يَحْسُن للمُزَاوَجة ، ولا يجوز إطلاقها ابتداءً لِمَا فيه مِن إيهام الذَّم)) اهـ .

إنَّ اللهَ تعالى أعظمُ الْمُجازِين لمكر الماكرين وخُبثهم، يُوقِعهم في شَرِّ أعمالهم ، ويُعذِّبهم على مَكْرهم مِن حَيث لا يَشعرون،فيكون عذابُهم وهلاكُهم مُفاجئًا ومُباغتًا وصاعقًا ، وهذا أشدُّ ضَرَرًا عَلَيهم، وأعظم بلاءً مِن مَكْرهم . إنهم يَدفعون ثمنَ مَكْرهم أضعافاً مُضاعَفة . وعنصرُ المفاجأةِ قاتلٌ.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وإذا أذَقْنا الناسَ رَحمةً مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُم إذا لهم مَكْرٌ في آياتِنا قُلِ اللهُ أسرعُ مَكْرًا إنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُون ﴾[يُونُس : ٢١] .

بنى الكفارُ حياتهم على الشِّرك وعبادةِ الأصنام، فإذا أصابتهم ضَرَّاء ، أهْمَلوا أصنامهم ، ودَعَوا اللهَ بكل إخلاص . وإذا نَجَّاهم اللهُ مِن أزمتهم، وفرَّج كُربتهم، وأذاقهم الرَّحمةَ بعد الضَّراء ، عادوا إلى شِركهم ، وغَرِقوا في مُعاندتهم وسُخريتهم ، وتكذيبهم بآيات الله تعالى . وهُم بذلك يَتحايلون على أنفسهم ، ولا يَتَحايلون على الله، وقد أقاموا على أنفسهم الْحُجَّةَ، وأوردوها المهالك ، وأضاعوا دُنياهم وآخرتهم معًا . والرحمةُ _ في هذا السِّياق _ ذات معنى واسع يَشمل الصِّحة والمطر والأمن والأمان ورَغَد العَيش .

إذا أنعمَ اللهُ على كفار مكة بالمطر والخِصب بَعد البُؤس والْجَدْب ، ورزقهم الغِنى بعد الفقر ، والفَرَج بعد الكَرْب ، والرَّخاء بعد الشِّدة ، والأمن بعد الخوف، فإنهم يُقابِلون هذه النِّعَمَ الإلهيةَ بالسُّخرية مِن آيات الله ، وتكذيبها ، والاستهزاء بها ، ومُعاداة النبيِّ ﷺ بكل الوسائل .

وَبَدَلاً أن يَشكروا اللهَ على نِعَمه وآلائه ، فإنهم يَزدادون كُفرًا وضلالاً وعِصيانًا وتمرُّدًا .

وتنكيرُ ﴿ مَكْرٌ ﴾ للتَّعظيم . أي إن مكرهم كان عظيمًا وشديد الخطورة ، ويُشكِّل تهديدًا حقيقيًّا على سَيْر الدَّعوة المحمدية الإسلامية . إنهم يُخطِّطون لإطفاء نُور الله بكل جِدِّية وإصرار ، ويُدبِّرون خُططهم الخبيثة في خَفاء وسِرِّية.لكنَّ محاولاتهم باءت بالفشل.وعلى نفسها جَنَت براقش.

قُل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يُنكِرون وَحدانية الله ، ويُكذِّبون بآياته ، ويستهزئون بأدلته وحُجَجه ، ويَسْخَرون مِن براهينه ومُعجِزاته : اللهُ أعجل عُقوبةً ، وأسرع عذابًا، وأشد نِقمةً . وعذابُه في إهلاككم أسرع مِن مَكْركم في آياته وتكذيبها . وما يأتيكم مِن العقاب أسرع في إهلاككم وإفنائكم مِن كَيْدكم وتَدبيركم الخفيِّ ومَكْركم في إبطال آيات الله ودَفع الحق .

وقد سَمَّى اللهُ عذابَه وعقوبته مَكْرًا : ﴿ قُلِ اللهُ أسرعُ مَكْرًا ﴾ ، لوقوعها في مُقَابَلة مَكْرهم . وهذه مُشَاكَلَة .

والمكرُ هو التَّدبير بِسِرِّية وإخفاء الكَيْد . والمكرُ مِن الله هو استدراج للعبد ، أو الجزاء على مَكْر العبد .

والملائكةُ الحفَظَة يَكتبون ما تَمْكُرون في آياتنا ، ويُسجِّلونه كاملاً غَير مَنقوص ، ليكون حُجَّةً عليكم، تُدينكم ، وتفضحكم ، وتَكشف باطلكم. وسَوْفَ يَنتقم اللهُ مِنكم، ويُعذِّبكم أشد العذاب يوم القيامة . وتَدبيركم في الخفاء (مَكْركم) لا يَخفى على الملائكة الحفَظَة ، فكيفَ يَخفى على الله تعالى ؟.

والإضافة في ﴿ رُسُلَنا ﴾ لتشريف الملائكة الحفَظَة وتعظيمهم.فقد أضافهم اللهُ إلى ذاته المقدَّسة، وهذا مُنتهى التكريم والتَّفخيم والتَّعظيم. وتَوجيه الخطابُ للمشركين مُباشرةً : ﴿ إنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُون ﴾ لتوبيخهم وتقريعهم وتخويفهم ، وبث الرعب والهلع في قلوبهم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٢٨) : ((... ، إذا أذاقهم اللهُ رحمة منه مِن بعد أن مسَّتهم الضَّراء ، فعلوا مُقابل هذه النِّعمة العظيمة المكرَ مِنهم في آيات الله ، والمراد بإذاقتهم رحمته سُبحانَه أنه وسَّع عليهم في الأرزاق ، وأدَرَّ عليهم النِّعَم بالمطر وصلاح الثمار ، بعد أن مسَّتهم الضَّراء بالْجَدْب وضِيق المعايش ، فما شَكَروا نِعمته ، ولا قَدَرُوها حق قَدْرها ، بل أضافوها إلى أصنامهم ، التي لا تنفع ولا تضرُّ ، وطعنوا في آيات الله ، واحتالوا في دَفْعها بكل حِيلة ، وهو معنى المكر فيها ، و﴿ إذا ﴾ الأولى شرطية ، وجوابها : ﴿ إذا لهم مَكْرٌ ﴾ ، وهي فُجائية ، ذَكَر معنى ذلك الخليل وسِيبَوَيْه، ثُمَّ أمرَ اللهُ سُبحانَه رسوله أن يُجيب عنه ، فقال : ﴿ قُلِ اللهُ أسرعُ مَكْرًا ﴾ ، أي: أعجلُ عقوبةً . وقد دَل أفعل التفضيل على أن مكرهم كان سريعًا ، ولكنَّ مَكر الله أسرع منه ، و﴿ إذا﴾ الفُجائية يُستفاد منها السُّرعة، لأن المعنى أنهم فاجؤوا المكر: أي أوقعوه على جهة الفُجاءة والسرعة. وتسمية عقوبة الله سُبحانَه مَكْرًا من باب الْمُشَاكَلَة. ﴿ إنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُون ﴾. والمعنى أن رُسل الله ، وهُم الملائكة ، يَكتبون مَكر الكفار ، لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هُم الحفَظَة، فكيف يَخفى على العليم الخبير ؟. وفي هذا وعيد لهم شديد . وهذه الجملة تعليلية للجُملة التي قَبْلها ، فإن مكرهم إذا كان ظاهرًا لا يخفى ، فعقوبة الله كائنة لا مَحَالة... . إنهم لا يقتصرون على مُجرَّد الإعراض ، بل يَطلبون الغوائل (الدَّواهي) لآيات الله بما يُدبِّرونه من المكر)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٧و١٨): ((قَوله تعالى:﴿ وإذا أذَقْنا الناسَ رَحمةً ﴾ سبب نزولها أن النبيَّ ﷺ لَمَّا دعا على أهل مكة بالْجَدْب ، فَقُحِطوا سبع سنين ، أتاه أبو سُفيان ، فقال: ادْعُ لنا بالخِصْب ، فإن أَخْصَبْنا صدَّقناك ، فدعا لهم ، فَسُقوا ، ولَم يؤمنوا. ذَكَرَه الماوردي. قال المفسرون : المراد بالناس هاهُنا الكفار . وفي المراد بالرحمة والضَّراء ثلاثة أقوال : أحدها أن الرحمة العافية والسرور ، والضَّراء الفقر والبلاء . قاله ابن عباس . والثاني الرحمة الإسلام، والضَّراء الكُفر ، وهذا في حَق المنافقين ، قاله الحسن . والثالث الرحمة الخِصْب، والضَّراء الْجَدْب ، قاله الضَّحاك. وفي المراد بالمكر هاهُنا أربعة أقوال : أحدها أنه الاستهزاء والتكذيب،قاله مجاهد ومقاتل. والثاني أنه الْجُحُود والرَّد ، قاله أبو عُبَيدة . والثالث أنه إضافة النِّعَم إلى غَير الله، فيقولون: سُقِينا بِنَوْء كَذا _ والنَّوْءُ هو النجم الذي يكون به المطر _ ، قاله مُقاتل بن حَيَّان . والرابع أن المكر النفاق، لأنه إظهار الإيمان وإبطان الكفر، ذَكَرَه الماوردي. قَوله تعالى: ﴿ قُلِ اللهُ أسرعُ مَكْرًا ﴾ أي: جَزَاءً على المكر ﴿إنَّ رُسُلَنا﴾ يعني الحفَظَة ﴿يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُون﴾ أي يحفظون ذلك لِمُجَازاتكم عليه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ فانظُر كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِم أنَّا دَمَّرْنَاهُم وَقَوْمَهُم أجمعين ﴾[النَّمْل: ٥١].

فَتَفَكَّرْ وتأمَّلْ في عاقبة أمرهم ونهاية حالهم ونتيجة كَيْدهم وتدبيرهم الخفيِّ ،كيف أن اللهَ أهلكهم وعَذَّبَهم كُلَّهم بلا استثناء ، ولَم يَنْجُوَ مِنهم أحد ، ولَم يَهْرُب مِن الهلاك والدمار أحد . وكانت نهايتهم الخراب الهائل ، وكان مآلهم الدمار الشامل . والآيةُ تدل على نهايتهم الفظيعة جزاء مَكْرهم وتخطيطهم السَّيئ، وقد وَقَعوا في شَر أعمالهم . واللهُ جازاهم على مَكْرهم فأهلكهم.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ١٨٢) : ((وفي صفة إهلاكهم أربعة أقوال : أحدها أنهم أَتَوْا دارَ صالح ، شاهرين سُيوفهم ، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم ، قاله ابن عباس. والثاني رماهم الله بصخرة فقتلتهم ، قاله قتادة . والثالث أنهم دخلوا غارًا ينتظرون مجيء صالح، فبعثَ اللهُ صخرة سَدَّتْ بابَ الغار ، قاله ابن زَيد. والرابع أنهم نزلوا في سَفْح جبل ، ينتظر بعضهم بعضًا ، ليأتوا دار صالح ، فجثم عليهم الجبل فأهلكهم ، قاله مقاتل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا يَحِيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلا بأهْلِهِ ﴾[فَاطِر : ٤٣] .

ولا يُحِيط العملُ السَّيئ،كالحِيلة والخداع والغدر والخيانة، إلا بأصحابه الذينَ أساؤوا ، وَوَبَالُ مَكْرهم راجع إليهم وعائد عليهم وَحْدَهم . ولا يَنْزِل المكرُ السَّيئ إلا بأصحابه الذين يَفعلونه .

وقد ورد في الأمثال : مَن سَلَّ سَيْفَ البَغي قُتِل بِه ، ومَن حَفَرَ لأخيه بِئرًا وَقَعَ فيها . ولا شَكَّ أن الأمثال_بشكل عام_ هي خُلاصة تجارب الشعوب والأمم . والأمثالُ مُنبثقة عن العقل الجمعي، لذلك تكون صحيحةً ودقيقةً ، وتعكس خِبرةً عميقة في التعامل مع الأفكار والأفراد والمجتمعات .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٤٢٧) : ((﴿ ولا يَحِيقُ المكرُ السَّيِّئُ ﴾ ، أي : لا يَحِلُّ ، ولا يُحيط المكرُ السَّيئ ﴿ إلا بأهْلِهِ ﴾ ، فَقُتِلوا يوم بَدْر . وقال ابن عباس: عاقبة الشِّرْك لا تَحِلُّ إلا بِمَن أشركَ . والمعنى : وَبَالُ مَكْرهم راجع إليهم)) اهـ .

٢٦ _ مِثال الكُفر (امرأة نُوح وامرأة لُوط) :

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً للذينَ كَفروا امرأةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ كانتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَم يُغنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِين ﴾[التَّحْريم: ١٠].

مَثَّلَ اللهُ مَثَلاً للكافرين في عدم انتفاعهم بالنَّسَب والْمُصَاهَرَة والقرابة ورابطة الدَّم بينهم وبين المؤمنين ، بحال امرأة نُوح وامرأة لُوط . وهذا المثَل لتنبيه الناس على أن رابطة الدِّين هي المِعيار الوحيد في الآخرة . ومُخالطةُ المؤمنين والتعاملُ معهم لا يُفيدان الشخصَ ما لَم يكن مؤمنًا .

إن امرأة نُوح وامرأة لُوط ، كانتا زَوْجَتين لِرَسُولَيْن عظيمَيْن ، نُوح ولُوط ، عليهما الصلاة والسلام. وقد وَصَفَهما اللهُ بالعُبودية، وأضافهما إلى ذاته المقدَّسة: ﴿ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنا صَالِحَيْنِ ﴾ لتكريمهما وتشريفهما وتعظيمهما ، ورَفع ذِكْرهما في الدُّنيا والآخرة .

إن كُل زوجة كانت شديدة القُرب مِن زَوجها النبيِّ الكريم ، قريبة مِنه في الليل والنهار ، وبينهما مُؤاكَلة ومُضاجَعة ومُعاشَرة ومُخالَطة . ومعَ هذا ، لَم تقتبس الزَّوجة مِن نُور النُّبوَّة الذي يتجسَّد في زَوْجها النبيِّ الكريم ، بل اختارت الكفرَ على الإيمان .

وكُلُّ قرابةٍ إذا عارضت الدِّين ، لا فائدة منها. وما فَرَّقه اللهُ تعالى فلن يَجمعه أحد. والذي يَختار الضلالَ لن يَنتفع مِن قَرابته لنبيٍّ أو وَلِيٍّ أو رَجل صالح . واللهُ لا يُحابي ولا يُجامِل أحدًا ، ولا توجد مُجامَلة ومَحسوبية وواسطة في يوم القيامة . وهذا دليل واضح على أن رابطة الدَّم لا معنى لها إذا نُزِع منها الإيمان .

والأساسُ الوحيد هُوَ الإيمان ، وإذا لَم يَخضع النَّسَبُ للإيمان ، فلا أهمية للنَّسَب مُطْلَقًا، بل سيكون عِبْئًا ثقيلاً على صاحبه، وَوَبالاً عليه . لذلك جاء التوضيح النبويُّ الدقيق في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٤): ((وَمَن بَطَّأَ به عَمَلُه ، لَم يُسرِع به نَسَبُه)) .

يعني : مَن أخَّره عملُه القبيحُ ، أو إضاعته للعمل الصالح ، لَم ينتفع في الآخرة بشرف نَسَبه ، أو مكانته الاجتماعية الرفيعة. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢٢): ((معناه: مَن كان عمله ناقصًا لَم يُلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال ، فينبغي أن لا يتَّكل على شرف النَّسَب ، وفضيلة الآباء ، ويُقصِّر في العمل)) اهـ .

وعلى المرء ألا يَعتمد على شَرف النَّسَب ، أو قرابته مِن العُظماء والفُضلاء ، فهذا لا يَنفعه إذا كان قلبُه منحرفًا عن طريق الله . وكثيرٌ مِن الناس يعتمدون على علاقاتهم الاجتماعية في الدنيا من أجل تحقيق منافع ذاتية، والاستحواذ على مكاسب مادية، وبسط نفوذهم وسُلطتهم وهَيمنتهم .

أمَّا يوم القيامة فإن القواعد ستتغيَّر، لأن الله تعالى هو القاضي العَدْل الذي نَزَّه ذاته عن الظلم، وجعله بين عباده مُحَرَّمًا . وكُلُّ إنسان يجب أن يبنيَ نفْسه بنفْسه إذا أراد النَّجاة . ويكون ذلك بالإيمان وعمل الصالحات . أمَّا التَّعويلُ على عناصر خارجية كالنَّسَب والقرابة فلن يُجْدِيَ نفْعًا .

وصدقَ القائل :

عَلَيْكَ بِتقوى اللهِ في كُلِّ حَالةٍ ولا تَترك التَّقوى اتِّكالاً على النَّسَبِ
فقد رَفع الإسلامُ سَلمانَ فارس وقد وَضع الكفرُ الشريفَ أبا لَهَبِ

إن كُل زوجة خانت زَوْجَها بالكفر والضَّلال ورفض الإيمان . والكفرُ هو الخيانة العُظمى ، والجريمة الكُبرى. وخيانةُ امرأة نُوح لِزَوجها أنها اختارت الكفرَ ، وكانت تقول للناس : إنه مجنون. أمَّا خيانة امرأة لُوط لِزَوجها فهي اختيارها الكفر ، وكانت تَدُل قَوْمَها على ضُيوف زَوجها .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ . قال: ((ما زَنَتَا. أمَّا امرأة نُوح فكانت تقول للناس: إنه مجنون، وأمَّا امرأة لُوط فكانت تدل على الضَّيف، فذلك خِيانتهما))[41].

هذه الخيانةُ الشنيعة تدل على انحراف الزَّوجة عن طريق زوجها، ووقوفها إلى جانب الباطل. فَهِيَ لَم تستفد شيئًا مِن قرابتها لزوجها الرسول العظيم، بل كانت عَوْنًا لأهل الضلال عليه ، حيث

(٤١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٣٨) برقم (٣٨٣٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

أَيَّدت الكافرين على المؤمنين ، ورَفضت المنهجَ الإلهيَّ الذي جاء به زوجها الكريم ، وبذلك تكون قد خَسرت الدنيا والآخرة معًا ، ولا يُمكنها التَّعويل على درجة القرابة أو رابطة الدم .

إن الخيانة في الآية لَيْسَت بمعنى الخِيانة الزَّوجية وفاحشة الزِّنا ، وإنما بمعنى الخيانة في الدِّين واختيار الكفر، لأنَّ الكفر هو الخيانة العُظمى التي ما بَعْدَها خيانة . وزَوجات الأنبياء مَعصومات مِن الزِّنا ، ولكنهنَّ غَير مَعصومات مِن الكفر ، معَ أن الكفر أسوأ وأشد خطورة ، وذلك لأن الكفر اختيار قَلبي ، والإنسان حُر في اختياره ، ويتحمَّل مسؤولية اختياره أمام الله وأمام الناس. وَزوجةُ النبيِّ نُوح ﷺ،وَزوجةُ النبيِّ لُوط ﷺ كانتا كافرَتَيْن، وهذا لا يَطعن في نُوح ولُوط ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وإنما يُشير إلى حُرية اختيار العقيدة ، ولا يُجبَر أحد على اعتناق الإسلام . أمَّا الزِّنا فهو تَلويث لِسُمعة النبيِّ ، وطَعن في شَرَفه ونَسْله ونَسَبَه وعائلته ، وهذا يُنفِّر الناسَ مِنه ، ويُبعِدهم عنه ، لذلك كانت زَوجات الأنبياء مَعصومات مِن الزِّنا . وما زَنَت امرأةُ نبيٍّ قَط .

ومعَ أن نُوحًا ولُوطًا نَبِيَّان عظيمان وكريمان ، ويَحْمِلان شَرَفَ النُّبوَّة والرِّسالة ، إلا أنهما لَم يُنقِذا امرأتَيْهما مِن الهلاك والغضب الإلهيِّ، ولَم يَدفعا عنهما ـ بحق ما بينهما من الزواج ـ شيئًا مِن عذاب الله.وهذا دليل وتنبيه على أن العذاب يُدفَع بالعبادة والطاعة،ولا يُدفَع بالقرابة. وفي الآخرة لا يُنقِذ القريبُ قريبَه،ولا يُساعد الحبيبُ حبيبَه،ولا يُغني أحد عن أحد،إذا فرَّق الدِّين بينهما.

وقِيل لهما في يوم القيامة : ادخلا نارَ جهنم معَ الداخلين إِلَيها مِن الكفار المجرمين أصحاب المعاصي والذنوب ، والذين لا علاقة قرابة بينهم وبين الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣١٤و٣١٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً للذينَ كَفروا امرأةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ ﴾ . قال المفسرون مِنهم : مقال هذا المثَل يتضمَّن تخويف عائشة وحَفْصة أنهما إِن عَصَيا ربهما لَم يُغنِ رسول الله ﷺ عنهما شيئًا. قال مقاتل: اسم امرأة نُوح والهة ، وامرأة لوط والغة . قَوله تعالى : ﴿كانتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنا صَالِحَيْنِ ﴾ يعني: نُوحًا ولُوطًا عليهما السلام ، ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ . قال ابن عباس:ما بَغت امرأة نبيٍّ قَط، إنما كانت خيانتهما في الدِّين ، كانت امرأة نُوح تُخبِر الناس أنه مجنون ، وكانت امرأة لُوط تدل على الأضياف، فإذا نزل بِلُوط ضَيف بالليل أوقدت النار ، وإذا نزل بالنهار دخَّنت لِيَعلم قَوْمُه أنه قد نزل به ضَيف. وقال السُّدي : كانت خيانتهما كُفرهما . وقال الضَّحاك : نَميمتهما. وقال ابن

السائب: نفاقهما . قَوله تعالى : ﴿ فَلَم يُغنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ ، أي : فلم يَدْفعا عنهما مِن عذاب الله شيئًا . وهذه الآية تقطع طمع مَن رَكِبَ المعصية ، ورجا أن ينفعه صلاحُ غَيْره)) .

٢٧ _ مِثال مَن لا يَستجيب لله :

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأنا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الجِنِّ والإنسِ لهم قُلوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها ولهم أعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها ولهم آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئكَ كالأنعامِ بَلْ هُم أضَلُّ أُولئكَ هُمُ الغافِلُون ﴾ [الأعراف: ١٧٩] .

خَلَقَ اللهُ لجهنم خَلْقًا كثيرًا مِن الجن والإنس ، وجَعَلَهم وَقُودًا لها ، يُعذَّبون فيها أشد العذاب. وهؤلاء هُم الذين حقَّت عليهم كلمة العذاب الأزلية، وسَبَق في عِلم الله أنهم مِن الأشقياء الذين يموتون على الكفر . وهذا يدل على شُمول عِلم الله لكل شيء . واللهُ يَعلَم أهلَ النار قبل أن يَخلَقهم ، ويَعلَم قَبْل خَلْقهم أنهم يَصِيرون إلى النار بكفرهم وضلالهم . والآيةُ تُبيِّن نفاذَ عِلْم الله فيهم . وعندما خَلَقَهم هيَّأهم للنار لأنهم مُستحقون لها،وبعمل أهل النار يَعملَون، حتى يَموتوا على الكفر، ويَدخلوا النارَ خالدين فيها. وكُلٌّ مُيَسَّر لِمَا خُلِقَ له . وهذا كُلُّه خاضع لِعَدْل الله ، لأن الله مُنَزَّه عن الظلم . لقد حقَّت عليهم الكلمة الأزلية بالشَّقاوة بما كَسَبت أيديهم ، واللهُ لَم يَظلمهم ، ولَم يُجبِرهم على اختيار الكفر ، وإنما اختاروه بمحض إرادتهم ، وبكامل قواهم العقلية ، ودُون ضغط مِن أحد .

وقال النسفي في تفسيره (٢/ ٤٧) : ((فالحاصل أن مَن عَلِمَ اللهُ مِنه في الأزل أنه يكون مِنه العبادة خَلَقَه للعبادة ، ومَن عَلِمَ مِنه أن يكون منه الكفر خَلَقَه لذلك ... . وقول المعتزلة بأن هذه لام العاقبة ، أي : لَمَّا كان عاقبتهم جهنم جعل كأنهم خُلِقوا لها ، فِرارًا عن إرادة المعاصي عُدول عن الظاهر)) اهـ .

لهم قلوبٌ لا يتفكرون بها في قُدرة الله وآياته ومُعجِزاته ، ولا يَفهمون بها الحق والهدى والخير والصواب، ولا يَعرِفون بها منفعتهم ومصلحتهم . وقال الطبري في تفسيره (٦/ ١٢٩) : ((وأمَّا قَوله : ﴿ لهم قُلوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها ﴾ ، فإن معناه: لهؤلاء الذين ذَرَأهم اللهُ لجهنم مِن خَلْقه قُلوب ، لا يتفكرون بها في آيات الله، ولا يتدبَّرون بها أدلته على وَحدانيته، ولا يعتبرون بِها حُججه لِرُسله، فيعلموا توحيد ربهم ، ويعرفوا حقيقة نُبُوَّة أنبيائهم ، فَوَصفهم رَبُّنا جَل ثناؤه بأنهم : ﴿ لا يَفْقَهُونَ بِها ﴾ لإعراضهم عن الحق ، وتركهم تدبُّر صِحَّة نُبُوَّة الرُّسل ، وبُطول الكفر)) اهـ .

ولهم أعين لا يُبصِرون بها مظاهر قُدرة الله وإبداعه بَصَرَ اعتبار، ولا يَرَوْنَ طريقَ الحق وسبيلَ الهدى ، ولا يَنظرون إلى مخلوقات الله الباهرة نَظَرَ تأمُّل واعتبار .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ١٢٩) : ((ولهم أعين لا يَنظرون بِها إلى آيات الله وأدلته ، فيتأملوها ويتفكروا فيها، فيعلموا بها صِحَّة ما تَدعوهم إليه رُسلهم ، وفساد ما هُم عليه مُقيمون مِن الشِّرك بالله، وتكذيب رُسله،فوصفهم الله بتركهم إعمالها في الحق أنهم لا يُبصِرون بِها))اهـ.

ولهم آذان لا يَسمعون بها الآيات والمواعظ والإرشادات سَمَاعَ فَهْم وتدبُّر واتِّعاظ . وقال الطبري في تفسيره (٦/ ١٢٩) : ((﴿ ولهم آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها ﴾ آياتِ كتاب الله فَيعتبروها ويتفكروا فيها ، ولكنهم يُعرِضون عنها)) هـ .

إنهم لَم يَنتفعوا بِجَوارحهم وحواسِّهم ، ولَم يَستفيدوا مِنها في معرفة الحق والهدى ، فصار وجودها كعدمه. وقد جَعل اللهُ الجوارحَ والحواسَّ طريقًا للهداية ، لكنهم أغلَقوا هذا الطريق بتعطيلهم لجوارحهم وحواسِّهم ، وعدم استخدامها لمعرفة نُور الإيمان .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٩٢) : ((لَمَّا أعرضَ القَوم عن الحق والتفكر فيه ، كانوا بِمَنْزلة مَن لَم يَفقه ، ولَم يُبصِر ، ولَم يَسمع . وقال محمد بن القاسم النحوي : أراد بهذا كُلِّه أمرَ الآخرة ، فإنهم يَعقِلون أمر الدنيا)) اهـ .

أُولئك كالحيوانات في عدم الفهم والبصر والاستماع ، هَمُّهم الأكل والشُّرب والتَّمَتُّع بالشهوات والملذات ، لا يَرْجُون ثوابًا ، ولا يَخافون عِقابًا ، ولا يَهْتَمُّون بالآخرة . بَل هُم أسوأ حالاً مِن الحيوانات ، لأن الحيوانات تَعرِف منفعتها ومصلحتها ، وتُميِّز بن المنفعة والمضرَّة ، وتتبع صاحبها ومالكها،أمَّا هؤلاء الكفار فلا يَعرِفون منفعتهم ولا مصلحتهم، ويَعصون اللهَ خالقهم ، ولا يُطيعونه ، ويسيرون إلى عذاب النار ، ويُهلِكون أنفسهم بأنفسهم عِنادًا وجهلاً واستكبارًا . والحيوانات تعرف اللهَ وتُطيعه ، أمَّا الكفار فلا يَعرِفون اللهَ ولا يُطيعونه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٩٢): ((قَوله تعالى: ﴿ أُولئكَ كالأنعامِ ﴾ ، شَبَّههم بالأنعام ، لأنها تَسمع وتُبصِر ، ولا تَعتبر ، ثُمَّ قال : ﴿ بَلْ هُم أضَلُّ ﴾ ، لأن الأنعام تُبصِر منافعها ومضارها ، فتلزم بعض ما تُبصِره ، وهؤلاء يَعلم أكثرهم أنه مُعانِد ، فَيُقْدِم على النار)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٥٦) : ((﴿ بَلْ هُم أضَلُّ ﴾ أي : مِن الدَّواب ، لأنها قد تستجيب لراعيها إذا أَنِسَ بِها ، وإن لَم تفقه كلامه ، بِخِلاف هؤلاء ، ولأنها تفعل ما خُلِقت له ، إمَّا بطبعها وإمَّا بتسخيرها بِخِلاف الكافر ، فإنه إنما خُلِق لِيَعبد اللهَ ويُوحِّده، فكفر بالله وأشركَ به ،

ولهذا مَن أطاعَ اللهَ مِن البشر ، كان أشرف مِن مِثْله مِن الملائكة في مَعَاده ، ومَن كَفر بِه مِن البشر كانت الدَّواب أتَمَّ مِنه)) اهـ . أُولئك الكاملون في الغفلة ، الذين غرقوا في الكفر والضلال والجهل والعِناد والاستكبار ، وتركوا الفهمَ والتَّدَبُّرَ والاتِّعاظ ، وأعرَضوا عن الإيمان ، وغَفِلوا عن آيات الله وحُجَجه ومظاهر وَحدانيته وقُدرته ، ولَم يُفكِّروا بالجنة والنار ، وغَفِلوا عن أمر الآخرة . وقد أضاعوا مصيرهم بأيديهم ، وساروا إلى العذاب بإرادتهم .

والجديرُ بالذِّكر أن ﴿ أُولئكَ ﴾ اسم إشارة للبعيد ، للدَّلالة على بُعدهم في الغَفْلة والضَّلال.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الذينَ لا يَعْقِلُون ﴾[الأنفال : ٢٢].

إن أسوأ الْخَلْق وشَرَّ مَا دَبَّ على الأرض في حُكم الله وقضائه، الصُّمُّ الذين لا يَسمعون الحقَّ، ولا يَعتبرون بِه، ولا يتَّعظون، الْخُرْس الذين لا يَنطِقون بالحق ، ولا يَعقِلون أوامرَ الله ونَواهيه ، ولا يَفهمونها . ولا يَعرِفون ما فيه صلاحهم فيفعلونه ، ولا يُدرِكون ما فيه هلاكهم فيجتنبونه .

وهؤلاء أسوأ المخلوقات على الإطلاق ، لأن اللهَ خلقهم للعبادة ، فكفروا وضَلُّوا . والآيةُ تدل على أن الكفار شَر ما دَبَّ على الأرض . ومعَ أنهم يَسْمَعون ويَنطِقون ، إلا أن اللهَ وَصَفَهم بالصُّم البُكم ، لأنهم لَم يَستفيدوا مِن السَّمع والنُّطق ، ولَم يَنتفعوا بِهما ، فصار وجودهما كعدمه .

وقد سَمَّى اللهُ الكفارَ ﴿ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ ، وهذا مُنتهى الذَّم والتَّحقير، لأن اللهَ أعطاهم العقولَ والجوارح والحواس، فلم يَستخدموها للتمييز بين الحق والباطل، والتفريق بين الخير والشر، ومعرفة الإيمان. لقد أبطلوا نِعمةَ العقل التي ميَّزهم اللهُ بها ، وفضَّلهم بسببها على سائر مَخلوقاته ، وعاندوا الحقَّ بعد مَعرِفته، ورَفضوا الهدى بعد ظُهوره،واستكبروا عَن تَوحيد الله بعد ظُهور الأدلة والْحُجَج. فصاروا بلا عقول ، ولا فَهْم ، ووصلوا إلى الحضيض ، وصاروا أسوأ مِن الحيوانات وأقل مِنها .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٤/ ١٥) : ((﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ استئناف مَسُوق لبيان كمال سُوء حال الْمُشَبَّه بِهم مُبالغةً في التحذير ، وتقريرًا للنَّهْي إثر تقرير ، أي : إن شَر ما يَدِبُّ على الأرض أو شَر البهائم ﴿ عِندَ اللهِ ﴾ أي : في حُكمه وقضائه ﴿ الصُّمُّ ﴾ الذين لا يَسْمَعون الحق ﴿ البُكْمُ ﴾ الذي لا يَنطِقون بِه . وُصِفوا بالصَّمَم والبُكْم ، لأن ما خُلِق له الأُذُن واللسان، سَماع الحق والنُّطق به ، وحيث لَم يُوجد فيهم شيء من ذلك ، صاروا كأنهم فاقدون للجارحتين رأسًا . وتقديم ﴿ الصُّمُّ ﴾ على ﴿ البُكْمُ ﴾ لِمَا أن صَمَمهم مُتقدِّم على بُكمهم، فإن السُّكوت عن النُّطق بالحق من فروع عدم سَماعهم له ، كما أن النُّطق به مِن فُروع سَماعه ، ثُمَّ وُصِفوا بعدم

التَّعقل، فَقِيل : ﴿ الذينَ لا يَعْقِلُون ﴾ تحقيقًا لكمال سُوء حالهم ، فإن الأصم الأبكم إذا كان له عقل رُبَّما يَفهم بعض الأمور ، ويُفهِمه غَيْرُه بالإشارة ، ويهتدي بذلك إلى بعض مطالبه ، وأمَّا إذا كان فاقدًا للعقل أيضًا، فهو الغاية في الشَّرية وسُوء الحال ، وبذلك يَظهر كَوْنهم شَرًّا من البهائم ، حيث أبطلوا ما به يَمتازون عنها ، وبِه يُفضَّلون على كثير مِن خَلْق الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ ، فصاروا أخسَّ مِن كُل خسيس)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٧٠٣) عن ابن عباس : _ ﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الذينَ لا يَعْقِلُون ﴾ . قال : ((هُم نَفَر مِن بني عبد الدار)) .

وهذه الجماعة الضَّالة مِن بني عبد الدار كانوا يقولون : نحن صُم بُكم عمَّا جاء به محمد . وتوجَّهوا لقتال النبيِّ ﷺ معَ أبي جهل .

والدَّواب جَمْع دَابَّة، وهي كُل ما يَدِبُّ على الأرض ، والمقصود _ في هذا السياق _ الكفار.

وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (٤/ ٧٠) : ((﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ ﴾ ، شبَّه الكفارَ بالبهائم، بَل جعلهم شرًّا مِنها ، وذلك مُنتهى البلاغة ونهاية الإعجاز ، إذ إن الكافر لا يَسمع الحق، والبهائم لا تسمع ، ولا يَنطق بِه ، والبهائم لا تنطق ، ويأكل والبهائم تأكل ، بَقِيَ أنه يَضُر ، والبهائم لا تضرُّ ، فكيفَ لا يكون شرًّا مِنها ؟)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِم خَيْرًا لأسْمَعَهُم وَلَوْ أسْمَعَهُم لَتَوَلَّوا وَهُم مُعْرِضُون ﴾ [الأنفال : ٢٣] .

ولو عَلِمَ اللهُ في هؤلاء الصُّم البُكْم خَيْرًا ، أو صَلاحًا ، أو صِدْقًا ، أو حِرْصًا على الحق ، أو رغبةً في الهدى ، لأسمعهم آياتِه ومواعظه وحُجَجه سَماع فهم وتدبُّر واتِّعاظ وقَبول، حتى يعتبروا بها، ويَستفيدوا مِنها، وينتفعوا بها في الدنيا والآخرة . ولَو أسمعهم فَرَضًا _ وقد عَلِمَ أن لا خَير فيهم ولا صلاح وأن الشقاء مكتوب عليهم _ لَتَوَلَّوْا عن الله ورسوله ، وأهملوا آياتِ الله ، وأنكَروا نُبُوَّة محمد ﷺ ، وتَوَلَّوْا عَن سَماع الحق كأنهم لَم يَسمعوه أصلاً . والآيةُ تُوضِّح أن في إسماعهم مفسدة ومضرَّة ، لذلك لَم يُسْمِعْهم اللهُ تعالى. وهُم مُعرِضون عن الإيمان ورافضون للحق بعد ظُهوره وعِلْمهم به، جهلاً وعِنادًا واستكبارًا وجُحودًا. وهذا يدل على عَجْزهم عَن الفهم الصحيح، وعدم امتلاكهم للنِّية الصادقة. فلا فَهْم سليم، ولا قَصْد صحيح. وهذا مُنتهى الضلال . وقد سَبَق في عِلْم الله أنهم لا يُؤمنون . وفي الآية تسلية للنبيِّ ﷺ على عدم إيمان الكافرين ، وتخفيفٌ عنه ، ورَفع لمعنوياته .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٣٧ و٣٣٨): ((قَوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِم خَيْرًا ﴾ ، فيه أربعة أقوال : أحدها وَلَوْ عَلِمَ فيهم صِدْقًا وإسلامًا . والثاني لَوْ عَلِمَ فِيهم خَيْرًا في سابق القضاء . والثالث لَوْ عَلِمَ أنهم يَصْلُحون . والرابع لَوْ عَلِمَ أنهم يُصغون . وفي قَوله : ﴿ لأسْمَعَهُم ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها لأسمعهم جواب كُل ما يَسألون عنه ، قاله الزَّجاج . والثاني لَرَزَقَهم الفَهْم ، قاله أبو سليمان الدمشقي.والثالث لأسمعهم كلام الموتى يَشهدون بِنُبُوَّتك، حكاه الماوردي . وفي قَوله : ﴿ وَهُم مُعْرِضُون ﴾ قَولان : أحدهما مُكذِّبون ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني وهُم مُعرِضون عمَّا أسمعهم لِمُعاندتهم ، قاله الزَّجاج)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الذينَ كَفروا فَهُم لا يُؤمِنُون ﴾[الأنفال : ٥٥] .

إن شَرَّ مَن يَدِبُّ على وَجه الأرض في عِلْم الله وحُكمه وقضائه ، الذينَ كذَّبوا بآيات الله وجَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ، وأصَرُّوا على كفرهم وضلالهم وعِنادهم واستكبارهم ، فهُم لا يُصدِّقون بالوَحْي ولا بالنُّبُوَّة ، ولا يُرجَى إيمانهم ، ولا يُتَوَقَّع مِنهم خَير ، ولا يُنْتَظَر مِنهم صَلاح .

وهذا الْحُكم الإلهيُّ بسبب إصرارهم على الكفر ، وغرقهم في الضلال ، وتماديهم في الجحود والعِناد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٧١) : ((عن ابن عباس : نَزلت في بني قُرَيظة مِن اليهود ، مِنهم كَعْب بن الأشرف وأصحابه)) اهـ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٤٦٤): ((قَوله: ﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ أي : شَر ما يَدِبُّ على وجه الأرض ﴿ عِندَ اللهِ ﴾ أي : في حُكمه ﴿ الذينَ كَفروا ﴾ ، أي : الْمُصِرُّون على الكفر ، الْمُتمادون في الضَّلال ، ولهذا قال : ﴿ فَهُم لا يُؤمِنُون ﴾ ، أي : إن هذا شأنهم لا يُؤمنون أبدًا ، ولا يَرجعون عَن الغِواية أصلاً.وجعلهم شَرَّ الدواب لا شَر الناس إيماءً إلى انسلاخهم عن الإنسانية، ودخولهم في جِنس غَير الناس من أنواع الحيوان ، لعدم تعقلهم لِمَا فيه رَشادهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَجَعَلْنا مِن بَيْنِ أيْدِيهِم سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِم سَدًّا فأغْشَيْنَاهُم فَهُم لا يُبْصِرُون ﴾ [يس : ٩] .

إن الإيمان شرف عظيم لا يَمنحه اللهُ لكل شخص . والآيةُ تصف كيفيةَ إضلال الله لهم ، لأنهم لا يَستحقون شَرَفَ الإيمان ، ولا يَحرِصون على الحق والهدى .

لقد زيَّن اللهُ لهم المعاصي، فضاعوا في طُرق الضلال ، وتاهوا في دُروب الغِواية . لا يَقْدِرون على رُؤية الحق ، ولا يَستطيعون معرفةَ الهدى .

مَنَعَهم اللهُ مِن الإيمان ، وأغلقَ طُرق الهدى عليهم ، وسَد طريقهم مِن الأمام ، ومِن الخلف، فصاروا عاجزين عن الخروج من الكفر إلى الإيمان . إنهم مُحَاصَرُون بالحواجز والموانع .

فَغَطَّى اللهُ أبصارَهم، وأعماهم عن الهدى والرَّشاد ، فهُم بسبب ذلك لا يَرَوْنَ طريقَ الحق ، ولا يُبصِرون سبيل الهدى، ولا يَنتفعون بخير، ولا يَستفيدون مِن حُجَّة، ولا يَهتدون إلى نور الإيمان.

وهذا يدل على سُوء وَضْعهم، وفظاعة حالهم . إنهم مَحبوسون في دائرة الكفر ، وهي مُغلَقة عليهم ، وهذا يَمنعهم مِن رؤية نُور الإيمان ، ومعرفة الآيات والأدلة . وكُل الطرق إلى الإيمان مَسدودة أمامهم بما كَسَبَت أيديهم . وقد ظَلموا أنفسَهم ، ولَم يَظلمهم اللهُ تعالى .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٨) : ((في معنى الآية قَولان : أحدهما منعناهم عن الإيمان بموانع ، فهُم لا يستطيعون الخروج عن الكفر . والثاني حَجَبْناهم عن أذى رسول الله ﷺ بالظُّلْمة لَمَّا قَصَدوه بالأذى . قَوله تعالى : ﴿ فأغْشَيْنَاهُم ﴾ . قال ابن قُتَيبة : أَغْشَيْنا عيونهم ، وأعْمَيْناهم عن الهدى)) .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُم عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فأُولئكَ حَبِطَتْ أعمالُهُم في الدُّنيا والآخرةِ وأُولئكَ أصحابُ النارِ هُم فِيها خَالِدُون ﴾[البقرة : ٢١٧] .

هذا تحذيرٌ إلهيٌّ للمسلمين ، وتهديد لهم كَي يتمسَّكوا بالإسلام ويثبتوا عليه .

ومَن يَرجع مِنكم عن الإسلام إلى الكفر ، فيمت على الرِّدة، فأُولئك بَطَلَت وفَسَدَت حسناتهم وأعمالهم النافعة وأفعالهم الصالحة في الدنيا والآخرة . والمقصود هو ذَهَاب ثواب أعمالهم ، وبُطول أجرها . وهُم يَخسَرون مَرَّتَيْن ، ففي الدنيا يَخسَرون سُمعتهم وشرفهم ومكانتهم الاجتماعية ومنافعهم المعنوية ومكاسبهم المادية ، ولا يَستفيدون مِن ثمرات الإسلام التي تعود على المسلمين معنويًّا وماديًّا . وفي الآخرة ، لا ثواب لهم ولا أجر ، وهُم خالدون في عذاب النار ، لا يَخرُجون مِنها ، فهُم أصحاب النار وسُكَّانها والمقيمون فِيها إلى ما لا نهاية . ولا تُوجد أيَّة فُرصة للتَّعويض .

والتَّقييد بِ : ﴿ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ﴾ يدل على أن أعمال المرتد إنما تفسُد وتبطُل إذا ماتَ على الكفر . أمَّا إذا رجع إلى الإسلام لَم يَبطُل عملُه ، ويُؤجَر عليه ، كالحج مثلاً ، ولا يُعيده .

والمرتدُّ يُستتاب ، فإن تابَ ، ورَجَعَ إلى الإسلام ، لا شَيء عليه . وإذا أصرَّ على الرِّدة ، يُقام عليه حَد الرِّدة ، وهو القَتل . وقد اختلفَ العلماء في الرِّدة ، هل تُفسِد العملَ وتُحبِطه بِمُجرَّدها أم لا تُحبِط العملَ إلا بالموت على الكفر ؟ . وينبغي حَمْلَ ما أَطْلَقَتْهُ الآيات في غَير هذا الموضع على ما في هذه الآية من التَّقييد ، والْمُطْلَق يُحمَل على الْمُقَيَّد .

والْحَبَطُ هو أن تأكل الدَّابة ، فتُكْثِر مِن الأكل ، حَتى ينتفخ لذلك بَطْنُها ، وتَمرَض أو تموت.

وقال أبو السعود في تفسيره (١/ ٢١٧) : ((﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُم عَن دِينِهِ ﴾ تحذير مِن الارتداد، أي: ومَن يَفعل ذلك ﴿ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ﴾ بأن لَم يَرجع إلى الإسلام . وفيه ترغيب في الرُّجوع إلى الإسلام بعد الارتداد ، ﴿ فأُولئكَ ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتِّصافه بِما في حيِّز الصِّلة من الارتداد والموت عليه، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بِبُعد مَنْزلتهم في الشَّر والفساد ، والجمع للنظر إلى المعنى ، أي: أُولئك الْمُصِرُّون على الارتداد إلى حين الموت ﴿ حَبِطَتْ أعمالُهُم ﴾ الحسنة التي كانوا عملوها في حالة الإسلام حُبُوطًا لا تلافي له قَطْعًا ﴿ في الدُّنيا والآخرةِ ﴾ بحيث لَم يَبْقَ لها حُكم مِن الأحكام الدُّنيوية والأُخْرَوِيَّة ، ﴿ وأُولئكَ ﴾ الموصوفون بِما ذُكِرَ سابقًا ولاحقًا مِن القبائح ﴿ أصحابُ النارِ ﴾ أي:مُلابسوها ومُلازموها ﴿ هُم فِيها خَالِدُون ﴾)).

وقال القرطبي في تفسيره (٣/ ٤٠) : ((اختلف العلماء في المرتد هل يُستتاب أم لا ؟، وهل يَحبَط عَمَلُه بنفْس الرِّدة أم لا إلا على الْمُوافاة على الكفر ؟ ، وهل يُورَث أم لا ؟ . قالت طائفة : يُستتاب فإن تاب وإلا قُتِل . وقال بعضُهم : ساعة واحدة. وقال آخرون : يُستتاب شهرًا، وقال آخرون : يُستتاب ثلاثًا على ما رُوِيَ عن عُمر وعثمان ، وهو قول مالك ، رواه عنه ابن القاسم . وقال الحسن : يُستتاب مائة مَرَّة ، وقد رُوِيَ عنه أنه يُقتَل دون استتابة ، وبِه قال الشافعي في أحد قَوْلَيْه ، وهو أحد قَوْلَي طاووس وعُبَيد بن عُمَير . وذَكَرَ سُحْنون أن عبد العزيز بن أبي سَلَمة الماجُشُون كان يقول : يُقتَل المرتد ولا يُستتاب ... . وذَكَرَ أبو يُوسُف عن أبي حنيفة أن المرتد يُعرَض عليه الإسلام ، فإن أسلم وإلا قُتِل مكانه ، إلا أن يَطلب أن يُؤجَّل ، فإن طَلَب ذلك أُجِّلَ ثلاثة أيام ، والمشهور عنه وعن أصحابه أن المرتد لا يُقتَل حتى يُستتاب ، والزِّنديق عِندهم والمرتد سَواء . وقال مالك : وتُقتَل الزنادقة ولا يُستتابون ... . قال الشافعي : إن مَن ارتدَّ ثم عاد إلى الإسلام لَم يَحبَط عَمَلُه ولا حَجُّه الذي فرغ مِنه ، بل إن مات فحينئذ تَحبَط أعمالُه. وقال مالك : تَحبَط بنفْس الرِّدة ، ويَظهر الخلاف في المسلم إذا حَجَّ ثُمَّ ارتدَّ ثم أسلم، فقال مالك : يَلزَمه الحج لأن الأول قد حَبِطَ بالرِّدة . وقال الشافعي : لا إعادة عليه لأن عمله باقٍ ... . اختلاف العلماء في ميراث المرتد ، فقال علي بن أبي طالب والحسن والشَّعبي والحكم والليث وأبو حنيفة وإسحاق ابن رَاهَوَيْه : ميراث المرتد لورثته من المسلمين ، وقال مالك وربيعة وابن ليلى والشافعي وأبو ثَوْر: مِيراثه في بيت المال . وقال ابن شُبْرُمة وأبو يُوسُف ومحمد والأوزاعي ، في إحدى الروايتين : ما اكتسبه المرتد بعد الرِّدة فهو لورثته المسلمين . وقال أبو حنيفة : ما اكتسبه المرتد في حال الرِّدة فهو فَيْء ، وما كان مُكْتَسَبًا في حالة الإسلام ثُمَّ ارتدَّ يَرِثه ورثته المسلمون ، وأمَّا ابن شُبْرُمة وأبو يُوسُف ومحمد فلا يَفْصِلُون بين الأمْرَيْن، ومُطْلَق قَوله عليه السلام : " لا وراثة بين أهل مِلَّتَيْن " يدل على بُطلان قولهم ، وأجمعوا على أن ورثته مِن الكفار لا يرثونه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأتِيها رِزْقُها رَغَدًا مِن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بأنعُمِ اللهِ فَأذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوعِ والْخَوْفِ بِما كانوا يَصْنَعُون ﴾[النَّحْل : ١١٢] .

هذا مَثَل أُريد بِه أهل مكة . فإنها كانت قريةً آمِنة مُطمئنة ، يأتيها الرِّزقُ الواسع بكل سهولة من كل مكان . فَقَابَلَت الإحسانَ الإلهيَّ بالكفرِ ، وجَحَدَتْ بِعثةَ محمد ﷺ التي هي أعظم النِّعَم ، فانتقمَ اللهُ من أهلها، وأذاقهم الجوعَ والخوفَ، وكُل هذا بسبب كُفرهم وعِنادهم ، وتكذيبهم للنبيِّﷺ ، وإخراجه من مكة . وما ظَلمهم اللهُ تعالى ، ولكنهم ظَلموا أنفسَهم بالكفر والمعاصي .

جَعل اللهُ مكةَ مَثَلاً لكل قَوم أنعمَ اللهُ عليهم ، فلم يَقوموا بِشُكر الله على نِعَمه ، وأبطرتهم النِّعمة ، وغَرِقُوا في كُفرهم وضلالهم وجُحودهم ، وارتكبوا الآثام والذنوب ، وعَصَوْا خالقهم ، وتَمَرَّدُوا على أوامره ونَواهيه ، فَسَلَبَ اللهُ نِعَمَه مِنهم عُقوبةً لهم ، وأنزلَ بِهم عذابه ونِقمته .

وهذا تحذيرٌ وإنذارٌ لباقي القُرى والأمم ، بضرورة الاعتراف بِنَعم الله وشُكره عليها ، لئلا يَسْلبهم اللهُ نِعَمَه ، ويُعاقبهم ، ويُعذِّبهم . والعاقلُ مَن اتَّعَظَ بِغَيره ، وأخذَ العِبرةَ مِن الآخرين ، ولَم يُكرِّر أخطاءهم. وشُكْرُ اللهِ إنما يتجلى في تَوحيده وعبادته وطاعته وامتثال أوامره واجتناب نَواهيه.

وقد كانت مكة قريةً آمنةً مُطمئنة ، وأهلها يَعيشون في أمن وأمان ورخاء وازدهار وسعادة وهناء ونعيم . وكان العربُ يتقاتلون فيما بينهم ، ويَقتلون بعضهم بعضًا ، ويَسْبون بعضهم بعضًا، وأهل مكة في أمن وأمان ، لا أحد يَعتدي عليهم ، ولا يُغير عليهم ، ولا يَمَسُّهم بِسُوء . ومَن دَخل مكة صارَ آمِنًا ، وأَمِنَ على نفْسه وماله وعِرْضه .

تأتيها الثمراتُ والخيرات والأرزاق بكثرة وسهولة مِن كل الجهات والأماكن ، فَجَحَدَ أهلُ مكة المشركون نِعَمَ الله ، وأنكَروها، ولَم يَشكروا اللهَ عليها ، ولَم يَعترفوا بفضله وكرمه ورِزقه وخَيراته وبركاته . وأعظم نِعمة على الإطلاق بِعثة محمد ﷺ إليهم . وقد كذَّب بها المشركون ، ولَم يَعرِفوا قِيمةَ هذه النِّعمة العُظمى. فَسَلَبَهم اللهُ نِعمةَ الأمن والأمان ، وأذاقهم آلام الجوع والخوف بسبب كُفرهم وضلالهم ومعاصيهم .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٠ / ١٢٨) : ((وهذا مَثَل أهل مكة ، لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخِصْب، ثم أنعمَ اللهُ عليهم بالنِّعمة العظيمة ، وهو محمد ﷺ ، فكفروا به ، وبالغوا في إيذائه ، فعذَّبهم اللهُ بالقحط والجوع سبع سنين ، حتى أكلوا الجِيَفَ والعِظام)) اهـ .

لقد أذاقهم اللهُ الجوعَ الشديد ، الذي آذى أجسامهم ، وصار لها كاللباس مِن مُخالطته لها ، وسَلَّطَ على قلوبهم الخوفَ والرُّعبَ والهلعَ ، بسبب كُفرهم بِنَعم الله ، وجُحودهم لِوَحدانيته ، وتكذيبهم بآياته ، وإنكارهم لِنُبُوَّة محمد ﷺ ، فصارت حياتهم جحيمًا لا تُطاق .

وسُمِّيَ الجوعُ والخوفُ لِباسًا، لأنه يَظهر عليهم الضَّعْفُ وشُحوبةُ اللون وسُوءُ الحال، تمامًا كاللباسِ. والْمَثَلُ الذي قَدَّمَتْهُ الآيةُ هو لكل قَوْم أنعمَ اللهُ عليهم، فلم يَشكروا اللهَ ، وأبْطَرَتْهُم النِّعمة ، فكفروا ، فحلَّ عليهم الغضبُ الإلهيُّ ، ونزلَ بِهم العذاب والعِقاب .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٣) : ((استعارَ الذَّوْقَ لإدراك أثر الضَّرر ، واللباس لِمَا غَشِيَهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف)) اهـ .

وأصلُ الذَّوْقِ يكون بالفَم ، وهذا استعارة مِنه . وذُكِر اللباس في الآية تَجَوُّزًا بسبب ظهور أثر الجوع والخوف عليهم . وجُعِل الجوع والخوف مَذُوقًا مع ذِكْر اللباس لإعطاء معنى الاشتمال والإحاطة ، أي إن الجوع والخوف اشتملا على الإنسان وأحاطا بِه ، كَما يَشتمل عليه اللباس ويُحيط بِه . وهذا يدل على الجوع الشديد والخوف الرهيب ، ولا فُرصة للنجاة مِنهما ، ولا الابتعاد عنهما . والجمعُ بين الذَّوْق واللباس لبيان معنى الْمُخَالَطَة والْمُبَاشَرَة والإحاطة والشُّمول ، وأن الجوع والخوف واقع مَلموس ومَحسوس ومُشَاهَد، وليس أمرًا مُتَوَقَّعًا أو مُنْتَظَرًا أو بَعيدًا . والجوعُ والخوفُ كاللباس ، مُحيطان بالبدن ، وشاملان له ، ومُلْتَصقان بِه ، ولا فُرصة للتخلص مِنهما . وهذا تصوير قُرآنِيٌّ بديع وباهر ودقيق يدل على شِدَّة الجوع والخوف وقَسْوتهما .

وقال ابن كثير في تفسيره(٢/٧٧٧):((أي ألبسَها وأذاقها الجوع بعد أن كان يُجْبَى إليهم ثمرات كُل شيء ، ويأتيها رزقها رَغَدًا من كل مكان ، وذلك لَمَّا اسْتَعْصَوا على رسول الله ﷺ ، وأبَوا إلا خِلافَه ، فدعا عليهم بِسَبْعٍ كَسَبع يُوسُف ، فأصابتهم سَنَة أذهبتْ كُلَّ شيء لهم ، فأكلوا العِلْهِز ، وهو وَبَرُ البعير يُخلَط بدمه إذا نَحروه. وقَوْلُه:﴿ والخوفِ ﴾ وذلك أنهم بُدِّلوا بأمنهم خَوْفًا من رسول الله ﷺ وأصحابِه حين هاجروا إلى المدينة ، مِن سَطْوته وسراياه وجيوشه ، وجُعِل كُل ما لهم في دَمار وسَفَال ، حتى فتحها الله على رسوله ﷺ ، وذلك بسبب صنيعهم وبَغيهم ، وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بَعثه اللهُ فِيهم مِنهم ، وامْتَنَّ بِه عليهم ... . وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم ، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرَّغَد ، فَبَدَّلَ اللهُ المؤمنين مِن بَعْد خَوْفهم أمنًا ، ورزقهم بعد العَيْلة (الفقر) ، وجعلهم أُمراء الناس وحُكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم ، وهذا الذي قُلناه مِن أن هذا المثَل ضُرِب لأهل مكة ، قاله العَوفي عن ابن عباس ، وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وحكاه مالك عن الزُّهري)) اهـ .

وقد دعا النبيُّ ﷺ على قَوْمه بسبب كُفرهم وتكذيبهم . فقال ﷺ : ((اللهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ على مُضَر ، واجْعَلْها عَلَيْهم سِنينَ كَسِنِيِّ يُوسُف)) [1].

والمعنى : اللهُمَّ ضَيِّق على مُضَر (والمراد قُرَيْش) واشْدُدْ عليهم ، واجعلها سِنينَ مُؤلِمَة وشديدة ، ذوات قَحْط وغَلاء، تماماً كَسِنِيِّ القَحْط السَّبع التي حَدَثَتْ في زمن النبيِّ يُوسُف ﷺ. وقد ابْتُلوا بالقَحْط حتى أكلوا العِظامَ والْمَيْتةَ . والجديرُ بالذِّكر أن الوَطْأةُ هي الشِّدةُ والعقوبة .

---

(١) متفق عليه . البخاري (١/ ٢٧٧) برقم (٧٧١) ، ومسلم (١/ ٤٦٦) برقم (٦٧٥) .

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ١٩٤) : ((" اللهم اشْدُدْ وَطْأَتَكَ على مُضَر " . أي : خُذهم بِشِدَّة . وأصلها مِن الوَطْء بالقَدَم ، والمراد الإهلاك ، لأن مَن يطأ على الشَّيء بِرِجْله فقد استقصى في هلاكه. والمراد بِمُضَر القبيلة المشهورة التي مِنها جميع بُطون قَيْس وقُرَيش وغَيْرهم ، وهو على حذف مُضاف ، أي : كُفار مُضَر)) اهـ .

وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ:((... ، لأن قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَعْصَوا على النبيِّ ﷺ ، دعا عليهم بسنين كَسِنِيِّ يُوسُف ، فأصابهم قَحْط وجَهْد ، حتى أكلوا العِظامَ ، فجعل الرَّجلُ يَنظر إلى السماء فيرى ما بَيْنَه وبَيْنَها كَهَيئة الدُّخَانِ مِن الْجَهْد)) [2].

كَذَّبت قُرَيْشٌ النبيَّ ﷺ ، وعاندوه ، وحاربوه ، فدعا عليهم عقوبةً لهم بسنين قَحْط وجفاف وغَلاء كَسِنِيِّ القَحْط السَّبْع التي حدثت في زمن النبيِّ يُوسُف ﷺ ، فأصابَ قُرَيش قَحْط ومشقة شديدة ، حتى أكلوا العِظام مِن شِدَّة الجوع والحِرمان . وصاروا يَرَوْنَ في السماء دُخَانًا من شِدَّة الجوع والمشقة الْمُؤلِمَة. وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٥٧٤) : ((وكانوا يَرَوْنَ بينهم وبين السماء مِثْل الدُّخَان مِن فَرْط حرارة الجوع ، والذي كان يَخْرج مِن الأرض ، بِحَسَب تخيُّلهم ذلك مِن غِشاوة أبصارهم ، مِن فَرْط الجوع)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ الذينَ ارْتَدُّوا على أدبارِهِم مِن بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى الشَّيطانُ سَوَّلَ لهم وأَمْلَى لهم ﴾ [مُحَمَّد : ٢٥] . إن الذين رَجعوا إلى الكفر بعد الإيمان، بعدما ظَهَرَ أمامهم طريق الحق والهدى بالأدلة الظاهرة والْمُعْجِزات الواضحة والبراهين الْجَلِيَّة ، وأُقِيمت الْحُجَّة عليهم ، وانقطعت أعذارهم ، ولكنهم اختاروا الكفر والضلال عِنادًا واستكبارًا واتِّباعًا لأهوائهم. الشَّيطان أغواهم ، وزيَّن لهم ارتدادهم عن الإسلام، وحَسَّنَ لهم خطاياهم ومعاصيهم وذُنوبهم، بعدما تَبَيَّنَ لهم الحق والهدى، وغرَّهم الشَّيطانُ، وخدعهم بالآمال الكاذب ، ومَدَّ لهم في الأماني الباطلة ، ووعدهم بِطُول العُمر. والأدبار جَمْع دُبُر، وهو الظَّهْر. وسَوَّلَ بمعنى: زَيَّنَ سُوءَ الفِعل. وهو مأخوذ مِن السُّول، وهو الاسترخاء . وفي تاج العروس(١/ ٧١٩٦):((التَّسْوِيلُ : تَحْسِينُ الشَّيْءِ وتَزْيِينُه وتَحْبِيبُهُ لِيَفْعَلَهُ أو يَقُولَهُ .وقالَ الرَّاغِبُ:هوَ تَزْيِينُ النَّفْسِ لِمَا حُرِصَ عليه وتَصْوِيرُ القَبِيحِ منهُ بِصُورَةِ الحسَن. وقالَ غيرُه : التَّسْوِيلُ تَفْعِيلٌ مِنَ السُّولِ وهو أُمْنِيَّةُ الإِنْسانِ يَتَمَنَّاها فَتُزَيِّنُ لِطَالِبِها الباطِلَ وغَيْرَهُ من غُرُورِ الدُّنيا)) .

---

(٢) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٨٢٣) برقم (٤٥٤٤)، ومسلم (٤/ ٢١٥٥) برقم (٢٧٩٨) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٤٠٨و٤٠٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ ارْتَدُّوا على أدبارِهِم ﴾ ، أي : رَجعوا كُفَّارًا . وفِيهِم قَولان : أحدهما أنهم المنافقون ، قاله ابن عباس والسُّدي وابن زيد . والثاني أنهم اليهود ، قاله قتادة ومُقاتل. ﴿ مِن بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى ﴾ ، أي : مِن بَعْد ما وضح لهم الحق ، ومَن قال : هُم اليهود . قال : مِن بَعْد أن تَبَيَّنَ لهم وصف رسول الله ﷺ ونَعْته في كتابهم . وسَوَّلَ بمعنى : زَيَّنَ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ذَلِكَ بأنهم قالوا للذينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُم في بَعْضِ الأمرِ واللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُم ﴾ [مُحَمَّد : ٢٦] .

لقد أضلَّ اللهُ هؤلاء المنافقين ، وتركهم في كفرهم وضلالهم ، لأنهم قالوا لليهود الذين كَرِهُوا القُرآنَ الذي نزَّله اللهُ على محمد ﷺ حَسَدًا وحِقْدًا وبَغْيًا وطَمَعًا في نُزوله عليهم : سَنُطيعكم في التعاون على مُحاربة محمد ﷺ وعداوته ، والقُعود عن الجهاد ، وتَثبيط المؤمنين عنه ، وغَير ذلك. وقد كانوا يقولونه في السِّر والباطن، فأظهره اللهُ وفضحهم ، وكشفَ خُططهم ومُؤامراتهم الدنيئة على الإسلام والمسلمين . وعادةُ المنافقين في كل زمان ومكان هي إظهار خِلاف ما يُبطِنون .

واللهُ يَعلم ما في قلوب هؤلاء المنافقين ، ومُطَّلِع على ما يُخْفُونه ويُسِرُّونه ، وعَالِم بِه ، لا تخفى عليه خافية ، ولا يَغيب عنه شيء . وسوفَ يُجازيهم على كفرهم ونفاقهم ، ويُعذِّبهم أشد العذاب .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٤٠٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ . قال الزَّجاج : المعنى : الأمر ذلك، أي ذلك الإضلال بِقَولهم ﴿ للذينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ ﴾. وفي الكارهين قَولان: أحدهما أنهم المنافقون ، فعلى هذا في مَعنى قَوله : ﴿ سَنُطِيعُكُم في بَعْضِ الأمرِ ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها في القُعود عن نُصرة محمد ﷺ ، قاله السُّدي . والثاني في الْمَيْل إليكم ، والمظاهرة على محمد ﷺ . والثالث في الارتداد بعد الإيمان ، حكاهما الماوردي . والثاني أنهم اليهود ، فعلى هذا في الذي أطاعوهم فِيه قَولان : أحدهما في أن لا يُصدِّقوا شيئًا مِن مَقالة رسول الله ﷺ، قاله الضَّحاك. والثاني في كَتْم ما عَلِموه مِن نُبُوَّته ، قاله ابن جُرَيج . ﴿ واللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُم ﴾ ... والمعنى أنه يَعْلَم ما بين اليهود والمنافقين مِن السِّر)) اهـ .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ كَفروا وَكَذَّبُوا بآياتِنا أُولئكَ أصحابُ الجحيم ﴾ [المائدة : ٨٦] .

والذين جَحدوا آيات الله وأدلته وحُجَجه الدَّالة على وَحدانيته ، وأنكَروا نُبُـوَّةَ محمد ﷺ ، أُولئك أهل النار الخالدون فيها، والْمُعذَّبون فيها ، ولا يَخرُجون مِنها أبدًا . والآيةُ تَشمل أهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين كذَّبوا القُرآن ، وجَحدوا آياته ، وأنكروا نُبُـوَّةَ محمد ﷺ ، وتشمل أيضًا المشركين عَبَدَة الأصنام والأوثان الذين أنكَروا وَحدانيةَ اللهِ ، وكذَّبوا بآياته ، وحاربوا رُسوله محمدًا ﷺ ، ورَفضوا نُبُوَّتَه . والجحيمُ النار الشديدة الاتِّقاد . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٥٩) : ((عَطَفَ التكذيب بآيات الله على الكفر، وهو ضَرْب (نَوْع) مِنه ، لأن القصد إلى بيان حال المكذِّبين)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٩) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وأمَّا الذين جَحدوا تَوحيدَ الله ، وأنكروا نُبُوَّةَ محمد ﷺ ، وكذَّبوا بآيات كتابه ، فإن ﴿ أُولئكَ أصحابُ الجحيم ﴾ . يقول : هُم سُكانها واللابثون فيها . و ﴿ الجحيم ﴾ ما اشتدَّ حَرُّه من النار ، وهو الجاحم والجحيم)) اهـ. وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وأمْطَرْنا عَلَيْهِم مَطَرًا فانظُرْ كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ المجرمين ﴾ [الأعراف : ٨٤]. يُبيِّن اللهُ العذابَ الذي أنزله على قَوم النبيِّ لُوط ﷺ . لقد أمطرَ اللهُ عليهم نَوْعًا عجيبًا وغريبًا مِن المطر ، وهو حِجارةً مِن سِجِّيل، فأهلكهم بهذا العذاب الشديد . وتشبيه الحجارة بالمطر لبيان كثرتها وتتابعها وقُوَّة تأثيرها، فانظر وتأمَّلْ كيف كانت نهاية قَوم لُوط ﷺ الذين كذَّبوا اللهَ ورسوله، وارتكبوا المعاصي والآثام والذنوب، وغرقوا في الشهوات والملذات . وهذا تهديد ووعيد لِمُشركي قُرَيش ، لئلا يَسيروا على خُطى الكافرين مِن الأقوام الغابرة ، فينزل بهم العذاب الشديد كما نزل بالسابقين . فينبغي أخذ الدروس والعِبَر مِن حال الأمم التي كذَّبت رُسلها ، فتمَّ تعذيبها وإهلاكها. والعاقلُ مَن اتَّعظَ بغيره ، ولَم يُكرِّر أخطاء السابقين.وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٥٤٢): ((يقول تعالى ذِكْرُه : وأمْطَرْنا على قَوم لُوط الذين كَذَّبوا لُوطًا ولَم يؤمنوا به مَطَرًا مِن حِجارة مِن سِجِّيل أهلكناهم به ﴿ فانظُرْ كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ المجرمين ﴾ يقول جَلَّ ثناؤه : فانظر يا محمد إلى عاقبة هؤلاء الذين كَذَّبوا اللهَ ورسولَه مِن قَوم لُوط، فاجترموا معاصي الله، وركبوا الفواحش،واستحلوا ما حَرَّمَ اللهُ مِن أدبار الرِّجال،كيف كانت وإلى أي شيء صارت،هل كانت إلا البَوَار والهلاك؟ فإن ذلك أو نظيره من العقوبة عاقبة مَن كَذَّبَكَ واستكبر عن الإيمان بالله وتصديقك إن لَم يتوبوا مِن قَومك)).

وقالَ اللهُ تعالى:﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلى الذينَ فَسَقُوا أنهم لا يُؤمِنُون ﴾[يُونُس: ٣٣].

هكذا صَدَقَتْ وَوَجَبَتْ كلمةُ الله (حُكمه وقضاؤه وعِلْمه السابق) بالشقاء والعذاب على الذين كفروا، وخرجوا من الحق إلى الباطل، ومِن الطاعة إلى المعصية، أنهم لا يُصدِّقون بآيات الله، ولا يَعترِفون بِنُبُوَّة محمد ﷺ ، وأنهم خالدون في عذاب النار .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٥٩): ((يقول تعالى ذِكْرُه: كَمَا قد صُرِفَ هؤلاء المشركون عن الحق إلى الضلال ، ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ . يقول : وَجَبَ عليهم قضاؤه وحُكمه في السابق مِن عِلْمه ﴿ عَلى الذينَ فَسَقُوا ﴾ فخرجوا مِن طاعة ربهم إلى معصيته ، وكفروا به ، ﴿ أنهم لا يُؤمِنُون ﴾ . يقول : لا يُصدِّقون بِوَحدانية الله ، ولا بِنُبُوَّة نَبِيِّه ﷺ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ولا تَبْغِ الفَسَادَ في الأرضِ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفسِدين ﴾[القَصَص: ٧٧] .

ولا تَعمَل بالمعاصي في الأرض ، ولا تُسِئْ إلى الناس ، إن الله لا يُحِب المجرمين المفسدين لِسُوء أخلاقهم، وقُبح أفعالهم. وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٠٥):(﴿ ولا تَبْغِ الفَسَادَ في الأرضِ ﴾ . يقول : ولا تلتمس ما حَرَّمَ اللهُ عليك مِن البَغي عَلى قَومك ، ﴿ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفسِدين ﴾ . يقول : إن الله لا يُحِبُّ بُغاةَ البَغي والمعاصي)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ تِلْكَ الدارُ الآخرةُ نَجْعَلُهَا للذينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأرضِ ولا فَسَادًا والعَاقِبَةُ للمُتَّقِين ﴾ [القَصَص : ٨٣] .

الإشارةُ لتعظيم القَدْر وتفخيم الشأن . أي : تلك الجنة العالية ذات المكانة المقدَّسة والمنْزلة الشريفة ، والتي نعيمها دائم لا يَزُول ولا يَنقطع ، ليست في متناول الجميع ، بل يحصل عليها المؤمنون الصادقون المتواضعون ، الذين لا يُريدون ظُلْمًا واستكبارًا في الأرض ، ولا فسادًا بعمل المعاصي وارتكاب الذنوب . وَعُلُوُّ مكانة الجنة دافع للعمل مِن أجل نَيْلها والحصول عليها .

وهذا الوعدُ الإلهيُّ لا يتخلَّف ولا يَبطُل ، وهو واقعٌ لا مَحَالة ، لأن كلام الله حَق وصِدق . والوعدُ الإلهيُّ في الآية غَير مُرتبط بترك العُلُوِّ والفساد ، ولكنه مرتبط بترك إرادتهما. وتَرك الإرادة يَعني مَنع النَّفْس مِن الْمَيْل إلى العُلُوِّ والفساد . وهذه رُتبة سامية لا يصل إليها إلا الْمُخْلِصُون .

والعاقبةُ الحسنة لِمَن اتَّقى عذابَ الله وعِقابه بامتثال أوامره وعمل الطاعات، واجتناب نَواهيه، وترك المعاصي . والعاقبةُ المحمودةُ هي الجنة ، وقد أعَدَّها اللهُ للمُتَّقين .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٤٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدارُ الآخرةُ ﴾ يعني الجنة ﴿ نَجْعَلُهَا للذينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأرضِ ﴾ ، وفيه خمسة أقوال : أحدها أنه البَغي ، قاله

سعيد بن جُبَير . والثاني الشرف والعِز ، قاله الحسن . والثالث الظلم ، قاله الضَّحاك . والرابع الشِّرك،قاله يحيى بن سلام.والخامس الاستكبار عن الإيمان،قاله مقاتل.قَوله تعالى: ﴿ ولا فَسَادًا ﴾ فِيه قَولان : أحدهما العمل بالمعاصي ، قاله عِكرمة . والثاني الدُّعاء إلى غَير عبادة الله ، قاله ابن السائب . قَوله تعالى : ﴿ والعَاقِبَةُ للمُتَّقِين ﴾ ، أي : العاقبة المحمودة لهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعةُ يُبْلِسُ المجرمون ﴾[الرُّوم : ١٢] .

ويَوْمَ تقومُ القِيامة ، ويَبعث اللهُ الناسَ مِن قُبورهم ، ويَحشرهم ، كَي يَحكم بينهم بالحق ، يَيْأس الكفارُ الغارقون في المعاصي والذنوب مِن كل خَير ، وتَنقطع حُجَّتهم ، ويَزُول عُذْرُهم ، ويَسكتون لانقطاع حُجَّتهم ويأسهم من الرحمة ، ويُفْتَضَح أمرُهم ، ويَندمون حِين لا يَنفع الندم .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٧١) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ويَوْمَ تجيء الساعةُ التي فيها يَفصِل اللهُ بَيْنَ خَلْقِه ، ويَنشر فيها الموتى مِن قُبورهم، فيحشرهم إلى موقف الحساب، ﴿ يُبْلِسُ المجرمون ﴾ . يقول : يَيْأس الذين أشركوا بالله ، واكتسبوا في الدنيا مساوئ الأعمال مِن كُل شَر ، ويكتئبون ، ويتندَّمون)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعةُ يُقْسِمُ المجرمونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كانوا يُؤفَكُون ﴾ [الرُّوم : ٥٥] .

ويَوْمَ تقومُ القيامة ، ويَجْمع اللهُ الناسَ للحساب ، يَحلِف الكفارُ الذينَ أجرموا في الدُّنيا ، وارتكبوا المعاصي والذنوبَ، وغرقوا في الشهوات والملذات، أنهم ما مَكَثُوا في الدنيا أو في قبورهم إلا ساعة . لقد استقلوا مُدَّةَ وُجودهم في الدنيا الفانية ، لَمَّا رَأَوا الآخرةَ الباقيةَ وأهوالها وشدائدها. وقد كَذَبوا في هذا الوقت ، كما كانوا يَكْذِبُون في الدنيا ، وفضحهم اللهُ على رُؤوس الأشهاد . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٨٠) : ((يُخبِر تعالى عن جَهْل الكفار في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا فَعلوا من عبادة الأوثان ، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضًا ، فَمِنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الْحُجَّة عليهم، وأنهم لَم يُنظَروا ، حتى يَعذِر إليهم))اهـ . كذلك كانوا في الدنيا ، يُصرَفون عن الحق إلى الباطل ، وعن الطاعة إلى المعصية . وقد سُمِّيت القيامة بالساعة لِوُقوعها بَغتة ، أو لِسُرعة حسابها ، أو لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا .

وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (١٢/ ٢٠) : ((المراد بالساعة أوَّلاً القيامة ، وبالثانية المدَّة الزمنية ، فبينهما جِناس كامل ، وهذا مِن المحسِّنات البديعية)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣١١) : ((﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعةُ ﴾ . قال الزَّجاج : السَّاعة في القرآن على معنى الساعة ، التي تقوم فيها القيامة ، فلذلك لَم تُعرَف أي ساعة هِيَ . قَوله تعالى: ﴿ يُقْسِمُ المجرمونَ ﴾ أي: يَحلِف المشركون ﴿ ما لَبِثُوا ﴾ في القُبور ﴿ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كانوا يُؤفَكُون ﴾ . قال ابن قُتَيبة : يُقال : أُفِكَ الرَّجل إذا عُدِلَ بِه عن الصَّدق ، فالمعنى : أنهم قد كذبوا في هذا الوقت ، كما كذبوا في الدنيا. وقال غَيره : أراد اللهُ تعالى أن يفضحهم يوم القيامة بين المؤمنين،فحلفوا على شيء يبين للمؤمنين كذبهم فيه، ويستدلون على كذبهم في الدنيا)).

وقال اللهُ تعالى: ﴿ وأمَّا الذينَ فَسَقُوا فَمَأوَاهُمُ النارُ كُلَّما أرادوا أن يَخْرُجوا مِنها أُعِيدُوا فِيها وَقِيلَ لهم ذُوقُوا عَذَابَ النارِ الذي كُنتم بِهِ تُكَذِّبُون ﴾ [السَّجدة : ٢٠] .

وأمَّا الذين كَفروا بالله ، وخرجوا عن طاعته إلى معصيته ، وكذَّبوا بآياته ، وتمرَّدُوا على رُسله، فمسكنهم الذي يَأوون إليه ومَنْزلهم الذي يُقيمون فيه ، نار جهنم . كُلَّما دَفَعَهم لهبُ النار إلى أعلاها رُدُّوا إلى مَوضعهم فيها رَغْمًا عنهم ، لأنهم يُريدون الخروجَ مِنها ، والنجاة مِن العذاب . وهذا يدل على خلودهم في النار ، واستحالة خُروجهم مِنها .

وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٦١٠) : ((قال الفُضَيل بن عِياض : والله إن الأيدي لَمُوَثَّقَة ، وإن الأرجل لَمُقيَّدة ، وإن اللهب لَيَرفعهم ، والملائكة تقمعهم)) اهـ .

وتقول لهم خزنة جهنم تقريعًا وتوبيخًا وإهانةً لهم : ذُوقوا عذابَ النار الشديد الذي كُنتم تُنكِرونه في الدنيا ، وتَسخرون مِنه، وتستهزئون بِه. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٣٦٢) : ((وفي هذا القَول لهم حال كَوْنهم قد صاروا في النار مِن الإغاظة لهم ما لا يَخفَى)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ العذابِ الأدنى دُونَ العذابِ الأكبرِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُون ﴾ [السَّجدة : ٢١] .

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِن العذاب الأقرب ، وهو عذاب الدُّنيا مِن القتل والأسْر والمصائب في أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، قَبل الخلود في عذاب النار الذي يَنتظرهم في الآخرة ، وهو العذاب الأشد والأكبر والأعظم ، لعلَّهم يَتوبون مِن الكفر والمعاصي والذنوب ، ويَرجعون إلى الإيمان والطاعة . وهذا وعيد شديد ، وتهديد مُخيف .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣٤١ و٣٤٢): ((قَوله: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ العذابِ الأدنى ﴾ . وفيه ستة أقوال : أحدها أنه ما أصابهم يوم بَدْر ، رواه مسروق عن ابن مسعود ، وبه

قال قَتادة والسُّدي . والثاني سُنون أُخِذُوا بِها ، رواه أبو عُبَيدة عن ابن مسعود ، وبه قال النَّخعي. وقال مُقاتل : أُخِذُوا بالجوع سبع سنين . والثالث مصائب الدنيا ، قاله أُبَي بن كَعْب وابن عباس في رواية ابن أبي طلحة وأبو العالية والحسن وقَتادة والضَّحاك . والرابع الحدود ، رواه عِكرمة عن ابن عباس.والخامس عذاب القبر ، قاله البراء. والسادس القتل والجوع، قاله مجاهد. قَوله تعالى : ﴿ دُونَ العذابِ الأكبرِ ﴾ ، أي : قبل العذاب الأكبر ، وفيه قَولان : أحدهما أنه عذاب يوم القيامة، قاله ابن مسعود . والثاني أنه القتل بِبَدْر، قاله مقاتل. قَوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُم يَرْجِعُون ﴾ . قال أبو العالية : لعلهم يتوبون . وقال ابن مسعود : لعلَّ مَن بَقِيَ مِنهم يتوب . وقال مُقاتل : لكي يَرجعوا عن الكفر إلى الإيمان)) اهـ .

وعن مسروق عن عبد الله ــ رضي اللهُ عنه ــ : ــ ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ العذابِ الأدنى دُونَ العذابِ الأكبرِ ﴾ . قال : ((يَوْمُ بَدْر)) [1] .

وعن أُبَي بن كَعْب ــ رضي اللهُ عنه ــ أنه قال في هذه الآية: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ العذابِ الأدنى دُونَ العذابِ الأكبرِ ﴾ . قال : ((مُصيباتُ الدنيا : الرُّوم ، والبَطْشَة ، أو الدُّخَان . قال : ثُمَّ انقطعَ شَيء ، فقال : هو الدَّجَّال)) [2].

هذا تفسيرُ أُبَي بن كعب ــ رضي اللهُ عنه ــ للآية ، والمقصود بكلامه على النَّحْو التالي :

١ــ الرُّوم : قالَ اللهُ تعالى : ﴿ غُلبت الرُّومُ ﴾ [الرُّوم : ٢] .

٢ــ البَطْشَة : قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرى ﴾ [الدُّخَان : ١٦] . وهو القتل الذي وقع يَوْم بَدْر .

٣ــ الدُّخَان : قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ تأتي السَّماءُ بِدُخَانٍ مُبِين ﴾ [الدُّخَان : ١٠] .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ولا تَكُونوا كالذينَ نَسُوا اللهَ فأنسَاهُم أنفُسَهُم أُولئكَ هُمُ الفَاسِقُون ﴾ [الحشر : ١٩] .

الخطابُ الإلهيُّ للمؤمنين إرشادًا وتنبيهًا وتحذيرًا لهم . ولا تكونوا أيها المؤمنون كالذين نسُوا ذِكْرَ الله وطاعته، وتركوا أوامرَه ونَواهيه، وأهْمَلُوا فرائضه وحُقوقه،وأعْرَضُوا عن شُكره وتعظيمه، فأنساهم حُظوظَ أنفسهم ، ومصالحها ، ومنافعها ، ومَنَعَ عنهم الخيرات ، وأنساهم أن يَعملوا

---

(١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٤٩) برقم (٣٥٥١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٤٧٤) برقم (٨٣١٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

لأنفسهم فيما يَنفعها يوم القيامة ، فغرقوا في المعاصي والذنوب ، ولَم يَعملوا بالطاعة ، ولَم يُقدِّموا خَيْرًا .

نَسُوا حَقَّ الله فأنساهم اللهُ حَقَّ أنفسهم ، حتى لَم يُقدِّموا لها خَيْرًا يَنفعها ويُفيدها. وهذا مِن الْمُجازاة على الذنب بالذنب. والجزاء من جِنس العمل. وهذا هو الخِذلان . ومَن خَذَلَه اللهُ لَن يَنصره أحد . لقد خَذَلَهم اللهُ وَوَكَلَهُم إلى أنفسهم عُقوبةً لهم بما كسبت أيديهم .

أُولئك هُم الفَجَرَة العاصون ، الخارجون عن طاعة الله إلى معصيته ، الخاسرون في يوم القيامة، الخالدون في نار جهنم . و﴿ أُولئكَ ﴾ اسم إشارة للبعيد، يدل على بُعدهم في الضلال والمعصية.

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٤٠): ((قَوله تعالى : ﴿ ولا تَكُونوا كالذينَ نَسُوا اللهَ ﴾ أي: تركوا أمْرَه ، ﴿ فأنسَاهُم أنفُسَهُم ﴾ أن يَعملوا لها خَيْرًا ، قاله ابن حَيَّان . وقِيل: نسُوا حَقَّ الله فأنساهم حَقَّ أنفسهم ، قاله سُفيان . وقِيل : ﴿ نَسُوا اللهَ ﴾ بترك شُكره وتعظيمه ، ﴿ فأنسَاهُم أنفُسَهُم ﴾ بالعذاب أن يُذكِّر بعضهم بعضًا ، حكاه ابن عيسى. وقال سهل بن عبد الله : ﴿ نَسُوا اللهَ ﴾ عند الذنوب﴿ فأنسَاهُم أنفُسَهُم ﴾ عِند التَّوبة.ونَسَبَ تعالى الفِعل إلى نفْسه في﴿ فأنسَاهُم ﴾ إذ كان ذلك بسبب أمْرِه ونَهْيه الذي تركوه . وقِيل : معناه : وَجَدَهم تاركين أمره ونَهْيه ... .

وقِيل : ﴿ نَسُوا اللهَ ﴾ في الرخاء ، ﴿ فأنسَاهُم أنفُسَهُم ﴾ في الشَّدائد . ﴿ أُولئكَ هُمُ الفَاسِقُون ﴾ . قال ابن جُبَير : العاصون . وقال ابن زيد : الكاذبون . وأصل الفِسْق الخروج ، أي: الذين خرجوا عن طاعة الله)) .

الفصل الخامس : الكافرون المُنكِرون ليوم البَعْث

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وما كانوا مُهْتَدِين ﴾ [يُونُس : ٤٥] .

فضحهم اللهُ ووصمهم بالخِزي والعار . لقد أنكَروا البعثَ والحساب والجنة والنار ، ولَم يُؤمنوا بوجود حياة بعد الموت ، واعتقدوا أن الموت هو نهاية المطاف ، ولا شَيء بعده ، فَضَلُّوا ، وهَلَكُوا ، وأضاعوا مصيرهم ، وخسروا ثوابَ الجنة .

لقد خسروا أنفسهم يوم القيامة ، وظلموها أشدَّ الظلم ، لأنهم قادوها إلى الخلود في عذاب النار، دُون وجود أيَّة فرصة للتعويض . وخسارةُ الإنسان لنفْسه هي الخسارة العُظمى والكارثة الكُبرى . ولا يُوجد أسوأ مِنها . وما كانوا مُهتدين مِن الضلالة إلى طريق الحق ، بسبب جهلهم وعنادهم وأهوائهم ، وعدم سَعْيهم لمعرفة الهدى والرشاد .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٤٩): ((﴿ قَدْ خَسِرَ الذينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وما كانوا مُهْتَدِين ﴾ . هذا تسجيل مِن الله سُبحانَه عليهم بالْخُسران،والجملة في محل النَّصْب على الحال . والمراد بلقاء الله يوم القيامة عند الحساب والجزاء . ونفى عنهم أن يكونوا مِن جِنس المهتدين ، لجهلهم وعدم طلبهم لِمَا يُنجِّيهم ويَنفعهم)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٥٦٤) : ((﴿ وما كانوا مُهْتَدِين ﴾. يقول: وما كانوا مُوفَّقين لإصابة الرُّشد مِمَّا فعلوا من تكذيبهم بلقاء الله، لأنه أكسبهم ذلك ما لا قِبَلَ لهم به من عذاب الله)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إنكم مَبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الذينَ كَفروا إنْ هذا إلا سِحْرٌ مُبِين ﴾ [هُود : ٧] .

ولَئِن قُلْتَ يا محمد للمُشركين مِن قَومك : إن الله سَيَبعثكم أحياءً مِن بعد مَوتكم للحساب والجزاء ، فَيُجازي المحسِن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، لَقَالوا عِنادًا واستكبارًا : إن القُرآن باطل واضح وخديعة بَيِّنة كالسِّحر . وبما أن القُرآن هو الْمُتضمِّن للبَعْث ، فإن تكذيب القُرآن واتِّهامه بالسِّحر إنكارٌ للبعث .

وقال أبو السعود في تفسيره (٤/ ١٨٨) : ((﴿ وَلَئِن قُلْتَ إنكم مَبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ على ما يُوجبه قضية الابتلاء لِيَترتب عليه الجزاء المتفرِّع على ظُهور مراتب الأعمال، ﴿ لَيَقُولَنَّ الذينَ كَفروا ﴾ . إنْ وُجِّهَ الخطاب في قَوله تعالى : ﴿ إنكم ﴾ إلى جميع الْمُكَلَّفِين ، فالموصول مَعَ صِلَته للتخصيص ، أي : لَيَقُولَنَّ الكافرون مِنهم . وإن وُجِّهَ إلى الكافرين مِنهم ، فهو وارد على

طريقة الذم . ﴿ إنْ هذا إلا سِحْرٌ مُبِين ﴾ ، أي : مِثله في الخديعة أو البُطلان . وهذا إشارة إلى القَول المذكور، أو إلى القرآن ، فإن الإخبار عن كَوْنهم مبعوثين ، وإن لَم يجب كَوْنه بطريق الوَحْي الْمَتْلُوِّ ، إلا أنهم عند سماعهم ذلك تخلصوا إلى القرآن لإنبائه عنه في كل موضع ، وكَوْنه عِلْمًا عِندهم في ذلك ، فعمدوا إلى تكذيبه وتسميته سِحْرًا ، تَمَادِيًا منهم في العِناد ، وتفاديًا عَن سُنن الرَّشاد . وقِيل : هو إشارة إلى نفْس البَعْث ، ولا يُلائمه التَّسمية بالسِّحر ، فإنه إنما يُطلَق على شيء موجود ظاهرًا لا أصل له في الحقيقة ، ونفْس البَعْث عِندهم معدوم بَحْت)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿فالذينَ لا يُؤمِنُونَ بالآخرةِ قُلُوبُهُم مُنكِرَةٌ وَهُم مُسْتَكْبِرُون ﴾ [النَّحْل: ٢٢].

فالذين لا يُصدِّقون بالبَعْث والحساب والجنة والنار ، ولا يُقِرُّون بوجود حياة بعد الموت ، قُلوبهم جاحدة لِوَحدانية الله ، ومُنكِرة للآيات الدالة عليها، ولا تَقْبل النصيحةَ والوَعْظَ والإرشادَ ، ولا يُؤثِّر فيها ترغيب ولا ترهيب . والقلبُ الكافر بالآخرة لَن يرى آياتِ الله ومُعجِزاته ودلائل وَحدانيته ، ولَن يتأثر بمظاهر قُدرة الله وإبداع خَلْقه وإتقان صُنعه .

وهُم مُستكبرون عَن تَوحيد الله، وإفراده بالأُلوهية والعبادة ، ومُتَكَبِّرُون عن قَبول الحق ، ومُتَعَظِّمُون عن الخضوع للصواب ، ورَافضون للهدى والإيمان ، ومُستمرون في الكفر والضلال والتكذيب، بعد وضوح الأدلة وظهور البراهين أمامهم، وإقامة الْحُجَّة عليهم، وانقطاع أعذارهم . وهذا يدل على اتِّباعهم لأهوائهم ، وتقليدهم الأعمى لآبائهم المشركين . وعدم التصديق باليوم الآخر يَجعل نظر الإنسان قاصرًا ومحصورًا في دائرة ضَيِّقة ، ومُسَلَّطًا على حُطام الدنيا الفاني ، وهذا يَجعله غارقًا في الشهوات الآنية والملذات الزائلة، وبعيدًا عن التأمل والتفكير والتحليل والاستنباط . أمَّا التصديق باليوم الآخر وما فيه مِن ثواب وعِقاب وجنة ونار ، فإنه يَدفع الإنسان إلى التفكير بشكل عميق في مساره ومصيره . وإذا طلب الإنسانُ الحقَّ بصدق ، وسعى إليه بإنصاف وتَجَرُّد ، بعيدًا عن الأهواء والمصالح المادية ، فإن اللهَ سَيَهديه إلى الإيمان .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٢) : ((﴿فالذينَ لا يُؤمِنُونَ بالآخرةِ قُلُوبُهُم مُنكِرَةٌ وَهُم مُسْتَكْبِرُون ﴾ ، بَيان لِمَا اقتضى إصرارهم بعد وضوح الحق ، وذلك عدم إيمانهم بالآخرة ، فإن المؤمن بها يكون طالبًا للدلائل ، مُتَأمِّلاً فيما يَسمع ، فينتفع به. والكافر بها يكون حاله بالعكس . وإنكار قلوبهم ما لا يُعرَف إلا بالبُرهان اتِّبَاعًا للأسلاف ، وزُكُونًا إلى المألوف ، فإنه يُنافي النظر. والاستكبار عن اتِّباع الرسول وتصديقه والالتفات إلى قَوله . والأول هو العُمدة في الباب، ولذلك رتَّب عليه ثبوت الآخَرَيْن)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وأنَّ الساعةَ آتيةٌ لا رَيْبَ فِيها وأنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن في القُبور ﴾[الحج : ٧].

إن يَـوْم القيامـة آتٍ وواقـع وكـائن لا مَحَالـة ، لا شَـك فيـه ولا مِرْيـة ، واللهُ يُحيـي الأمـوات ، ويُخرجهم مِن قُبورهم، ويَجمعهم للحساب والجزاء والثواب والعِقاب، فَيُجازي المحسِن بإحسانه، والْمُسيء بإساءته. والوعدُ الإلهيُّ واقعٌ لا يتخلَّف. واللهُ لا يَتراجع في كلامه ، ولا يُخلِف الميعاد .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٢٦) : ((أخبرَ سُبحانَه بأن ﴿ الساعةَ آتيةٌ ﴾ أي : في مستقبل الزمان. قِيل: لا بُد مِن إضمار فِعْل. أي : وَلِتَعْلَمُوا أن الساعة آتية ، ﴿ لا رَيْبَ فِيها ﴾ أي : لا شَك فيها ولا تردُّد . وجُملة ﴿ لا رَيْبَ فِيها ﴾ خبر ثانٍ للساعة ، أو في مَحل نصب على الحال ، ثُمَّ أَخبرَ سُبحانَه عَن البَعْث ، فقالَ : ﴿ وأنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن في القُبور ﴾ فَيُجازيهم بأعمالهم ، إن خَيْرًا فخير ، وإن شَرًّا فشر ، وأن ذلك كائن لا مَحَالة)) اهـ .

وعن أنس بن مالك قال : ((كانوا يَكتبون في صُدور وصاياهم ، هذا ما أَوْصَى به فُلان ابن فُلان ، أَوْصَى أنه يَشهد أن لا إله إلا الله ، وَحْدَه لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن الساعة آتية لا رَيْبَ فيها ، وأن الله يَبعث مَن في القبور ...)) [1].

هـذا الحـديثُ الموقـوف يـدل علـى أهميـة كتابـة الوصـية ، وحِـرص السـلف الصـالح عليهـا ، والاعتناء بها،والاعتراف فيها بِوَحدانية الله ونُبُوَّةِ محمد ﷺ،والتَّصديق بيوم القيامة،والإقرار بالبَعْث.

وعلى المرء أن يُبادِر إلى كتابة وصيته قبل أن يُباغته الموت، ويَنبغي أن يَكتب وصيته ، ويُشهِد عليها ، مِن أجل حفظها ، وعدم ضياعها .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بالساعةِ وأعْتَدْنا لِمَن كَذَّبَ بالساعةِ سَعِيرًا ﴾[الفُرقان : ١١] .

كـذَّب المشركون بيوم القيامة ، وأنكَروا البَعْثَ ، ولَم يَعترفوا بوجود حياة بعد الموت ، ولَم يُصدِّقوا بالثواب والعِقاب، والجنة والنار. لذلك ، لا يَنتفعون بالآيات ، ولا يَستفيدون مِن الْحُجَج والمعجِزات. وكُل تفكيرهم منصبٌّ على حُطام الدنيا الفاني، ولا يَرَوْنَ شيئًا غَيْرَه. وقد أعَدَّ اللهُ وهَيَّأَ لِمَن أنكرَ يومَ القيامة وجَحَدَه نارًا مُتأجِّجة شديدة الاشتعال والاستعار ، وهي نار جهنم .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٣٦٩) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ما كَذَّبَ هؤلاء المشركون بالله وأنكروا ما جِئتهم به يا محمد من الحق ، مِن أجل أنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ، ولكن مِن أجل أنهم لا يُوقنون بالْمَعَاد ، ولا يُصدِّقون بالثواب والعقاب ، تكذيبًا منهم بالقيامة وبعث الله

---

(١) رواه البَيهقي في سُننه (٦/ ٢٨٧) ، والدارقطني في سُننه (٤/ ١٥٤) .

الأموات أحياءً لحشر القيامة، ﴿ وأعْتَدْنا ﴾ . يقول : وأَعْدَدْنا لِمَن كَذَّبَ بِبَعْث الله الأموات أحياءً بعد فنائهم لقيام الساعة نارًا تُسعَّر عليهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ زَعَمَ الذينَ كَفروا أن لن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وربِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤنَّ بِما عَمِلْتُم وَذَلِكَ عَلى اللهِ يَسِير ﴾ [التغابُن : ٧] .

ادَّعى كفارُ العرب الذين يُنكِرون وَحدانيةَ الله ، ويُكذِّبون بآياته ، ويَجحدون نُبُـوَّةَ محمد ﷺ ، أن اللهَ لَن يُخرِجهم مِن قُبورهم أحياءً أبدًا . والزَّعْمُ هو القَول بالظن ، ويُطلَق على الكذب .

قُل يا محمد رَدًّا عليهم ، وإبطالاً لزعمهم ، وفضحًا لباطلهم: بَلى وربِّي لَتُبْعَثُنَّ من قبوركم ، وتُخْرَجُنَّ أحياءً، ثُمَّ لَتُخْبَرُنَّ بجميع أعمالكم التي قُمتم بها في الدنيا،صغيرها وكبيرها، لإقامة الْحُجَّة عليكم وقَطع أعذاركم، وتُجْزَوْنَ بِأعمالكم كاملةً غَير منقوصة ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر . وتأكيد الكلام بالقَسَم : ﴿ وربِّي ﴾ للتأكيد التام، والتهديد الأكيد ذي الوَقْع الشديد في النفوس .

وبعثُ الناس من قبورهم وحسابهم سهل هيِّن على الله، لأن إعادة الخلق أسهل وأهْوَن مِن ابتدائه (الإيجاد مِن العدم). وهذا وَفْق عقول الناس ، وحَسَب تفكيرهم . وكُل شيء عِند الله سَهْل هَيِّن ، ولا يُوجد عِنده سُبحانَه شيء أسهل من شيء ، لأن كل شيء خاضع لإرادة الله ومشيئته ، ولا يُعجِزه شيء. والتفاوُتُ إنما هو حَسَب العقول البشرية القاصرة .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ١١٤) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : زَعَمَ الذين كفروا بالله أن لَن يَبعثهم الله إليه مِن قُبورهم بعد مَماتهم.وكان ابن عمر يقول: زَعَمَ كُنية الكذب... . وقَوله : ﴿ قُلْ بَلَى وربِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ . يقول لِنَبِيِّه محمد ﷺ : قُل لهم يا محمد : بلى وربِّي لَتُبْعَثُنَّ مِن قُبوركم ، ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤنَّ بِما عَمِلْتُم ﴾ . يقول : ثُمَّ لَتُخْبَرُنَّ بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا، ﴿ وَذَلِكَ عَلى اللهِ يَسِير ﴾ . يقول : وبَعْثُكم مِن قُبوركم بعد مَماتكم على الله سَهْل هَيِّن)) اهـ .

الفصل السادس : الْمُكَذِّبون الظالمون

١ــ صِفاتهم :

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بالحقِّ لَمَّا جَاءَهُم فَسَوْفَ يَأتِيهِم أنباءُ ما كانوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾ [الأنعام : ٥] .

فقد كذَّب مُشركو مكة عَبَدَةُ الأصنامِ والأوثان بالقُرآن العظيم الذي جاءهم مِن عِند الله حقًّا وصِدْقًا، فَسَوْفَ يَنْزِل عليهم العذاب وتَحِل بِهم العقوبة عاجلاً أو آجلاً ، ويظهر لهم خَبَر ما كانوا به يستهزئون ، ويَسخرون مِنه ، وهو القُرآن العظيم ، وذلك عند تعذيبهم ومُعاقبتهم .

وعندما يُصيبهم العذابُ سيعرفون أن القُرآن هو الوَحْيُ الإلهيُّ المقدَّس الْمُنَزَّه عن كُل عَيب ونَقْص ، وهو يستحق التعظيم لا الاستهزاء. وسَوْفَ يُدرِكون نتيجةَ استهزائهم وعاقبةَ سُخريتهم عندما يُعذَّبون ، ويَندمون أشد الندم لا يَنفع الندم ، ويَعرِفون الحقَّ بعد فَوات الأوان .

وكلمة ﴿ أنباءُ ﴾ تدل على خبر عظيم ، وليس خبرًا عاديًّا أو عابرًا .

واللهُ لَم يقل : فسوفَ يأتيهم أنباء القُرآن أو خبر القُرآن ، وإنما قال : ﴿ فَسَوْفَ يَأتِيهِم أنباءُ ما كانوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾ ، وهذا الإبهام لتعظيم شأن القُرآن وتفخيمه ، والتَّخويف مِن تكذيبه والترهيب مِن الإعراض عنه .

وإذا كان المشركون قد أنكَروا القُرآنَ وأعرَضوا عنه وكذَّبوا بآياته ، وهو أعظم المعجِزات على الإطلاق ، وأكبر الأدلة بلا مُنَازِع ، فمن الطبيعي أن يُعرِضوا عن غَيْره .

والآيةُ تشتمل على تهديد أكيد ووعيد شديد على سُخريتهم واستهزائهم بالقُرآن ، وإنكارهم له، وتكذيبهم بآياته الباهرة وأدلته الواضحة وحُجَجه الجلِيَّة وبراهينه الساطعة .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ١٤٩) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : فقد كذَّب هؤلاء العادلون بالله الحقَّ لَمَّا جاءهم ، وذلك الحق هو محمد ﷺ ، كذَّبوا به وجَحدوا نُبُوَّته لَمَّا جاءهم. قال اللهُ لهم مُتَوَعِّدًا على تكذيبهم إيَّاه وجُحودهم نُبُوَّته : سوف يأتي المكذِّبين بك يا محمد مِن قَومك وغَيرهم ﴿ أنباءُ ما كانوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾ . يقول : سوف يأتيهم أخبار استهزائهم بما كانوا به يستهزئون ، مِن آياتي وأدلتي التي آتَيْتُهُم. ثُمَّ وَفَى لهم بوعيده لَمَّا تَمادَوْا في غَيِّهم، وعَتَوْا على رَبِّهم، فقتلتُهم يوم بَدْر بالسَّيف)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظالمينَ بَعْضًا بِما كانوا يَكْسِبُون ﴾ [الأنعام: ١٢٩][1].

يُسَلِّطُ اللهُ بَعْضَ الظالمين على بَعْضٍ بسبب ارتكابهم للمعاصي والآثام. واللهُ تعالى يَنتقم من الظالمين بالظالمين ، ثم يَنتقم منهم جميعًا . وهذا تهديدٌ للظالم ، إذا لَم يَمتنع عن ظُلْمه ، فإن الله تعالى سَيُسَلِّطُ عليه ظَالِمًا آخَر . والآيةُ تَشمل جميعَ أنواع الظلم ،كظُلم الشخص لنفْسه ، أو ظُلم الحاكم للمحكوم ، أو ظُلم التاجر للزبائن ، أو ظُلم الأب لأسرته ، ... إلخ .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ٧٦): ((وقال الفُضَيْل بن عِياض:إذا رأيتَ ظالِمًا ينتقم من ظالم ، فَقِفْ وانظُرْ فيه مُتَعَجِّبًا . وقال ابن عباس : إذا رَضِيَ اللهُ عن قَوم وَلَّى أمرَهم خِيارَهم ، وإذا سَخِطَ اللهُ على قَوم وَلَّى أمرَهم شِرارَهم)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٣٧): ((وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الباقي ابن أحمد من طريق سعيد بن عبد الجبار الكرابيسي عن حماد بن سَلَمة عن عاصم عن زِر عن ابن مسعود مرفوعًا : " مَن أعانَ ظَالِمًا سَلَّطه اللهُ عَلَيْه " [2] ، وهذا حديث غريب)) اهـ .

وصدقَ القائلُ :

ومَا مِن يَدٍ إلا يَدُ الله فَوْقَها ولا ظالِم إلا سَيُبْلَى بظالِمِ

وقال السُّيوطي في الدُّر المنثور (٤/ ٦١٨) : ((وأخرج أبو الشيخ عن مالك بن دينار _ رضي الله عنه _ قال: قرأتُ في بعض الكتب:" إني أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي ، فلا تَشغلوا قلوبَكم بِسَبِّ الملوك ، وادعوني أُعَطِّفْهُم عَليكم)) اهـ .

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٢٤): ((قَوْله تعالى:﴿ وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظالمينَ بَعْضًا ﴾ . في معناه أربعة أقوال : أحدها _ نجعل بعضهم أولياء بعض، رواه سعيد عن قتادة .والثاني _ نُتبع بَعْضَهم بَعضًا في النار بأعمالهم، مِن الْمُوالاة وهي الْمُتابَعة، رواه مَعْمَر عن قتادة. والثالث_ نُسلِّط بعضَهم على بعض، قاله ابن زيد. والرابع_ نَكِلُ بعضَهم إلى بعض ولا نُعينهم،ذَكَرَه الماوَرْدِيُّ)) .

(٢) حديث مَوضوع . لكنَّ معناه _ بشكل عام _ صحيح. قال الشوكاني في الفوائد المجموعة (١/ ٢١١): ((في إسناده مُتَّهم بالوَضْع))اهـ. وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٦/ ٧٢): (((ابن عساكر) في التاريخ ، من جهة الحسن بن زكريا عن سعيد بن عبد الجبار الكرابيسي عن حماد ابن عاصم بن بَهْدَلة عن زِر (عن ابن مسعود). قال السَّخاوي : وابن زكريا هو العدوي مُتَّهم بالوَضْع ، فهو آفته)) .

إذا كانت الشعبُ سائرًا في طريق الله ، فإن الله تعالى سيختار لهم حاكمًا عادلاً رحيمًا . وإذا كانَ الشعبُ ماضيًا في طريق الفُجور ، فَسَوْفَ يُبْتَلَى بحاكم ظالم يُدمِّر البلادَ والعِبادَ . وكما تكونوا يُوَلَّ عليكم [3]. فلا فائدة من شتم الحكام والأمراء ، وإنما الفائدةُ في دعاء الله تعالى ، والالتزام بأوامره ، واجتناب نواهيه . والشعبُ إذا كانَ ظالِمًا ، سَوْفَ يُبْتَلَى بحاكم ظالم . وإذا فَسد الناسُ ، حَكَمَهم شِرارُهم . وإن وجود الحاكم العادل دليل على رضا الله عن الناس ، ووجود الحاكم الظالم دليل على غضب الله على الناس .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿والذينَ كَذَّبُوا بآياتِنا واسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولئكَ أصحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالِدُون﴾ [الأعراف: ٣٦].والذين جَحدوا آياتِ الله ، وكذَّبوا بأدلته وحُجَجه ، وأنكَروا مُعجِزاته ، ولَم يُصدِّقوا بها، ورَفضوا اتِّباع الرُّسل، وتكبَّروا على الإيمان بآيات اللهِ والعملِ بِها، وتَعَظَّمُوا عَن الخضوع للوَحْي والنُّبوَّة، أولئك خالدون في عذاب جهنم، لا يَخرُجون مِنها أبدًا، لأنهم اختاروا الكفرَ على الإيمان.و﴿أُولئكَ﴾ اسم إشارة للبعيد، يدل على بُعدهم في الكفر والضلال، ويُشير إلى سُوء حالهم في العذاب الأبديِّ. وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٢٧) : ((﴿والذينَ كَذَّبُوا بآياتِنا واسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ تكبَّروا على الإيمان بها. وإنما ذكر الاستكبار لأن كُل مُكذِّب وكافر مُتكبِّر)).

---

(٣) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٩٩٢) : ((كما تكونوا يُوَلَّ عليكم _ أو يُؤمَّر عليكم . قال في الأصل : رواه الحاكم ومن طريقه الدَّيْلَمي عن أبي بَكْرة مرفوعًا . وأخرجه البَيهقي بلفظ يُؤمَّر عليكم بدون شك وبحذف أبي بكرة، فهو منقطع. وأخرجه ابن جُمَيع في مُعجَمه والقُضاعي عن أبي بكرة بلفظ: يُوَلَّ عليكم، بدون شك، وفي سنده مجاهيل.ورواه الطبراني بمعناه عن الحسن أنه سمع رَجلاً يدعو على الحجَّاج فقال له : لا تفعل ، إنكم من أنفسكم أُتيتُم ، إنَّا نخاف إن عُزل الحجَّاج أو مَات أن يَتولَّى عليكم القِردة والخنازير، فقد رُوِيَ أن أعمالَكم عُمَّالُكم ، وكما تكونوا يُوَلَّ عليكم))اهـ. وقال الجاحظ في البيان والتبيين (١/ ٢١٠): ((وقال أبو مَعْشَر : لَمَّا بَلغ عبد الله بن الزُّبَير قَتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد ، قام خطيبًا ، فقال : إن أبا ذِبَّان قَتل لطيمَ الشَّيطان. ﴿كَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظالمينَ بَعْضًا بما كانوا يَكْسِبُون ﴾))اهـ . وأبو ذِبَّان هو لقب التصق بعبد الملك ابن مروان ، بسبب رائحة فمه الكريهة. قال ابن منظور في لسان العرب (١/ ٣٨٠): ((والعرب تَكْنُو الأَبْخَر أَبا ذُبابٍ وبعضهم يَكْنيه أَبا ذِبَّانٍ وقد غَلَبَ ذلك على عبدالملك بن مَرْوانَ لِفَسادٍ كان في فَمِه. قال الشاعر:لَعَلِّي إِنْ مالَتْ بِيَ الرِّيحُ مَيلةً...على ابنِ أَبي الذِّبَّانِ أَن يَتَنَدَّما، يعني هشامَ بن عبد الملك)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظالمين ﴾[إبراهيم : ٢٧] .

إن اللهَ لا يَهْدي الكافرين الذين ظَلَموا أنفسهم باختيار الكفر والضلال ، وقادوها إلى الخلود في عذاب جهنم . يَخذلهم ولا يُوفِّقهم في الحياة الدنيا ، ولا يَهديهم إلى كلمة الحق عند سُؤال الملَكَيْن في قبورهم . أي إن الله يُضِلُّهم في حياتهم ومَماتهم ، بسبب كفرهم وغرقهم في الشهوات والملذات ، وإعراضهم عن الحق والهدى . ولا يُوجد خِذلان وإضلال أشد مِن هذا . والظلمُ هو وضع الشيء في غَير مَوضعه ، والكافرُ ظالم لنفْسه ، لأنه وضع العبادة في غَير مَوضعها . أمَّا المؤمن بِوَحدانية الله ، والْمُتَّبِع للنبيِّ محمد ﷺ ، فإن الله يَهْديه ويُوفِّقه في الدنيا للحق والخير والهدى، ويُثبِّته في الآخرة عند السؤال في القبر. وهذا هو التَّوفيقُ الإلهيُّ للمؤمن في الدنيا والآخرة. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١٥٣) : ((﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظالمين ﴾ . أي : يُضِلُّهم عَن حُجَّتهم التي هي القَول الثابت، فلا يَقْدِرون على التكلم بها في قبورهم ، ولا عند الحساب ، كما أضَلَّهم عن اتِّباع الحق في الدنيا. قِيل: والمراد بالظالمين هُنا الكَفَرَة. وقِيل: كُل مَن ظَلَمَ نَفْسَه ولو بِمُجَرَّد الإعراض عن البَيِّنات الواضحة، فإنه لا يثبت في مواقف الفِتَن، ولا يَهتدي إلى الحق)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٠١) : عن البراء بن عازب عن النبيِّ ﷺ قال: ((﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمنوا بالقَوْلِ الثابتِ ﴾)). قال : ((نزلت في عذاب القبر ، فيُقال له : مَن رَبُّك ؟ ، فيقول: رَبِّيَ الله ، ونَبِيِّي محمد ﷺ ، فذلك قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمنوا بالقَوْلِ الثابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ ﴾)) . هذا الحديثُ يُثبِت عذابَ القبر . ويُثبِت وجود امتحان صعب في القبر ، ولكنَّ اللهَ يُثبِّت المؤمنين الذين صدَّقوا بِوَحدانية الله ونُبُوَّةِ محمد ﷺ، وعملوا الطاعات،واجتنبوا المعاصي.يُثبِّتهم بكلمة التَّوحيد(شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله).

وقال عبد الله بن مسعود ــ رضي اللهُ عنه ــ: ((إذا حَدَّثْتُكم بحديث أنبأتكم بتصديق ذلك. إن العبد المسلم إذا مات أُجلِس في قبره ، فَيُقال له: مَن رَبُّك ؟، ما دِينك ؟، مَن نَبِيُّك ؟ ، فَيُثَبِّته الله ، فيقول : رَبِّيَ الله ، ودِيني الإسلام، ونَبِيِّي محمد ﷺ ، فَيُوَسَّع له في قبره ، ويُفَرَّج له فيه)) . ثُمَّ قرأ عبد الله : ((﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمنوا بالقَوْلِ الثابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظالمين ﴾ [إبراهيم : ٢٧])) [4] .

---

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٣٣) . وحسَّنه الهيثمي في المجمع (٣/ ١٧٨) .

هذا الحديث موقوف لفظًا ، مرفوع حُكْمًا، لأن هذه الأمور الغَيْبِيَّة لا مَجال لمعرفتها بدون الوَحْي ، فنجزم أن الصحابي قد سمعه من النبيِّ ﷺ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظالمونَ إنما يُؤَخِّرُهُم لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصارُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] . الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ. ولا تَظُنَّنَّ اللهَ يا محمد ساهيًا عن أقوال الظالمين وأفعالهم، فإنه يُمْهِلهم ولا يُهْمِلهم ، ويُحْصِي أعمالهم، وسيُحاسبهم عليهم أشد الحساب ، ويَجزيهم أسوأ الجزاء . وهذا وعيدٌ وتهديد للظالِم ، وتخفيف عن المظلوم ورفع لمعنوياته ، وإزالة لأحزانه . والمقصودُ بالظالمين كُفار مكة ، فقد ظَلَموا أنفسهم باختيار الكفر على الإيمان ، وقادوها إلى الهلاك والعذاب الأبديِّ. واللهُ يُمْلِي للظالمين ، حتى إذا أخذهم لَم يُفْلِتْهم . يُؤَجِّلهم ويُنظِرهم ، ثُمَّ يأخذهم أخذ عزيز مُقتدر، وينتقم مِنهم أشد الانتقام . ولا يَترك لهم فرصةً للتَّعويض ولا تدارُك ما فات.وهذه سُنَّةُ الله في الظالمين، في كُل زمان ومكان.إنما يُؤَخِّرهم ليوم القيامة الرهيب الْمُرعِب، حيث تبقى أبصارهم مَفتوحةً لا تغمُض ، مِن شِدَّة الْهَوْل والخوف والفَزَع . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١٦٤) : ((﴿ ولا تَحْسَبَنَّ ﴾ خطاب للنبيِّ ﷺ ، وهو تعريض لأُمَّته . فكأنه قال : ولا تَحسَب أُمَّتُكَ يا محمد . ويَجوز أن يكون خطابًا لكل مَن يَصلُح له مِن الْمُكلَّفين . وإن كان الخطاب للنبيِّ ﷺ مِن غَير تعريض لأُمَّته ، فمعناه : التثبيت على ما كان عليه من عدم الْحُسبان كَقَوله: ﴿ ولا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشرِكين ﴾ ونَحْوه. وقِيل المراد: ولا تَحْسَبَنَّهُ يُعاملهم مُعاملة الغافل عمَّا يَعملون ، ولكن مُعاملة الرقيب عليهم ، أو يكون المراد بالنَّهْي عن الْحُسبان الإيذان بأنه عَالِم بذلك ، لا تخفَى عليه مِنه خافية . وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ،وإعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرِّضا بأفعالهم ، بل سُنَّة الله سُبحانَه في إمهال العُصاة ﴿ إنما يُؤَخِّرُهُم لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصارُ ﴾ ، أي: يُؤَخِّر جَزاءهم، ولا يُؤاخذهم بِظُلمهم . وهذه الجملة تعليل للنَّهْي السابق ... . ومعنى ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصارُ ﴾ ، أي : تُرفَع فيه أبصار أهل الموقف ، ولا تغمُض مِن هَوْل ما تراه في ذلك اليوم ، هكذا قال الفرَّاء. يُقال : شَخَصَ الرَّجلُ بَصَرَه ، وشَخَصَ البَصَرُ نَفْسُه إلى السماء مِن هَوْل ما يَرى . والمراد أن الأبصار بَقِيَت مفتوحة ، لا تتحرك مِن شِدَّة الْحَيْرة والدَّهشة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وإذا رأى الذينَ ظَلموا العذابَ فلا يُخَفَّفُ عَنْهُم ولا هُم يُنظَرُون﴾[النَّحْل: ٨٥].

وإذا رأى المشركون الذين أنكروا وَحدانية الله ، وكذَّبوا بآياته ، وجَحدوا نُبُوَّةَ محمد ﷺ ، عذابَ النار الشديد ، الذي يستحقونه بِشِرْكهم ، ويَستوجبونه بِظُلمهم ، فلا يُخفَّف عنهم بعد

الدخول ، ولا يُؤخَّرون ولا يُمْهَلُون ليتوبوا ، لأن الآخرة دار جزاء لا دار عمل ، ولا تُوجد تَوبة في الآخرة ، وإنما التَّوبة في الدنيا ، فالدنيا هي الامتحان ، والآخرة هي النتيجة . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٦٧) : ((﴿ وإذا رأى الذينَ ظَلموا ﴾ أي : الذين أشركوا ﴿ العذابَ فلا يُخَفَّفُ عَنْهُم ﴾ ، أي : لا يُفَتَّر عنهم ساعة واحدة ، ﴿ ولا هُم يُنظَرُون ﴾ ، أي : لا يُؤخَّر عنهم ، بَل يأخذهم سريعًا مِن الموقف بلا حساب ، فإنه إذا جِيء بجهنم تُقاد بسبعين ألف زِمام ، معَ كل زِمام سبعون ألف مَلَك ، فَيُشرِف عُنق منها على الخلائق، وتَزفِر زَفرة ، لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه فتقول : إني وُكِّلْتُ بكل جبار عنيد ، الذي جعل مع الله إلَهًا آخر ، وبكذا وبكذا ، وتذكر أصنافًا من الناس ، كما جاء في الحديث. ثُمَّ تنطوي عليهم ، وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائرُ الحب)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنما يَفتري الكَذِبَ الذينَ لا يُؤمِنُونَ بآياتِ اللهِ وأُولئكَ هُمُ الكَاذِبُون ﴾ [النَّحْل : ١٠٥] .

إن الكذب على الله جريمةٌ شنيعة ، لا يَفعلها إلا الكفار الأشرار الذين لا يُصدِّقون بآيات الله وحُجَجه ومُعجزاته ، المعروفون بالكذب والافتراء والضلال . وهُم لا يَخافون عِقابًا على كذبهم ، ولا يَرجون ثوابًا على صِدقهم . أمَّا المؤمنون الذين صدَّقوا بِوَحدانية الله ونُبُوَّةِ محمد ﷺ ، فلا يُمكن أن يَكذبوا على الله ويُكذِّبوا بآياته . وأُولئك الجاحدون لآيات الله، هُم الكاملون في الكذب، المختصون بِه . والكذبُ وَصْفٌ مُلتصق بهم ، وعادة من عاداتهم القبيحة . ولا يوجد فِعل أسوأ مِن الكذب على الله والتكذيب بآياته ، فهو أعظم الكذب على الإطلاق وأقبحه .

وهذه الآيةُ تُرهِّب مِن الكذب ، وتُخوِّف مِنه ، وتَزجر عنه ، لأنها حَصرت الكذب بِمَن لا يُؤمن بآيات الله تعالى . وهذا مِن أبلغ الزَّجر عن الكذب . والجديرُ بالذِّكر أن اسمُ الإشارة ﴿ أُولئكَ ﴾ للبعيد ، للدَّلالة على بُعدهم في الكفر والضلال ، وسُوء حالهم .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٦٥٠) : ((أخبرَ تعالى ذِكْرُه المشركين الذين قالوا للنبيِّ ﷺ : إنما أنتَ مُفْتَر ، أنهم هُم أهل الفِرْية والكَذِب لا نبيُّ الله ﷺ والمؤمنون بِه ، وبَرَّأَ من ذلك نَبِيَّه ﷺ وأصحابه ، فقالَ : إنما يَتخرَّص الكذب ويَتقوَّل الباطل الذين لا يُصدِّقون بِحُجَج الله وأعلامه ، لأنهم لا يَرْجون على الصِّدق ثوابًا ، ولا يخافون على الكذب عِقابًا ، فهم أهل الإفك وافتراء الكذب ، لا مَن كان راجيًا من الله على الصدق الثواب الجزيل ، وخائفًا على الكذب العقاب الأليم . وقَوله : ﴿ وأُولئكَ هُمُ الكَاذِبُون ﴾ . يقول : والذين لا يُؤمنون بآيات الله هُم أهل الكذب لا المؤمنون)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٤٥) : ((فإن قِيل : قَد قال: ﴿ إنما يَفتري الكَذِبَ الذينَ لا يُؤمِنُونَ ﴾ ، فما معنى قَوله : ﴿ وأُولئكَ هُمُ الكَاذِبُون ﴾ ؟ . قِيل : ﴿ إنما يَفتري الكَذِبَ ﴾ إخبار عَن فِعْلهم ، و ﴿ هُمُ الكَاذِبُون ﴾ نعت لازم لهم كَقَول الرَّجل لِغَيره : كَذَبْتَ وأنتَ كاذب ، أي : كَذَبْتَ في هذا القَول ، ومِن عادتك الكذب)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم رَسُولٌ مِنْهُم فَكَذَّبُوهُ فأخَذَهُمُ العَذَابُ وَهُم ظالمون﴾[النَّحْل: ١١٣]. أرسلَ اللهُ محمدًا ﷺ إلى أهل مكة بالآيات الباهرة والبراهين الساطعة والمعجِزات الواضحة والْحُجَج الظاهرة، وهو رسول مِن أنفسهم ، يَعرِفون صِدْقه وأمانته ونَسَبَه وأصله وتفاصيل حياته، يَدعوهم إلى الحق والهدى والخير ، فَجَحدوا رسالته ، ورَفضوا نُبُوَّتَه ، ولَم يُصدِّقوه ، ولَم يُؤمنوا بالوَحْي الذي جاءهم بِه مِن عِند الله تعالى ، فَحَلَّ عليهم العذاب ، ونَزَلت بِهم العقوبة ، وأصابهم الجوع والخوف والمصائب والكوارث والشدائد ، وقُتِلوا شَرَّ قِتلة في بَدْر . وهُم ظالمون بِشِركهم وضلالهم وارتكابهم للمعاصي والذنوب ، وغرقهم في الشهوات والملذات .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٥٠١) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم ﴾ يعني أهل مكة ﴿ رَسُولٌ مِنْهُم ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فأخَذَهُمُ العَذَابُ ﴾ وفِيه قَولان: أحدهما أنه الجوع قاله ابن عباس. والثاني القَتل بِبَدْر، قاله مجاهد. قال ابن السائب : ﴿ وَهُم ظالمون﴾ أي كافرون)) اهـ . وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلموا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون ﴾[الشُّعراء: ٢٢٧].

وسَيَعْلَمُ أهلُ مكة الذين ظلموا أنفسهم بالشِّرك ، وقادوها إلى الهلاك والعذاب الأبديِّ ، أيَّ مرجع يَرجعون إليه ، وأيَّ نهاية يَصيرون إليها بعد مَوْتهم . إن مصيرهم هو الخلود في عذاب النار. إنهم يَنقلبون إلى نار هائلة ، مُشتعلة بلا انطفاء ، ودائمة بلا انقطاع ، يَخْلُدُون فيها إلى الأبد .

والآيةُ عامة في كل ظالم ، وهي وعيد شديد وتهديد أكيد لكل الظالمين .

والتَّعميمُ في ﴿ الذينَ ظَلموا ﴾ ، والإبهام في ﴿ أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون ﴾ ، يُشيران إلى الوعيد الْمُرعِب والتَّهويل العظيم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ١٧٣) : ((خَتَمَ سُبحانَه هذه السُّورة بآية جامعة للوعيد كُلِّه ، فقال : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلموا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون ﴾ ، فإن في قَوله : ﴿ سَيَعْلَمُ ﴾ تهويلاً عظيمًا وتهديدًا شديدًا،وكذا في إطلاق ﴿ الذينَ ظَلموا ﴾ وإبْهام ﴿ أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون ﴾. وخَصَّصَ هذه الآيةَ بعضُهم بالشُّعراء ، ولا وجه لذلك ، فإن الاعتبار بِعُموم اللفظ. وقَوله : ﴿ أيَّ مُنقَلَبٍ ﴾ صِفة لمصدر مَحذوف ، أي : يَنقلبون مُنْقَلَبًا أيَّ مُنْقَلَب . وَقُدِّمَ لِتَضَمُّنه معنى الاستفهام)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ احْشُرُوا الذينَ ظَلموا وأزْوَاجَهُم وما كانوا يَعْبُدُون ﴾[الصَّافَّات : ٢٢] .

هذا الأمرُ الإلهيُّ للملائكة : اجمعوا الكافرين الذين ظَلموا أنفسهم بالكفر ، وارتكبوا الآثام والذنوب والمعاصي، وغرقوا في الشهوات والملذات، وأزواجهم الكافرات، وأمثالهم في الشِّرك ، وأشباههم مِن الكَفَرة والعُصاة والمجرمين والمكذِّبين .

وعن عمر بن الخطاب_ رضي اللهُ عنه_ في قَوله تعالى: ﴿ احْشُرُوا الذينَ ظَلموا وأزْوَاجَهُم ﴾، قال : ((أمْثَالَهُم الذين هُم مِثْلُهم)) [5].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥٢/٧):((يَقول اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يومئذ للملائكة: ﴿ احْشُرُوا ﴾ أي : اجْمَعُوا ﴿ الذينَ ظَلموا ﴾ مِن حَيث هُم . وفِيهم قَولان : أحدهما أنهم المشركون، والثاني أنه عام في كل ظالِم . وفي أزواجهم أربعة أقوال: أحدها أمثالهم وأشباههم، وهو قَول عُمر وابن عباس والنُّعمان بن بشير ومجاهد في آخرين، ورُوِيَ عن عُمر قال : يُحشَر صاحب الربا مع صاحب الربا، وصاحب الزنا مع صاحب الزنا،وصاحب الخمر مع صاحب الخمر.والثاني أن أزواجهم المشركات، قاله الحسن . والثالث أشياعهم ، قاله قتادة . والرابع قرناؤهم من الشياطين الذين أضَلُّوهم ، قاله مقاتل . وفي قَوله : ﴿ وما كانوا يَعْبُدُون ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها الأصنام ، قاله عكرمة وقَتادة.والثاني إبليس وَحْدَه، قاله مُقاتل . والثالث الشَّياطين ، ذَكَرَه الماوردي وغَيْرُه)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُم إلى صِرَاطِ الجحيم ﴾[الصَّافَّات : ٢٣] .

اجْمَعوا هؤلاء المشركين وآلهتهم الباطلة (الأصنام والأوثان) التي كانوا يَعبدونها مِن دُون الله، ويَجعلونها شريكةً لله وأندادًا له ، وأرشدوهم إلى طريق جهنم ، ودُلُّوهم على هذا الطريق ، ووجِّهوهم إلى العذاب الأبديِّ . والمعنى : سُوقوهم واذهبوا بِهم إلى عذاب جهنم الشديد .

والجديرُ بالذِّكر أن جَمْع المشركين مَعَ آلهتهم الباطلة ، وهي جَمَادات لا تَعقل ولا تَسمع ولا تُبصِر ، لتخجيل المشركين وتَحسيرهم وتَبكيتهم وتوبيخهم وفضحهم ، وإظهار أن آلهتهم لا تضرُّ ولا تَنفع، وتوضيح سُوء حالهم، وعاقبتهم الشنيعة. والآيةُ ﴿ فَاهْدُوهُم إلى صِرَاطِ الجحيم ﴾ تَحمل معنى التَّهَكُّم بالكافرين والسُّخرية مِنهم ، لأن الهداية تَكون إلى طريق السعادة والنعيم لا طريق التعاسة والعذاب.وقال الصابوني في صَفوة التفاسير(١٤/ ٩) : ((وفي لفظ ﴿ فَاهْدُوهُم ﴾ تهكُّم وسُخرية،فإذا لَم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، فليهتدوا اليومَ إلى صراط الجحيم)).

---

(٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٦٧) برقم (٣٦٠٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٨٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : احشروا هؤلاء المشركين وآلهتهم التي كانوا يَعبدونها مِن دُون الله ، فَوَجِّهُوهم إلى طريق الجحيم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما للظالمينَ مِنْ حَمِيمٍ ولا شَفِيعٍ يُطاع ﴾[غَافِر : ١٨] .

ليس للكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالشِّرك والمعاصي قريبٌ يُفيدهم، ولا صديق يَنفعهم ، ولا شَفيع يَشفع لهم لينقذهم من عُقوبة الله وعذابه الشديد . وَلَوْ افترضنا وُجود شَفيع ، فشفاعته مرفوضة ، لا نفع فيها ولا فائدة مِنها . والآيةُ تنفي الشفاعةَ والطاعةَ معًا .

ووضعُ الظالمين مَوضع ضَميرهم للتَّسجيل عليهم بالظلم وإدانتهم وتوبيخهم وفضحهم .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٨٨) : ((﴿ ما للظالمينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ قَريب مُشفِق ، ﴿ ولا شَفِيعٍ يُطاع ﴾ ، ولا شفيع مُشفَّع . والضمائر ــ قبل هذه الآية ــ إن كانت للكفار وهو الظاهر ، كان وضع الظالمين موضع ضَميرهم للدَّلالة على اختصاص ذلك بِهم ، وأنه لِظُلمهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظالمينَ مَعْذِرَتُهُم وَلَهُمُ اللعنةُ ولهم سُوءُ الدار ﴾ [غَافِر : ٥٢].

يوم لا يَنفع المشركين الذين ظَلموا أنفسهم بالشِّرك اعتذارُهُم إن اعتذروا ، لأن اعتذارهم قائم على الكذب والتحايل. لا يُقبَل مِنهم عُذر ولا فِدية، لأن اعتذارهم باطل، وحُجَّتهم داحضة .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٥٢): ((﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظالمينَ مَعْذِرَتُهُم ﴾ . إن اعتذروا عَن كُفرهم لَم يُقبَل مِنهم ، وإن تابوا لَم يَنفعهم)) اهـ .

ولهم الطرد من رحمة الله ، والبُعد عن مغفرته ، ولهم سُوء العاقبة والمصير ، وهو الخلود في عذاب جهنم الشديد ، ولا يَخرجون مِنها .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٧٠) : ((وقَوله : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظالمينَ مَعْذِرَتُهُم ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه:ذلك يَوم لا يَنفع أهلَ الشِّرك اعتذارُهم، لأنهم لا يعتذرون إن اعتذروا إلا بباطل ، وذلك أن الله قد أعذرَ إليهم في الدنيا ، وتابعَ عليهم الْحُجَجَ فيها ، فلا حُجَّة لهم في الآخرة إلا الاعتصام في الكذب بأن يقولوا : ﴿ واللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشرِكين ﴾ [الأنعام : ٢٣]. وقَوله: ﴿ وَلَهُمُ اللعنةُ ﴾ . يقول : وللظالمين اللعنة ، وهي البُعد مِن رحمة الله ، ﴿ ولهم سُوءُ الدار ﴾ . يقول : ولهم مع اللعنة مِن الله شَر ما في الدار الآخرة ، وهو العذاب الأليم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿وترى الظالمينَ لَمَّا رَأَوُا العذابَ يَقولونَ هَلْ إلى مَرَدٍّ مِن سَبيل﴾[الشُّورى: ٤٤].

وترى الكافرين الذين ظَلموا أنفسهم بالشِّرك،حِين شاهدوا عذابَ جهنم يوم القيامة ، يَطلبون الرجوع إلى الدنيا ، ويَتَمَنَّوْنَ العَودة إليها، بسبب ما رَأَوْه مِن أهوال العذاب وشِدَّته وفظاعته .

إنهم يَطلبون الرُّجوع إلى الدنيا كَي يُوحِّدوا اللهَ ، ويُطيعوه . وهذا طلب مستحيل .

والجديرُ بالذِّكر أن اللهَ أخبرَ عن أمر مستقبلي بصيغة الماضي ﴿وترى الظالمينَ لَمَّا رَأَوُا العذابَ﴾ للدَّلالة على وقوعه التام وتحقُّقه الكامل . فما أخبرَ اللهُ عنه سَيَقع لا مَحَالة ، وهو بِحُكم الماضي . وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٤٠) : ((قَولـه تعالى : ﴿ وترى الظالمينَ ﴾ أي الكافرين ، ﴿ لَمَّا رَأَوُا العذابَ﴾ يَعني : جهنم . وقِيل : رَأَوا العذابَ عِندَ الموت، ﴿ يَقولونَ هَلْ إلى مَرَدٍّ مِن سَبيل ﴾ . يَطلبون أن يُرَدُّوا إلى الدنيا ، ليعملوا بطاعة الله ، فلا يُجَابون إلى ذلك)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإنَّ الظالمينَ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ واللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِين ﴾ [الجاثية : ١٩] .

وإن الظالمين يتولى بعضُهم بعضًا في الدنيا، وينصر بعضُهم بعضًا ، فهُم أحباب وأنصار وأعوان. ولا يُوالي الظالمين إلا مَن كان مِثْلَهم. وهذه الوَلاية الباطلة لا تزيدهم إلا ضلالاً وهلاكًا وخسارًا ، ولا وَلِيَّ لهم في الآخرة ، ولا أحد يُنقذهم مِن العذاب ، ولا يُنجِّيهم من العقوبة . وهذه أكبر إهانة للكافرين الذينَ ظَلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ، فقد أخرجهم اللهُ مِن وَلايته ، وطَردهم من رحمته ، وأبعدهم عن مغفرته. واللهُ ناصر المؤمنين المتَّقين في الدنيا والآخرة ، ومُعينهم . وهُم الذين وحَّدوا اللهَ ، وعملوا الطاعات ، واجتنبوا المعاصي .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٢٥٩):((وقَوله : ﴿ وإنَّ الظالمينَ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ ﴾ . يقول: وإن الظالمين بعضهم أنصار بعض ، وأعوانهم على الإيمان بالله وأهل طاعته ، ﴿ واللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِين ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه : واللهُ يَلِي مَن اتَّقاه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه بكفايته ، ودفاع مَن أراده بِسُوء . يقول جَلَّ ثناؤه لِنَبِيِّه عليه الصلاة والسلام: فَكُن مِن المتَّقين يَكْفِكَ اللهُ ما بغاكَ ، وكادكَ به هؤلاء المشركون ، فإنه وَلِيُّ مَن اتَّقاه ، ولا يَعظُم عليكَ خِلاف مَن خَالَفَ أمْرَه ، وإن كَثُرَ عددهم ، لأنهم لن يَضُرُّوك ما كان اللهُ وَلِيَّكَ وناصِرَكَ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَذَرْني ومَن يُكَذِّبُ بهذا الحديثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِن حَيْثُ لا يَعْلَمُون ﴾ [القَلَم : ٤٤] .

هذا تهديدٌ إلهيٌّ شديدٌ للكافرين . واللهُ يُخاطبُ رسولَه ﷺ : دَعْني يا مُحمَّد والْمُكذِّبين بهذا القُرآن ، سترى ما أنا صانعٌ بِهم . اترُكْني لأكفِيَكَ شَرَّهم ، وأنتقمَ مِنهم ، ولا تُشغِل قَلْبَكَ بهم ، وتَوَكَّلْ عليَّ ، فأنا خالقُهم وأعلمُ بِهم مِن أنفسِهم . وهذا تخفيفٌ عن النبيِّ ﷺ . والحديثُ هُوَ القُرآن، لأنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يُحدِّث بِهِ أصحابَه_ رضي اللهُ عنهم _ . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٠١) : ((أي : فَدَعْني والْمُكذِّبين بالقُرآن ، وَخَلِّ بَيني وبَيْنَهم)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٠١) : ((وهذا كَقَول القائل لآخَر غَيْرِه يَتوعَّد رَجلاً : دَعْني وإيَّاه)) اهـ . وهذا مُنتهى الوعيد والتهديد .

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِن حَيْثُ لا يَعْلَمُون ﴾ . هذه الآيةُ تُوضِّح كيفيةَ العذاب، وطبيعةَ العقوبة . فاللهُ تعالى سَيُقَرِّبهم من العذاب درجةً درجةً، وذلك بالإمهال ، وإعطائهم الصحة والعافية ، وتكثير أموالِهم وأولادِهم،وإدامةِ النِّعَم عَلَيهم.فَكُلما فَعلوا معصيةً مُنِحوا نِعمةً تُنسيهم الاستغفارَ والشُّكرَ، فيزدادون ذُنوبًا وآثامًا ، ويَغرقون في المعاصي أكثر فأكثر ، ظَنًّا مِنهم أن كثرة النِّعَم تدل على رِضا اللهِ عنهم ، وأنهم أفضل من المؤمنين . وهُم لا يَعلمون أنَّ هذه عُقوبة إلهية . وقد أساؤوا التقدير حِينَ اعتَبَروا النِّعَمَ المحيطة بهم كَرامةً مِنَ اللهِ. إنَّها إهانة لا كرامة . وقد وَقَعوا في الاغترار. وساقهم اللهُ إلى العذاب وهُم غافلون .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢١٩) : ((﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِن حَيْثُ لا يَعْلَمُون ﴾ . معناه: سنأخذهم على غَفلة وهُم لا يَعرفون ، فَعُذِّبوا يَوْمَ بَدْر . قال سُفيان الثوري : نُسبغ عَلَيهم النِّعَمَ ونُنسيهم الشُّكرَ . وقال الحسن : كَم مُسْتَدْرَجٍ بالإحسان إلَيه ، وكَم مَفتونٍ بالثناء عليه،وكَم مَغرورٍ بالسَّتْر عليه.قال أبو رُوق:أي كُلما أحْدَثوا خطيئة جَدَّدْنا لهم نِعمةً، وأنسَيْناهم الاستغفار. وقال ابن عباس: سَنَمْكُر بهم . وقِيل : هو أن نأخذهم قليلاً ولا نُباغِتهم)) اهـ .

وفي شَرح الحِكَم العطائية (١/ ٦٥) : ((خِفْ ــ أيها المؤمن ــ مِن وجود إحسانه سُبحانه عَلَيك معَ دوام إساءتك معه بترك أوامره ، أن يكون ذلك استدراجًا ، أي تدريجًا لك شيئًا فشيئًا ، حتى يأخذك بَغتة . فإنَّ الخوف مِنَ الاستدراج بالنِّعَم من صفات المؤمنين ، كما أنَّ عدم الخوف منه معَ الدوام على الإساءة من صفات الكافرين)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَأُمْلِي لَهُم إنَّ كَيْدي مَتِين ﴾[القَلَم : ٤٥] .

إن اللهَ يُمهِل الكافرين ، ويُطيل في أعمارهم ، ويَمنحهم الصحةَ والعافية والأمن والأمان والأموال والأولاد، رغم كفرهم وضلالهم ، ليزدادوا إثْمًا وذُنوبًا ، ويَغرقوا في المعاصي والشهوات والملذات ، وتكثُر حُجَج الله عليهم . وانتقامُ الله مِن الكافرين الذين كذَّبوا آياته ، وحاربوا رُسله ، قوي شديد ، ومَكْره بِهم عظيم لا يُطاق ، وعذابه أليم ، لا يَهْرُب مِنه أحد .

وقد سَمَّى اللهُ إحسانه إلى الكافرين وإنعامه عليهم كَيْدًا ، كما سَمَّاه استدراجًا ، لأنه في صورة الكَيْد ، ولأن الهدف مِنه هو مُعاقبتهم وتعذيبهم . ومَكْرُ اللهِ وكَيْدُه مُجازاة أهل المكر والكَيْد . وكلمةُ ﴿ مَتِين ﴾ تدل على قُوَّة الكَيْد وأثره العظيم في العِقاب والعذاب والهلاك .

وقال النَّسفي في تفسيره (٤/ ٢٧٢) : ((فَسَمَّى إحسانَه وتمكينه كَيْدًا كما سَمَّاه استدراجًا، لِكَوْنه في صُورة الكَيْد ، حيث كان سببًا للهلاك . والأصل أن معنى الكَيْد والمكر والاستدراج ، هو الأخذ من جهة الأمن . ولا يجوز أن يُسمَّى الله كائدًا وماكرًا ومُسْتَدْرِجًا)) اهـ .

وعن أبي موسى ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إِنَّ اللهَ لَيُمْلي للظالِم ، حتى إذا أخذه لَم يُفْلِتْه)) [6].

إِنَّ اللهَ يُعطي الظالِمَ فُرصًا زمنية عديدة، فيُطيل له في المدة ، ويُمْهِله ولا يُهْمِله ، وإذا أخذه لَم يُطْلِقْه ، لأن أَخْذَه ــ سُبحانه وتعالى ــ أليم شديد . فإذا رأيتَ ظَالِمًا يَزداد تكبُّرًا وغَطرسةً ونفوذًا وسَطْوَةً ، فاعْلَمْ أن الله يَستدرجه . والعاقلُ مَن يَقرأ حركةَ التاريخ جَيِّدًا . فالقويُّ لا يظل قويًّا حتى النهاية ، والضعيف لن يَبقى ضعيفًا إلى الأبد . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٣٧) : ((معنى يُمْلي : يُمْهِل ويُؤخِّر ويُطيل له في المدة ، وهو مُشتق من الملوة وهي المدة والزمان ، بضم الميم وكسرها وفتحها . ومعنى " لَم يُفْلِتْهُ " : لَم يُطْلِقْهُ)) .

٢ ــ قَساوة قُلوبهم :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُم وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ ما كانوا يَعْمَلُون ﴾ [الأنعام : ٤٣] .

" لَوْلا " للتَّحضيض . فَهَلاَّ تضرَّعوا حِين جاءهم العذاب ، ولَجَؤوا إلى الله ، ودَعَوْهُ بصدق وإخلاص. ولكنهم لَم يتضرَّعوا. وهذا عتابٌ إلهيٌّ لهم على ترك الدعاء ، وهُم في أمسِّ الحاجة إليه. وهذا يدل على كُفرهم وضلالهم وعنادهم واستكبارهم . لقد تركوا الدعاءَ وأهْمَلُوه في الرخاء والشِّدة . حتى إن نزول العذاب بهم لَم يُؤثِّر فيهم ، ولَم يَدفعهم إلى اللجوء إلى الله ودُعائه .

بَيَّنَ اللهُ لرسوله ﷺ ووضَّح له حال أحد الأقوام السابقة. فقد أرسلَ اللهُ إليهم،وقَطَعَ حُجَجهم، وأزالَ أعذارهم ، ولكنهم بَلغوا مِن القَسوة والعِناد والاستكبار مَبْلَغًا عظيمًا . فقد أُخِذُوا بالشِّدة والعذاب والعِقاب ، فلم يَخضعوا لله ، ولَم يُطيعوه . وأصَرُّوا على كفرهم ، وتكذيبهم بالوَحْي والنُّبوَّة . لو أنهم ــ عِند مَجيء العذاب ــ خضعوا لله ، واستسلموا لأمره ، وانقادوا لِحُكمه ، وأطاعوه ، ودَعَوْهُ ، لَرَفَعَ اللهُ عنهم العذاب ، وأنقذهم مِن العِقاب، وحَمَاهم مِن كُل شَر وسُوء.

---

(٦) متفق عليه. البخاري(٤/ ١٧٢٦)برقم (٤٤٠٩)،ومسلم (٤/ ١٩٩٧) برقم (٢٥٨٣) .

لقد أحاطَ بهم العذاب ، ونزلت بهم العقوبة ، فلم يَخضعوا لله ، ولَم يستكينوا له ، ولَم يَعملوا بطاعته . وهذا دليل واضح على قسوتهم، وتمرُّدهم، وعنادهم، وشِدَّة شكيمتهم، وتماديهم في الكفر والضلال ، وإعجابهم بأنفسهم .

أصَرُّوا على كفرهم، وتَمَادَوْا في ضَلالهم، وغرقوا في عِنادهم واستكبارهم، واستهانوا بعذاب الله ، واستخفوا بعقوبته ، وقَسَتْ قُلوبهم ، وما لانت للإيمان ، ولا خَشعت لله تعالى .

وحسَّن لهم الشيطانُ ما كانوا يَعملون مِن الكفر والمعاصي والآثام والذنوب ، وأغواهم بالإصرار على الكفر ، وأغراهم بالشهوات والملذات ، فتمسَّكوا بالكفر واستمرُّوا عليه .

ولَم يكن لديهم عُذر في ترك الدعاء إلا العناد والاستكبار ، ولا مانع لهم مِن التَّضَرُّع إلا قَسوة قلوبهم ، وإعجابهم بأعمالهم الباطلة التي حسَّنها لهم الشَّيطان ، وجَمَّلها لهم .

وطبيعة النفس البشرية أنها تخضع لله عند الشدائد ، وتستسلم له في الأزمات والكوارث ، وتَلْجأ إليه في المصائب . أمَّا هؤلاء القَوم ، فقد رَفضوا أمرَ الله وخالفوا الطبيعةَ البشرية ، وذلك لقسوة قلوبهم وعنادهم واستكبارهم . وقَسوةُ القلبِ نتيجةٌ للمعاصي والذنوب والإصرار عليها.

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٣٨٩) : ((قَوله تعالى: ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأسُنا تَضَرَّعُوا ﴾ . لَوْلا تحضيض ، وهي التي تَلِي الفعل ، بمعنى هَلاَّ . وهذا عِتاب على ترك الدعاء، وإخبار عنهم أنهم لَم يتضرَّعوا حين نزول العذاب. يجوز أن يكونوا تضرَّعوا تضرُّعَ مَن لَم يُخلِص ، أو تضرَّعوا حين لابسهم العذاب. والتَّضَرُّع على هذه الوجوه غير نافع. والدُّعاء مأمور به حال الرخاء والشدة. ﴿ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُم ﴾ . أي : صلبت وغلظت . وهي عبارة عن الكِبْر والإصرار على المعصية، نسأل الله العافية ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ ما كانوا يَعْمَلُون ﴾ أي أغواهم بالمعاصي وحَمَلهم عليها)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْنا هَؤلاءِ وآباءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ أفلا يَرَوْنَ أنَّا نأتي الأرضَ نَنقُصُهَا مِنْ أطرافِها أفَهُمُ الغالِبُون ﴾ [الأنبياء : ٤٤] .

أنعمَ اللهُ على هؤلاء المشركين (أهل مكة) وآبائهم، وأعطاهم الأموالَ والأولادَ ، فعاشوا في رفاهية ونعيم، فاغترُّوا بهذه النِّعَم الإلهية الكثيرة ، وغرقوا في حُطام الدُّنيا الزائل ، دُون أن يَشكروا اللهَ الذي أنعمَ عليهم .

وقد امتدَّ بهم الزمانُ ، وطالت أعمارُهم في الراحة ورغد العَيش والنِّعَم الكثيرة ، فقست قلوبُهم ، واعتقدوا واهمين أنهم على الحق، وأنَّ النِّعَم باقية لا تَزول ، وذلك بسبب الأمن والأمان واغترارهم بالإمهال ، وعدم وجود العذاب .

كُلُّ هذا أدَّى إلى غُرورهم واغترارهم ووقاحتهم ، وإعراضهم عن آياتِ اللهِ تعالى. لقد سَقطوا في الأمل الكاذب، ووقعوا في الوهم القاتل . وغرقُهم في النِّعَم ، مَنَعَهم مِن الإيمان باللهِ الْمُنعِم ، فقد انشغلوا بالنِّعَم عن آياتِ اللهِ وحُجَجِه ومواعظه . وعرفوا الإحسانَ ، ولَم يَعرفوا الْمُحسِن .

أفلا يَنظرون فَيَرَوْنَ أنَّ محمدًا ﷺ يَفتح بلادَ الشِّرك بلدًا بلدًا ، وأنَّ المسلمين يَنتصرون في حُروبهم ، ويُسيطرون على الأرضِ ، فتزداد رُقعة البلاد الإسلامية ، ويَتَقَلَّص الكُفر ، ويَخسر الكافرون أراضيهم ومُمتلكاتهم . ينبغي أن يَعتبروا بهذا الأمر ، ويأخذوا مِنه عِبرةً وموعظةً .

وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٢) : ((وقال الحسن البصري : يعني بذلك ظُهور الإسلام على الكفر ، والمعنى : أفلا يَعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه ، وإهلاكه الأمم الْمُكذِّبة والقرى الظالمة ، وإنجائه لعباده المؤمنين)) اهـ .

﴿ أفَهُمُ الغالِبُون﴾استفهام بمعنى الإنكار والتَّوبيخ، أفَهُم الغالبون مَعَ هذا الوَضْع أَم المغلوبون؟. إنهم المغلوبون المهزومون الخاسرون في الدنيا والآخرة . أمَّا الغالبون فهُم المسلمون.

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٩٥): ((﴿ بَلْ مَتَّعْنا هَؤلاءِ وآباءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ ﴾ إضراب عمَّا تَوَهَّموا ببيان ما هو الداعي إلى حِفظهم ، وهو الاستدراج والتَّمتع بما قُدِّر لهم من الأعمار ، أو عن الدَّلالة على بُطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك ، وهو أنه تعالى مَتَّعهم بالحياة الدنيا ، وأمهلهم حتى طالت أعمارُهم ، فَحَسِبوا أن لا يَزالوا كذلك ، وأنه بسبب ما هُم عليه ، ولذلك عَقَّبه بما يدل على أنه أمل كاذب فقال : ﴿ أفلا يَرَوْنَ أنَّا نأتي الأرضَ ﴾ أرض الكَفَرة . ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أطرافِها ﴾ بتسليط المسلمين عليها ، وهو تصوير لِمَا يُجريه اللهُ تعالى على أيدي المسلمين . ﴿ أفَهُمُ الغالِبُون ﴾ رسول الله والمؤمنين)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أيَحْسَبُونَ أنما نُمِدُّهُم بِهِ مِن مالٍ وبَنِين ﴾[المؤمنون : ٥٥] .

الاستفهام إنكاري . أيظنُّ هؤلاء الكفار الجهَّال المغرورون أن الذي نُعطيهم ونُقوِّيهم به في هذه الدنيا الفانية مِن الأموال والأولاد .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ نُسَارِعُ لَهُم في الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُون ﴾[المؤمنون : ٥٦] .

نُعجِّل لهم في الخيرات ، ونُسارِع لهم في الإحسان ، ونُسابِق لهم في النعيم والسعادة ؟ . وقد كذَّبهم اللهُ ، ليس الأمر كما يظنُّون ويتوهَّمون . بَل هو إملاء واستدراج لهم ، ومِن أجل أن يَغرقوا في المعاصي والآثام والذنوب، وتكثُر عليهم حُجَج الله تعالى ، ويسيروا إلى الهلاك والعذاب الأبديِّ. إنهم كالبهائم ليس لَدَيهم ذكاء ولا شُعور ، لِيُدركوا أن هذا استدراج لهم ، ومكر بِهم .

وهاتان الآيتان تَحملان ذَمًّا شديدًا للمُشركين ، ووعيدًا مُخيفًا ، وتهديدًا أكيدًا لهم . والعاقلُ مَن نظر في عواقب الأمور ومآلات الأشياء، ولَم ينخدع بالمتعة الآنية والنعيم الفاني واللذة الزائلة .

والجديرُ بالذِّكر أن الله لَم يقل:نُسارع لهم إلى الخيرات.وإنما قال:﴿ نُسَارِعُ لَهُم في الْخَيْرَاتِ﴾. و ﴿ في ﴾ تدل على أنهم يَغرقون في الخيرات، ويتقلَّبون في الإحسان، وهُم في قلب الرخاء ورَغَد العَيش . وهذا يدل على كثرة النِّعَم التي يتمتَّعون بِها ، فهي مُحيطة بِهم من كل الجوانب . لقد رَدَّ اللهُ على المشركين الذين زعموا أن كثرة أموالهم وأولادهم دليل على رضا الله عنهم ، وحُبِّه لهم ، وكرامتهم عليه، وخيَّب رجاءهم، وبيَّن خطأهم ، وكشف جهلهم ، وفضح غرورهم . وجهلُ المشركين وغرورهم يَظهران بوضوح في الآية: ﴿ وقالوا نَحْنُ أكثرُ أموالاً وأولادًا وما نَحْنُ بِمُعَذَّبِين ﴾ [سَبَأ : ٣٥] . اعتبروا أن كثرة أموالهم وأولادهم دليل واضح على حُب الله لهم ورضاه عنهم . وقد كذَّبهم اللهُ ، وبيَّن لهم حقيقة الأمر الذي يَجهلونه ، ولا يُدرِكون أبعاده .

وقال النَّسفي في تفسيره (٣/ ١٢٥) : ((والمعنى : إن هذا الإمداد ليس إلا استدراجًا لهم إلى المعاصي ، وهُم يَحسبونه مُسارعةً لهم في الخيرات ، ومُعالجة بالثواب جَزاءً على حُسن صنيعهم . وهذه الآية حُجَّة على المعتزلة في مسألة الأصلح ، لأنهم يقولون : إن الله لا يفعل بأحد من الخلق إلا ما هو أصْلَح له في الدين. وقد أخبر أن ذلك ليس بخير لهم في الدين ، ولا أصلح. ﴿ بَل لا يَشْعُرُون ﴾ .﴿ بَل ﴾ استدراك لِقَوله: ﴿ أيَحْسَبُونَ ﴾ ، أي أنهم أشباه البهائم، لا شعور لهم حتى يتأمَّلوا في ذلك أنه استدراج ، أو مُسارعة في الخير)) اهـ .

وعن ابن مسعود_ رضي اللهُ عنه_ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ((إن الله قَسَمَ بينكم أخلاقكم ، كما قَسَمَ بينكم أرزاقكم ، وإن الله لَيُعْطِي الدنيا مَن أَحَبَّ وَمَن لا يُحِبُّ ، ولا يُعطي الدِّينَ إلا مَن أَحَبَّ ، فَمَن أعطاه الدِّينَ فقد أحبَّه)) [7].

إن الدنيا يأخذها من يَعمل ، سواءٌ كان مسلمًا أم كافرًا . أمَّا الآخرةُ فلا يأخذها إلا المسلم . وهذا يشير إلى اختلاف الموازين بين الدنيا والآخرة . ولو كانت الدنيا ذات مكانة عند الله تعالى لأعطاها لأنبيائه وحَرَم الكافرين منها، لكن الواقع غَير ذلك. مِمَّا يشير إلى أن محبة الله للعبد تتجلى في هدايته للإسلام لا إعطائه مَتاع الدنيا الزائل . ولو كانت الدنيا ذات قيمة لَمَا رأيتَ الكافرين يتنعَّمون فيها بالطُّول والعَرْض، في حين أن الأنبياء كانوا يَرْعَوْنَ الغنمَ وهُم سادة البشرية .

---

(٧) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٨٥) برقم (٣٦٧١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وإذا جَاءَكَ الذينَ يُؤمِنُونَ بآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُم كَتَبَ رَبُّكُم عَلى نَفْسِهِ الرَّحمةَ أنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُم سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تابَ مِن بَعْدِهِ وأصلحَ فأنَّهُ غَفُورٌ رحيم ﴾[الأنعام : ٥٤]. وإذا جاءكَ يا محمد الذين يُقِرُّون بِوَحدانية الله، ويُصدِّقون بآياته وحُجَجه ، ويَعترفون بِنُبُوَّتك، فَقُل: سلامٌ عليكم. أي: سَلَّمَكم اللهُ في دِينكم وأنفسكم . وهذا تبشيرٌ لهم بالسلامة مِن كُل سُوء. لقد أمره اللهُ أن يبدأهم بالسلام إكرامًا لهم ، ورفعًا لشأنهم ، وتطييبًا لخاطرهم ، وتطهيرًا لقلوبهم ، وإظهارًا لفضلهم ومكانتهم . ووصفُهم بالإيمان : ﴿ يُؤمِنُونَ بآياتِنا ﴾ يدل على شرفهم الرفيع ومَنْزلتهم العالية . هؤلاء المؤمنون هُم الذين نُهِيَ النبيُّ ﷺ عن طَرْدهم . وهُم طائفة من الفقراء الْمُسْتَضْعَفِين . وقد أرشدَ اللهُ رَسولَه ﷺ إلى أهمية ابتدائهم بالسلام تشريفًا لهم، وضرورةِ تطييب خواطرهم ، ومُراعاة مشاعرهم، وتقديرهم، ورَفْع مكانتهم.وفي الآية قَوْلان : الأول ــ إن النبيَّ ﷺ أُمِرَ بالسلام عليهم، والثاني ــ إن النبيَّ ﷺ أُمِرَ بإبلاغهم السلام من الله تعالى . وكِلا الحالتَيْن تُشيران إلى مكانتهم الرفيعة ، وفَضْلهم العظيم ، وشرفهم الجليل . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٣) : ((﴿ الذينَ يُؤمِنُونَ ﴾ هُم الذين يَدْعون رَبَّهم ، وَصَفَهم بالإيمان بالقرآن ، واتِّباع الْحُجَج، بعدما وَصَفَهم بالمواظبة على العبادة، وأمرَه أن يَبدأ بالتسليم ، أو يُبلِّغ سَلامَ الله تعالى إليهم ، ويُبشِّرهم بِسَعة رحمة الله تعالى وفَضْله ، بعد النَّهْي عن طردهم ، إيذانًا بأنهم الجامِعون لفضيلتَي العِلم والعمل. ومَن كان كذلك ينبغي أن يُقرَّب ولا يُطرَد، ويُعَز ولا يُذَل ، ويُبشَّر من الله بالسلامة في الدنيا ، والرحمة في الآخرة)) اهـ . وفي صحيح مسلم (٤/ ١٩٤٧): عن عائذ ابن عمرو أن أبا سُفيان أتى على سلمان وصُهَيب وبلال في نفَر ، فقالوا : واللهِ ما أَخذتْ سُيوفُ اللهِ مِن عُنُق عدو الله مَأْخَذَها. قال: فقال أبو بكر : أتقولون هذا لِشَيخ قُرَيش وسيِّدهم ؟، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبرَه ، فقال: ((يا أبا بكر لَعَلَّكَ أغْضَبْتَهُم، لَئِن كُنتَ أغْضَبْتَهم لقد أغضبتَ رَبَّكَ))، فأتاهم أبو بكر، فقال: يا إخوتاه أغْضَبْتُكم ؟، قالوا : لا ، يَغفر اللهُ لكَ يا أخي .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٦٦) : ((وهذا الإتيان لأبي سُفيان كان وهو كافر في الْهُدنة بعد صُلح الْحُدَيبية)) اهـ .

وفي الحديثِ فضيلةٌ واضحة لسَلمان وأصحابه ، وبيانٌ لمكانتهم السَّامية ، ويُشير إلى ضرورة احترام الضعفاء وتقديرهم، وتطييب خواطرهم ، وعدم جَرْح مشاعرهم .

ويُشير ـ أيضًا ـ إلى ضرورة تعظيم الصالحين ، وإكرامهم ، والابتعاد عن إيذائهم . ولا يخفَى أن إيذاءَ أولياء الله تعالى أمرٌ في غاية الخطورة، إذ إنه يستجلب الغضبَ الإلهيَّ.وفي صحيح البخاري (٥/ ٢٣٨٤): عن أبي هريرةـ رضي الله عنهـ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله قال: مَن عَادى لِي وَلِيًّا ، فقد آذنتُه بالحرب)) . وهذا يدل على وجوب محبَّة أولياء الله تعالى ، وهُم العلماء العامِلون بِعِلْمهم ، المتمسِّكون بطاعة خالقهم في السَّراء والضَّراء . وهذه المحبةُ مُقترِنة بالتواضع.فإن كثيرًا من أولياء الله هُم مِن الفقراء والضعفاء الذين لا يُعبَأ بهم، فينبغي التواضع لهم ، والابتعاد عن احتقارهم والاستهزاء بهم . وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/ ٤٨): ((قَوله تعالى: ﴿ وإذا جَاءَكَ الذينَ يُؤمِنُونَ بآياتِنا ﴾ اختلفوا فِيمَن نزلت على خمسة أقوال : أحدها أنها نزلت في رِجال أَتَوْا رسولَ الله ﷺ ، فقالوا : إنَّا أصَبْنا ذنوبًا عظيمة ، فسكت عنهم رسول الله ﷺ ، فَنَزلت هذه الآية، قاله أنس بن مالك. والثاني أنها نزلت في الذين نهى عن طَرْدهم،فكان النبيُّ ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام، وقال: الحمد لله الذي جعل في أُمَّتي مَن أمَرَني أن أبدأهم بالسلام ، قاله الحسن وعِكرمة . والثالث أنها نزلت في أبي بكر وعُمر وعُثمان وعلي وحمزة وجعفر وعثمان بن مَظْعون وأبي عُبَيدة ومصعب بن عمير وسالم وأبي سَلَمة والأرقم بن أبي الأرقم وعمَّار وبلال ، قاله عطاء . والرابع أن عُمر بن الخطاب كان أشارَ على رسول الله ﷺ بتأخير الفقراء ، استمالةً للرؤساء إلى الإسلام،فلمَّا نزلت: ﴿ ولا تَطردِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهم ﴾، جاء عُمر يعتذر مِن مَقالته ويستغفر مِنها ، فَنَزلت فيه هذه الآية ، قاله ابن السائب . والخامس أنها نزلت مُبشِّرة بإسلام عُمر بن الخطاب ، فلمَّا جاء وأسلمَ تلاها عليه رسول الله ﷺ،حكاه أبو سليمان الدمشقي.فأمَّا قَوله تعالى : ﴿ يُؤمِنُونَ بآياتِنا ﴾ ، فمعناه : يُصدِّقون بِحُجَجنا وبراهيننا . قَوله تعالى : ﴿ فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُم ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنه أُمِرَ بالسلام عليهم تشريفًا لهم ، وقد ذَكَرْناه عن الحسن وعِكرمة . والثاني أنه أُمِرَ بإبلاغ السلام إليهم عن الله تعالى ، قاله ابن زيد . قال الزَّجاج : ومعنى السلام دُعاء للإنسان بأن يَسْلَم مِن الآفات)) اهـ . ﴿ كَتَبَ رَبُّكُم عَلى نَفْسِهِ الرَّحمةَ ﴾ . ألزمَ اللهُ ذاته المقدَّسةَ الرحمةَ ، وأوجبها على نفْسه، تفضُّلاً مِنه على خَلْقه، وإحسانًا إليهم . ﴿ أنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُم سُوءًا بِجَهَالَةٍ ﴾ أنه مَن ارتكبَ ذنبًا بلا قصد ، واقترفَ إثْمًا بلا تَعَمُّد ، ولَم يُدرِك المفاسد المترتِّبة على ذنبه وإثمه، وجَهِلَ مِقدار الثواب الذي فاته ، وما استحقه من العقاب والعذاب في معصيته.وفي تفسير القرطبي (٦/ ٣٩٧) : ((قال مجاهد : لا يَعلم حلالاً مِن حرام ، ومِن جَهالته رَكِبَ الأمرَ)) اهـ .

﴿ ثُمَّ تابَ مِن بَعْدِهِ وأصلحَ فأنَّهُ غَفُورٌ رحيم ﴾ .

ثُمَّ تابَ مِن بَعْد ذَنبه وخطيئته ، وعمل الطاعات ، وأصلحَ حالَه وعملَه ، فإن الله يَغفِر له ، ويتجاوز عنه . وهذا وَعْدٌ إلهيٌّ ثابت ومُؤَكَّد بالمغفرة والرحمة لمن تاب وأصلح. واللهُ يُبشِّرهم بِسَعة رحمته وقَبوله لتوبتهم.وهذه البِشارةُ الإلهية تدل على رحمة الله بِخَلْقه،وأن رحمته أكبر من كل شيء.وقال أبو السعود في تفسيره (٣/ ١٤٠):((قَوله تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُم عَلى نَفْسِهِ الرَّحمةَ ﴾ أي:قضاها وأوجبها على ذاته المقدَّسة بطريق التَّفَضُّل والإحسان بالذات لا بتوسط شيء ما أصلاً. تبشير لهم بِسَعَة رحمته تعالى، وبِنَيْل المطالب إثر تبشيرهم بالسَّلامة عن المكاره ، وقَبوله التَّوبة منهم. وفي التَّعَرُّض لعنوان الرُّبوبية مع الإضافة إلى ضميرهم، إظهار اللطف بهم والإشعار بِعِلَّة الْحُكم. وقَوله تعالى : ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُم سُوءًا بِجَهَالَةٍ ﴾ أي : عَمِلَه وهو جاهل بحقيقة ما يَتبعه مِن المضار . والتَّقييد بذلك للإيذان بأن المؤمن لا يُبَاشِر ما يَعْلَم أنه يُؤدِّي إلى الضَّرر)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ للذينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تابوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وأصْلَحُوا إنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِها لَغَفُورٌ رحيم ﴾[النَّحْل: ١١٩]. ثُمَّ إن رَبَّكَ يا محمد للذين ارتكبوا الذنوب بِجَهْل، واقترفوا المعاصي بِطَيْش وسَفَه ، ولَم يُدرِكوا الآثار السلبية للذنوب والمعاصي ، وما فاتهم من الثواب ، وما استحقوه مِن العِقاب ، لغلبة الشَّهوة ولَذَّةِ الإثم الخادعة ، ثُمَّ أقلعوا عن ذنوبهم ، وندموا ، ورجعوا إلى الله بصدق وإخلاص ، وأصلحوا حالهم وعملهم بعد سُقوطهم في الذنب والمعصية، واستقاموا على التَّوبة، وعملوا الطاعات، وابتعدوا عن المعاصي. إنه تعالى كثير الغفران، وعظيم الرحمة . والآيةُ رحمة للناس كُلِّهم ، وتشمل الكافرين وعُصاة المؤمنين ، وترغيب وتبشير لهم ، وفتح لباب التَّوبة . لقد تكرَّمَ اللهُ على عباده ، وتفضَّلَ عليهم بأن فتح لهم باب التوبة، ووعدهم بأن يَتوب على مَن تاب مِنهم. ووعدُ الله حق وصِدق، لا يتخلَّف ، وهو واقعٌ لا مَحَالة .

وقال أبو السعود في تفسيره (٥/ ١٤٨) : ((﴿ ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ للذينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ ، أي: بسبب جَهَالة أو مُلتبسين بها لِيَعُمَّ الجهلَ بالله وبعقابه وعدم التدبر في العواقب لغلبة الشَّهوة. والسُّوء يَعُمُّ الافتراءَ على الله تعالى وغَيْرَه ﴿ ثُمَّ تابوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي : مِن بَعْد ما عملوا ما عملوا ، والتصريح به مع دَلالة ﴿ ثُمَّ ﴾ عليه للتأكيد والمبالغة ، ﴿ وأصْلَحُوا ﴾ أي : أصلحوا أعمالهم ، أو دخلوا في الصلاح ﴿ إنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِها ﴾ مِن بَعْد التَّوبة ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لذلك السُّوء ﴿ رحيم ﴾ يُثيب على طاعته تَرْكًا وفِعْلاً.وتكرير قَوله تعالى:﴿ إنَّ رَبَّكَ﴾ لتأكيد الوعد وإظهار كمال العناية بإنجازه . والتَّعَرُّض لوصف الرُّبوبية مع الإضافة إلى ضَميره ﷺ مع ظهور الأثر في التائبين، للإيماء إلى أن إفاضة آثار الرُّبوبية من المغفرة والرحمة عليهم بِتَوَسُّطهﷺوَكَوْنهم من أتباعه)).

فِهْرِس

مقدمة.....5

الفصل الأول : الشِّرك والمشركون.....7

١_ عبادة غَير الله تعالى [7] ٢ _ النَّهْي عن الشِّرك والوعيد عليه [13] ٣ _ تَنْزيه الله عن الشريك [25] ٤_ الشُّبَه التي يَحْتَجُّون بها [35] ٥_ براءة اللهِ ورسولِه من المشركين [40] ٦_ أصنامهم وتَبكيتهم على عبادتها [43] ٧_ الإعراض عن المشركين المستهزئين [48]

الفصل الثاني : الكافرون.....55

١_ صِفاتهم[55] ٢_ تشبيههم بالموتى والصُّم والبُكْم والعُمْي[82] ٣_ الكُفر ظُلُمات [93] ٤_المقابَلة بين المؤمن والكافر[95] ٥_ افتراؤهم على الله وتكذيبهم ومجادلتهم بآيات الله [100] ٦_ إعراضهم عن آيات الله [104] ٧_ الجاحدون من الكفار [109] ٨_ تَعَنُّتهم واستعجالهم العذاب[112] ٩_عداوتهم[125] ١٠_تَخَلِّي المتبوعين عن الأتباع[127] ١١_امتناعهم عن الإيمان لا يَنفعهم[133] ١٢_مُتابَعة الكفر[135] ١٣_صَدُّهم عن سبيل الله [141] ١٤_ تحدِّي الكفار [143] ١٥_ النَّهْي عن مُوالاتهم [153] ١٦_ النَّهْي عن نصرهم [163] ١٧_ وجوب الإعراض عنهم[164] ١٨_ التَّشَدُّد معهم [166] ١٩_ التَّهَكُّم بالكفار [170] ٢٠_ عملهم لا ينفعهم يوم القيامة[176] ٢١ _ إلقاء الرُّعب في قلوبهم [186] ٢٢_ وعيدهم[190] ٢٣_ندمهم[196] ٢٤_نتيجة عملهم[201] ٢٥_جزاء مَكْرهم [205] ٢٦_ مِثال الكُفر (امرأة نُوح وامرأة لوط) [212] ٢٧ _ مِثال مَن لا يستجيب لله [215]

الفصل الثالث : جزاء المرتدين.....221

الفصل الرابع : وعيد المفسدين والمجرمين والفاسقين.....227

الفصل الخامس : الكافرون الْمُنكِرون ليوم البَعْث.....233

الفصل السادس : الْمُكذِّبون الظالمون.....237

١_ صِفاتهم [237] ٢ _ قساوة قلوبهم [248]

الفصل السابع : الجاهلون بالدِّين.....252

فِهْرِس.....255

صدر للمؤلف.....256

صدر للمؤلف

الدراسات الدينية :

١_ حقيقة القرآن

٢_ أركان الإسلام

٣_ النبيُّ محمد

٤_ دراسات منهجية في القرآن والسُّنة

٥_ منهج الكافرين في القرآن

٦_ الإنسان والعلاقات الاجتماعية

٧_ بحوث في الفكر الإسلامي

٨_ التناقض في التوراة والإنجيل

٩_ صورة اليهود في القرآن والسُّنة والإنجيل

١٠_ عقائد العرب في الجاهلية

الأدب والثقافة والفكر :

١١_ فلسفة المعلقات العشر

١٢_ النظام الاجتماعي في القصيدة

(المأزق الاجتماعي للثقافة . كلام في فلسفة الشعر)

١٣_ صرخة الأزمنة (سِفر الاعتراف)

١٤_ مشكلات الحضارة الأمريكية

١٥_ حياة الأدباء والفلاسفة العالميين

الشِّعر :

١٦_ الأعمال الشعرية الكاملة (مجلد واحد)

الرواية :

١٧_ أشباح الميناء المهجور

١٨_ جبل النظيف